

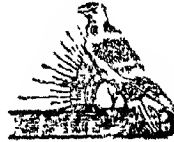
بَلَدُ الْإِسْلَامِ شَرِيفٌ

السيرة النبوية في العصر الحديث

تأليف

محمّد بن مؤنس

درجة ماجستير في التاريخ بمرتبة الشرف



يطلب من المكتبة التجارية الكبرى بشارع محمد علي بمصر
لصاحبها : مصطفى محمد

مطبعة نجّارني بالمقاهرة

تليفون ٥٥٤٨٠

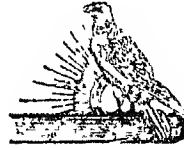
بِجَنَّةِ الْجَامِعِينَ لِلشَّرِّ الْعِزَّةِ

الشيء الأسلاك في العصر الحديث

تأليف

حسين مؤنس

درجة ماجستير في التاريخ بمرتبة الشرف



يطلب من المكتبة التجارية الكبرى بشارع محمد علي بـ مصر
لصاحبها : مصطفى محمد

مطبعة مجازي بالقاهرة

تليفون ٥٥٤٨٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الطبعة الأولى : مايو سنة ١٩٣٥

الطبعة الثانية : مارس سنة ١٩٣٨

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

مقدمة

بقلم المؤرخ الجليل الأستاذ محمد شفيق غربال
أستاذ التاريخ الحديث بكلية الآداب بالقاهرة

في القرن العاشر الهجري أو السادس عشر الميلادي بلغ ملك السلاطين من آل عثمان ما قدّر له من كمال النمو، وأصبح أهل البلقان من يونان ورومانيين وبلغار وصقالبة وألبانيين من رعايا الدولة العثمانية ، ولم يقف اتساع الدولة في أوروبا عند ذلك الحد ، فقد ملك العثمانيون بلاد المجر ووصلت جيوشهم عند فينا ، ولولا فشلها في الاستيلاء على هذه المدينة لكان لتاريخ أوروبا الوسطى شأن آخر ، أما في آسيا فقد تم في ذلك العصر اندماج الإمارات التركية الاناضولية في العالم العثماني ، وهي الإمارات التي كشف لنا ابن بطوطة في رحلته عن جوانب طريفة من عيشة أهلها ، وفي آسيا أيضاً كان الكفاح الحربي بين العثمانيين وخصومهم من الصفويين والمماليك ، وقد دارت الدائرة على المماليك فتمزق ملكهم وامتد حكم سلاطين القسطنطينية إلى الشام ومصر وورثوا ما كان للغوري وأسلافه من نفوذ في الحجاز وفي ساحلي البحر الأحمر اليمني والافريقي ومن حقوق وواجبات

في الأرض المقدسة . أما الصفويون فكان أمرهم على غير ذلك ، فقد استطاع اسمعيل الصفوى وخلفاؤه أن يثبتوا للعثمانيين - ولم يبقا بلوهم بحد السلاح فقط كما فعل الغورى وطومان باى - بل واجهوهم بنهضة قومية دينية كانت أمضى من السيف ، حقيقة استطاع خلفاء سليم الأول أن يخضعوا الجزيرة والعراق ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يحولوا دون قيام إيران الحديثة .

ويختلف المؤرخون في الكشف عن سر هذا الفتح العظيم وعما أدى إلى إقامة هذه الدولة الإسلامية الجديدة على انقاض دول الممالك والروم والصقالبة وما خلفته إغارات التتار والصليبيين من مختلف الممالك والأمارات ، وعما دعا السلاطين الواحد بعد الآخر إلى الامعان في شن الحروب في البر والبحر ، في أوروبا وأفريقية وآسيا . والداعى إلى هذا كله - فيما أرى - هو نصرة الاسلام ونشر بنوده في الأرضين والذب عن بيضته : لنصرة الاسلام نشأت أماره عثمان ولأجلها خلق أرخان أداة النصر - العسكر الجديد - ، وفي سبيلها استشهد مراد في ساحة قوصوة وفتح محمد القسطنطينية وتطلع إلى كرسي المسيحية الآخر - روميه - ولصون الاسلام سلك جيش سليم أوعر المسالك - الجبال إلى تبريز والصحراء إلى القاهرة - وحفظ هذا التراث أنفق سليمان أحسن العمر في ميادين القتال ، وحال دون امتداد النفوذ الأوروبي إلى سواحل البحر المتوسط وجزره واعترض تقدم الأوروبيين في اتجاه البحار العربية . فلا عجب إذن أن أصبح العالم الاسلامى والدولة العثمانية في نظر الأوروبيين اسمين لشىء واحد .

وليس من شك في أن ذلك العالم الاسلامى قد تطور بموجب الفتح العثمانى تطوراً جديداً ، كما أنه ليس من شك في أن ذلك الفتح يبدأ عهداً جديداً في تاريخ أمم أوروبا الشرقية ، ويحق للمؤرخ أن يجعل منه أساس التاريخ الحديث للشرق العربى وللشرق الأوروبى - وأما ما ذهب إليه بعض الباحثين من الغرض من شأن هذا الحادث فأمر لا يقوم على نظر قويم : فالقول مثلاً بأن المصريين

- ه -

وغيرهم قد خضعوا لحكام من الترك قبل خضوعهم للترك العثمانيين ، وأن كل ماجرى في القرن العاشر هو استبدال ترك بترك يغفل فروقا جوهرية بين النوعين من حكم الترك ، ولا يستطيع أى مستقص لأحوال المصريين أو العراقيين إلا أن يدرك مقدار اختلاف طبيعة الحكم السلاجوقي في بغداد والخلافة العباسية قائمة ، والحكم المملوكى في القاهرة ، وتقاليد الفاطميين والايوبيين مستمرة ، عن حكم السلاطين العثمانيين للمصريين وللعراقيين على يد نوابهم من الباشوات ، تؤيد هؤلاء أو تعرقلهم جماعات من أجنالاف الجند وأخلاط الناس . وأين هؤلاء الباشوات من سلاطين بغداد وسلاطين القاهرة ؟ وأين ادارتهم العابثة من تلك الدواوين العربية اللسان الجامعة لكل ذى بيان ولكل صاحب فضل ؟ والحق ان العرب شقوا بالعثمانيين والعثمانيين شقوا بالعرب شقاء يدركه كل من قرأ تاريخ الشام والعراق واليمن في القرون الأربعة الأخيرة ؛ ومثل هذا يقال (وأولى به أن يقال) عن خضوع الصقالبة واليونان لحكومة غربية عنهم في كل شىء .

وذلك أن الأمم الشرقية - الأوروبية والعربية - التى خضعت لتلك الحكومة خيم عليها نوع من الركود زهاء ثلاثة قرون ، وأنها تعرضت بسبب هذا الخضوع لأحداث واحدة أكسبتها لونا من الوحدة التاريخية هى الظاهرة فى هذا الكتاب .

ولا يحق لنا أن ننسب هذا الركود لكون الحكام العثمانيين من شعب يميل إلى المحافظة بسليقته ، فالعثمانيون لم يكونوا من شعب واحد ، ولم تكن العثمانية إلا دلالة على الانتماء لطائفة الحاكمن . هذا إلى أن نظم العثمانيين الأولى وما اختطه سلاطينهم الأول لشئون الحرب والسياسة كان على جانب عظيم من المرونة والمقدرة .

قد يرجع الركود إلى أن القوة العثمانية حالت بلا شك دون اتصال أمم الدولة بالحضارات الأجنبية عموما وبالحضارة الأوروبية الناهضة خصوصا .

- و -

ولكن الباحث المنصف لا يستطيع أن يسلم بأن الأوروبيين في القرن السادس عشر وما تلاه من الأزمنة كانوا على استعداد لأن يقدموا للشرقيين المسيحيين والمسلمين من رعايا السلطان ثمرات نهوضهم العلمي هدية خالصة ، كما أن الباحث لا يستطيع أن يجمل أن تقدم الحضارة الأوروبية كان في أغلب الأحيان اسماً مرادفاً لما كانت تقوم به الأسرار الماسكة في أوروبا من الحروب في سبيل المجد ، ويشدأزر الملوك - ولكن في سبيل المجد الأعلى - رجال الدين وفي سبيل الاستقلال رجال المال ، أما والأمر كذلك فلا سبيل إلى القول بأن الشرقي العثماني كان يستطيع الاستفادة من النهضة الأوروبية دون أن ينزل عن رجولته وحرية .

والصحيح في مسألة الركود هو أن الدولة العثمانية تولت أمر أمم كانت على نوع من الاعياء لم يكن الحسك العثماني قادرا على أن يزيله عنها . فالعثمانيون كانوا قوماً يأخذون ولا يعطون ، تشهد بذلك خططهم وفنهم وآدابهم ، فلم يكن منهم إلا أن نظموا ما وقع تحت سلطانهم في ملك عريض ، وعملوا على ألا يتطرق اليه تغيير وتعديل ، شأنهم في هذا شأن الدول الكبرى المتعددة الأجناس والأديان تتهددها دول كبرى أخرى معادية .

ولم يقم الملك العثماني إذن على فكرة سياسية أو اجتماعية جديدة ، ولم يفتح لرعاياه العديدين المختلفين باباً لتنظيم علاقاتهم المختلفة على غير ما عرفوا من المبادئ . فضاعت عليهم بذلك الاستفادة مما كان لهذا الملك من موقع جغرافي فريد في نوعه ، ومن ميزات اشتماله على أمم لها مالها من نصيب وافر في تقدم الانسانية ، ولا أدل على ما أصاب أمم الدولة العثمانية من السوء أن أصبح تخلصها من حكم الدولة شرط خروجها من شقائها وسلوكها طريق العزة والرفاهية .

وتاريخ هذا التخلص هو تاريخ الشرق الأوروبي والشرق العربي في القرنين الحالى والسابق ، وقد سبقهما عصر تعرضت فيه أمم الشرقيين لآفات

— ز —

واحدة من سوء الحكم والاختلال والاضطراب وعبث الأقوياء بالمستضعفين
وكان مصير هذه الأمم عبارته عن « مسألة » هي المسألة الشرقية ! واكتسبت
بذلك وحدة هي التي عبر عنها شوقي في قوله

* ولسكن كلنا في الهم شرق *

ولم تتحقق لنا وحدة غير هذه ، فإن النهضة القومية والتدخل الأوربي
وتحول العثمانية إلى عصبية تركية منعت تحول الوحدة من وحدة في الهم -
حسب قول شوقي - إلى وحدة أساسها المساواة وتبادل المنافع والاحتفاظ
بمقومات الحياة القومية مع الاعتراف بما للغير من حقوق
هذا شرح بمجمل لتطور تاريخ أمم الشرقيين في العصر الحديث وقد تولى
حسين مؤنس - من خيرة أبناء مدرسة التاريخ بكلية الآداب - تفصيل عرضه
في هذا الكتاب ، وقد صرف في وصفه وترتيب مسائله الشيء الكثير من
الفكر والدرس ، ويسرني أكبر السرور أن أنهو بجهد وأن أقرر أن الكتاب
جدير بعناية المؤرخين من أبناء الأمم العربية

شفيق غزال

كلية الآداب

ابريل سنة ١٩٣٨

موضوعات الكتاب

١ — د
ح — ن
ق — ر

مقدمة
فهرس
تمهيد

القسم الأول

مقدمات العصر الحديث

ص
٩ ١

١ — الشرق الأدنى :

ظروفه الجغرافية وأثرها في تاريخه ١-٣ أهمية تاريخه القديم - ٤ ، الوحدة التاريخية لشعوب الشرق الأدنى - ٥ ، وحدة الحضارة - ٦ ، سكان الشرق الأدنى - ٧ ، مقامهم في الحضارة - ٨

١١ ٩

ب — الاسلام وتاريخ الشرق الأدنى :

طبيعة الاسلام - الوطن الاسلامي - ٩ ، الشرق الاسلامي - ١٠ ، الشرق الاسلامي يحى الحضارة من غزوات البدو وأثر ذلك في تاريخه - ١١ .

١٥ ١١

ح — الوحدات المتميزة داخل المجموعة الاسلامية

اهمية دراسة مميزات كل وحدة - ١١ ، وحدة الحضارة الاسلامية - ١٢ ، القوميات الاسلامية ١٣ - ١٥ .

٢٠ ١٥

د — ظهور العناصر التركية على مسرح السياسة الاسلامية

الفتوح الاسلامية وطبيعتها - ١٥ ، دائرة العمران - ١٦ ، مناقشة نظرية ابن خلدون ١٧ ، اضمحلال الدولة العباسية - ١٧ ، أصل العناصر التركية وتدفع الاتراك الى الشرق الأدنى وطهورهم على مسرح السياسة - ١٨ ، ظهور الدول التركية - الدولة السامانية . السلاجقة ١٩ - نهوض الاتراك العثمانيين - ٢٠

٣٢ ٢٠

ه — العالم الاسلامي قبيل الفتح العثماني

أولا : فارس : نهضة الشعب الفارسي في ظل الاسلام - ٢١ نهضة فارس الفكرية خلال لقرون الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر - ٢٢ ، نهضة فارس السياسية والدينية في ظل الصفويين - ٢٣ ، اسماعيل الصفوي وجهوده - ٢٣ ، بدء العداء مع تركيا ٢٤

ط —

١ ٤ أوروبا تسعى لمحاكمة الصفويين ومعاونتهم - ٢٤ ٤ الشاه عباس الأكبر - ٢٥ - النهضة
الشيوعية - طرد الاتراك من فارس وبدء التاريخ الفارسي الحديث ٢٦
ثانيا : العراق : اضمحلاله عقب غارة الممولى ٢٦ ٤ فتح الصفويين له وبهبة الشيعة
في العراق ٢٧ ٤ الفتح العثماني ٢٧ ٤ العراق ولاية عثمانية ٢٨ .

ثالثا : مصر : اضمحلال مصر عقب الحروب الصليبية ٢٨ ٤ دولة المماليك البرجية
٢٩ ، المماليك والممولى . اعادة الخلافة . صنفهم البلاد . ٣٠ ٤ المماليك الشراكسة . التجارة
الهندية ٣٠ ٤ الفتح العثماني ٣١ - ٤

رابعا : الشام : اضمحلال الشام عقب الحروب الصليبية - تدفق القبائل العربية ..
الدروز والموارنة . موقف المماليك منهم . بدء العلاقات التجارية مع أوروبا . نهضة بيروت
انتعاش الموارنة . بدء العلاقات بينهم وبين أوروبا . اضمحلال داخل البلاد ٣١ و ٣٢

و — الدولة العثمانية
٣٢ ٣٤
الانراك يعيدون وحدة العالم الاسلامي ٣٢ ٤ النظم العثمانية ٣٣ ٤ مواطن الضعف ٣٤
اضمحلال الشرق الاسلامي ٣٥

ز — نهضة أوروبا
٣٥ ٤١
مقارنة بين الشرق والغرب ابان النهضة - ٣٥ - طيبة النهضة الأوروبية - التقدم العكري
والعلمي - ٣٦ ٤ النهضة والروح الصليبية - ٣٧ ٤ عودة الصراع بين الشرق والغرب - ٣٨ ٤
انتقال الصراع الى البحار - ٣٩ ٤ نهضة الامم البحرية - ٤٠

ح — حركة الكشف الجغرافي
٤١ ٤٥
طلائع التقدم البحري ٤٢ ٤ التقدم البرتغالي - ٤٣ ٤ موقعة ديو ومحاولات الاتراك لرد
البرتغاليين .. ٤٤

ط — النمسا وتركيا
٤٥ ٤٩
التقدم العثماني في أوروبا .. ٤٥ ٤ بدء العلاقات بين فرنسا والدولة العثمانية - البندقية
٤٦ - الكنيسة ودعوتها لصد الاتراك - ٤٧ ٤ سان جوثارد ٤٧ - معاهدة فاسفار . ٤٨
صلح كارلوفتس . ٤٩ .

ي — آسيا الوسطى
٤٩ ٥٤
نبوض روسيا وفتح تركستان . ٤٩ ٤ التقدم الروسي نحو فارس - ٥٠ ٤ النزاع بين
روسيا وتركيا - ٥١ ٤ نهضة الافغان ومير محمد - ٥٢ ٤ أوروبا تغزو الهند اقتصاديا - ٥٣
بلاسي . ٥٤

— ٥ —

- ٥٩ ٥٤ ك — مصر
 بدء ظهور القومية المصرية - ٥٥ ، الممالك - ٥٧ و هزيمتهم أمام الفرنسيين ٥٨ .
 موقعة امبابية ٥٩
- ٦٣ ٥٩ ل — اثر اللقاء الاول في نفوس المسلمين
 فزع الشعوب الشرقية - ٦٠ ، ظهور قوة القناصل - ٦١ ، هجرة الاوروبيين الى بلاد
 الشرق الاسلام - ٦٢ للهوى السريع - القومية والعصية ٦٣ .

القسم الثانى

نشأة المسألة الشرقية

- ٧٣ ٦٥ ا — المطامع الفرنسية في بلاد الشرق الادنى
 الاسباب الحقيقية لخوف المسلمين من أوروبا ٦٧ ، نزاع دول أوروبا على بلاد الشرق
 الادنى ٦٩ ، تفوق فرنسا - المركز فيلثيف ٧٠ ، الامتيازات ٧١ ، نابليون ومشاريعه
 الشرقية ٧٢ .
- ٨٠ ٧٣ ب — الحملة الفرنسية على مصر
 مطامع فرنسا في مصر - ٧٣ ، الرحالون الفرنسيون - ٧٤ ، العلاقات بين فرنسا وتركيا
 قبيل الحملة - ٧٦ ، اويير دوبوايه - ٧٧ ، التمكيز في انفاذ الحملة - ٧٨ ، موقف انجلترا
 منها - ٧٩ ، نزول الحملة في مصر ٨٠
- ٩٣ ٨٠ ج — الفرنسيون في مصر
 جهودهم العلمية والزراعية والهندسية - ٨١ ، كتاب وصف مصر - ٨٢ ، حملة نابليون
 على الشام - ٨٣ ، رحيل نابليون - ٨٤ ، مفاوضات اتفاق العريش - ٨٤ ، موقعة عين
 شمس - ٨٦ ، مينو وخروج الفرنسيين من مصر - ٨٧ ، آثار الحملة : بدء عهد جديد
 لمصر - ٨٩
- ١٠٠ ٩٤ د — مصر من خروج الفرنسيين إلى نهوض محمد على
 اضمحلال البلاد - ٩٥ ، ظهور المصريين على مسرح السياسة - ٩٦ ، رأس المصريين من
 الاتراك - ٩٧ ، نهوض فكرة الاستقلال - ٩٨ ، العلماء ونفوذهم السياسى - ١٠٠

— ل —

ه — السيد عمر مكرم ١٠٠ — ١٠٨

نشأته وشخصيته - أفكاره وميوله - ١٠٢ ، موقفه من الفرنسيين ١٠٣ ، هل تأثر تفكير السيد عمر بالا راء الفرنسية - ١٠٤ ، السيد عمر والاتراك - ١٠٥ ، السيد عمر يتزعم النهضة المصرية ١٠٨

٤

و — تنازع البقاء في مصر ١٠٨ — ١٢٧

الاتراك - ١٠٩ ، الماليك ١١٠ ، الانجليز - ١١١ ، الفرنسيون ١١٢ ، البرديسي ١١٣ ، تفاهم الحالة وشعور عمر بضرورة العمل - ١١٥ ، اتحاد عمر ومحمد علي - ١١٦ ، حركات محمد علي الاولى - ١١٨ ، هل لفرنسا يد في ولاية محمد علي ١٢٥

ز — الثورة المصرية ١٢٨ — ١٤٦

طبعة الثورة المصرية - ١٢٨ ، حالة المصريين المعنوية - ١٢٩ ، زعامة السيد عمر مكرم - ١٣٠ ، مقدمات للثورة المصرية - ١٣١ ، هزيمة الماليك - ١٣٢ ، تولية محمد علي - ١٣٤ ، دفاع المصريين عن محمد علي - ١٣٥ ، عمر يقود الثورة - ١٣٦ ، حاتمة الماليك - ١٤١ ، محمد علي ينتج المصريين من الميدان - ١٤٢ ، نفى عمر مكرم - ١٤٣ ، محمد علي والمصريون - ١٤٦

ح — محمد علي ينهض بمصر ١٤٦ — ١٦٠

شخصية محمد علي - ١٤٦ ، علاقته بفرنسا - ١٤٧ ، وسائله وغاياته - ١٤٨ ، أفراد العمل - ١٤٩ ، موقف المصريين من نهضة محمد علي - ١٥١ ، طبعة اصلاحات محمد علي - ١٥٣ ، الانجليز يتخوفونه ويعملون للقضاء عليه ١٥٦ ، موقف الفرنسيين منه - ١٥٨ ، محمد علي والدولة العلية - ١٥٩

ط — محمد علي ومراميه السياسية ١٦٠ — ١٧٣

هل كان مجددا غالبا في التجديد - ١٦١ ، محمد علي ورعيته ١٦٣ ، اسرعه في العمل - ١٦٥ ، اهتمامه بالجيش - ١٦٦ ، نظريته في الاستقلال الاقتصادي للدولة - ١٦٦ ، دراسة تحليلية لمراميه السياسية ورغبته في إنشاء دولة اسلامية ١٦٧ ، ١٧٢ - أسباب فشله - ١٧٣

ي — الاتراك يحاولون النهوض ١٧٣ — ١٧٨

أثر الهجوم الاوروبي في نفوس الاتراك - ١٧٣ ، احساس اوربا بقرب انهيار الدولة العثمانية - ١٧٤ ، نشأة المسألة الشرقية - ١٧٤ ، نابليون والمسألة الشرقية - ١٧٥ ، بدء الإصلاح في تركيا - ١٧٧ ، موجز اجمالى لمحاولة الإصلاح وفشلها - ١٧٨

ك — لمحة عن بقية البلاد الاسلامية في اوائل القرن التاسع عشر ١٧٨ — ١٨١

فارس والروسيا - ١٧٩ ، الشاه فتح علي - ١٧٩ ، الفرس يحاولون الاستمارة

— ل —

ص

بالفرنسيين — ١٨٠ ٤ معاهدة وكيتشين — الشعوب الاسلامية تحاول الخلاص — الثورة
على الدولة العثمانية ١٨١

القسم الثالث

تفكك الوحدة الاسلامية

١ — الثورة على الدولة العثمانية

١٨١—١٨٨

سخط الشعوب الاسلامية على حكوماتها ١٨٥ - الحضارة الاوروبية تساعد على ظهور
ضعف الحكومات ١٨٦ - بدء الثورات الدينية والسياسية والاجتماعية ١٨٧ .

ب — الوهابيون . ثورة على النظام الديني للدولة العثمانية

١٨٨ - ١٩٨

مقدمات الحركة الوهابية - ابن تيمية ١٨٨ - محمد بن عبد الوهاب ١٩٠ - موضه وطهور
قوته ١٩١ - أهمية بلاد العرب للدولة العثمانية ١٩٢ - الدولة تستعين بمحمد علي ١٩٣ -
النتائج السياسية لفتح المصريين لبلاد العرب ١٩٥ - التفات الانجليز لمحوالين وبقية الامارات
العربية الساحلية ١٩٨ .

ج — فتح السودان

١٩٨—٢٠٣

أسبابه ١٩٨ - محاولة تحضير البلاد ٢٠٠ - محاولة إدخال أساليب الزراعة المصرية ٢٠١ -
فتح باب السودان للعالم وتنظيمه اداريا وتحديد ٢٠٢ ٤ امتداد حدود مصر إلى أعلى النيل ٢٠٣

د — ثورات البلقان

٢٠٣—٢١٥

شعوب البلقان ٢٠٤ - سيريل لوكايس ٢٠٥ - الشاعر كوريس ٢٠٦ - مبادئ الثورة
اليونانية - اصع روسيا فيها ٢٠٧ - المذابح ٢٠٨ - تدخل النمسا ٢٠٩ - تدخل مصر ٢٠٩ -
تدخل انجلترا ٢١١ - سعى روسيا وانجلترا لاستغلال اليونان - نوارين ٢١٢ - انسحاب
مصر من بلاد اليونان ٢١٣ - موقف تركيا بعد انسحاب مصر ٢١٤ - معاهدة ادرنه ٢١٥

هـ — الصراع بين مصر وتركيا

٢١٥—٢٤٠

حقيقة شعور محمد علي نحو الدولة العثمانية ٢١٥ - بدء النزاع ٢١٧ - موقف الدول :
انجلترا وفرنسا ٢١٨ - حال الشام قبل الفتح المصري ٢٢٠ - روسيا تتدخل وتحول النزاع
الى مسألة دولية ٢٢٣ - بلمرستون ومحمد علي ٢٢٤ - باترك كامبل ٢٢٥ - مركز فرنسا
في اللبانت ٢٢٦ - صالح كوتاهية ٢٢٨ - معاهدة هنكارسكس ٢٣٩ - انجلترا تعمل للقضاء
على محمد علي - ينسئى ٢٣١ - انجلترا تثير حرب الشام الثانية - ٢٣٢ فرنسا تنصير لمحمد علي ٢٣٣
نابير في مياه الشام ٢٣٦ - ثورة الشام - تراجع فرنسا ٢٣٧ - فرما ٢٣٢ مايو سنة ١٨٤١ - ٢٣٨

- م -

ص
٢٤٠ — ٢٦٤

و - حركة الاصلاح في تركيا

مقدمات الاصلاح ٢٤١ — حركة كتنشيك ٢٤٢ — التفكير في ادخال الانظمة الاوروبية
٢٤٣ — العقبات التي حالت بين السلطان والاصلاح ٢٤٦ — سليم الثالث ومحاولاته ٢٤٧ —
محمود الثاني وجهوده ٢٥٠ — رشيد باشا ٢٥٣ — خط مشرق خواجه ٢٥٣ — السلطان عبد المجيد -
رضاشا ٢٥٥ — انتصار الجمعية ٢٥٦ — اسباب فشل حركة الاصلاح ٢٥٩ — موقف -
الدول الاوروبية من الاصلاح في تركيا ٢٦١ — عزل السلطان عبد المجيد ٢٦٢ — السلطان
عبد العزيز ٢٦٣ - العودة الى القديم ٢٦٤

٢٦٤ — ٢٨٥

ز - الشام

نظام الشام الادارى ٢٦٥ - اثر الاتصال بأوروبا ٢٦٧ - اتجاه الدول نحو الشام ونهضة
عكا ٢٦٨ — عبد الله الجزار ٢٦٩ — لبنان ٢٧١ — فرنسا والموارث ٢٧٢ — أمراء الدروز
٢٧٢ — الأمير بشير شهاب — الدولة العثمانية توقع الفتنة بين الدروز والموارث ٢٧٣ — مقدمات
حرب الشام الثانية ٢٧٤ — الفتح المصرى للشام وحكومة مصر فيه ٢٧٥ — الانجليز بشرون
أهل الشام على حكومة مصر ٢٧٦ — ثورة الشام ٢٧٧ — فكرة الدولة العربية ٢٧٨ — زودة
الشام للاتراك ٢٧٩ — انجلترا توغل اقتصاديا ٢٨٠ — فرنسا ومطامعها الدينية ٢٨١ —
مطامع الروس ٢٨١ - تطور الامتيازات الحقوقية ٢٨٢ — اسلحة انشروطية بروتستنتيه
٢٨٣ — الدول الأوروبية تحتل الشام معنوبا واقتصاديا ٢٨٤

٢٨٥ — ٢٨٩

ح - حرب القرم

اسبابها ٢٨٥ — اصبح انجلترا في اثارها — بدء الحرب ٢٨٦ — سبب قبول ٢٨٦ —
دور الاتراك في الحرب ٢٨٧ — دور الانجليز والفرنسيين ٢٨٨ — مؤتمر باريس
سنة ١٨٥٦ — فرصة طيبة للاتراك ٢٨٩

٢٨٩ — ٣٢٢

ط - المغرب

الحرب الدينية في المغرب ٢٨٩ — تقدم الاسبان والبرتغاليين فيه ٢٩١ — أثر سقوط
الاندلس في المغرب ٢٩١ — مسلمو المغرب يهضون لانقاذ مسلمي الاندلس ٢٩٢ —
القرصنة لون من الجهاد الدينى ٢٩٣ — الحرب بين المغاربة والاوربيين ٢٩٤ — يدرون نافادو
٢٩٥ — المغرب يدخل المجوعة الاسلامية ٢٩٥ — الاخوان البربروسا ٢٩٦ — نظام
الحكم العثمانى في المغرب ٢٩٧ — النزاع على السلطان في تونس والجزائر ٢٩٨ — ازدهار
البلاد واتساع أعمال القرصنة ٢٩٩ — اضمحلال اسبانيا ٣٠٢ — ظهور فرنسا ودم
اتصالها بالمغرب ٣٠٢ — سانسون نابليون ٣٠٢ — رأى العام في أوروبا بشور على المغرب
٣٠٤ — الانجليز يهاجمون الجزائر ٣٠٥ — تدخل الفرنسيين في شئون المغرب ٣٠٦ —
اضمحلال البلاد ٣٠٧ — مؤتمر اكس لاشابل لبحث مسألة القرصنة ٣٠٩ — الداي حسين
٣١١ — بولنيك يفكر بجديا في فتح الجزائر ٣١٢ — ديون البكرى ٣١٣ — مدغال
٣١٤ — حادث المروحة ٣١٦ — فرنسا تفتح الجزائر ٣١٧ .

— ٨ —

ص
٣٩٢—٣٣٢

ي — العراق وما يليه شرقاً

طبيعة بلاد العراق وأثرها في تاريخها ٣٢٣ — تأثر العراق بجوار إيران ٣٢١ —
العلاقات بين العراق وما يليه غرباً ٣٢٥ — العراق بين الفرس والعرب ٣٢٥ — مزارات
الشيعية في العراق ٣٢٦ — الفتح العثماني يبدأ عصرًا جديدًا ٣٢٧ — حكومة الأتراك
في العراق ٣٢٨ — التنافس عليه بين تركيا وفرنسا ٣٢٩ — ظهور البرتغاليين في الخليج
الفارسي ٣٣٠ — الصراع بينهم وبين الأتراك والعرب ٣٣٠ و ٣٣١ — ولاية الترك
ونظام الإقطاع ٣٣٢ — بدء استقرار القبائل في العراق ٣٣٤ — بغداد في القرن السابع
عشر ٣٣٦ — استقلال الموصل ٣٣٧ — انفصال البصرة وأسرة أفراسياب ٣٣٨ —
الإنجليز والموصليون يدخلون الخليج ٣٣٩ — فارس تحاول الاستيلاء على البصرة ٣٤٠ —
الإنجليز والموصليون يرثون البرتغاليين ٣٤١ — البصرة خلال القرن السابع عشر ٣٤٢ —
القضاء على استقلال البصرة ٣٤٣ — حسن باشا ينشئ حكومة وراثية بالعراق ٣٤٤ —
ثورة القبائل العربية ٣٤٥ — نهضة أفغانستان ٣٤٦ — الحرب بين الأفغان والترك ٣٤٦
نادر قولي ٣٤٧ — نادر يغزو العراق ٣٤٨ — معاهدة سنة ١٧٣٦ بين الفرس والأتراك
٣٤٨ — أسرة الجلبي في الموصل ٣٤٩ — بدء ظهور سلطان للمالك في الجراكسة في
العراق ٣٤٩ — سليمان باشا ٣٥٠ — الأتراك يهيئون للمالك ٣٥٢ — استقلال
الممالك بالعراق ٣٥٤ — سليمان الكبير ٣٥٦ — الوهابيون يهددون العراق ٣٥٨ —
داود باشا ٣٦٢ — المطامع الأوروبية في العراق ٣٦٥ — نمو نفوذ الإنجليز البلاد
٣٦٦ — العراق طريق للهدم ٣٦٨ — المستكشفون : كسي ٣٦٩ — بدء اصمحلل
الممالك ٣٧٠ — القضاء على الانتكشارية في العراق ٣٧١ — داود يعمل للإصلاح ٣٧٢
سكيات العراق ٣٧٤ — عزل داود ٣٧٧ — نهاية مالك العراق ٣٧٧ — عودة العراق
إلى سلطان الأتراك ٣٧٨ — جهود الأتراك في تهيئته وتوحيده ٣٨٠ — طرق
المواصلات ٣٨٩

مراجع عامة

٣٩٣—٤٤٠.

- ١ - مراجع عربية ٣٩٣
- ب - مراجع أجنبية ٤٠١

كشاف

٤٤١—٤٦٨

تعريف بموضوع الكتاب ونظامه

موضوع هذا الكتاب دراسة العلاقات السياسية والحضارية بين الشعوب الإسلامية والدول الأوروبية ، وتتبع جهاد الأمم الإسلامية للنهوض والحق بالأمم الغربية فيما وصلت إليه في مضامير الرقي والقوة والعرفان ، وقد انصرف الاهتمام بوجه خاص إلى تتبع يقظة الروح الشرقية الإسلامية وانتعاشها وميلادها الجديد في ظل الحضارة الراهنة

لهذا بدأ الكتاب بوصف البيئة الجغرافية وأثرها في تاريخ سكان الشرق الأدنى ، وأشار إلى وحدة أهله وعوامل هذه الوحدة ، ثم أجمال تاريخ الأمم الإسلامية من ختام الحروب الصليبية إلى ظهور الأتراك العثمانيين ، وصور حال هذه الأمم في ظل الأتراك ، ووقف طويلا عند الخنود والأعيان اللذين شملا العالم الإسلامي في أوائل العصر الحديث ، ثم أشار إلى نهوض أوربا وتقدمها نحو الشرق ، ووصف اللقاء الأول بين العالمين الشرقي والغربي .

فاذا تم اللقاء بين الشرق والغرب فقد كان لابد من دراسة الآثار التي ترتبت على ذلك بالتفصيل ، ولما كان من العسير دراسة ذلك في كل ناحية من نواحي العالم الإسلامي على حدة ، ولما كان أعظم نتائج هذا الاتصال هو نهوض مصر وظهور الأمة المصرية الحديثة ، فقد جعلنا دراسة اللقاء بين العالمين في مصر موضوع القسم الثاني : وصفنا هذا اللقاء ونتائجه القريبة ثم تتبعنا نتيجته البعيدة وهي نهضة مصر بزعامة محمد علي ، فاذا فرغنا من ذلك مررنا مسرعين ببقية نواحي العالم الإسلامي

وأردنا بعد ذلك أن ندرس تطور الشعوب الإسلامية بعد هذا الاتصال ، وكفاحها للتحضر بالحضارة الغربية ، ومحاولتها بناء نفسها من جديد على أسس هذه الحضارة ، ولكننا رأينا أن ذلك لن يتأتى إلا إذا وضعنا أمام

— ع —

القارىء موجزاً لتاريخ كل من هذه الأمم من ختام الحروب الصليبية إلى أن أصبحت أمام الحضارة الغربية وجهاً لوجه ، فخصصنا لذلك القسم الثالث ، وقسمناه فصولاً صغاراً .

ورأينا أن نرجى بقية الفصول إلى جزء ثان ، وان نقف بالقارىء عند هذا الحد فى هذا الجزء ، لأننا وصلنا بالشعوب الشرقية إلى دور اليقظة ، نخرجت من ظلمات العصر الوسيط وطفقت تتلمس سبيلها إلى عصر جديد ، وقفنا عند هذا الحد ليحاول القارىء أن يدرس الفترة الماضية على مهل ، فقدمننا له ثبثاً وافياً جداً من المراجع العربية والافرنجية حتى تكون الدراسة وافية وقائمة على أساس علمى دقيق

وسندرس فى الأجزاء التالية باذن الله بقية تاريخ الأمم الإسلامية إلى ما بعد الحرب الكبرى على هذا النظام وبذلك الفكرة .

* * *

واننى لا أقدم بأخلص آيات الشكر إلى أستاذى الأجل محمد شفيق غربال أستاذ التاريخ الحديث بكلية الآداب بالجامعة المصرية على ما تفضل به من حسن الرعاية وفضل التوجيه والارشاد وشرف التقديم إلى جمهور القارئ . وأشكر الأستاذ محمود كامل حسن مدرس مادة الخرائط بكلية الآداب بالجامعة المصرية ، فقد تفضل برسم خريطة الكتاب فكانت خير مكمل لموضوعه ولا أنسى فضل الأديب محمد سعيد عامر افندى الموظف بدار الكتب المصرية الذى تفضل بمراجعة تجارب الطبع ، والأخ جبريل ابراهيم افندى الصحفي الذى بذل جهداً مشكوراً فى عمل كشاف الكتاب .

وليتقبل القراء هذه المحاولة الثانية بحسن الرعاية ، فمارجوناً من القيام بها إلا أن نصل وإياهم إلى القول الحق فى ماضينا ، والرأى الصواب فى حاضرنا ، والنبأ الهادى عن غدنا ، والحمد لله أولاً وآخراً

المؤلف

تحريراً فى القاهرة { صفر سنة ١٣٥٧
ابريل سنة ١٩٣٨

مقدمات العصر الحديث

في موقع الشرق الاسلامى تفسير لمقامه في التاريخ ، وفي ماضيه الشرق الاسلامى بيان لمكانه بين بناء الحضارات ، وفي حاضره نبأ عن كثير مما يحدث على وجه الأرض في مقبل الأيام .

فأما الموقع فواضح الخطر لا يحتاج إلى زيادة البيان أو التفصيل ، فهو مجاز بين أوروبا وآسيا ، لا يكاد يسلم من عادية الأولى أو شر الثانية ، وهو في المنطقة المعتدلة ومعظمه يقع فيما يسمى منطقة البحر الأبيض المتوسط ، ذات الصيف الطويل والجاف والشتاء القصير القليل المطر ، فالجوه للحرارة والجفاف ، وغلب على جهاته المناخ الصحراوى ، وأصبحت خريطته مجموعة من الصحارى الواسعة التى لا يقطع اتصالها إلا ما يكون من الخصب الطارىء على ضفاف نهر كالنيل أو واحة كواحات بلاد العرب ، وغلب عليه تبعاً لذلك الفقر الاقتصادى لقلة موارد الخير ، وأصبحت مواقع الخصب فيه مقصد سكانه ومتجه آمالهم من فجر التاريخ ، تهب عليها بين الحين والحين زوابع الرمال المهلكة تدفعها الرياح ، وعواصف البدو المخربة يحر كمها الفقر ، وسواحل هذه البلاد منبسطة رملية لاتعين على الملاحظة فقلت صلة أهلها بالبحار وأصبحوا برين صحراويين ، وصعبت عليهم الهجرة والرحلة ، وظل عددهم ينمو بتوالى السنين ، فاشتد الضغط على الجهات الخصبة وكثر التنازع عليها وتعاقب عليها الغزاة ، لا يكاد يستقيم الأمر فيها لقوم حتى يغلبهم عليهم قوم آخرون ، وتلك هى دائرة العمران التى يحدثنا عنها ابن خلدون فى مقدمته ، استخرجها من ملاحظاته فى تاريخ الدول الاسلامية وحدها ، لأننا نعلم غير ذلك عن سير الحضارات فى غير بلاد الشرق الأدنى .

نظرية ابن خلدون

وأما ماضيه ، فما رأيت من سلسلة كثيرة الحلقات من الزوابع البشرية تهب من الصحارى إلى مواقع الخصب ، فلا يكون لدولة من

دولة من طول الأجل ما يمكنها من انشاء حضارة لها شخصيتها وميزاتها ،
 وإنما يكون قصارى ما تستطيعه احداها أن تحسن استعمال ما تجد من
 معالم الحضارة أو تصقله بعض الصقل ، ثم تتركه مسرعة ليتولاه
 الغزاة الجدد الذين يغلبونها على الأودية ومنابع الثروة ، وهذا ما يقال
 عن الدول الإسلامية التي كثر ظهورها على مسرح السياسة
 الشرقية . لم تخلف احداها لونا قائماً بذاته من الحضارة ، ولم تبتكر
 لونا أصيلا منها ، وإنما استعملت ما وصل اليها بدرجات متفاوتة من
 الخلق والمهارة ، فبعضها استطاع أن يوفق إلى شأو بعيد في صقلها
 وتهذيبها حتى أخذت طابعا يظهر للرائى أنه جديد ، كالدولة العربية ،
 وبعضها لم يتقدم بما وجده من معالم الحضارة بل تركه كما وجده أو هبط
 به بعض الشيء ، كالدول التركية ، ولعل هذا لا يرجع إلى طبيعة في
 الشعوب نفسها ، بقدر ما يرجع إلى الظروف التي وجدت فيها ، ويتوقف
 إلى حد كبير كذلك على عمر الدولة وما يتاح لها من الهدوء والطمأنينة
 التي تنمو في اعطافها الحضارات .

لهذا كانت أجد الدول التي ظهرت في بلاد الشرق الأدنى وأوفرها
 سهما في بناء الحضارة العالمية ، هي أمم القديمة ، التي سكنت أوديته في فجر
 أهمية تاريخه القديم ، فأتيح لها الوقت الطويل فنمت حضاراتها نمو امتداد معقولا ، ولما كانت
 هذه الأمم قد أقبلت والشرق خلا ، لم يسبقها إلى الإقامة فيه سابق فقد سلمت
 حضاراتها من التأثير الخارجى فكانت مبتكرة أصلية لها مميزات وشخصيتها ،
 ولما كانت طويلة العمر فقد تأصلت الأسس التي وضعتها في طبيعة الشرق
 الأدنى وأصبحت طابعا من طوابعه التي لا تخفى ، والتي لا تسلم منها دولة
 تظهر في مجرى تاريخه ، ولعل القارىء قد عرف أنى أريد بذلك
 الحضارتين المصرية والآشورية القديمتين اللتين وضعنا الأسس المادية
 والسياسية للحضارة العالمية ، ثم الدولة الاسرائيلية التي وضعت أساس
 دولة بنى اسرائيل

مصر وآشور

دولة بنى اسرائيل

الحضارة الفكرية العالمية من دين وفلسفة وما إلى ذلك ، وهذا هو نصيب بلاد الشرق الأدنى في بناء الحضارة العالمية ، أما ما عدا ذلك فتهذيب لموروث ، أوزيادة على قائم موجود ، وقد يظن نفر من الناس ان هذا الدور بسيط لا خطر له في تاريخ الانسانية ، ولكن الحقيقة أنه على جانب عظيم جداً من الخطر ، ويكفى أن نعلم أنه انتقل بالانسان من البداوة إلى الدول القائمة ، ذوات المقومات والسياسات والجيوش والبحريات والمدن العامرة بالمباني الحجرية الجميلة ، والمعابد التي يبدأ عندها تاريخ الفن العالمى وتاريخ الفكر الانسانى .

وأما حاضره فمجموعة من الوحدات الناشئة لاتزال آخذة بأسباب النهوض ، شديدة الاعتماد على حضارة أوروبا ، شديدة الصلة كذلك بماضيها وطبيعتها الخاصة ، بما سينتهى بها آخر الأمر إلى لون من الحضارة يختلف في كثير عن الحضارة القائمة اليوم ، بل ربما يكون له أثر بعيد في اتجاه الحوادث في مقبل الأيام .

وعلى الذين يريدون دراسة تاريخ الشرق الأدنى في أى دور من أدواره أن يلاحظوا أربع حقائق هى بمثابة الأصول التى يقوم عليها تاريخه وتفسر على ضوءها مظاهر هذا التاريخ .

أولها أن وحدة الشرق الأدنى ليست جغرافية فقط ، وإنما هى تاريخية فى الغالب ، ففى داخل الحدود الجغرافية التى تضم هذه الأقاليم المترامية ، التى تبدأ من حدود المحيط الأطلسى وتنتهى فى قلب آسيا ، تجد حدوداً أخرى من الحضارة ذات اللون الخاص والشخصية المتقاربة ، هناك صلة من التفكير وأسلوب الحياة والنشاط الذهنى تربط العراقى بالعربى والعربى بالسورى والسورى بالمصرى ، وهناك اتفاق إلى حد ما فى الآمان والأخلاق والآمال ، وليس مرد هذه الوحدة إلى الاسلام

١ - وحدة الشرق
الاسلامى التاريخية

والحضارة الاسلامية وحدهما ، بل هي أقدم من ذلك بكثير ، وضع
أساسها ملوك مصر القديمة بغزواتهم الواسعة التي جعلت منه - للمرة
الأولى في التاريخ - وحدة سياسية ، ومن مصر القديمة أخذت تصدر
طول العصر القديم هذه الحضارة القوية التي انتشرت مع الزمن في كل
بلاد الشرق الأدنى فزادت روابط أقاليمها رابطة عمرانية فأصبحت تشترك
في أساليب الحياة والبناء والرى وسياسة الدولة وأنظمة الحكومة ، وكلما
انقضى زمن أضافت الأيام إلى الروابط التي تضم أقاليم الشرق الأدنى
رابطة جديدة تزيدها قوة واتصالا ، حتى كانت غزوة الاسكندر قبل
الميلاد بنحو ثلاثة قرون ، فأضفت على بلاده وحدة فكرية ، إذ كان
الغزو المقدوني فتحاً من فتوح الحضارة لانصراً من انتصارات السياسة ،
لأن السكيان السياسى للامبراطورية الاسكندرية تهدم عشية موته ،
وبقيت بذور الحضارة التي خلفتها جيوش الاسكندر حيثما سارت ،
ووجدت البذور تربة صالحة في العقلية الشرقية ، فما هو إلا قرن من
الزمان حتى بدأت تنمو في بلاد الشرق حضارة جديدة ، بعيدة بعض
الشيء من الحضارة اليونانية بفنها وفلسفتها ، قريبة الشبه بالروحية
الشرقية وتفكيرها العميق وعرفها المؤرخون بالحضارة الشبيهة
بالحيلينية تمييزاً لها عن الهيلينية ، وأصبحت هذه الحضارة وأسايلها
ومميزاتهما ، طابع الشرق القريب ورباطه الذي لا يضعف ولا يخفى ،
وأخذت هذه الحضارة تتطور تطوراً عميقاً شاملاً ، وأخذت تمدد روافقها
حتى ضمت بلاد الشرق الأدنى من قلب فارس إلى الاسكندرية ،
وأخذت تنجم في نواحيه المدن الاغريقية العمارة والحكومة ، الشرقية
الحضارة والتفكير ، وأخذت تنشأ في هذه المدن المدارس الفلسفية
المعروفة المتميزة ، بل يغالى نفر من المؤرخين فيذهب إلى أن الحركات
الدينية التي صدرت عن بلاد الشرق الأدنى بعد ذلك ، إنما هي تطور

غزوة الاسكندر

الحضارة القديمة

بالحيلينية

فكرى طبيعى للحضارة الشبيهة بالهيلينية ، ولسنا على هذا الرأى طبعاً .
 فاذا ظهر الاسلام بعد ذلك فقد أضاف إلى بلاد الشرق الأدنى
 وحدة دينية ، وذابت في حرارته القوية ، المذاهب الفلسفية والفكرية
 التي كانت قد بدأت تضمحل يوم ظهر الاسلام ، ومن هنا كانت
 الحضارة الاسلامية ذات طابع اغريقى لا يخفى ولا ينكر خطره ،
 واختفت الفروق القائمة بين مدنية ومدنية ومدرسة ومدرسة ، وظهرت
 دولة واحدة متجانسة في الحضارة والتفكير والسياسة ، هى الدولة
 الاسلامية التي أصبحت بمرور الزمن مظهر وحدة الشرق وطابعه المميز
 وثانى هذه الأسس : أن قوام الحضارة والعمران في الشرق
 الأدنى ليسوا هم الغزاة الفاتحون الذين ينشئون الدول ، ويسيطرون
 الجيوش ، ويكثر ظهورهم واختفاؤهم ، وإنما قوامها أهل المدن الذين
 يعمرن بلادهم ، وأهل الريف الذين يزرعون مزارعهم وأهل المراعى
 الذين يسكنون سفوحهم وهضابهم ، هؤلاء هم الأساس الثابت الذى
 يختزن الحضارة ويعطى الشرق الأدنى لونه المميز ، وهؤلاء لانسمع
 بهم في الحروب ولا نراهم في القيادة أو الزعامة (١) ؛ وإنما تراهم في العمائر
 الباقية والصناعات الدقيقة وغير الدقيقة ، وفي هذه الخبرة الزراعية التي
 يمتاز بها سكان مواقع الخصبة كسكان النيل أو سكان الجزيرة العراقية ،
 وهذا العنصر قابل للتأثر بما يستجد عليه من ألوان الحضارات التي
 يحملها اليه الفاتحون ، وهو يبدو أول الأمر ضعيفاً محكوماً ، ولكنه
 يبدأ في الظهور إذا استقرت الأحوال وهدأت نيران الحرب ، فيبدأ
 يؤثر على الحاكمين أنفسهم ، ويعمرهم ويطبعهم بطابعه الخاص ، وعلى
 هذا البساط يتقارب الحاكم والمحكوم حتى يمتزجان آخر الأمر امتزاجاً
 قوياً ، تزول معه معالم العنصر الغازى ، ويرثه في صفاته وحضارته هذا
 العنصر الثابت الذى تتحدث عنه ، والذى رأيت أنه يحتفظ بحيوية

الاسلام يزيد وحدة
 الشرق الأدنى قوة
 وظهوراً

٢ - سكان الشرق
 الاسلامى

(١) طول القرون الوسطى على الأقل ، وسنرى ان تقدم هذه الطبقة الى الزعامة سيكون

معنى من معنى العصر الحديث .

البلاد ويمكن فيه طابعها المميز؛ فتراه بوضوح في أدوار الاضمحلال التي تصيب الدول الغازية السريعة الزوال ، وعلى يديه يكون رقي الحضارة وثباتها ، ولكنه ظل طول النصف الثاني من العصر القديم والعصر الوسيط هدفا للغزوات والفتوح ، لا يكاد يتنفس الصعداء من حاكم زال حتى ترزاه الأيام بفتح جديد يثقل على صدره زمانا طويلا . وهكذا . لهذا أصبح أهله مدنيين ، وانصرفوا إلى الشؤون المدنية واحتفظوا بكل ما وصل إلى أيديهم من المستحدثات التي يحملها الغزاة ، فصار بأسهم قويا وإن سكتوا ، وصار استعدادهم عظيما لتقبل مظاهر الحضارة وإساعتها ، واشتدت قوتهم الكامنة ، التي سخرى خطرها في العصر الحديث حينما يؤتون الهدوء والاطمئنان الكافيين .

تزوج الحضارات

ولنشر في سياق هذا الحديث إلى النظرية التي يسميها المؤرخون تزواج الحضارات ، إذ يرون أن كل نهضة قوية من نهضات التاريخ ، تكون وليدة المزوجة بين حضارة قائمة أدركها الفتور وكنت في أهل البلاد ، وبين شعب متوفر فاتح يجدد نشاطها ويبعث فيها الحياة ، فحضارة الاسلام وليدة المزوجة بين الاسلام ومن اتصل به من القبائل المتبدية ، وحضارة القرون الوسطى وليدة المزوجة بين الحضارة الرومانية والقبائل المتبربرة ، وحضارة العباسيين وليدة المزوجة بين الحضارة الفارسية والقبائل العربية . وهكذا ، وهم يذهبون كذلك إلى أن هذا التزواج ينتج في الغالب لونا جديدا من الحضارة ، وأن هذا اللون الجديد يزدهر مع الأيام حتى يبلغ أوجه ثم يأخذ في الانحدار ، لأن القوم الذين أقاموه ، يدركهم ترف الحضارة ولين الانغماس فيها ، فيضمحل سلطانهم ويختفون من التاريخ مخلفين بعدهم ذلك العنصر الاصيل الذي أضاف اليهم الفكر والروح : وهو الحضارة ، كما بقي الاسلام والحضارة الاسلامية بعد العرب والسلاجقة ، وكما بقيت المسيحية بعد زوال العصر الوسيط ، أما الذين يحتفظون بهذه الحضارة ويحولون بينها وبين التبدد

*

فهم هؤلاء السكان المدينون الزراعة أو الصناع أو الرعاة أو أهل العلم الذين أشرنا اليهم

وثالث هذه الأسس التي لا يصح فهم تاريخ الشرق الأدنى ٣ - طيبة الاسلام
الا بادراكها ، هو أن الاسلام ليس ديناً خالصاً وإنما هو نظام اجتماعي كامل ، وأنه ليس مجموعاً من الطقوس والعبادات يتقرب بها الانسان لربه ، وإنما هو مجموع من القواعد والأنظمة التي يستطيع الناس أن يعيشوا بمقتضاها ، ومن هنا كان الاسلام حضارة كاملة ونظاماً جامعاً استطاع أن يمد بلاد الشرق بكل مقومات الدول وأساليب السياسة والحياة والتشريع والحضارة مدى بضعة قرون ، فالامام المسلم حاكم مدني ، والخليفة في العرف الاسلامي هو الامبراطور . وقد أوتي المسلمون قدرة طيبة على تفسير مبادئ الاسلام وقواعده واستخرجوا منها كل ما يلزم المجتمع الصالح الكامل من مقومات ، حتى أن المؤمن لا يجد في الاسلام حلاً لمسألة الآخرة فقط بل سبيلاً للعيش في الدنيا . ومن هنا كان للدولة الاسلامية كيان اسلامي سياسي داخل الكيان الديني ، وكان اسلام أهلها عماداً يعتمدون عليه كثيراً في بناء دولتهم ، بل كان الكيان السياسي الاسلامي حصناً ووقاية يحفظان قوامها السياسي بعد ان تهدم الدولة القائمة بالحكم فيها ، لأن قوام هذا الكيان الاسلامي هو العاطفة الاسلامية ولهذا كانت طويلة البقاء شديدة الحساسية ، يشعر كل مسلم بأنه مطالب بالدفاع عنها والذود عن حوضها ، وهذه هي الوطنية كما يفهمها المسلم : دفاع عن الاسلام وجهاد في سبيل الله واستشهاد لاعلاء كلمة الحق ، ومن هنا حلت الوطنية الاسلامية محل الوطنية القومية ، وسنرى في أول العصر الحديث ان أوروبا تقبل فتصادف سكوناً مخمياً وشعوباً مطمئنة الى النوم ، ولا تجد دولة سياسية قوية تلقى اجنادها أو تقاوم تقدمها ، ولكنها تجد الاسلام قائماً في كل مكان ،

وتجد المآذن والمساجد حيثما سارت في العالم الاسلامي من الدار البيضاء إلى سمرقند وأجرا وجاوه . . وتجد أن الدعوة للنهضة والنداء لليقظة ينبعثان من فم المؤذن الذي يستجيب له المسلمون ، والامام الذي يذهبهم إلى الخطر ويفتح عيونهم على ما ينتظرهم ، فهي لم تصادف جيشاً قويا بلقي اجنادها ، وإنما وجدت الاسلام قائماً كأنه شملة رقيقة يشتمل فيها المسلمون . .

أما رابع هذه الأمور فإن الاقدار جعلت بلاد الشرق الاسلامي طريقاً بين وسط آسيا وأوروبا . وقد كان وسط آسيا طول العصرين القديم والوسيط منبعاً من منابع الجنس البشري ، لا يكاد ينقضي قرن دون أن تخرج منه موجة بشرية وتتجه شرقاً أو غرباً ، فاذا اتجهت إلى الغرب كان لها أحد سبيلين . إما سبيل الشمال : شمال بحر قزوين والبحر الأسود ومن ثم تبتاح أوروبا على هيئة قبائل بربرية مخربة تهدم ما يكون قائماً هناك من معالم الحضارة . وإما سبيل الجنوب : فتخترق أفغانستان وفارس والعراق فانشام فصر ، ومن هناك على بلاد الشرق القريب أن تقاوم هذه الموجات وتثبت لها ، فاما غلبتها فارتدت عنها ، وإما انهزمت أمامها فاجتاحتها ، وخربت بلادها كما نعرف عن غزوة المغول ، وكانت بلاد الشرق ترد هذه الهجمات بقوتين : قوتها السياسية أولاً ثم حضارتها الاسلامية ثانياً ، وقد غلبت قوتها السياسية كثيراً ، ولكن قوتها الاسلامية لم تنهزم أبداً ، وظلت طول العصر الوسيط ، تتسلم البدو والهمج من هضاب القرغيز والتركيستان ، فتكسر شررتهم وتذيب همجيتهم ، وتصهرهم في بوتقة الاسلام ، وترفعهم إلى مستوى حضارته ، فيصبحون بنعمته دولا قائمة ذات قوة وحضارة ونظام ، ومثال هذا بماليك مصر والاتراك العثمانيون والسلاجقة ، تسلمهم الاسلام قبائل في الشرق ، وقدمهم في الغرب دولا ذوات حضارات ، أو ملوكا ذوي سلطان . وتلك

٤ - موقع الشرق الاسلامي في وسط آسيا وأوروبا

المحركات البشرية المنظمة في وسط آسيا

الاسلام في أوروبا عزوات الهمج والبدو

كانت مهمة الدولة الاسلامية طول العصر الوسيط ، وكان لذلك
أثر ذلك في حياة
الدولة الاسلامية
أبعد الأثر في مجرى حياتها ، إذ أضاف إليها بين الحين والحين
قوى جديدة تحفظ عليها حياتها ، ثم أجهدوا من ناحية أخرى وحال
بينها وبين بلوغ درجة عظيمة من النضوج والكمال ، وحول جهدها
وجهد حكامها في أحيان كثيرة إلى وجهة عسكرية لم يجدوا معها فراغاً
للاصراف إلى الحضارة أو العمران .

ولنلاحظ إلى ذلك ، أن لكل وحدة من وحدات الشرق الأدنى
الوحدات المتميزة
داخل المجموعة
الاسلامية
ظروفاً الجغرافية والجنسية والتاريخية التي جعلت لها — إلى حد ما —
شخصية متميزة في داخل هذه المجموعة ، فعلى الرغم من العوامل
التاريخية والجغرافية التي تجمع مصر والشام مثلاً ، فإننا نجد لكل أمة منهما
صفاتها المميزة التي نتجت عن تكوينها الجنسي وظروفها الطبيعية ، كالتقرب
من البحر الذي أدى إلى نمو روح البحرية في أهل الشام ، وخصب
الأرض الذي جعل مصر إقليماً زراعياً ، وكون أخلاق المصريين تكويناً
خاصاً ، وصحارى بلاد العرب التي جعلت من أهلها بدواً لا يستريحون
كثيراً إلى الحكومة المركزية ، وكهضاب فارس وسفوحها التي جعلت
منها بلاد رعاة . وإنما ينبغي التفطن إلى تلك الحقائق الجوهرية لأنها
ستكون بعيدة الأثر في تاريخ الجماعة الاسلامية ومستقبلها ؛ ولأنها
ستعمل على مضى الزمن ، على تقسيم الجماعة الاسلامية إلى وطنيات صغيرة
تبتدىء قرية الشبه بعضها ببعض ، ثم تأخذ الفوارق بينها في الاتساع
والظهور ، كلما أتسع لها الزمن الكافي ، لتنمو نمواً طبيعياً يحفظ عليها
طبيعتها وقوميتها ، كأن تنجو من السلطان الأجنبي الذي يهدم قوميتها
ويطفيء روحها .. وكان يقل سلطان الخليفة الديني والسياسي عليها ،
فينمو في أهلها شعور بالاستقلال ، كما نرى في فارس التي حماها بعدها
من الغزوات الطارئة ، وأقامها على قدميها خروجا عن طاعة بني عثمان

فبدأت قوميتها وشخصيتها في الظهور من القرن السادس عشر الميلادي،
وستجد أن إهمال هذه الفروق والتهوين من شأنها قد أضل
الكثيرين من الباحثين والمفكرين في تواريخ الامبراطوريات
الاسلامية وأسباب سقوطها وانحلالها، فردوها في أكثر الأحيان
إلى ضعف الحاكم أو ضعف سنه أو سوء سياسته أو انصرافه إلى الملذات،
كأنما الطبيعي أن تجدد بلاد الشرق الاسلامي إلى لواء واحد . . فاذا
تفككت وحدتها كان ذلك طارئاً له أسبابه التي ترجع إلى الحاكمين
لا إلى الأمم المحكومة، وسترى من دراستنا، أن الطبيعي هو أن تتفكك
وحدات الدولة الاسلامية، وأن تصير بلاداً متفرقة، فاذا اتحدت كان
ذلك طارئاً غير طبيعي كوجود حاكم ممتاز جداً أو ظهور خطر عام .
بل لعلنا لانغالي إذا قلنا إن الدولة الاسلامية السكاملة التي تحكم شعوب
الاسلام كلها حكماً قوياً محسوساً وتنشر سلطانها على كل بقاعه وطرقه
لم يكن لها وجود أبداً حتى في أسعد أيام الدولة الاسلامية وفي ظل أعظم
الحكام المسلمين .

اهمية دراسة عيبرات
كل وحدة

وعلى القارئ أن يذكر إلى جانب ذلك أن كثيراً من الوحدات
التي دخلها الاسلام، كانت ذات حضارات خاصة، متازة قبل أن تدخل تحت
رايته، وأن كثيراً منها كان له تاريخ مجيد حافل بالذكريات
العزيزة والاتصارات الحربية الباقية والفتوح الموفقة في ميادين العلم
والادب والتفكير، وأن الاسلام عمل من البدء على القضاء على اطلالها
الباقية التي وجدها يوم دخلها فاتحها، ولم يكن هذا لسياسة رسمها الحكام
المسلمون، وإنما لأن روح الاسلام كانت من القوة بحيث صرفت الناس
عن ماضيهم صرفاً تاماً، وساعد على هذا أن الاسلام أقبل في زمان كانت
هذه الحضارات قد أشرفت فيه على الفناء والهدم، ولم يبق من آثارها
وعلموها وفنونها الا رسوم لا تغنى ولا تستحق رعاية ولا حفظاً، بل

الاسلام يهضم
الحضارات التي كانت
قائمة في بلاد الشرق
القريب قبل ظهوره

انقلابت محاسنها مساوىء ثقيلة النكاليف شديدة الضرر ، ومال الناس إلى الخلاص منها . فلما أقبلت جيوش الاسلام استقبلوها مرحبين وتلبسوا في مقدمها عصر أجد يد آمن السلام والطمانينة والرخاء ، وساعدتهم على ذلك ، ما ذكرناه من أن الاسلام ليس ديناً فقط ، بل نظاماً اجتماعياً ، فكان اسلامهم دخولا في نظام جديد يقطع الصلة التي تصلهم بالماضى ، وقد قويت عندهم هذه الفكرة ، لما كان من توفيق الخلفاء الأول في الحكم وغلبة الطهارة والاخلاص على أجيال المسلمين الأولى ، فتحققت ظنونهم وأخذوا يستبدلون بأبطالهم أبطال العرب وبمفاخرهم مفاخر العرب ، فضعفت ذكرى الأجداد في نفوسهم شيئا فشيئا ، بل قضى عليها تماما . ففسى المصريون فراعنتهم والفرس أكاسرتهم والترك خواقينهم ، وانتسبوا للعرب وأبطالهم . فكان هذا الايمان آصرة من الأواصر التي وثقت الأسباب بين أجزاء الدولة الاسلامية وعملت على التقريب بينها ، إذ حل التفانى في الاسلام ورجاله محل العواطف القومية المحلية ؛ وقد ظل هذا العامل فعالا ، حافظاً على الدولة قوتها ما دامت الحكومة الاسلامية قوية ثابتة نزيهة قريبة من المثل الأعلى للاسلام ، فلما تسرب إليها الاضطراب وتالفت الفوضى بدأ الناس ينصرفون عنها وبدأت ذكر ياتهم القديمة المظورة تعود إليهم ، بل أخذوا يبحثون عنها يؤمنون بها من جديد فبدأت تظهر القوميات ، وكان في نشوءها معنى القضاء على الوحدة الاسلامية والدولة الاسلامية العامة .

وقد درج المؤرخون الاسلاميون على أن ينظروا إلى تفكك القوميات الاسلامية الدولة الاسلامية وانقسامها إلى دويلات صغيرة ، كظهر من مظاهر الاضمحلال والفناء ، والواقع --- كما رأيت --- غير ذلك ؛ إذ أن هذا التفكك ، يكون في غالب الأحيان دوراً من الأدوار التي لا مفر للدول الكبيرة من المرور به ، ولا يكون معناه دائماً أن السلطة المركزية قد

وهنت أو أن عصرها قد انقضى ، وإنما يكون معناه أن الأطراف قد قويت واشتدت ونمت شخصياتها واحساساتها القومية في ظلال الحكومة العليا ، وكلما نبى شعورها بالقوة ، نمت إلى جانبه رغبة في الاستقلال ، وكرهية الخضوع للسلطة المركزية ، وهذا دور يؤدي بطبيعة الحال إلى تطور هذه القوميات إلى دول محلية تأخذ بأسباب القوة والنهوض شيئاً فشيئاً ، حتى تستوى وحدات سياسية صحيحة التكوين سليمة المقومات ، كما حدث في أوروبا من انحلال الدولة الرومانية المقدسة إلى أقطاعات متفرقة ، أخذت تتجمع شيئاً فشيئاً حتى اتحد كل فريق منها وصار دولة قوية ، ولعل الذى جعل مؤرخى الشرق يتشائمون من هذا التفرق ، هو أن هذه الوحدات الصغيرة الناشئة ، لم يسمح لها مرة من المرات أن تتطور تطوراً طبيعياً هادئاً ينتهى بها إلى القوة والتبات ، بل كانت تفاجأ وهى تخطو نحو التوحد بالغزوات الطارئة التى توقف تقدمها وتقضى عليها ، وليس أدل على ما فى هذا الانحلال من خير ، من أن فتراته كانت فى الغالب فترات من النشاط الفنى والفكرى المنقطع النظير ، فالعصر العباسى الثانى هو عصر التقدم المشهود فى بناء الحصون والمدن وهو عصر المتنبى وأبى العلاء وعصر الفلاسفة الأفاضل والمؤرخين الموفقين ، وهو عصر الحضارة الإسلامية الزاهى ومجتمع آثارها الباقية إلى اليوم . ويخطئ المؤرخون كذلك حين يقولون ان الذهن يكسب على حساب السياسة لأن الأمراء يتنافسون على العلماء والمهندسين والأطباء ومن إلى هؤلاء ، إذ الحقيقة ان الذين يتنافسون ليسوا هم الأمراء وإنما هى الوحدات القائمة الناهضة والقوميات الناشئة الآخذة بأسباب الحياة ، فتدوين الشهامة أول مظهر للشخصية الفارسية ، والمتنبى أبين الناس منطقاً عن الشخصية العربية وأشدّهم اعتزازاً بها وتقديرآ لها وسعيآ لانهاضها (١)

(١) نظرية الاستاذ محمود شاكر عن المتنبى فى عدد المقتطف الخاص به

والدولة الفاطمية حجر الأساس في بناء القومية المصرية بمميزاتا المعروفة وهكذا .

* * *

الفتوح الإسلامية

يعرف المطلعون على تاريخ الإسلام ، أن الفتوح الإسلامية ، لم تكن سلسلة متصلة الحلقات من الحروب ، بل اتخذت هيئة وثبات سريعة ، ويعرفون كذلك أن كل وثبة من هذه الوثبات ، كانت عقب دخول عنصر جديد في الإسلام ، فلا تكاد الدعوة الإسلامية تنتشر في قطر من الأقطار ، أو بين قبيل من الناس ، حتى يستجيبون لندائه القوى ، ويبعث الإيمان في نفوسهم روحاً جديداً ، وينهضون للغزو والفتح ، رافعين راية الإسلام في يد والسيف في اليد الأخرى ، ويبداون سلسلة من الغزوات ، يمدون بها لواء الإسلام على أقطار جديدة .

الوثبة الأولى

كانت الوثبة الأولى بين سنتي ٦٣٠ و ٧٥٠ ميلادية . إذ لم تكن القبائل العربية تنطوي تحت راية الإسلام ، حتى وثبت وثبة سريعة فتحت فيها العراق وفارس والشام ومصر وشمال أفريقيا والأندلس . وكانت الوثبة الثانية بين سنتي ١٠٠٠ و ١١٠٠ ميلادية ، وكانت نتيجة طبيعية لدخول السلاجقة والبربر في الإسلام ، اتسعت فيها رقعة الدولة الإسلامية ، فأعادت آسيا الصغرى إلى الدولة الإسلامية نهائياً ، وفتحت غرب أفريقيا ، ويضيف المؤرخون إلى هذا الدور ، وثبة إسلامية أخرى نحو الشرق ، قام بها السلطان محمود الغوري في أواخر القرن الثاني عشر الميلادي ، دخل بها الإسلام شمال الهند بجحد السيف .

الوثبة الثالثة

أما الوثبة الثالثة ، فتقترب بدخول الأتراك العثمانيين في الإسلام ، وفيها قضى الإسلام على الدولة البيزنطية ، وورثها في البلقان وجنوب

الروسيا ، وتمت فيها سيادة المسلمين على البحر الأبيض ، فأصبح بحيرة اسلامية ، تقوم فيه أساطيل المغرب من الغرب ، وأساطيل الدولة العثمانية من الشرق .

تفسير هذه الظاهرة

ومعنى هذا : أن الاسلام إذا صادف جماعة من البدو الذين يتأهبون للاستقرار ، أثار فيهم روحاً حربية دينية ، تدفعهم إلى الفتح والغزو ، هي صدى طبيعي للحرارة المنبثة في آيات القرآن ، والرجولة التي هي العنصر المميز للعقيدة الاسلامية .

أما إذا صادف الاسلام بلداً من ذوات الحضارات القديمة ، فلا يلبث أهله أن ينصرفوا إلى التفكير في أصول الاسلام ، وتفسيرها وتقريرها والتفقه فيها ، ويفضى بهم الأمر إلى نهضة واسعة النطاق في العلوم والفلسفة والفنون ، كما نعرف من الحركات الفكرية القوية التي أعقبت دخول الفرس والشاميين والمصريين والاندلسيين في الاسلام ، وكانت نتيجتها الفتوح الاسلامية المعروفة في ميادين الفكر والعلم .

دائرة العمران

ويفسر ابن خلدون هذه الظاهرة في مقدمته (١) ، بما نستطيع أن نسميه « دائرة العمران » أي أن النشاط الاسلامي ، يبدأ حين يهجم قبيل من البدو ويغيرون على بلد متحضر ، فيشير ذلك في العالم الاسلامي ، فورة من النشاط في السياسة والفكر ، ولا يكاد يستقر الرجل ، ويتناولون الزراعة والصناعة ، حتى تهدأ فيهم الثورة ، ولا يكاد يمضي على ذلك زمان طويل ، حتى تشيع فيهم الحضارة لينا وترفا ، فلا يابشون أن ينحط أمرهم ، فيكون هذا حافزاً للطائفة أخرى من أهل الريف ، لغزو الحضرة من جديد ، أي أن الصحارى هي مهد الحركات الاسلامية ، وأن سكانها هم عوامل النهوض والحركة والحياة في المجتمع الاسلامي .

مناقشة نظرية
ابن خلدون

هنا لم يكن ابن خلدون دقيقاً في الملاحظة ، إذ الحقيقة أن هذه الغزوات التي يشنها البدو على مواقع الخصب ومهاد العمران ليست عاملاً من عوامل البناء ، وإنما هي عامل الهدم والتخريب ، ولا تزيد على أن تقيم ما-كا واسعاً أو ضيقاً ، وتصرف الأمور ردحاً من الزمن ثم تنحدر تاركة مكانها لغيرها الذي يعيد نفس الدور وهكذا ، من غير أن يكون لاحدى هذه الدول أثر بعيد في رقي الحضارة ، أو تترك في البلاد طابعاً خاصاً ، أو تضي عليها لوناً ممتازاً ، والغالب على هذه الدول التي يقيمها الغزاة أن تكون كثيرة التشابه ، مترفعة عن الأهالي ، قليلة الاحتلاط بهم ، فلا تتأثر بهم ولا يؤثرون فيها ، والغالب كذلك أن يكون برنامجها عسكرياً فلا تفتن لاصلاح اجتماعي أولهوض بناحية من نواحي الانتاج .

تفكك الوحدة
الاسلامية

نهضة العناصر الفارسية

ظلت الشعوب الاسلامية مجموعة إلى لواء الخلافة زهاء قرنين ونصف من الزمان ، ثم بدأت الخلافة المركزية في الضعف وأخذت أجزاؤها تتفرق عنها واحدة بعد واحدة ، ولم يكن هذا التفرق نتيجة لضعف الخلافة العباسية وحده ، وإنما يرجع في بعض أسبابه إلى تطور الوحدات والشعوب الاسلامية تطورا جعل بقاء الوحدة الشاملة أمرا غير ميسور ؛ ونعني بهذا التطور نهوض بعض الأجناس الاسلامية واتجاهها نحو القوة وميلها إلى بدء حياة قومية جديدة ، ويبدو ذلك جليا في نهضة العناصر الفارسية التي سادت الدولة الاسلامية سيادة فعلية خلال النصف الثاني من القرن الثالث الهجري ، ويبدو بشكل أوضح في نهوض العناصر التركية والمغولية والجرسية

للعناصر التركية وزعامتها في نواحي العالم الاسلامي من منتصف القرن الثالث الهجري تقريبا

اصل العاصر التركية منذ أحقاب سحيقة في القدم ، كانت العناصر التركية والمغولية تعمر الأقاليم الشاسعة الواقعة بين حدود فارس والصين القديمتين ، ولم يكن في استطاعتها أن تتخطى أسوار إحدى هاتين القيصريتين العظيمتين ، ولكنها ظلت تنقل الحضارة بينهما ، وتعلم من الاتصال بهما أساليب الحكم والادارة والحضارة والحرب ، مما أورثها استعدادا لانشاء الدول القوية والقيام بفتوحات واسعة المدى .

وفي النصف الأول من القرن السابع الميلادي طرق العرب أبواب فارس ، وكان الاضطراب قد طرق أبوابها قبل ذلك بسنوات فسهل على العرب فتحها والقضاء على كسروية الساسانيين التي كانت قائمة بالحكم فيها على شيء من الضعف ، فكان لهذا الحادث أبعاد الأثر في مستقبل الأتراك الذين كانت فارس تحول بينهم وبين التدفق إلى بلاد الشرق الأدنى ، إذ افضت جيوش العرب الفاتحة إلى مواطن الترك فيما وراء النهر ونواحي خوارزم وما إليها - حاملة الاسلام اليهم ، فأقبلوا يدخلون رحابه أفواجا ، وبهذا أصبحوا أعضاء مواطنين في المجموعة الاسلامية الكبرى

نهوض العاصر التركية وأخذت الدولة العباسية في الضعف وأخذت الشعوب الاسلامية في التفرق ، وأحست العناصر التركية فيما وراء النهر بضعف السلطة المركزية ، فأخذت تحاول انشاء دول تركية اسلامية على انقاض الدولة العباسية المنحلة ، وساعدتهم صفاتهم الجسمانية وثقافتهم الحربية والسياسية التي ورثوها عن الدول التي اتصلوا بها ، فأصبحوا أصحاب القوة الفعلية في دولة الخلافة الاسلامية ، ثم تمكنوا من إنشاء أول دولة تركية وهي الدولة الساسانية التي سيطرت على الجماعات الاسلامية فيما يلي

دجلة والفرات شرقاً ، والتي كان قيامها حافزاً للقبائل التركية على مغادرة مواطنها والاسراع إلى بلاد الشرق الأدنى ، ومن ثم بدأت من أوائل القرن العاشر الميلادي حركة هجرة تركية واسعة النطاق ^{هجرة العناصر التركية السلاجقة} كان أظهر عناصرها القبائل السلجوقية ، التي استقرت على أطراف البلاد الإسلامية في شمال العراق وآسيا الصغرى ، وأخذ سلاطينها يوسعون ملكهم حتى وحدوا البلاد الإسلامية وردوا عنها عدوان البيزنطيين - الذين كانوا قد تقدموا حتى عبروا الفرات وحطوا في إقليم جورجيا وماجاورة - وإلى هذا الجهد السلجوقي في التوحيد يرجع الفضل في تمكن المسلمين من مقاومة الموجات الصليبية : لأنهم - أي السلاجقة - أوروأ خلفاءهم الأيوبيين وحدة إسلامية قوية البنيان .

و تفرقت دولة السلاجقة واتجهت القبائل التركية التي كانت خاضعة لها تبحث عن مواطن جديدة لها ، فتخيرت قبيلة شمان نواحي وسط آسيا الصغرى فخطت فيها ، وبدأت تتوسع نحو الشمال والغرب ، ودفعها إلى ذلك قيام الدويلات الإسلامية إلى جنوبها من جهة وضعف الدولة البيزنطية من جهة أخرى . وواتاها الحظ وساعفتها خصال رجالها فتقدموا في الأناضول وعبروا الأرخيل ونزلوا البلقان وفتحوا نواحيه وأزالوا القسطنطينية واتخذوها ساكنة لهم ، وبهذا تقدموا إلى العالم في أواخر القرن الخامس عشر بدولة قوية تضم ^{الامبراطورية العثمانية} الأناضول والبلقان ونواحي شاسعة في حوض الدانوب ، وبدءوا بعد ذلك يلقون أبصارهم نحو الشرق ، يضعون خطة سريعة لفتح البلاد الإسلامية وتوحيدها تحت لوائهم من جديد ، واعانهم على ذلك أن مصر والشام والعراق كانت قد أخذت تنحدر ، وتطلبت أحوالها العامة فتحاً جديداً ينقذها مما صارت اليه من ضعف واضمحلال ، ولئن شئت من ذلك فارس التي أخذت هي الأخرى في اهداب نهضة قوية ابتداء من

القرن العاشر الهجرى فانمر مسرعين خلال البلاد الاسلامية للنظر
حاله قبيل الفتح العثمانى .

* * *

حينما أخذت الدولة العربية فى الاضمحلال كانت فارس
فى طريق نهضة كبرى ، فقد انتقل النشاط السياسى من بلاد الجزيرة
إلى هضاب إيران ، وأخذت تظهر هناك دول جديدة عربية المظهر
فارسية الروح ، وأخذت جهود الفرس تنصرف نحو بلادهم وتتحول
نحو إيقاظها والسمو بها من جديد ، ولكن هذه النهضة لم يكتب لها
النجاح فى ذلك الحين إذ أخذ الأتراك الممغول يطرقون أبواب البلاد
ويرعونها عابرين إلى نواحي الشرق الأدنى أو مقيمين فى نواحيها ،
فأوقفت هذه التيارات التركية والمغولية حركة النهوض ، وكان على الفرس
أن ينتظروا حوالى ثلاثة قرون حتى تنجاب عنهم غمرات الترك والمغول ،
ثم يأخذوا فى النهوض من جديد فى أوائل القرن السادس عشر .

نهضة فارس

يبد أن جذوة النهضة لم تخدم تماما طوال القرون التى حكم الترك
والمغول خلالها بلاد فارس ، فقد تحول النشاط السياسى إلى نشاط
ذهنى ، وظهرت النزعات الوطنية الحبسية نبوغا فكريا فنيا ملائمة هذه
القرون كلها ، فأخذت الآداب الفارسية تنعش وتنهض ، وأثمر المزاج
بين الثقافتين الفارسية والاسلامية ثمرته فأخذ يظهر فى ربوع فارس
أدباء وشعراء ومؤرخون نابهون من أمثال البيرونى صاحب « الآثار
الباقية » والفيلسوف ابن سينا والفردوسى الشاعر الذى أيقظ الآمال
الفارسية بملمحته الكبرى « الشاهنامة »

النهضة الأدبية
والفكرية

لهذا ليس بغريب أن نجد فارس تنهض نهضة سياسية قوية بعد أن
زال عنها كابوس من المغول ، لأن الروح الفارسية كانت تتوقف
للهوض ولا يعوقها إلا سلطان المغول ، الذى أخذ يضعف ويتفرق

النهضة السياسية

خلال النصف الثاني من القرن الرابع عشر

بشر بهذه النهضة أحد شيوخ أردبيل المسمى صفى الدين ، إذ أخذ يدعو الفرس إلى المذهب الشيعى فلقبت دعوته القبول وتوافدت عليه القبائل تعلن ولاءها ، حتى أصبح إقليم جيلان مركز النهضة الفارسية ، وأتصلت الأسباب بين صفى الدين وأوزون حسن شيخ قبيلة « الآق قيون لو » اتصالاً انتهى بامتزاج المذهب الشيعى بالقوة العسكرية ، وتوافدت القبائل تشد أربز صفى الدين ، فلما مات خلف لابنه - الشاه اسماعيل - أساساً قوياً استطاع به أن يقيم دولة عظيمة ضم إليها بغداد وديار بكر والموصل وامتدت من باكوشبالا إلى ششتر جنوباً .

وكانت الدولة العثمانية إذ ذاك فى عنفوان نهوضها ، فلم يرض سلطانها سليم عن هذا العداء الذى صارحته به الشيعة الفارسية باستيلائها على بغداد ، فلم يلبث أن شن عليها الحرب . وهزم اسماعيل عند شالديران ، فكان هذا أول العداء بين فارس وتركيا ، وهذا العداء الذى سيصبح محورا من محاور التاريخ الاسلامى خلال العصر الحديث ، والذى سيكون له أثر بليغ فى كل من فارس وتركيا والعالم الاسلامى

وبلغت النهضة الفارسية أوجها فى عهد الشاه عباس الاكبر (٩٨٥ — ١٠٣٨ هـ ، ١٥٨٧ — ١٦٢٩ م) إذ أنه بذل الوسع فى انعاش الحماس الشيعى ، فجعل مشهد مركزا للشيعة الفارسية وحج إليها ، فنهفت إليه قلوب الفرس وارتفعوا به إلى مقام القديسين . فخفزه ذلك إلى الجدد فى انهاض دولته ، ولمح سائحو الأوروبيين فيه بوادر القوة فضوا إليه يشدون أزره ليستطيع مقاومة الأتراك ، وفطن هو إلى الخير الذى يجنيه من الاستفادة من أساليبهم ، فاستعان بالآخوة الانجليز شيرلى على انشاء جيش جديد مسلح بالمشاة والفرسان المدربين والمدفعية القوية

بما يمكنه من طرد الأتراك من بلاده والانتصار عليهم قرب بحيرة
أرميا فاسترد آذربيجان وكرديستان وبغداد والموصل وديار بكر .
بهذا نهضت فارس وأوجدت لنفسها شخصية مستقلة في العالم
الإسلامي ، وأصبح لها جيش قوى منظم بالأساليب الأوروبية في
أوائل القرن السابع عشر ، فتوافد إليها الرحالة وذاع صيتها في الآداب
الأوروبية ؛ بيد أن هذا الصيت جلب إليها قوما آخرين من الشمال ،
هم الروس الذين كانوا قد نهضوا نهضتهم وجددوا دولتهم برعاية
قيصرهم بطرس الكبير ، واقبلوا بجيوشهم منحدريين إلى فارس وبلاد
النهرين ؛ وبهذا أصبح لزاما على فارس أن تدفع ثمن هذا النهوض
والاتصال بأوروبا ، تدفعه بالصراع مع الروس من شمال
والبرتغاليين من جنوب ، وهو صراع شديد تهدد فارس بشر
مستطير وأصبح مدار سياستها ، وارتين بنتيجته مستقبلا وتاريخها
الحديث

وكان العراق شريكا لفارس في كل ماضى من الاحداث :
منى مثلها بغارة المغول ، وظل يرزح تحت نير خاناتهم ثمانين عاما ، ثم
استقل به تابع من أتباعهم وأنشأ به حكومة شبه مستقلة ظلت مدى
سبعين عاما لم تكن خيرا من الثمانين الماضية ، وأعقب ذلك فترة من
الفوضى كان العراق اثناءها فريسة يتنازعها أمراء التركان ، وظل على
ذلك حتى وضع قيام الصفويين للاضطراب حدا ، بادخالهم البلاد في
دولتهم سنة ١٥٠٨ م فهدأت إلى حين

العراق

الصفويين يستولون
على العراق

بدأ الفتح الفارسي عصرا جديدا للبلاد ، فأمنها من غزوات
التركان ومنافسة الأمراء ، وأعاد الرخاء في ربوعها بعد عصر طويل من
الفوضى والاضطراب ، وفي ظل الشاه أخذ تجار الفرس يخفون إلى

انغماس العراق

البلاذ ليعيدوا الحياة فى مدينها والنشاط إلى أسواقها ، وفى ظل الصفويين أخذت الشيعة تنفس فى نواحي البلاذ وتؤسس لنفسها مكانا بين أهلها : فقد اشتد اسماعيل شدة ظاهرة مع السنين وقتل منهم نفرا عظيمًا ، وأعاد انشاء مرا كز الشيعة فى البلاذ ، فأقام عند قبر موسى الكاظم مسجداً ، وعلى الجملة أصبحت البلاذ جزء من فارس الصفوية وكان هذا مبررا كافيا للسلطان سليم لغزو العراق ، فما هو بمطيق — خليفة المسلمين — اضطهاد السنة فى بلاد العراق ، ولا هو بمطيق — كسلطان الدولة العثمانية — خروج العراق من يده ، فلم يلبث أن حشد حشوده وهوى بقواته على رأس فارس عند شالديران فكسر جيوش اسماعيل وردة من الشمال والعراق جريحا ، ففتح بذلك ميدان الصراع بين الصفويين والعثمانيين على أرض العراق وما يتاخمه من ولايات ، وهو صراع طويل سيستمر بين الجانبين إلى منتصف القرن التاسع عشر . ثم عادت البلاذ إلى احضان فارس بعد عودة سليم بعد مناورة قصيرة قام بها ذو الفقار أحد شيوخ القبائل اللورية النازلة بين فارس والعراق ، ولـكن الأتراك لم يلبثوا أن فتحوها ففتحها عظيمًا ثانيا بقيادة سليمان القانوني سنة ١٥٢٥م ، الذى لم يكتف به مجرد الفتح واقامة حاكم من أهل البلاذ كما فعل سليم ، بل قسمها وأقام عليها ولاية إلتراك وآمنها من أن يغدر بها الفرس الصفويون مرة أخرى ، وأعلى بها منار السنة من جديد فأقام مسجداً أبى حنيفة النعمان وعبد القادر الجيلاني معا ، ولم يضطهد الشيعة كما فعل سليم بل آمنهم وعنى بمزاراتهم فى كربلاء والنجف ، وعاد بعد أن خلف فى البلاذ سليمان باشا أول سلسلة طويلة من الباشاوات الأتراك سيتناوبون حكم العراق حتى الحرب الكبرى

دارت رحى الحروب الصليبية فى ميادين الشام ، ولـكن مصر هي التى حملت معظم عبئها واضطلعت بأكثر نفقاتها ، ففي مصر كانت تعد

نهضة الشيعة فى العراق

سليم يفكر فى غزو العراق

الفتح العثماني الثاني

أثر الحروب الصليبية فى مصر

الجيش وتزود بآلات الحرب ، ومنها كانت تصل المؤن والأمداد والأذواد وكل ما كانت تحتاج اليه الجيوش إذ ذاك ، وفي ربوعها ومن خيرها كان جنود الحرب وفرسانها يربون ويعلمون ، فلا غرابة أن وقعت البلاد في أزمات مالية حادة عقب الحروب الصليبية

الازمات المالية
التقاسية

لهذا لا ينبغي أن يقال إن حكومة المماليك هي التي هبطت بالبلاد إلى الحضيض وقضت على كل أمل في إصلاحها ، لأنها كانت في الحضيض فعلا حينما قتل توران شاه آخر الأيوبيين وتولى سطنتها عز الدين أيبك أول المماليك حوالي منتصف القرن الثالث عشر الميلادي . وليس من الصواب أن يقال إن المماليك كانوا طغمة من الأشرار والمرزقة حلت بالبلاد فامتصت دماءها وقضت على كل رخائها ، لأن الكثيرين من هؤلاء المماليك كانوا على درجة عظيمة من القدرة واتساع الذهن ونية الخير ، ولا نزاع في أن أمثال قطز وبيبرس وقلاوون والناصر ابنه ولاشين وبارسباي يعدون من أعظم حكام المسلمين وأقدرهم وأوفرهم نصيبا في بناء مجده وحضارته ، ويضاف إلى هذا أنهم كانوا جميعا من أشد المسلمين إخلاصا للإسلام وأكثرهم تضحية في سبيله ودفاعا عن حوزته .

حكومة المماليك

سلاطين المماليك

وكان ضعف الرعية وهبوطها نفسها دافعا بالمماليك إلى الاستبداد وما نعاياهم من التخرج منه أو إيثار العدل عليه . ويكفى أن يقال إن الرعية كانت ترجو الانصاف ولكنها لم تجرؤ على المطالبة به ، وكانت تسكره الحسك ولكنها كانت تعلن الحب والولاء لهم ، وكان رجال الدين في هذه الأيام أضيق المسلمين عقلا وأبعدهم عن فكرة الانصاف والعدل والحسك الصالح . ولم يكن العصر — في الشرق على الأقل — عصر إصلاح أو نهوض ، ولا عصر نهضة فكرية ، بل كان نهاية عصر طويل من الاضمحلال والاضطراب ، ولهذا اتصف بما تتصف به نهايات العصور وخواتم الدولات من الاضطراب والفوضى والركود وهبوط الهمم .

ضعف الروح المعنوية
عند المصريين آنذاك

وكان الكثير من سلاطين المماليك أُنذاداً لمعاصريهم من ملوك الشرق والغرب : يحالفونهم وبيعثون السفارات إليهم فلا يقصرون في شيء من ذلك ، بل كانوا يظهرون براعات تفوق ما كان يقوم به سلاسل بيوت الملك في ذلك الزمان ، مما رفع مركز مصر الدولي إلى أوج لم تبلغه في أي عصر بعد ذلك ، حتى أصبحت مصر بفضلهم محورا من محاور السياسة العالمية إذ ذاك ، فاذا أضفنا إلى ذلك أن سلاطينهم كانوا يحكمون مصر والشام فعلا ، ويدسطون سلطانهم على الحجاز واليمن وطرابلس وأرمينية والنوبة عرفنا مدى سلطة هؤلاء المماليك وقدرتهم على الحكم ، وعرفنا كذلك نسبتهم إلى معاصريهم من الملوك في الشرق والغرب على السواء ولعل أعظم ما أداه المماليك لمصر والشام هو حربهم للمغول واقتدارهم على هزيمتهم أربع مرات متواليات ، أثبت المماليك في كل منها أنهم أقدر الناس على الحرب وأثبتهم جنانا ، وأكثرهم قدرة على احتمال الهجمات ، فقد كان المغول جماعات زاحفة تتدفق على الشام بين الحين والحين على هيئة موجات مخربة شديدة الهجوم لا يثبت في وجهها أحد ، ويكفي أن نذكر ما أحدثوه ببغداد ودمشق وحلب حين دخلوها حتى ندرك مدى الخدمة التي أسداها المماليك لمصر والشام والحضارة الإسلامية عامة بهذا العمل .

المماليك والغول

وإلى المماليك كذلك يرجع الفضل في إعادة منارة الخلافة الإسلامية ، إذ أن يبرس أحب أن يعوض الإسلام ما تهدم من خلافته بقضاء هولاكو على خلافة بغداد ، فاستقدم أحد سلاسل بني العباس وأقامه خليفة ولقبه المستنصر ، وتسلم منه الخلع الخليفة ، ثم أرسله إلى بغداد مع قوة مكنت له من دخولها ، ثم عاد فقرر نقل مركز الخلافة إلى القاهرة حذراً من وقوع الخليفة تحت سلطان أحد غيره من أمراء المسلمين ، وبهذا انتقلت الخلافة العباسية إلى القاهرة ، وعادت

إعادة الخلافة

للإسلام خلافته ولو صوريا فقط ، وظلت قائمة بها حتى تسلمها السلطان سليم سنة ١٥١٧ فانتقل مركزها إلى الاستانة .

المماليك برهقون
البلاد

لكي يستطيع المماليك القيام بنفقات هذا كله كان لابد أن يرهقوا البلاد التي كانت مرهقة فعلا حين بدأ سلاطينهم يتعاقبون على عرشها ، ولكي ينعم المماليك بهذا المظهر الخلاب كان لابد أن يكتفى ببقية أهل مصر بالفقر والاطمار ، وكان عليهم أن يجتهدوا في اعداد معدات الجيوش دون أن ينالوا أقل الجزاء ، ومن ثم حرم المصريون من مغائم الحرب وطرائف السلطان ، واقتصروا عملهم على تقديم نفقات الحروب وصناعة معدات وولاية مسائل الدين في البلاد ، فأخذت قواهم تضمحل وشخصيتهم تضعف ، وكلما انقضى عصر زاد المماليك قوة وزاد المصريون ضعفا ، حتى إذا انتهت أيام المماليك الأول كانت النسبة تكاد تكون معدومة بين الحاكمين والمحكومين . بيد أننا لابد أن نذكر أنهم - أي المصريين - قد قاموا في هذه العزلة بأخذ ما يندكر لهذه الأيام ، فبنوا العمائر الفخمة ، وصنعوا الطرف الثينة وحملوا لواء الحضارة المادية ورفعوه عاليا رفيعا ، وجعلوا من ذلك العصر المملوكي أوج الفن الاسلامي في الصناعة والهندسة والتصميم والزخرفة والنسيج

اضمحلال المماليك

وحوالي منتصف القرن الرابع عشر الميلادي انتهى عصر المماليك العظام وخلفهم ممالك ضعاف لا يقتدرون على ما اقتدر عليه الرعيل الاول منهم ، ولم يستطع أحدهم أن يوقف جنده عند حده فبدأ جنودهم يعيثون بالبلاد ويركبونها بكل مساواة ، من غير أن يكون عليهم حرج من سلطان ، فاشتد الضعف بالبلاد ووصلت في أواخر القرن الرابع عشر إلى حال من الضعف والاضطراب لم تعهد عليها في أسود أيامها ، واقترن هذا الهبوط التام بظهور فئة جديدة من المماليك

عرفت باسم الممالك الجراكسة ، غصبت الامر من آخر البحرية واستبدت بالامر استبدادا عظيما . ولا محل لتقسيم الممالك إلى بحرية وشراكسة ، فليست الطائفة الأولى كلها من ممالك قلعة الروضة ، وليست الطائفة الثانية جراكسة اطلاقا ، وإنما هم جميعا طائفة واحدة ذات أصول مختلفة وأسلوب واحد من الحكم .

بحارة الهند

وفي أواخر القرن الرابع عشر وأوائل الخامس عشر الميلاديين انتظمت تجارة الهند عن طريق مصر والشام ، وتفتن بارسباى إلى ماتغله هذه التجارة من الربح ، فاهتم بتيسير سبيلها وتمكينها من المرور ببلادها حتى يفوز من أرباحها بأوفر نصيب ومن هنا كان اهتمامه بإعادة سلطانه في اليمن وبلاد الحجاز ، وكان أصحاب اليمن يعسفون السفن المارة بالبحر الأحمر عسفا يمنع التجار من التقدم شمالا إلى الموانئ المصرية كالسويس وعيذاب ، وكان أشرف مكة يتبعون التجار بمثل هذا الأذى مما اضطرتهم إلى الاكتفاء بالصعود في البحر الأحمر إلى سواكن وبيع بضائعهم هناك ، فأمر بارسباى عماله في جدة وينبع بالتدخل في ذلك الأمر ، فكان من نتيجة ذلك حماية التجار الهنود من عسف اليمنيين والحجازيين ، ولهذا أخذت المتاجر الهندية تصعد آمنة إلى جدة وينبع من حوالى سنة ١٤٢٥ م وربحت خزائن بارسباى منها حوالى سبعين ألف دينار في العام ، وكانت المتاجر تمر بعد ذلك في أراض وبحار كلها خاضعة لسلطان الممالك فتتبعوها بالضرائب من ميناء لميناء ومن سوق لسوق حتى أصبح ما يجي عليها من المال أضعاف ثمنها الأصلي ، فامتنع تجار البنادقة عن شرائها في أسواق القاهرة أو الاسكندرية ورشيد ودمياط ، وفضل تجار الهند أن يبيعوا بضائعهم في أسواق عدن وسواكن ، وأرسل البنادقة سفينة لتتقل تجارهم من الاسكندرية إندانا بقطع العلاقات التجارية ،

أرباح التجارة الهندية

فلما لمح بارسباى الخطر يهدد موارده بسبب ذلك كف عن الاحتكار وخفض المكوس وأطلق التجارة ، ولكنه عاد فاشتد مما أدى إلى توتر العلاقات واضطراب مجرى التجارة مرة أخرى ، وقد حاول جقمق وينال أن يعالجا الأمر فلم يفلحا ، وأخذ إيراد المماليك من التجارة في الهبوط مما أضعف سلطانهم وزادهم عسفا للرعية وافسادا للحكم في البلاد ، وكان من نتائج ذلك العسف أن توجهت همم البرتغاليين إلى كشف طريق جديد للتجارة بعيدا عن احتكار المماليك والبنادقة ، مما انتهى بكشف طريق رأس الرجاء ، وتحول التجارة عن طريق البحر الأبيض

البرتغاليون يحاولون كشف طريق رأس الرجاء

وكان نجم الأتراك العثمانيين في صعود في هذه الأيام ، وكانت فتوحاتهم في البلقان قد بلغت مبلغا مكثفهم من الانتفات للشرق ، فآخذوا يمدون حدودهم في أعلى الفرات وشمال الشام ، وهناك بدأ الاحتكاك بينهم وبين المماليك ، إذ كان أمراء دى القدر وغيرهم يتوجهون بالولاء لسلطنة مصر ، فأخذت العلاقات بين الجانبين تسوء ، ولم يهتم سلطان المماليك إذ ذاك - قايتباى - بأن يصانع العثمانيين ، بل صارحهم بالعداء ، فاوى الأمير جم أخا بايزيد الثانى وعدوه ، ثم تورط في العداء أكثر من ذلك فباع هذا الأمير إلى البابا بيعة جلبت عليه العار وأثارت غضب بايزيد وألمه .

بدء الاحتكاك بين المماليك والأتراك

ولم تزل الأمور تتعقد بين الاستانة والقاهرة حتى انتهت بالفتح العثمانى لمصر ، على ما هو معروف ، بيد أنه من الواجب أن نقول ان هزيمة مرج دابق لم تكن قاضية على سلطان المماليك في هذه الديار ، بل كانت إيذانا بعصر ثالث من حكمهم تحت سيطرة آل عثمان بدأ من صيف سنة ١٥١٦ .

مقدمات الفتح العثمانى



كانت البلاد الشامية ميدان الحروب الصليبية ، فكانت أحفلها

الشام

بمصائب تلك الحروب وأشدّها تأذيًا من عقايلها ، فقد انتهت الحملات الصليبية في النصف الثاني من القرن الحادى عشر ، ولكن الاسلام والنصرانية ظلّا يتساجلان في أرض الشام بعد ذلك إلى نهاية القرن الخامس عشر ، فاستمر ممالك مصر يواترون الحملات على ما بقى للصليبيين من محارس في الشام حتى استولوا على آخر معاقلهم - عكا - في حدود سنة ١٢٩١ ميلادية ، وبهذا بارح أرض الشام آخر امراء الصليبيين إلى قبرص واستقروا بها على أمل العود القريب . ترك الصليبيون أرض الشام ولكنهم أقاموا في بجزار الشام ، وظلّوا يهددون الساحل الشامى ويهاجمونه وينزلون بأهله الاذى بين الحين والحين . ولو قد اقتضت نكبات الشام بعد الحروب الصليبية على عقايل هذه الحروب لكان في صلاح الحال رجاء ، ولكن حكومته صارت بعد هذه الحروب إلى ممالك مصر فحكموه من القاهرة حكما سيئا زاد حاله سوء . وأضاف إلى علله علة جديدة : هى انتشار المظالم وزيادة الجبايات ودوام المنازعات بين نواب الأقسام

وكانت نتيجة ذلك هبوط بلاد الشام هبوطا تاما خلال القرون التى تلت الحروب الصليبية ، استمر إلى أواخر القرن الثامن عشر ، فلما فاجأها الفتح العثمانى فى أوائل القرن السابع عشر ألقي بها رمقاً من الحياة يضطرب فى تجارة الساحل وبعض المدائن ، فقضى عليه وهوى بالبلاد إلى حال من الركود والفساد لم تعهد عليها خلال تاريخها الطويل جميعه .

بيد أن لحروب الصليبية خلفت بين المسلمين والأوربيين لونا آخر من العلاقات غير الحرب والعداوة ، وهو التجارة وتبادل المنافع والحضارة ، فقد فطن الكثير من تجار الفرنج إلى خيرات الشرق وما يعود عليهم من الربح من المتاجرة فيها ، فواصلوا جهودهم بعد خروج الصليبيين ، ولما كان الممالك قد تابعوا حملاتهم على بلاد الشام فقد

سقوط عكا

هبوط البلاد

العلاقات التجارية بين الشرق والغرب

انتقل تجار الفرنج والايطاليين إلى قيليقيا بآسيا الصغرى ، وهناك
أنشأوا سوقا واسعة للمتاجر توافد اليها التجار من نواحي الشام وآسيا
الصغرى يبيعون للفريجة ويشتررون منهم . ولكن تلك السوق لم يطل
بها الأمد زمنا طويلا إذ لم يلبث المماليك أن فطنوا لها فهاجمها
الناصر بن قلاوون سنة ١٣٤٧ م واستولى عليها وخرب سوقها . فحمل
تجار الأوروبيون متاجرهم إلى جزائر الارخبيل : وحطوا فيها ، معتمدين
على أساطيلهم وتفوقهم في البحار في تأمين متاجرهم وإيصال بضائعهم
إلى سواحل الشام ، ومن ثم كثر نزول الأوربيين بالساحل واقامتهم
أسواقا سريعة لا تلبث أكثر من بضعة أيام : يهرع اليهم خلالها تجار
المسلمين فيتبادلون السلع ثم يطوى التجار متاجرهم ويعودون إلى سفنهم
ليحطوا في مكان آخر ، وهكذا حذرا من الحسام . وأخذ المماليك
في الانحلال وأخذ سلطانهم على البلاد في الضعف تبعا لذلك ، فجعل
التجار يطيلون مكثهم ويحتلون لذلك بالقوة حيناً والرشى حيناً آخر ،
حتى نشأ في كثير من ثغور الشام مثل بيروت وصيدا والاسكندرية
أسواق تجارية نافقة ، واعتاد الناس المتاجرة مع الأوربيين ، ولم يلبث
الحكام أن تبنوا ما يعود عليهم من الريح إذا سمحوا بقيام هذه
التجارة وفرضوا عليها المكوس والجمارك ، فأخذوا يسمحون باقامتها
ويشجعون أسواقها في ثغور الشام

سوق قيليقية

الاسواق المنقلة

وكانت بيروت أكبر هذه الثغور وأكثرها تجارة ، لأنها مقابلة
لقبرص ملجأ الافرنج وأقرب الثغور لتجار الايطاليين من آل البندقية
وجنوه وبيزه ، فكانت قبرص مخزن المتاجر الأوروبية اليها يخف تجار
أوروبا من قطلونيا وبروفانس وليون ومرسيليا والبندقية واليونان ،
ومنها تنصرف التجارة إلى بيروت حيث يتسلها عمالهم من الفرنج
وعملأؤهم من المسلمين وبمرور الزمن أخذت حكومات الجمهوريات

نهوض بيروت

القنصليات

الايطالية تنشئ قنصليات في بيروت وغيرها من ثغور الشام ومدنه .
وبهذا أخذت العلاقات السلمية التجارية بين الشرق والغرب تنمو
وتتشد ، وفطن المماليك إلى ما يعود عليهم من الضرائب والجمارك
التي كانوا يجبرونها على هذه المتاجر والقنصليات فشجعوها ، ولهذا
أصبحت الجامعات التي كانوا يجبرونها موزدا لا ينضب من الربح لهم ،
وكانت نتيجة ذلك انتعاش الموارد واتصال الامور بينهم وبين المجموعة
المسيحية في أوربا ، مما أدى إلى اهتمام دول أوربا - وفرنسا خاصة - بالشام
أما داخل البلاد فقد كانت الأمور تسير فيه من سىء إلى أسوأ ،
فقد اشتد بالأهلين عسف المماليك وثقلت عليهم المجاعات وغارات
البدو ووافدات الأوبئة ونوازل الجراد وغزوات المغول . وكان
نواب الأقاليم لا ينفكون يتدابرون ويتنازعون فيصيب البلاد من جراء
ذلك أذى بالغ ، وزادت الأحوال سوء حين انتقل ملك مصر من
المماليك البرجية إلى المماليك البحرية حوالى سنة ١٣٨١ م
وكانت العلاقة في هذه السنوات آخذة في السوء بين المماليك والأتراك
الذين كان ساعدهم قد اشتد في آسيا الصغرى ، مما جعل الأتراك
ينظرون للشام بعين الطمع ويرجعون الضربة إلى حين ، حتى إذا سنحت
الفرصة سنة ١٥١٧ فقد أسرعوا فغزوا الشام

بهذا أعاد الأتراك الوحدة الإسلامية ، وجمعوا بلاد الشرق
الإسلامى إلى لواء الخلافة من جديد ، ووجدت الشعوب الإسلامية
قوة تحميها وترد عنها أذى الغزوات المفاجئة والغارات الطارئة التي
ظلت تروعا قرونا طويلة . وبدأ العثمانيون يضعون لهذا العالم الغفير
الذى صار إليهم نظاما ثابتاً للحكم والادارة والدفاع ، فأقروا كل ناحية
على نظامها مع تعديل في تقسيمها اقتضاه نظام الدولة العام ، وأقيم على
كل ناحية حاكم تركى يرسل من الاستانة ويبقى في مركزه ثلاث سنوات
تعززه قوة من الجيش العثمانى تقيم معه في عاصمة البلاد أو على حدودها ،

اضمحلال البلاد

سوء العلاقات بين
المماليك والأتراك

الأتراك يعيدون
الوحدة الإسلامية

وما عدا ذلك كان يترك لأهل البلد أنفسهم ينظمونه على النحو الذى يريدون ، فظل بمالك مصر مثلاً يقومون بحكم البلاد كما كانوا قبل مجيء العثمانيين ، وظل أمراء الشام ورؤساء قبائله يصرفون الأمر على النحو الذى اعتادوه قبل مجيء العثمانيين ، أى الحكم العثمانى الجديد لم يزد على أن ضرب نطاقي عسكرياً حول البلاد ، وفرض عليها جبايات منظمة تؤدى كل عام ، وتركها بعد ذلك حرة تصرف أمورها على النحو الذى اعتادت أن تصرفها به قبل الفتح ، ولهذا لم تكسب الوحدات الإسلامية شيئاً كثيراً بهذا الفتح الجديد ، حتى الأمن الذى شملها فى السنوات الأولى منه ، لم يلبث أن اضطرب حبله وعاد الأمر فوضى كما كان فالقول بأن الدولة العثمانية كانت وحدة تجوز يراد به التبسيط والايجاز لا التدقيق والتحديد ، إذ أن كل ناحية استمرت بعد الفتح على نظامها قبله ، والقول بأن الدولة العثمانية كانت حكومة عامة خطأ ظاهر لأن رجال الدولة ما كانوا يقتدرون على وضع نظام جامع مانع للدولة كلها وظلت الفوضى على حالها وإن سكنت حيناً قصيراً ، وكانت الدولة إلى ذلك غاصة بالهيئات والأقليات التى تعيش بانظمتها وقوانينها بل فى رعاية ملوكها لا يكاد السلطان يملك من أمرها شيئاً ؛ حتى القول بأن قيام الدولة العثمانية كان يقظة للعالم الإسلامى لا يخلو من خطأ ، إذا استمر الركود بل استحالة نموها ، وزادت الهمم هبوطاً والعقول جهلاً ، وتضاءلت فى نواحي الدولة بوارق النهوض الأدبى أو الفنى التى كانت تنبىء بالخير فى بعض نواحي مصر والشام ، فسكن كل شىء وركد فى ظل هذه الوحدة الظاهرة التى عرفت « بالدولة العثمانية » . وانقطعت الصلات التجارية والحضارية بين الشرق والغرب بعد أن كانت قائمة ماضية فى سبيل القوة فى أواخر أيام المماليك كما سبق بيانه ، فكان انقطاع الصلات هذا أكبر العوامل فى تفوق أوربا على العالم الإسلامى إذ أنه وقف مكانه ومضت أوروبا فى سبيلها قدماً كما سيجى .

الدولة العثمانية

انقطاع الصلات بين الشرق والغرب دائرة

وكانت الأمم التي تكون هذه الوحدة ، قد أدركها شيء من الأعياء والفتور من فرط ما جاهدت تحت راية الاسلام . ولعلها الشيخوخة أدركتها بعد أن اطمأنت إلى الجنة التي فتح الاسلام أبوابها للمتقين ، فأخذت تنسحب من ميدان السياسة والتاريخ واحدة فواحدة : ارتد العرب إلى جزيرتهم ، وصاروا أعراباً لا يملكون من أمر الاسلام والمسلمين شيئاً ، واضمححل الشام عشية بارحته الخلافة إلى بغداد ، وانتهى أمر العراق غداة غزوة التتار .

ولم يكن في مقدور العثمانيين — لقاتلهم — أن ينهضوا بأمر هذا العالم الغفير ، ففعلوا ما يفعله الرعاة حينما يروضون الغنم ، فيستعينون بالسكالب على حراستها . واتخذت الشعوب الاسلامية هيئة قطعان من الماشية ، ترعى في كنف السلطان ، وتطمئن في حماية الانكشارية والماليك وأصبح حالها أشبه بهذه الضفادع التي حدثنا « لافونتين » أنها عجزت عن أن ترد الأعداء عن أرضها ، فأقامت على نفسها بجحاً حاكماً ، فكان يأكل من الرعية أكثر مما يأكل من الأعداء !

اضمحلال الشرق
الاسلامي في حكم
الانزاع

بهذا نستطيع أن نفهم كيف كانت سيادة العثمانيين شراً على العالم الاسلامي ، فبدأ يضمحل من الناحية المعنوية ، حتى أصبح وقطعان الماشية قريباً من قريب ، يؤدي للراعي ما عساه يريد منه . وإذا كانت هذه هي كل مهمته في الحياة ، فلم تعد به حاجة إلى التفكير أو العلم ، فبدأ يطغى عليه الجهل والجمود ، حتى أصبحت ظلمات بعضها فوق بعض ، وما هي إلا سنون ، حتى بدأ النوم يداعب أجفان الراعي ، ومال به غناه إلى الزف والراحة ، فوكل للانكشارية أمر الرعية ، وأقبل على النوم ، فاستولى عليه سبات عميق .

وكانت أوروبا قد بدأت تفيق من غفوة القرون الوسطى ، وكان
(٣)

ارتدادها إلى حضارة الأغريق والرومان ، قد أفضى بها إلى رحاب واسعة من الحرية . وبدأت الحياة تتكشف أمام أهلها عن أفاق جديدة ، فتفطن بعض علمائهم إلى استدارة الأرض ، وزاد آخرون فاستنتجوا أنهم يستطيعون أن ينفذوا إلى الشرق دون أن تكون بهم حاجة إلى المرور بأرض الأتراك الذين كانوا يؤذونهم أذى شديداً ، وذلك بأن يسلوكوا طريق الجنوب فيدورون حول أفريقيا ، ومن هنا كانت العزلة التي ضربت على العالم الإسلامي . فلم يعد أحد يطرق له باباً . أقتلت الشغور وطويت الأشرع ، وانقطعت التجارة التي كانت تتيح لأهلها ربحاً وفيراً ، فزادت عليه علة جديدة هي الفقر الذي بدأ يعم ويشمل ، حتى بات الحكم يشكونه قبل الرعية ، فاذا زاد بهم ألم الحاجة فقد انقلبوا على الرعية وبدأوا يرهقونها حتى زالت معالم الغنى وأضرب الناس والحكام ، فلم يعودوا يقيمون المساجد والأبنية ، وسكنت ریح الشرق ، وساد عليه ظلام رهيب ، لا تكاد تلمح فيه غير أشعة ضئيلة ، تضطرب في صحون الأزهر وغيره من المساجد .

بهذا ساد الانكشارية والمماليك ، فأما الأولون فقد استهواهم النوم الذي استولى على سيدهم ، وبدأ الكسل يطغى عليهم ، حتى أصبحوا كذكور النحل تؤذى ولا تفيد ، وأصبح لزاماً على الناس أن يفعلوا بهم ما تفعله عاملات النحل حين يهجمن على الذكور فيقتلنها ، دفعة واحدة ، وأما الآخرون — أى المماليك — فلم يكن ممكناً أن يهدأ أمرهم ، إذ أنهم لم يكونوا كالانكشارية خدماً لسيد واحد ، يرفع منهم من يشاء ويخفض من يشاء ، وإنما كانوا عبيد سيوفهم ترفعهم إلى مراتب الأحرار وعروش الملوك ، فكانوا يحاذرون النوم مخافة أن يؤخذوا على غرة ، وقامت بينهم المنازعات واتخذوا المزارع والأسواق ميادين لها فانقطعت عن الرعية موارد الرزق ، ولم يبق أمامها إلا أن تقنع من العيش بالكفاف

وبدأت الأمراض والطواعين تفتك بها ، وانتهى بها الأمر إلى حال من السوء ما عليها من مزيد .

النهضة
الاوربية

في هذا الحين ، كان قد استقام لاوروبا لون من الحضارة جديد ، نستطيع أن نميزه عن غيره من ألوان الحضارات ، إذا قلنا أنه لم يكن حضارة ملوك أو أحرار ، وإنما كان حضارة شعوب ، تحرر الناس في ظلها من آثار القرون وأعراف الزمان ، وأصبحوا أحراراً فيما يأتون من أمر ، وما يعلنون من فكر ، وأصبحت الشعوب تسير الملوك فإذا أبى الملوك طاعة الرعية ، ردوا إلى حدودهم أو خلعوا .

تطور المجتمع
الاوربى
الشركات

وكان العلم قد فتح للأوروبيين رحاب الأرض ، فانطلقوا ينجبون للقارات والمحيطات طلباً للرزق ، وهداهم العقل إلى الطبيعة ، فسخروها لأنفسهم فحملتهم إذا ازعموا الرحيل ، وحاربت في صفوفهم إذا حاربوا . وعرفت الثروة طريقها إلى خزائن المصارف والبلديات ومحال التجار ، وظهر في ربوع أوروبا ، من أفراد الشعب ، من هم أغنى من ذوى التيجان ، وأخذت الشعوب تجند من صفوفها جيوشاً تساهم بالمال والعمل ، وتنشئ الشركات ، التى وفقت إلى الفتوح توفيقاً لم تدركه الجيوش ، فما يعبأ المحارب إذا تزعزع نفوذ ملكه ، مادام يتقاضى أجره ، وإنما يفرغ المساهم في الشركة ، إذا مس ماله الأذى . كذلك حل رجال الفكر والعلماء والشعراء ، محل القسوس والرهبان في قيادة الناس ، وأصبح الأوروبيون أكثر صلة بالطبيعة وأمس رحماً بالحياة ؛ ولم يتخرجوا في سبيل العيش ، من أن يعلنوا ثورتهم على الدين ، وأن يهملوا حدوده وشعائره التى كانت همهم في القرون الوسطى ، بل استدعى نضالهم في الحياة أن يتحد كل فريق ، ويعتز بوطنه ، فصارت الوطنية عندهم إلى مقام يشبه مقام الدين

التقدم
الفكرى
والعلمى

بهذا هاجم الغرب الشرق بثلاثة أسلحة لا قبل للأخير بها ، هي الحرية والعلم والفكر .

الحضارة الغربية
جوانب حيرها

كل هذا ، ولا زال الراعى وكلايه في نومهم الهادى ، ولا تزال رعاياه فى مرعاها ، وقد أحالها الفقر والمرض والجهل إلى حال من الجمود لم تعد تحس معها شيئاً مما حولها وكانت أوروبا لا تزال تحفظ للشرق الاسلامى الشئ الكثير من الاحترام لأنها لم تنس بعد ، بأسه الشديد فى الحروب الصليبية وفتوحات الأتراك ، ولكن نفرا من السائحين ، بدأ يدخل الشرق ، ويطوف به ، ويتأمل أحواله فيزداد عجباً ، ثم يمضى إلى قومه ، فيتحدث اليهم عما رأى من انحطاط المجموعة الاسلامية وضعفها البالغ ، فبدأ الأوروبيون يشكون فى قوة الشرق الاسلامى وبدأت هيئته تسقط من أعينهم وفكروا فى استعمال طريق البحر الأبيض من جديد ، وكانت سفنهم وأساطيلهم قد أحاطت بالمجموعة الاسلامية من الشرق — فى المحيط الهندى ، وكان بعض المجازفين منهم يفضل أن يخترق العالم الاسلامى إلى الشرق ، فيلقى من عنق حكام المسلمين شيئاً كثيراً .

وكان الأوروبيون قد شغلوا بالمنازعات التى استطارت بين قومياتهم الناشئة . شغل آل هابسبرج بالبربون ، وشغل الانجليز بالفرنسيين ، واثارت بينهم منافسة حادة على المستعمرات فى الهند وأمريكا .

كذلك قامت البروتستنتية فى أوروبا ، ولم يكن بد من أن يقوم النزاع بينها وبين الكاثوليكية ، فاشتدت الخصومة بينهما ودامت زمناً طويلاً ، وظهرت بأجلى صورها فى حرب الثلاثين سنة التى اشتركت فيها أوروبا كلها وانتهت بانتصار البروتستنتية الذى تقرر فى صلح وستفاليا سنة ١٦٤٨ ، فشغل الأوروبيون خلال ذلك عن عدائهم المسلح للإسلام

على أن أهم تطور حدث في أوروبا في أوائل العصر الحديث ، هو تطور أساليب الحرب وفنونها وآلاتها ، فقد كانت كفة الشرق والغرب متعادلة — إلى حد ما — عندما كان سلاح الفريقين واحداً ، بل كان الشرق هو الأرجح لما لأهله من الحماس والاندفاع في الميدان ، نرى ذلك واضحاً لا يحتاج لبيان في الحروب الصليبية التي كانت السكفة الراجعة فيها للشرق دائماً ، فلما كان العصر الحديث وحروبه الكثيرة ومنازعاته الشديدة وجد الأوروبيون في ذلك مجالاً طيباً للاستزادة من الخبرة والمران والاختراع فنشأت أساليب جديدة في إعداد الجيوش وترتيبها ، وإعداد الجنود للميدان ، وفي الحركات الحربية وهندسة الميدان وما إلى ذلك ، وسنرى أن هذا التقدم الحربي سيكون هو السبب الأكبر في هزيمة الشرق وانتصار الغرب ، وسنراه واضحاً جلياً في كل معركة أو نزاع بين الاثنين ، سنرى الشرق جامداً على أساليبه محاولاً الاستفادة منها على خير وجه ، وسنرى الغرب يفتن ويتبدع في الحركات الحربية وآلات القتال من بنادق ومدافع وآلات حصار فيكون الفرق بين الاثنين ظاهراً بيناً له نتيجة الحاسمة . وقد أحس المسلمون الذين تلقوا هجمات الغرب الأولى بهذا الخطر وحاولوا أن يصالحوا شأنهم من الناحية الحربية ليصدوا تقدم الغرت ولكنهم لم يفلحوا ، لأن هذا التطور — ككل تطور غربي في العصر الحديث — إنما أساسه العلم والتجربة الطويلة ، فقواد نابليون الذين كانوا يستعملون مربعات الجنود لصد هجومات المماليك الشديدين كانوا يطبقون أساليب درسوها في المدارس الحربية ومرتوا عليها في عشرات المواقع التي اشتركوا فيها قبل قدومهم إلى مصر ، ومن الغريب أن المماليك لم يحاولوا أن يقلدوا الفرنسيين في شيء من أساليبهم على رغم أنهم استبانوا فضلها وقوتها ، وإنما مضوا على ما القوه في حروبهم القديمة

فكانت النتيجة هزيمة ساحقة متوالية انتهت بفنائهم من التاريخ ، ولعلنا لا نعجب كثيراً كيف استمر تفوق الغرب إلى اليوم مع ان الشرق بدأ يتخذ أساليب الغرب منذ زمن بعيد . ولكن الواقع أن أقوى عناصر الجيش الأوروبي هي روحه المعنوية ، يشعر كل جندي فيه بنفسه وبوطنه ويندمج مع الآخرين في الصفوف فيصبح الجيش قوة معنوية عظيمة لا يكاد يقاس اليها حماس الشرقيين الذي يقوم على الاندفاع ولهذا ترى ان الشرق سيظل مهزوماً مهما يصلح في أساليبه ، وسيخسر المواقع مهما يتقن من عدة في الحرب وآلاتها ، ولا يبدأ ينتصر حتى ترتقي روح جنوده المعنوية فيصل بذلك إلى مستوى العسكرية الأوروبية .

بدأ هذا التقدم الحربى يأخذ شكلاً اظاهراً في حرب المائة عام بين إنجلترا وفرنسا اذا اكتشف الناس أثنائها قوة المشاة وعرفوا سبل الاستفادة منهم على خير وجه ، ثم حروب شارلمان التي شملت أوروبا كلها واتخذت هيئة صراع بين البروتستنتية والكاثوليكية والتي أيقظت في نفوس المحاربين الأوروبيين روحاً جديداً ، وزادت خبرتهم بأساليب الحرب وأخرجت قادة قادرين من امثال جستاف أودلف واسكندر فارنيز وموريس نساو ومن اليهم ، وأصبحت الحرب علماً له قواعده وأصوله ولم تعد مجرد حماس واندفاع وبهوانية في استعمال السيوف والقرابينات . كذلك كانت العقول تتطور في أوروبا تطوراً شاملاً عميقاً ، وأخذ موقف الاسلام من النصرانية يتبدل تبعاً لتبدل التفكير في بلاد الغرب واليك كلمة ممتعة للاستاذ باركر مؤرخ الحروب الصليبية يفصل فيها هذا التطور أبين تفصيل :

« ولم تجدد أوروبا في الحروب الصليبية سبيلاً للاتحاد الداخلى فحسب ومؤثراً جديداً في شتى مرافق حياتها الداخلية ، ولكنها كسبت عن سبيلها نظرة جديدة واسعة للحياة ، وقد كان هذا الاتساع في مدى النظر أكبر ما كسبته أوروبا من الحروب الصليبية

إذا أضفنا إليه نمو روح الكشف وتقدم الجغرافيا
 بدأ عصر الكشف الاسيوى الزاهر فى القرن الثالث عشر ، وهو
 يعادل عصر الكشف الأمريكى فى القرن السادس عشر — ان
 لم يساويه — وانتهى بعد ذلك بقرن من الزمان . وكانت آسيا أثناء
 هذه الفترة تجمعها امبراطورية مغولية مفككة العرى تمتد من القرم
 وتبريز وبخارى وسمرقند الى كمالوك (بكين) وهنكاو . وكان المغول
 الذين احتفظوا بعقيدتهم الشامانية متسامحين مع العقائد الأخرى ،
 ولم يكونوا هم أنفسهم مسيحيين ولكن بلادهم ضمت نفراً من هؤلاء
 فرجا المتفائلون من المسيحيين تحويلهم إلى النصرانية ، وعزز هذا
 الرجاء ميل الأوروبيين التجارى الذى دفع بهم إلى البحث فى بلاد
 المغول عن مراكز التجارة الاسيوية . وقد كانت البعثات التبشيرية
 التى أرسلت إلى بلاد المغول ترجو من وراء رحلتها أن تحقق أمل
 الصليبيين وتستعيد بيت المقدس إلى الأبد وقد كان بين أعضاء
 هذه البعثات أفراد مثل رايمند لىل يقدر أن البعثة التبشيرية أبعد
 أثراً من الحملة الحربية ، ومن هنا أصبح تنصير آسيا غاية قائمة بذاتها
 يرمى من وراءها أمثال هؤلاء المتفائلين ان يملأوا الدنيا بعلم الله كما هى
 مملوءة بماء المحيطات . . وقد وجدت هذه البعثات عوناً طيباً فى تسامح
 المغول وفى وجود مدارس النسطوريين فى آسيا ، فاستطاع جون مونت
 كورفينو — مؤسس الكنيسة اللاتينية فى بكين — فى أوائل القرن الرابع
 عشر أن يصبح اسقفا لبكين وكان معه ثلاثة من الرهبان الفرنسيسكيين
 المساعدين . . وسار التاجر الايطالى فى ظل البعثة التبشيرية كما كان
 ملاحو الموانئ الايطالية يرافقون الحملة الصليبية ، ولم يسفر ذلك عن
 رحلات « آل بولو » وحدهم بل استطاعت شركة ملاحه جنوية ان
 تمخر مياه بحر قزوين ، واستقر قنصل بندقى فى تبريز بيد ان
 كل هذا الأمل المعقود قد تهدم عن آخره ، وتلاشى ذلك الحلم الخادع

الذى كان يرسم لأصحابه فى الخيال صورة آسيا وأوروبا المسيحيين. تحصران بينهما الاسلام ، فلا يصبح بعد ذلك الا عقيدة متضائلة. محصورة فى فئة قليلة من الناس فى ركن أسبانيا وفى جانب من شرق البحر الأبيض ، ذلك ان خانات فارس دخلوا الاسلام سنة ١٣١٦ ، وأسلم أهل وسط آسيا فى منتصف القرن الرابع عشر ، وتربعت على عرش الصين أسرة منج الشهيرة بين سنتى ١٣٦٨ و ١٣٧٠ وأقفلت أبواب الصين فى وجه التجارة الأجنبية ، فكانت النتيجة انقطاع السبيل بالمسيحية واتساعا بعيدا فى رقعة الاسلام الذى ادرك شأوا بعيدا من الاتساع بظهور الأتراك العثمانيين ، ولكن أملا جديدا تراءى للغرب الذى لا يئأس ، وكان هذا الأمل الجديد سببا فى أكبر انقلاب عرفه التاريخ . . . تسامل الأوروبيون : إذا كان طريق البر قد أقفل ، فلم لا تسلك أوروبا طريق البحر ، لماذا لا تبجر إلى الشرق وتهاجم الاسلام من الخلف وبذلك يستعاد بيت المقدس . . كان هذا أمل الملاحين الذين حملوا الصليب على صدورهم واعتقدوا أنهم (برحلتهم إلى بحار الهند) يعملون لتخليص الأراضى المقدسة ، وإذا كان كولومب قد وجد الجزائر الكاريبية بدلا من الهند . . فانه يمكننا أن نقول إن المسيحيين الذين قاموا بهذا العمل (أى بالالتفاف حول الشرق ومهاجمته من بحار الجنوب) قد كسبوا قارة للمسيحيين . . وان الغرب استطاع أن يعيد ميزان الأمور لما فيه خيره بسبيل لم تكن تخطر له على بال . . . »

انتقال الصراع الى
البحار

وهذا حديث فيه بلاغ عما نريد أن نقول ، إذ أن أوروبا لم تكف عن التفكير فى الاسلام والأخذ بثأرها منه حتى هداها الفكر إلى حركة الالتفاف الجنوبى ، وقد رأيت محاولاتها العديدة التى قامت بها فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، كيف سعت إلى تنصير المغول لحصر الاسلام بين دولتين مسيحييتين ، وكيف اتصلت الأسباب بينهما

وبين الحبشة النصرانية للقضاء على مركز المقاومة الإسلامية في مصر ثم كيف يئست من طريق الشرق فبدأت تتجه إلى الغرب للوصول إلى الهند وللجنوب للوصول إلى بلاد الإسلام . . وهذه هي خطوة الانتقال الكبرى التي تعين عصرًا جديدًا من عصور التاريخ ، عصر البحرية الغربية المتفوقة التي تحطم قوات الإسلام البحرية في لبانتو وتنزع منه زعامة البحر الأبيض . . ثم تتوغل نحو الجنوب فتغزوه غزواً موفقاً من بحار الشرق . .

من هذا اليوم ، بدأ ميزان الحياة يتغير ، وبدأت وجهة التاريخ تتبدل . . ستضع الأمم البرية السلاح لتنهض الأمم البحرية ونشر الشراع الذي أثبت أنه امضى من السيف . . وستسمع بأهم صغيرة في حساب البر عريضة بحساب ما تملك من شراع وما في طباع أهلها من مواهب بحرية . . ستسمع بالبرتغال وهولندة وإنجلترا ، وسيبدأ العصر الحديث بطابعه البحري السائد

نهضة الأمم البحرية

يكون الهجوم من البحر فتكون أهم الإسلام أول الفرائس . يبدأ التقدم الأوروبي من الشرق ويسير نحو الغرب تسقط الهند وجزائر الملايو . . ثم جنوب فارس . . ثم إمارات جنوبي بلاد العرب . . ثم البحر الأحمر . . ثم دول البحر الأبيض . .

الآن أوجزنا للقارىء ما ينبغي أن يعرفه عن الشرق الإسلامى وعن تطور أوروبا من القرون الوسطى إلى العصر الحديث ، وذكرنا ما أصاب العلاقات بين الإسلام وأوروبا من تبدل نتيجة لذلك التطور ، فلنبداً الآن بتتبع العلاقات بينهما ناحية ناحية حتى ننتهى بهما إلى القرن التاسع عشر

١ - حركة الكشف الجغرافى

يرجع تقدم الأوروبيين فى البحار ووصولهم بحر الهند إلى

أسباب كثيرة ، أهمها التقدم البحرى الذى أدركته أوروبا فى ذلك الزمان ، وليس صحيحاً على إطلاقه أن نقول ان بلاد الاسلام أصبحت فى ظل الدولة العثمانية فوضى لا أمان فيها لتاجر ولا طريق فيها لعابر أو ما يذهب اليه الكثيرون من أن التعصب الجاهل دفع بالأتراك إلى الوقوف فى وجه مرور التجارة الغربية ، فأدى ذلك إلى انصراف التجارة الغربية إلى الجنوب ، إذ المعروف أن الأبواب بين تركيا وأوروبا لم تكن مغلقة تماماً بل كانت للاتراك علاقات موصولة مع البندقية وفرنسا ، وكان لهاتين الأخيرتين احتكار التجارة فى بلاد الدولة وبحارها ، للاولى تجارة البر فى بلاد السلطان والشام ، وللثانية احتكار نقل التجارة الشرقية من موانى مصر والشام إلى بلاد أوروبا ، وقد كانت هذه العلاقات نفسها سبباً من أسباب حركة الكشف ، إذ كانت المنافسة بين فرنسا وأسبانيا فى هذا العصر على أشدها ، فاذا احتكر الفرنسيون تجارة الشرق فقد انصرف الأسبان للبحث عن طريق آخر للاستيلاء على هذه التجارة والغلبة على منافستهم فرنسا ، وكذلك ضاقت البرتغال ذرعاً باحتكار البندقية لتجارة البحر الأبيض فتملمست سبيلاً أخرى للاستيلاء على هذه التجارة والوصول إلى منابعها فى الهند ، فاتتهى بها الأمر إلى كشف طريق رأس الرجاء الصالح

تركيا وأوروبا فى أوائل
العصر الحديث

وكانت طبيعة الحروب الصليبية نفسها وما تلاها من أحداث تدفع بالشرق إلى التفوق فى البر ، وبالغرب إلى التفوق فى البحر ، فقد كانت السفن سبيل الصليبيين الاوروبيين إلى الشرق فزاد مران الملاحين الاوروبيين ، وعرفوا أساليب اعداد الأساطيل والحملة البحرية الطويلة التى تحمل الناس والجنود مسافات شاسعة ، وكان اعتماد الصليبيين فى كثير من الأحيان على الأساطيل فى مهاجمة موانى المسلمين فى الشرق بحيث يندر أن نجد حملة صليبية لا يرافقها اسطول جنوى أو بندقى يساهم فى الحرب وفى الغنيمة ، فمن الغربيون فى أساليب الحرب البحرية فى حين سكنت ريح

مطالع التقدم
البحرى

الملاحة في الشرق وقلت سفنه وأغلقت ثغوره .. وفهم الغرب ضعف الشرق في هذه الناحية فصار يهاجمه — إذا أراد — من البحار .. ويحصره في المياه إذا أراد أن يصيب منه مغنماً لا يصيبه منه في البر ، وهذه أوروبا كلها تضيق ذرعاً بجند الاتراك الذين يغزون قلب أوروبا حتى يصلون فينا . فلا يجد الاوريون سيلاً لردهم إلا دفع الدولة إلى حرب بحرية تنجلي عن هزيمة ساحقة للأسطول التركي في ليبانتو سنة ١٥٧١ في عهد سليمان القانوني أي في أوج التفوق الاسلامي البري

التقدم البري

أشرف البرتغاليون على بلاد الشرق في مطلع القرن السادس عشر ، وقد حفزهم إلى الاجتهاد في التوغل في البحار ما وفقت اليه جارتهم أسبانيا من بناء امبراطورية واسعة في أمريكا فبدأت تثرى وتقوى وتصبح خطراً ساحقاً يهدد البرتغال ، فاتجهت هذه نحو البحار وتركت وجهة الغرب للأسبان واتجه رجالها نحو الجنوب بمحاذاة ساحل افريقية ، وكان يقود البرتغاليين هنري ، ذلك الأمير الذي يذكرنا بأمراء الحروب الصليبية من أمثال آل تولوز ، يعطينا لقب الأمير الذي عرف به فكرة عن الغرض السياسي الذي كان يسيره ، ويكشف لنا الصليب الذي رسمه على ظهره عن الروح الدينية الصليبية التي كانت تسيطر عليه ، ويفسر لنا لقب الملاح الذي عرفه به التاريخ هذه الروح الملاحية التي سيطرت على البرتغال بل على أوروبا كلها في ذلك الزمان . وانهى البرتغاليون أخيراً إلى المحيط الهندي على يد فاسكو دي جاما ،

هنري الملاح

الاستعمار البري

واتصلوا بالهند وكاليفورنيا في أواخر القرن الخامس عشر ، وأنشأوا يبنون لأنفسهم ممالك على يد مستعمرين معروفين ، وقواد ذوي خطر من أمثال الميدا وكبرال والبوكرك . وكانت تلك البحار مقصورة على ملاحى المسلمين من عرب وفرس ينقلون التجارة فيه بين الهند والبحر الأحمر وافريقية أو يسلبون ما يمر به من السفن . فكان طبيعياً أن تنشأ الخصومة بينهم وبين البرتغاليين المهاجمين ، وكان للملاحين

المسلمين شركاء آخرون يقاسمونهم هذا الربح الوفير . . هم بمالك مصر
الذين كانوا يتسلمون البضاعة عند البحر الأحمر في السويس ثم وينقلونها
إلى الإسكندرية وبذلك يربحون منها أعظم الربح ، وهناك يتسلمها منهم
شركاء ثلثون هم البنادقة الذين غلبت عليهم الروح التجارية فصالحوا
المسلمين على احتكار نقل التجارة في شرق البحر الأبيض المتوسط ،
وتسامع الشركاء بهذا المنافس الخطر الذي أنشأ يسير أشرعتة العريضة
في بلاد الهند ، ويتسلم التجارة ويمضى بها إلى الجنوب فيحرمهم من
رزقها ، فتداعوا وتسارعوا وجمعوا أساطيلهم وأسرعوا إلى بحر الهند
ليقضوا على ذلك الدخيل ، قدمت البندقية أجزاء السفن ونقلها الممالك
إلى البحر الأحمر وركبها ملاحو المسلمين ، وساروا بها نحو الجنوب ،
بل بلغ الغيظ بسطان الممالك مبلغاً دفعه إلى الكتابة لبابا أوروبا
يهدده ويسبه ويأمره بالكف عن هذا الغي . . والتقى البرتغاليون
بالشركاء في واقعة ديوسنة ١٥٠٩ فانجملت عن فوز باهر للبرتغاليين . .
وانسحاب تام للمسلمين والممالك من مياه الشرق وتركها للبرتغاليين
المنتصرين يفعلون فيها ما يشاءون

موقعة ديو

بعد ثلاثين سنة فقط شعر امبراطور دلهي المسلم أن يد البرتغاليين
ثقيلة عليه ؛ وأنهم انفردوا به وأخذوا يهددون به تهديداً خطراً . . .
فاستنجد بسليم الفاتح سلطان تركيا في ذلك الزمان ، وانضم إليهما أمير
مسلم آخر كاد البرتغاليون يبتلعون ملكه . هو أمير ججارات . وسار
الثلاثة لحرب البرتغاليين فهزموا سنة ١٥٣٨ .

هزيمة الحلف
الاسلامى سنة
١٥٣٨

وبعد عشر سنوات بدأ التوغل البرتغالى يشغل على صدر فارس ،
إذ وقع في يد البرتغال كل الخليج الفارسي وسيطرت على التجارة ،
بحيث كان حاكم هرمز البرتغالى يتصرف حسبما يريد بتجارة الفرس ،
وأحس الأتراك بذلك فأرسلوا حملة بحرية يقودها بيرى بك ولكن
ذلك لم يغن إذ ارتد الأسطول التركي منهزماً .

حملة بيرى بك

هكذا قرر التقدم البحرى مصير الاسلام فى بحار الهند ، وأخذ
يمتد شيعاً فشيئاً حتى استولى على الملايو وعلى سواحل الهند بل على
دلهى نفسها كما سترى .

٢ — النمسا وتركيا

التقدم العثماني
فزعت أوروبا كلها من التقدم العثماني السريع ، وتسامع أهلها
بسقوط عواصم أوروبا الشرقية والوسطى الواحدة بعد الأخرى ،
سقطت أدرنة سنة ١٣٦٦ ، والصرب بعد واقعة كسوف سنة ١٣٨٩ ،
وبلغاريا فى حكم بايزيد الأول بين ١٣٨٩ و ١٤٠٢ ثم المجر بعد موقعة
فارنا سنة ١٤٤٤ ثم القسطنطينية سنة ١٤٥٣ ، ثم الموره بين ١٤٥٨
و ١٤٥٩ ثم بلغراد سنة ١٥٢١ ورودس سنة ١٥٢٢ ، فزعت أوروبا
لهذا التقدم الشديد السريع ، وساورها القلق على مستقبلها ، وبدأ
الملوك والأمراء يفكرون فى بذل المعونة والوقوف فى وجه التقدم
العثماني الاسلامى ، وأحست به الشعوب إحساساً دينياً بسبب ما كانت
تعلمه الكنيسة هذه الأيام من حرب صليبية عنيفة على المسلمين فى
إسبانيا ، وزاد خطر العثمانيين ظهوراً ما كان من انشغال أوروبا بالحرب
بين الهيسبرج والقالوا بين شرلكان وفرنسوا الأول ، فكان ذلك
فرصة طيبة توغل الأتراك فيها دون أن يلقاهم أحد أو يردهم أمر . .
بل أدى تنافس الأسرتين إلى زيادة سلطان العثمانيين وبعد صيتهم إذ
سقط فرنسوا أسيراً فى يد شارلكان فى سنة ١٥٢٥ فى موقعة بافيا فلم
يتوان هذا الأخير وهو فى حال اليأس عن أن يستنجد بسلطان تركيا
ليغيثه وينقذه من عدوه اللدود . فأرسل السلطان سليمان إلى فرنسوا
خطاباً يفيض نفراً وثقة يعده فيه بالمعونة وينذر شارلكان بالعقاب
الشديد وبعث عمارة بحرية وصلت إلى طولون ووقف الأمر عند ذلك
الحد لانشغال سليمان بأمور أخرى ، وإنما أشرنا إلى هذا الحادث

بدأ العلاقات بين
فرنسا والدولة
العثمانية

لأنه سيكون مبدءاً للعلاقات القوية بين فرنسا وبلاد الاسلام ، وأصلاً للامتيازات العديدة التي سيحرزها الفرنسيون والتي ستكون منشأ لطائفة من الشرور التي ستصيب الشرق الاسلامي في العصر الحديث ، إذ أن كل فتوح سليمان زالت بعد ذلك بقرن من الزمان بينما بقيت هذه الغلظة السياسية إلى اليوم داء من أدواء الشرق الاسلامي ونسكة من نكباته التي يصعب أن يجد منها مخلصاً ، كذلك كان البنادقة يمنون أنفسهم من قديم بالاستيلاء على القسطنطينية وكانوا ينتظرون الفرصة المواتية ليعيدوا ما فعلوه سنة ١٢٠٤ م من الاستيلاء على الدولة البيزنطية وإنشاء دولة لاتينية فيها فساءهم قيام الدولة العثمانية ، ولم تلبث الخصومة أن دبّت بينهم وبينها ، ولكنها لم تلبث أن وجدت أساطيل أسبانيا والبرتغال تأخذ عليها طريق الغرب فلم تجد مفراً من التقرب لآل عثمان حتى يبيحوا لها المتاجرة في بلادهم ، وقد أفلحت في ذلك ، وأصبحت بعد ذلك صديقة للدولة مولية لها .

البندقية

كذلك كانت النمسا ترقب هذا التقدم بعين القلق والفرع ، فلما سقطت بلاد المجر بلغ منها الخوف مبلغه ، وبدأت تستعد لدفع هذه العادية الشديدة ، وتحققت مخاوفها حين توغل الأتراك في الأرض النمساوية وعسكروا في سهل نويهورزل وأخذوا يحومون حول فينا ، ويحاصرونها المرة بعد الأخرى بدون توفيق ، وأدركت أن ما حل بالقسطنطينية سيحل بها يوماً ما . فبدأت تطلب المعونة من دول أوروبا في هذا الظرف العصيب ، وكانت بولنده هي الأخرى تتوقع هذا المصير ، فبدأت تتخذ الأبهة لتتلقى الأتراك إذا فكروا في الاتجاه شمالاً . . . وبالجمله فقد انتشرت في أوروبا كلها دعاية واسعة النطاق ضد الأتراك العثمانيين ، وساعدت الكنيسة على ذلك فاتخذ عداً الأوروبيين لتركيا مسحة دينية ستزيده قوة وشدة ، لم

النمسا

بولنده

الكنيسة وأثرها
في علاقات أوروبا
بالاسلام

يخطيء النمساويون فيما قدروا ، فهذا هو محمد الرابع ١٦٤٨ — ١٦٨٧
يدبر مع وزيره أحمد كبريلي فتح فينا ، وهما يعدان الأمر عدته ،
ويسيران جيشاً إسلامياً عظيماً نحو فينا ليستقطها جملة . وينزل نويهورزل
ويصبح على أبواب فينا ويبدأ مهاجمها هجومًا عنيفاً . هنالك تفزع أوروبا
كلها . ويسرع لويس الرابع عشر ملك فرنسا فيرسل إلى النمسا ستة
آلاف جندي من خيرة مشاته . وتصل إمدادات من نواحي أخرى .
ويزداد سخط أوروبا على المسلمين فيسرع لينتزع الفيلسوف ويقترح
على لويس الرابع عشر فتح مصر . ويهم هذا بتنفيذ الأمر ولكنه
يكتفي بضرب تونس والجزائر بالمدافع سنة ١٦٦٨ . ويلتقي الفريقان
عند سان جوتارد . ويتأمل المصدر الأعظم الجنود الفرنسيين
المصطفين بنظام محكم ، وعلى رؤوسهم قبعاتهم ذات الريش ويتعجب
من شعورهم المدلاة وملابسهم ذات الألوان فيناله عجب ويسأل
« ما هؤلاء الفتيات » . . ويشتبك الجيش ويندفع الانكشارية في
عنف وشدة وتأخذ الجنود الأوربية تتحول بانتظام وترتيب وتتقدم
مشاتها بقوتها الجديدة ومدفعيتها المتحركة . . فتنتهي المعركة عن هزيمة
ساحقة للاتراك .

دوى خبر هذه الهزيمة في أوروبا وأصاب من النفوس مكان
الدهشة وأنكره الكثيرون وحسبه الآخرون خدعة ، ولكنه كان
حقيقة مرة بل بدأ لعصر جديد . اذ ستصبح القوات العثمانية بل
الإسلامية من ذلك اليوم رمزاً للهزيمة والفشل ، عرف الأوروبيون
أن النظام والترتيب والرسم المحكم . . أمور تنقص الجنود التركية
والجيش الإسلامي . . ومن هنا سيبدأ الهجوم وتكون الهزيمة . .
بل تنشأ المسألة الشرقية بأسرها في ظلال الهزيمة ، يوقع الاتراك معاهدة
فاسفار ، ويشمل الفرع أوروبا كلها وتنفس شعوب البلقان وأوروبا

ليست يجرى لويس
الرابع عشر . على
غزو مصر

سان جوتارد

معاهدة فاسفار

الصعداء أن بدا الكابوس يزول . . ويتهلل الناس ويزدادون حماساً . .
لأن الأتراك هزموا مرة أخرى عند أبواب فينا وكان الذى هزمهم قائد
سوييسكى ملك بولنده مسيحي آخر هو سوييسكى ملك بولنده ، ارتدت القوات الاسلامية
فى تقهقر سريع غير منتظم . . وتقدمت القوات الأوروبية يحدوها
النصر ويتلقاها الناس بالبشر فى كل مكان . أخلى الأتراك المجر . . ثم
سقطت بلغراد درة فتوح سليمان فانفجرت الثورة فى البلقان ان
ثورة البلقان
حسب أهله ان قضاء الله قد حم فى الاسلام وأن الله قد تاذن بزوال
سلطانه وذهاب قواته وسبحان الباقي العزيز . . وتقدم يوجين أمير
سفوا فاستعاد زنته قرب البحر الأسود ثم اتجه جنوباً .

وهكذا . . يكشف الله الستار وتهتك الأقدار الحجاب . ويتبين
المدى الواسع الذى يفرق تركيا عن جيوش أوروبا ، هذا الذى
يفصل الشرق الاسلامى عن العصر الحديث ، وستكون الحوادث
المقبلة كلها براهين تؤيد هذا الفارق وتظهر التفوق الغربى بشكل ظاهر
لا يحتاج إلى بيان . . وستزداد أوروبا كل يوم له فهما . . فتهاجمه بكل
قواها وتشل حركة الشرق وتذهله فلا يدرى أى السبل يسلك ،
وسيقوى شعور الشرق بالضعف فيهبط اليأس على أفئدة المسلمين
ويدفعهم إلى الهاوية مسرعين . .

سينزل البنادق المورة ويستعيدوا كريت ويستوى قائدها توماس
موروسينى على حصون البلقان الواحدة بعد الأخرى حتى تسقط تباعا
توماس موروسينى
فى البلقان
سنة ١٦٨٥ ويشطر أكبر جزء من دلماشيا .

وستسرع الروسية نحو الجنوب ، ويصبح حال تركيا شرا ليس
بعده شر . . وسيبدأ من هنا ليها الطويل الأسود ومرضاها الطويل
الشبث . .

ولكن ربك يتدارك المسلمين بالرحمة ، فها هى حرب الوراثة

والنمساوية تتاذن بالبدا ، وهذا هو امبراطور النمسا يسعى ليقفل الباب في الشرق ليفتحه في الغرب . . فيعقد الصلح بين تركيا والروسيا والنمسا ولكن أى صلح . . إنه الموت بعينه !

تأخذ النمسا كل المجر وتراقيا ونصف بنات وتامسفار وبلغراد بل أنها تتعهد للسلطان أن تحفظ قبرولى مسلم وقع في يدها . . هو جل بابا أى أبو الزهور . . الزهور القائمة على قبر تركيا !

وتأخذ البندقية المورة والروسيا آزوف وحق الملاحة في البحر الأسود . هذا هو صلح كارلوفت ١٦٩٩ م .

صلح كارلوفت
١٦٩٩

٢ — آسيا الوسطى

في مطالع القرن التاسع عشر بدأت روسيا تنهض نهضتها العظيمة يحدوها بطرس الأكبر ، وكانت قد اتجهت إلى توسيع حدودها والاتصال بالبحار فحاربت السويد لتصل إلى البلطيق وحاربت تركيا كما ذكرنا لتصل إلى البحر الأسود ، وصاحب ذلك امتداد عظيم سريع إلى الشرق في آسيا ، استولوا على تمسك ١٦٠٤ وكراسنودسك ١٦٢٨ وبيا كتسك ١٦٤٢ واخستك ، وفي سنة ١٧١١ أتموا فتح سيبيريا ووصلوا إلى ساحل المحيط الهادى واستولوا على كمتشكا وبدأوا ينشئون على ساحل المحيط الهادى ميناءهم العظيم فلاديفستك .

فتح سيبيريا

واتجه تيار روسى آخر نحو الجنوب اخترق هضاب القرغيز وصحاريها ، وتلك بلاد اسلامية يتوارد ذكرها في روايات المسلمين بل كانت في فترات كثيرة مركزاً للحضارة الاسلامية وهكذا طرقت أوروبا أبواب الاسلام من ناحية أخرى : كانت تركستان خلاء قوام فسهل فتحها ووقعها في أيدي الروس ، فتم لهم ذلك وتأسست ميناء كراسنودسك على بحر قزوين سنة ١٥١٦ وانحدر الروس كذلك .

فتح التركستان

من بين البحرين ، قزوين والاسود وأطلوا على فارس فألقوا في نفوس أهلها الرعب والفرع .

فارس ومقامها
في المجموعة الإسلامية

لفارس مقام خاص في المجموعة الإسلامية ، فهي أعرق الدول الإسلامية حضارة وأطولها تاريخاً ، وهي أول عنصر إسلامي استطاع أن يستعيد قوامه وينهض على قدميه ، بل يطغى على الدولة العربية فيغزوها بحضارته ثم بسودها سياسياً في خلافة العباسيين ، وهي من عنصر آرى في وسط المجموعات الحامية والسامية (١) ، ولغتها أقرب إلى لغات أوروبا إذ أنها من نفس الأصل الآرى ، وهي من بين الشعوب الإسلامية ، ذات حضارة لها طابعها الخاص ، وذات فن معروف ، وتصوير قوى وأساطير ذاتة الصيت لاتقل جمالا ورواء عن أساطير اليونان ، هي بعد هذا كله مجموعة شيعية وسط السنيين في الأفغان والهند والكتلة السنية الغربية : العراق ومصر وتركيا ، هذه الأمور كلها اتجهت بفارس وجهة خاصة ، وانحرفت بها عن مجرى تاريخ الدولة الإسلامية . . فأخذت تسلك — في ظل الاسلام — مسلكاً خاصاً تتضح فيه شخصيتها ومميزاتها وضوحاً بينا . . ولا تزال كذلك حتى يتحول ذلك الانحراف المذهبي الجنسي ويتخذ هيئة شعور قومي ، يبدأ شعوية تعز على العرب وتتسامى عليهم ، ثم يأخذ شكلاً واضحاً بعض الوضوح في ظل الدولة الغزنوية ، ويصل إلى درجة طيبة من النضوج في القرن السادس عشر في حكم الصفويين .

القدم الرومي نحو
فارس الصفويين

كانت فارس في أواخر القرن السادس عشر ومطالع السابع عشر في فترة زاهرة من تاريخها الطويل المجيد ، كانت تقوم بالأمر فيها أسرة الصفويين التي أسسها الشاه عباس الأكبر (١٥٨٦ — ١٦٢٨ م)

(١) لم يعد تفسيـم الناس إلى حامى وسامى متبعاً عند علماء الاجتماع لانه تقسيم لغوى وإنما التقسيم اليوم بحسب مقاييس الجسم الرأس . ولكتنا ذكرنا السامى والحامى لسهولة فهم هذه الاصطلاحات فقط

وكان هذا أميراً شرقياً ممتازاً ، استطاع أن يوسع إمبراطوريته حتى شملت فارس كلها ، فأسس على الخليج الفارسي مدينة بندر عباس ، واستولى على الموصل ، وحارب البرتغاليين واستولى منهم على هرمز ، وفتح في الشرق بلخ وقندهار ، فدخلت أفغانستان تحت لوائه ، وحارب الأتراك واستعاد منهم بغداد .

النزاع بين تركيا
وفارس

كان هذا الامتداد مثيراً للنزاع بين فارس وتركيا ، فاستطارت بينهما الخصومة ، إذ أبي مراد الرابع (١٦٢٣ — ١٦٤٠ م) أن يدع بغداد في يد الفرس ، فسارع واستردها سنة ١٦٣٨ وقسا في معاملة الفرس حتى قيل إنه قتل ثلاثين ألف فارسي في بغداد ، فكان هذا النزاع الاسلامي من عوامل ضعف المجموعة الاسلامية في هذه الفترة العvisية ، التي كان ينبغي أن تتوجه جهودهم فيها إلى الوقوف في وجه أوروبا التي بدأت تهاجمهم في كل مكان

تفرق الدولة الفارسية
بين أيدي الحانات

وكانت الدولة الصفوية مكونة من خانات (جمع خان) يقومون على النواحي ويخضعون للشاه عباس لما له من المهابة والقوة ، فلما تأذن الله بوفاة ، استقل الخانات وتفرقت الدولة وأصبحت اقطاعات كبقية الدول الاسلامية وأخذت تضعف شيئاً فشيئاً ، فانهز الروس هذه الفرصة وغزوا القوقاز وبدأوا يمتدون إلى الأراضي الفارسية .

غزو القوقاز

نهضة الافغان
مير محمد

وأسرعت الافغان لتثار من جارتها ، فتقدم ملكها مير محمد في أوائل القرن الثامن عشر ، وفتح فارس ، ونزل كرمان ، وأحرز انتصاراً عظيماً في جلباباد قرب اصفهان ، ودخل العاصمة سنة ١٧٢٢ وكذلك انتهت الاسرة الصفوية ، وهبطت المقادير بفارس هبوطاً أضعفها أمام الهجوم الاجنبي ، وسترى بعد قليل ماسيفعله الانجليز في الخليج الفارسي ، ولم يقطع هذا الركود الا مغامر اسمه نادر يظهر ويكون لنفسه إمبراطورية واسعة تمتد من الدجلة إلى لاهور ودلهي

المغامر نادر

ومن بحر الهند إلى القوقاز وسمرقند ، إذ استطاع أن يهزم الروس ويردهم على أعقابهم . ولكن امبراطوريته انحلت عقب موته مباشرة ولم تدم الا إحدى عشرة سنة بين ١٧٣٦ و ١٧٤٧

الهند الاسلامية

أما الهند فلا حاجة لنا بالتفصيل في شؤونها وما صارت اليه في أواخر القرن السابع عشر ، لأن ذلك تطويل يخرج بنا عن الحدود المرسومة لهذه الرسالة ، ولكننا نستطيع أن نشير في اجمال الى ان الاسلام دخل الهند على يد المغول ، وأنه لم يستطع بطبيعة الحال أن يفتح الهند كلها ، بل بقي في الشمال في حوض السند وجزء كبير من حوض الكنج وهضبة الدكن ، وان مناره ارتفع وقامت له امبراطورية قوية ظلت المجموعة الهندوكية تنظر اليها على الدوام كأنها قلية غازية ، وكذلك لم يستقر الاسلام هناك ويثبت أقدامه الا في القرن الثامن عشر ، حين مد رواقه وشمل سلطانه وأصبح أصلا من أصول الثقافة والمجتمع في الهند ، ولهذا ينبغي أن نلاحظ أن المجموعة الاسلامية الهندية لا تحارب أوروبا وحدها ، بل تحارب المجموعة الهندوكية كذلك ، وسنلاحظ أثر ذلك حينما تبدأ المبادئ الأوروبية تتسرب الى الشرق ، إذ سنجد روح القومية تنشأ عند المجموعة الهندوكية فتتطلع إلى التخلص من الغزاة المسلمين فيكون هذا أشد خطرا على المسلمين من الانجليز الغزاة وعلّة من أشد علل الهند واقساها . ونلاحظ كذلك أن مسلمي الهند دخل فيهم من الفرس عدد كبير وأنهم ظلوا محتفظين بكيانهم السياسى مدى طويلا حتى أقبل الانجليز .

اورانج زيب

كان آخر الابطارة العظام اورانج زيب ابن شاه جيهان (١٦٦٠ م — ١٧٠٧ م) ، وكان رجلا شديد الايمان والتأثر بطبيعة الاسلام ، فكان غازيا فاتحا أثار في الدولة نشاطا محمودا لم يضعف بعد موته مباشرة ، بل استمر على كثير من القوة والمنعة .
وكان يعاصر الامبراطورية الاسلامية امبراطورية هندوكية قوية

اشتد ساعدها بين ١٧٤٨ و ١٧٥٩ واشتدت الخصومة بينها وبين الدولة
الاسلامية

في هذه الفترة : فترة الخلاف والنزاع ، بدأ زحف الفرنسيين
والانجليز ، فكانوا لا يصادفون في طريقهم الا وهنا على وهن وانحلالا
يعقبه انحلال ، فكان الفتح هينا والخطر جارفا .

في قصة سقوط الهند ، ينبغي أن نتفطن إلى معنى جديد من معاني
التدخل الأوربي في شؤون الشرق ، فإن الواقع أن قوى الهند المبعثرة
كانت تستطيع المقاومة بل التغلب لو أنها تصورت الخطر المقبل على
حقيقته ، أو لو أن الأوروبيين سلكوا مع الهنود مسلكا يفهمونه
ويقدرون خطره ، كان الزحف الأوربي في الهند زحفاً اقتصادياً ،
أوروبا تغزو الهند اقتصادياً
بدأ بمراكز تجارية أصبحت بعد قليل شركات قائمة ، ثم احتاجت
الشركات إلى قوات تحمي متاجرها ومخازنها ، واتسعت تجارة الشركات
وامتدت مخازنها حتى أصبحت مدناً بأسرها . دى الفرنسيون على أرض
الهند في النصف الثاني من القرن السابع عشر . . وحصل أول قوادهم
سان مارتان على تصريح بأقامة سوق في بندشيرى فأجابه ملوك الهند
إلى ما أراد دون تردد أو توقع للخطر ، وينبغي هنا أن نفهم معنى
« التجارة » في القرن السابع عشر ، فغالبا الظن أن بعض الناس
يحسبون أن سفن الأمس التجارية كانت كسفن اليوم مجموعاً من
الملاحين والمسافرين وهذا غير الواقع ، إذ كان القرن السابع عشر ،
قرن القرصنة ولصوص البحار ، وكان لا بد لأية سفينة تغامر بالتوغل في
المحيطات ، أن تكون قلعة حصينة ملاءى بالجنود والمدافع والحراس
حتى يستطيع التجار أن يأمنوا على بضائعهم ، وكانت السفينة اذا رست
على شاطئ مجهول عسكر جنودها حول البضاعة ايردوا عنها أذى
الاهالى . . وكان التجار يعرفون ذلك فكانوا يدفعون نفقات الجند

السفن التجارية في
بداية العصر
الحديث

ويعينونهم ، ومن هنا كانت قوة البعثات التجارية وكان بعد أثرها ، ثم ان التوفيق الذى أدركته أسبانيا فى أواخر القرن الخامس عشر من كشف أمريكا وما أفاض عليها هذا الكشف من الغنى والثروة فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ، أثار فى نفوس الدول غيرة وخوفاً ، ولاسيما الدول البحرية (كإنجلترا والبرتغال) ، فاخذت الدول المتاجرة والشركات تحت حمايتها وعصبتها بل أرسلت معها الجنود وتدخلت عن طريق القناصل لحماية مصالح التجار حتى أننا لنلاحظ أن البعثات التجارية تتطور بسرعة إلى حملات حربية ومن هنا نفهم السر فى قوتها وكيف أنها انتهت آخر الأمر إلى أن تكون لها فتوح ذات شأن بعيد .

نوجز الأمر فنقول : إن الفرنسيين سبقوا الانجليز ، واتخذوا بندشيرى وشندر ناجوروكاريكال مراكزاً للمتاجرة وأمدوها بالجند ، وسارع الانجليز فاحتلوا مدراس وبومباى وكلكتا ، وتوغل الاثنان فى الهند واشتدت بينهما الخصومة واستطارت الحرب . ولكن فرنسا شغلت بحروب أوروبا فقللت عنايتها بشؤون الهند ، فانهى الأمر بغلبة الانجليز وطرد الفرنسيين

خلا الجو للانجليز فأخذوا يتقدمون فى البنغالة حتى تخوفهم امبراطور دلهى ، فقبض على نفر منهم وأساء معاملتهم ، فندب الانجليز رجلاً اسمه روبرت كليف فسار فى جيش منظم قوى ليحارب سراج دولة امبراطور دلهى سنة ١٧٥٦ ..

التقى الفريقان فى بلاسى .. وهى حلقة ثانية بعد سان جوثارد تلاحظ التشابه بينهما قائماً ، والفروق بين قوة الشرق وقوة الغرب واضحة فيها لا تحتاج إلى زيادة بيان ، وهى السبب فى هزيمة الجيش الاسلامى الهندى وسنرى المأساة تتكرر بعد قليل سنة ١٧٧٤ فى كتشك كينارجى فى أوروبا ، وفى امبابه سنة ١٧٩٨ فى مصر . .

امبراطور الانجليز
فى الهند

كليف

بلاسى

وتتوالى الهزائم بعد بلاسى كما توالى الهزائم بعد سن جوتارد
وتسقط الهند كما توشك تسقط تركيا على السقوط .

٤- مصر

بقيت ناحية أخيرة من هذا الصراع ، وهى ميدان لا يختلف فى طبيعته
ولا فى نتائجه وجملته . عن كل ما ذكرنا ، ولكن تفاصيله تكشف لنا
عن حقائق أخرى جديدة ، ينبغى أن نلم بها فى هذا الحديث الذى نقدم
به الشرق الاسلامى للعصر الحديث .

كان سبب الهزيمة فى الميدان الأوروبى جمود الدولة الاسلامية
وعدم مسيرتها الأساليب الحربية الحديثة ، وكانت — أى الهزيمة —
راجعة كذلك إلى اتحاد أوروبا ضدها ، وهجومها عليها فى وقت واحد
من نواح متعددة

وكان سبب الهزيمة فى الميدان الفارسى ، اضمحلال الدولة الاسلامية
وتفرق كلمتها

وكان سبب الهزيمة فى ميدان البحار ضعف الدولة الاسلامية من
الناحية البحرية وجهل المسلمين بشؤون البحار .

وكان سبب الهزيمة فى الميدان الهندى جهل المسلمين بأساليب التجارة
والاقتصاد وانقسام الهند إلى دولتين تحارب إحداهما الأخرى .

أما فى مصر . فنجد شيئاً آخر ، إذاً نأرأينا فى البلاد الأخرى حكومات
وجيوشاً وعرفنا ان الصراع كان بين الحكومات والحضارة الغربية ، فإذا
انهدمت الحكومة تهدم معها كل شىء ، أما فى مصر فنحن نعرف أن
الظروف الجغرافية تنحدر فى هذا الوادى دائماً إلى أن تقوى الرابطة بين
سكانه ، وأن توجد بينهم على مر الزمن شعوراً من التآلف ، والتواد
الذى ينتج القومية والشعور بها ، ولا يقتصر هذا الشعور على أبناء

البلد المولودين فيه ، وإنما يشمل الأجانب كذلك ، يتطورون شيئاً فشيئاً ويقتربون رويداً رويداً من مستوى الناس حتى يأتي زمان يندمجون فيه مع المصريين تماماً ، ونلاحظ ذلك واضحاً طول الفترة التي مررنا فيها ، فنجد شعوراً من الحب لمصر أخذ ينمو في قلوب المماليك شيئاً فشيئاً أولاً الأمر . ثم يأخذ في الظهور شيئاً فشيئاً حتى نراه واضحاً كل الوضوح في الفترة التي نزل فيها الفرنسيون مصر فنجد شيئاً يشبه أن يكون شعباً مصرياً إلى جانب قوة المماليك الحربية هذا الشعب يتمثل لنا في مشايخ الأزهر وأعلامه ممن ثبتوا للفرنسيين وكان لهم دور طويل معهم ، نعم اننا لا نجد عاطفة وطنية صريحة ظاهرة واسكنها ملحوظة على كل حال ، وسنرى هذه القوة تزداد وتنمو باتصال المصريين بالفرنسيين ، حتى تظهر بشكل واضح أشد الوضوح في هذا الشيخ الشريف الذي لا يرقى إلينا الشك في صدق وطنيته وصراحة قوميته ، وهو الشريف عمر مكرم الذي سنتحدث عنه في حينه . باذن الله .

بدا ظهور
القومية المصرية

كذلك نلاحظ عند المماليك شعوراً وطنياً يصلهم بأرض مصر ، يأخذ في الوضوح شيئاً فشيئاً كلما توغل الفرنسيون في البلاد ، ويظهر في شكل مقاومة عسكرية طويلة لا تخلو من بطولة وجلال ، وتستطيع أن تقول إن هؤلاء المماليك كانوا ينطوون على كثير من الحب للبلاد والاخلاص لأرضها ، وليس أدل على ذلك من هذه الجملة التي يرويها الجبرتي عن لسان الألفي ، نطق بها قبل وفاته وهي :

بدا ظهور القومية
عند المماليك

« يا مصر ، انظري إلى أولادك وهم حولك مشتتين متباعدين مشردين واستوطنك أجلاف الأتراك واليهود وأراذل الأرثوود ، وصاروا يقبضون خراجك ويحاربون أولادك ويقاتلون أبطالك ، ويقاومون فرسانك ، ويهدمون دورك ، ويسكنون قصورك ، ويفسقون بولدانك .

وحورك ، ويطمسون بهجتك ونورك . ولم يزل يردد هذا الكلام وأمثاله ، وقد تحرك به خلط دموى وفي الحال تقياً دماً وقال فض الأمر وخلصت مصر لمحمد على وما ثم من ينازعه ويغالبه وجرى حكمه على المماليك المصرية فما أظن أن تقوم لهم راية بعد اليوم .. « (١)

وهي كما نرى حنين خالص لمصر ، وتكاد أن تكون نغمة جديدة لم برا كير القومية المصرية نسمع مثلها أبدأ في دولة من دول الاسلام ، وهي الطابع المميز الذي يجعلنا ننظر لمصر في العصر الحديث نظرة خاصة ونفردها عن زميلاتها في العروبة والدين ، هذا الشعور نشأ في قلوب المماليك من طول ما أقاموا بمصر ، ومن كثرة ما أصابوا من خيرها ، ومن طول ما كانت عند حسن ظنهم ، فأمدتهم في كل زمان بما عساهم يريدون من مال وجاه ، فازدادوا عليها حرصاً ، وبعثت في نفوسهم شعوراً من الثقة يكاد أن يكون غروراً ، فقد أعزتهم مصر ونصرتهم على الأتراك ، فازدادت ثقتهم بأنفسهم أي ازدادت ثقتهم في البلاد . ودفعهم هذا الشعور الجديد إلى التعاون مع العلماء الذين هم قادة الشعب ورؤساؤه وممثلو القومية المصرية فائتمروا بأمرهم وأطاعوهم وخضعوا خضوعاً روحياً لروح الشعب التي سيرتهم ووجهتهم في كثير من الأحيان . ويقص علينا الجبرتي أخبار المجالس التي كان المماليك يعقدونها ويحضرها العلماء ، فيطلب المماليك المال فيرفض العلماء ويأمرون المماليك بالخروج والحرب ويتعهدون لهم ببذل المال إذا استلزم الأمر

لهذا كله سلاحظ أن مصر لم تنهزم أمام ضربة الفرنسيين الأولى . بل ظل كيانه حياً صحيحاً بعد زوال المماليك ، ونهض الشعب يعاون

(١) الجبرتي ٣ - ٣ وفيات سنة ١٢٢١ هجرية والالهي كان رأس المماليك في مصر بعدان كرت سن ابراهيم ومراد فخرجوا من ميدان السياسة والنزاع بينه وبين البرديسي وبين الامين ومحمد على معروف وسبأني عليه

الفرنسيين في إدارة الأمور وسياسة الدولة ، مثلاً في مجالس المشايخ
التي كان الفرنسيون لا يبرمون أمراً إلا برأيها وهشورتها
بل نلاحظ أكثر من ذلك ، أن القومية المصرية كانت قوية
الأثر في الفرنسيين ، فأخذوا يقتربون من المصرية شيئاً فشيئاً ؛
وحبب إليهم الظهور بالمظهر الشرقي ، جلسوا على الأرائك والطنف ،
وتناولوا القهوة المصرية ، وتسمى نابليون بصارى عسكر وتسمى ديزيه
فاتح الصعيد بالسلطان العادل ، بل أسلم بالفعل ثالث قواد الفرنسيين
وتسمى بهذا الاسم الغريب الذي يصور لنا التفاهم والتقارب بين الشعب
وأوروبا . بعد زوال المماليك وهو عبد الله مينو

مصر تؤثر في
العائدين الفرنسيين

ونلاحظ كذلك أن المصريين كانوا يشعرون في قرارة نفوسهم
باحتراف الفرنسيين ، ويخجلون من التعاون معهم في إدارة البلاد ،
لابدافع النفور من الحضارة الغربية بل بشعور وطني نلاحظه عند
راوي هذه الأيام ، الشيخ الجبرتي الجليل الذي يخجل من ذكر اسمه
بين أعضاء المجلس الذي كونه الفرنسيون من العلماء المصريين

لهذا كله لا نجد المصريين يفقدون رشدهم يوم تطرق أوروبا
أبوابهم ، بل هؤلاء هم المماليك المصرية (كإسميهم الجبرتي) يغرقون
في الضحك حين يصلهم نبأ نزول الفرنسيين أرض مصر ، ويتندرون
بالفرنج وأبطالهم وعلمائهم ، وإنهم ليؤمنون إيماناً لا يرقى إليه شك في
أن هؤلاء « الجنود الكفار كحب الفستق للكسر والأكل ولو كانوا
مائة لأفنيناهم عن آخرهم »

إنهم ليأخذون أهبتهم ، بما أتقنوا من فنون الحرب ، وما مهرؤا
فيه من ضروب الفروسية ؛ إنهم ليخفون سراعاً إلى طريق الإسكندرية
يتسابقون إلى الغنيمة التي بعثها الله إليهم باردة لا تكلفهم عناء ولا جهداً . ثم انظر

اليهم منقلبين على أعقابهم بعد أن قابلوا العدو في شبراخيت ، وتنازلهم
مهرولين إلى القاهرة ، بهم من ألم الهزيمة شيء كثير ، إن مراداً ليذكر
أن هذه القوة المقبلة ليست شيئاً يسيراً ، وإنه ليسعى جهده في أن يتوقى
القتال ، فيبعث في طلب « كارلو روسي » قنصل البندقية ، ويقول له
في كبرياء محطم أن يعطهم قليلاً من المال ، ويدعهم يذهبون ، لأنه
لا يريد أن يؤذيهم .

وما هي إلا ليال حتى يكون ماخاف منه مراد . إن الفرع ليدب
إلى قلبه ؛ وإن اليأس ليطغى عليه ويشمل أصحابه ، فذه مجامعهم
تجتمع لتنفذ ، وتنفض لتجتمع ، يبحثون المسألة ، ويقبلون وجوه
الرأى فيها . فلا ينتهون إلى شيء ، وبينهم في ذلك ، إذا نبأ يبلغهم ؛
فتطير له قلوبهم شعاعاً ، لقد أدرك الفرنسيون أمبابة ، فلم يبق من
حربهم مفر .

هنالك سارعوا — وهم أئمة الحرب في العالم الاسلامى — إلى
أمبابة ، تحف بهم أعلامهم ؛ وتتصاعد الدعوات لنصرتهم من القاهريين
الذين نال منهم الفرع كل منال

هي ساعات انقضى فيها كل شيء ، دق المماليك مدافعهم في
الأرض دقا ، وانحرف الفرنسيون عنها يسيراً ، وأخلوا قلب معسكرهم
فانطلقت فرسان المماليك كالسهوم المارقة ، حتى انتهت إلى ضفاف
النيل ، ثم التفقتوا إلى الوراء ، فإذا نار الفرنسيين تنصب عليهم حامية ،
هنالك أدركوا وهم يتشهدون أن مصير الشرق الاسلامى في الميزان

نحاول الآن أن نتعرف مدى هذه الهزائم في نفوس الشرقيين ،
وأن نلم بالاحساسات التي أثارها انتصار أوروبا في نفوسهم ، لعل

ذلك أن يكون ذا أثر في مجرى الحوادث التي سنراها على مسرح السياسة الشرقية الإسلامية .

تخوف الشرقيون خوفاً شديداً عقب هذه الهزائم التي ترددت في كل مكان من سهول الهند إلى جبال البلقان . وأصابهم من ذلك فزع لا يوصف ، لم يقبلوا على الحضارة الغربية ولم يثبتوا لها ، وإنما وقفوا منها موقف العاجز الذي لا يعرف أى السبل يسلك . ومن الشواهد على ذلك موقف الأتراك إزاء الحملة الفرنسية على مصر (١٧٩٨ — ١٨٠١) فقد كان في استطاعة السلطان أن يفعل شيئاً لو أنه حزم أمره ، ولست أقصد أنه كان يستطيع أن يهزم نابليون ، وإنما أريد أن أقول إنه كان يستطيع أن يتصرف تصرف دولة محترمة ، ولكنه لم يفعل ، فكانت سياسته أقرب إلى العبث . احتج في أول الأمر احتجاجاً شديداً . ثم دبر خطة حربية لم يفلح في تنفيذها ، قرر إرسال جيشين ، واحد بالبحر والثاني بالبر فيصلان إلى مصر في وقت واحد ، ويقضيان على الفرنسيين دفعة واحدة ، ولكن جيش البر تلكأ في الشام ، خفف إليه نابليون وقضى عليه ، وجيش البحر تلكأ بالبحر خفف إليه نابليون وهزمه في أبي قير . . . وعلى هذا المثال تستطيع أن تقيس سياسات الدول الإسلامية في القرن التاسع عشر

فزع الشرقيين
من هجوم أوروبا
وأثره

استولى على نفوس الشرقيين جزع شديد ، وأصبح الحكام الشرقيون يراقبون الدول وقناصلها وجالياتها فيما يأتون من أمر ، حتى كان الناس يتوسلون بالسائحين الأفرنج ، ليسعوا لهم عند الحكام ، ليردوا عنهم المظالم ، كما سعى كنجليك السائح الانجليزي ، ليرفع عن طائفة من اليهود من أهل الشام الظلم الذي كان ينزله بهم رجل عربي يدعى النبوة ويسمى نفسه النبي دمور (١)

دم طور قوة
القناصل

(1) Eothen. «The Prophet Dammur» .

هذا الفرع الذى استولى على الشرق الاسلامى سهل للأوروبيين مهمتهم كثيراً ، ومهد لهم بلاد الشرق فأقبلوا مطمئنين ، إذ أنه أضعف المقاومة الشرقية ، فجعل الحكام يسلمون بعد مقاومة قصيرة ، أودون مقاومة أصلاً ، وجعلهم يستمعون لنصائح الأوروبيين عن خوف لا عن ثقة ، فسهل خداعهم وسهل العبث برعاياهم .

ولعلنا واجدون لهؤلاء الحكام عنراً فيما أصابهم من خوف ، إذا ذهبنا نتروى الموقف وننامله ، فإن الحضارة الغربية التى بدأت مطالعها فى أواخر القرن الثامن عشر ، لم تلبث أن انقضت على الشرق فى سرعة مفاجئة فى أوائل القرن التاسع عشر ، ولم يلبث الحكام الشرقيون أن وجدوا أنفسهم محوطين بالحضارة الغربية من كل جانب ، وكان الأوروبيون قد بدأوا ينزحون إلى بلاد الشرق الاسلامى فى أوائل القرن التاسع عشر زرافات زرافات ، حتى أصبحت مدائن الشرق وثغوره تعج بالآلاف من الأجانب ، الذين سهل عليهم أن يتسلطوا على مرافق الاقتصاد من مال وتجارة ، ثم خفت حكوماتهم لتحمى مصالحهم ، وأسعدهم الحظ بنظام الامتيازات الذى فرض على الشرق الاسلامى من أيام سليمان ، فأفادوا منه خيراً كثيراً ، وأصبحوا يخفون الى الشرق فى رعاية أساطيلهم وقنصاتهم وقرانينهم ، وازدادوا جرأة وازدادوا طمعاً ، وأنشأت مصالحهم تزداد ، وأعمالهم تسكث ، وأقاموا من المصانع والمتاجر الشئ الكثير واشتروا من الارض ، وارتنوا من العقار قدراً وفيراً ، بل تغير الأمر ، وعرف الأوروبيون فى الشرقيين هذه الرهبة وذلك الحذر ، فظفّقوا يأتون من الأمر مالا يستطيعونه فى بلادهم ، ويلبسون من الحريات مالا تبيحه حكوماتهم ، وصار من السهل على الكثيرين منهم أن يخدعوا الولاة فى الأعمال ويمكروا بهم ، أو يتهموا الحكومات

هجرة الأوروبيين
إلى بلاد الشرق

أوروبا تستغل
تخوف الشرق منها

بأنها سببت لهم خسائر لم تكن ، فيضطر الحكام إلى بذل التعويض .
كرهاً أو طواعية ، حذراً من الجند والقناصل والاساطيل .

كان هذا الفرع الذي استولى على أمم الشرق علة بالغلة ، حالت دون أن ينتفع بالحضارة الغربية على وجهها الصحيح ، ذلك أن الجاليات الأجنبية ، وجدت أنه من الخير لها ، أن يبقى الحال على ما هو عليه ، فصارت تنظر بعين السخط إلى كل حركة يراد بها إيقاظ البلاد ، وصار النزلاء الأجانب بذلك أسوأ الدعاة عن المصلحين ولعلنا نذكر موقفهم عن عرائن وعداءهم له ، والخاص بهم على دولهم في القضاء عليه ، وكان من أثر ذلك أيضاً ، ان ساءت سمعة الشرقيين في بلاد أوروبا ، لأن هؤلاء النزلاء كانوا يرون أن توفيقهم في بلاد المشرق ، إنما يرجع إلى تفوقهم وغفلة الشرقيين ، فاذا كان في الشرق نظام وأمان فبعثه قيام القناصل وخدمهم .

أوروبا تقف في
وجه الحركات
الوطنية

أثرت هذه الفكرة أثراً بعيداً في سياسة أوروبا نحو الشرق الاسلامي ، إذ جعلتها تنظر إليه باحتقار وعداوة ، فحينما استطارت الخصومة بين الترك واليونان ، وقفت أوروبا كلها صفاً واحداً ، ساسة وشعوباً وشعراء إلى جانب اليونان وأعلنت على الترك عداً لا يعرف هوادة ولا لينا .

وثم مسألة أخرى لا يحسن أن نغفلها في سياق هذا الحديث ، فان هذه السرعة التي اقبلت بها الحضارة الغربية ، أيقظت في الشرق الاسلامي نشاطاً سريعاً لم يكن محمود العواقب ، فكان الاندفاع نحو الحضارة الغربية ، أضر بالشرق من الاستغراق في النوم والجمود . شعر الحكام الشرقيون أنهم بحاجة إلى الإصلاح السريع ، فكانت السرعة سبيلهم في كل شيء ، فاذا ساروا عدواً ، وإذا أدبوا قتلوا ، واقتضى هذا أن ينظروا إلى الغاية وحدها دون الاهتمام بالواسطة ،

الشرق ينشط
نشاطاً سريعاً
خطراً

فلم يكن يهم محمد على أن يقضى على المماليك هذا القضاء البشع ، مادام ذلك سيؤدى به إلى الخلاص منهم ، وليس يضير السلطان أن يرمى بالوحشية ، إذا أباد الانكشارية بالمدافع لأن الغاية هى أن يخلص منهم على أى وجه ، وليس يضير اسماعيل أن يستدين ، وأن يضع أرض البلاد فى يد المرابين الأجانب ، مادام المال الذى سيأتيه من هذا السبيل ، سيمكّنه من بناء الأوبرا ، والظهور أمام لداته من الحكام ، بمظهر الحاكم الغربى .

كانوا يسرعون فى كل شىء ، كأنهم مدفوعون إلى ذلك دفعا : يعدون فى لحظة خاطفة ماقطعته أوروبا فى قرون ، ويحفظون عن ظهر قلب ماتعلمته بالتجربة ، ولهذا مست أعمالهم السطوح دون الأعماق ، وشملت الفروع دون الأصول .

وطبعى بعد ذلك أن تنهدم هذه الأعمال أمام الضربة الأولى ، لأنها كانت كأم درمان التى بناها المهديون ، قامت من التراب فى يوم وليلة ، وأصبحت ترابا فى يوم وليلة .

ذلك أن الشعوب كان يدفعها الملوك ، والملوك يدفعهم الفرع ، فكان السير متعثرا مضطربا ، ولم تسكن السبيل التى يدفع الجميع إليها واضحة كل الوضوح ، فلم يلبثوا أن ضلوا .

جاهدت مصر ماجاهدت ، وجمعت ماجمعت أيام محمد على . جيشت الجيوش واتخذت هيئة الدول الغربية ، ولكن ذلك كله لم يغن عنها فتىلا ، حينما وقفت جنود محمد على أمام الانجليز فى الشام ، تبخر كل شىء ، ضاع جهاد أربعين سنة فى بضع ساعات ، فى خطبة ألقاها بالمرستون فى مجلس النواب البريطانى .

لم تسكد مبادئ القومية تنتشر فى أنحاء الدولة العثمانية حتى قام بين أجناسها عدااء شديد ، إذ أن الأجناس الخاضعة للدولة ، خيل إليها

شعوب الشرق تفهم
فكرة القومية على
أنها نزاع وصراع
بين الأجناس

أن اعتزاز المرء بقوميته يستدعى عداء القوميات الأخرى ، ومن ثم كانت المذابح المعروفة بين الأتراك والأرمن ، وبين الأتراك واليونان ، والتي ستعيد نفسها بعد قرن من الزمان بعد الحرب الكبرى ، بين الترك والعرب .

وكان للاتصال المفاجيء بأوروبا أثره السيء في الأخلاق ، حمل الفرنسيون الحرية ، ففهمها المصريون خطأ ، ومن ثم انطلقوا يعربدون ويأتون من الأمر منسكرا ، ويسرفون في هذا إسرافاً يفزع له الجبرتي ، ويشكو منه من الشكوى ، ويعزو إليه مقدمات ثورة أغسطس سنة ١٧٩٩ .

أثر الاتصال
بأوروبا في
الأخلاق

كان اللقاء الأول بين الشرق والحضارة الغربية . شراً مستطيراً على شعوب الشرق الاسلامي ، وهزيمة ساحقة للملوكة وأمرائه ، وضربة شديدة في صرح الوحدة الاسلامية ، زادت العلة بالرجل المريض ، ولم يعد يخفى على أحد أن الأمر خرج من يده . وإن تركته أصبحت رهنا بينيه الناشئين : لو أن له بنين . كان البنون صغاراً ، بينهم وبين الرشد سنون طوال ، ترى كيف سترعاهم الأيام .

المسألة الشرقية

١٨٠٠ - ١٨٤٠

« وهلت سنة ثلاثة عشر ومائتين هجرية ، وهى أول سنى
الملاحم العظيمة ، والحوادث الجسيمة والوقائع النازلة ، والنوازل
الهائلة ، وتضاعف الشروء ، وترادف الامور ، وتوالى المحن ،
واختلال الزمن ، وانعكاس المطبوع ، وانقلاب الموضوع ،
وتتابع الاهوال ، واختلاف الاحوال ، وفساد التدبير ،
وحصول التدمير ، وعموم الخراب ، وتواتر الاسباب ،
وما كان ربك بهلك القرى وأهلها مصلحون ؛ »

الجبرى ج ٣

تدبر هذه الكلمات قليلا ، وقلبا على وجوها لتفهمها على الوجه الذى اراده منها كاتبها يوم كتبها ، تجد فيها بلاغينا يعجز القلم عن شرحه شرحا دقيقا وافيا ، فهذا الشيخ يفرع لمقدم عام ١٢١٣ هجرية ، كأنما كانت البلاد آمنة مطمئنة قبله لا يروعها حادث ولا يعكر صفوها معكر ، ويتخوف منه ومن أحـدائه مع أننا نعلم أن مصر كانت قبل الاحتلال الفرنسى ، مسرحا للفوضى والانقلابات والمذابح وأنواع الظلم والاضطهاد ، وان المصريين كانوا يقاسون فى ظل الممالك الوانا من العسف والشر لا تكاد تقاس بها ما قاسوه من الفرنسيين . فما الذى أيقظ فى نفس هذا الشيخ كل هذا الخوف وما الذى أقام فى نفسه هذا التشاؤم والتطير ؟ ..

هذا هو سر بلاغة حديث هذا الشيخ الجليل ! . وهذا ما سنفصله الآن
لم يفهم الجبرتي الغزو الفرنسى على انه فتح سياسى يرمى الفرنسيون من ورائه الى اغراض بعضها اقتصادى وبعضها سياسى ، ولكنه فهمه على أنه — أولا وقبل كل شيء — فتح دينى قام به النصارى ، عادت الى ذهنه (واذهان معاصريه معه) ذكرى الحروب الصليبية النائمة فى أذهانهم واستيقظ فى نفوسهم كل ما يضره الشرق الوسيط للغرب الوسيط وطافت باذهانهم ذكريات الصراع الطويل بين الاسلام والنصرانية والكره العميق بين المسلم والنصرانى ، وتصوروا أنهم وقعوا اليوم فى يد نصرانى لا يرحمهم ولا يتقى الله فيهم ، فتلقوه بنفوس ملأى بسوء الظن وسوء التقدير ، وتخوفوا منه خوفا بالغا ، ولم يجدوا فى مقدمه الا وقائع نازلة ونوازل هائلة ، وتضاعف شرو و ترادف امور ، كان مسلو هذه الايام يرون أن ميزان الحياة لا يستقيم الا اذا كانت كفة الاسلام هى الراجحة ، وكلمة العلماء هى العليا ، ويعتقدون أن سلطان الاتراك سيد السلاطين ورأس الملوك مهما بلغت شكواهم منه ورأيهم فيه ، فاذا انهزمت

الجبرتي يعبر عن
شعور معاصريه
المسلمين

جيوش السلطان واستباح جند النصارى أرضه فقد اختل ميزان الحياة واضطرب أمرها، كان هذا نذيراً بكل ويل وشر، وكان المعروف عند المسلمين انهم أقوى عباد الله جندا وأعزهم نفراً وأكثرهم علماً، وأن الخليفة هو سيد العالمين لا ينازله أحد في ملكه ولا يثبت له عدو في ميدان. كان ذلك هو ميزان الدنيا في حسابهم، وهؤلاء أهل الاسكندرية يسألهم « نلسن » عن الاسطول الفرنسى فيجيبه زعيمهم محمد كريم: « إن هذه أرض السلطان » ليفهم هو من نفسه أن أرض السلطان لا يجرؤ أن ينزل بها عدو أو يعد وعليها أحد اصلاً؛ أما اليوم فهؤلاء هم النصارى يحتلون على بلاد السلطان ويملكونها ويحكمونها... وبهذا يحتل نظام الحياة في حسابهم « يختل الزمن وينعكس المطبوع وينقلب الموضوع وتتتابع الاهوال ! »

أصبح المصريون المسلمون خاضعين لحاكم مرسل اليهم من طرف الفرنساوية المبنى على أساس الحرية والتسوية « لا من طرف الخليفة المسلم في الاستانة .. وهذا هو الشر الذى لا يوازيه عسف ابراهيم أو ظلم مراد أو شرور المماليك والأتراك كلها مجتمعة بعضها الى بعض ، ويفسر لنا الأستاذ الجليل شفيق غربال ذلك الأمر في رسالته « الجنرال يعقوب » تفسيراً موجزاً حيث يقول « وكانت الانقلابات التى يعرفونها مما يصحبه الشئ الكثير من اختلال الامن وضروب العنف والتعسف واعادة الطلب عليهم فيما أدوه من الضرائب والمغارم ، إلا أن هذه الانقلابات كلها كانت على نمط واحد ، لا يأتى واحد منها بجديد ولا يصطدم بمألوف لديهم : فمثلاً يتغلب على الكبير على خصومه ويحكم البلاد كما حكمها خصومه ، ثم يتغلب عليه ابو الذهب ويحكم كما حكم على وهكذا دواليك أما الحكم الفرنسى فكان انقلاباً من نوع لم يعرفه المصريون ، إذ لما زال حكم مراد و ابراهيم حل محلها بونايرت

اسباب قاتل
الجبرى

ولم يكن مسلماً ولا مملوكاً ، ومهما قيل في تدين الفرنسيين في تلك الأيام
فهم غير مسلمين ، قد تصل بهم الضرورة الحربية — أو ما ظنوه
ضرورة حربية — الى انتهاك الحرمات الاسلامية (١) »

المسألة الشرقية
كما فهمها المسلمون
في ذلك الزمان

لا نكاد نخطيء إذا قلنا ان هذا الشعور الذي عبر عنه الجبرتي
كان يساور الشرقيين المسلمين كلهم حين انتهت اليهم أخبار هذه الهزائم
التي حدثت لك عنها في الفصل السابق ، فلا غرابة أن تولاهم الفزع الشديد
فلم يستطيعوا أن يصيبوا اذا فكروا أو يفلحوا اذا حاولوا ، وفهموا
« المسألة الشرقية » هذا الفهم الديني ولم يتفطنوا الى أسبابها ومعانيها
وأسرارها وما يبنى عليها ، فلم يوفقوا الى مقاومة أوروبا بل لم يعرفوا
كيف يقاومونها . فكانت مقاومتهم لها عبثاً لا يكثر له
الأوروبيون أو يحفلوا له ، وأصبحوا لهذا — وعلى الرغم مما بذلوه
من جهود للدفاع والنجاة — كتلة جامدة لا يحسب لها حساب عند
ساسة الغرب وأصحاب الشأن فيه ، وأصبح مصيرهم موكولاً الى دول
أوروبا .

المسألة الشرقية
في دورها الاول :
نزاع بين دول أوروبا

لهذا لم تكن المسألة الشرقية في دورها الأول ، نزاعاً بين أوروبا
والشرق الاسلامي ، وانما كانت نزاعاً بين دول أوروبا على مصير بلاد
الاسلام .

وما دام الامر كذلك فيحسن أن تدرس هذه المسألة في مراكز
السياسة الأوروبية ، في باريس ولندن وفيينا وما إليها ، ونفهمها عن

(١) « الجنرال يعمقوب والفارس لاسكاريس » ومشروع استقلال مصر سنة ١٨٠٦ ، للاستاذ
شفيق غربال استاذ التاريخ الحديث بكلية الاداب بالقاهرة ، وهي رسالة ذات قيمة علمية عظيمة جداً
لما تحويه من صدق النظر وصواب الاستنتاج واستقامة الحجج ووفرة المراجع ، وعلى الرغم من أنها
لا تزيد على ستين صفحة الا أنها تعطي القارئ رأياً مستقلاً صائباً في الحلة الفرنسية على مصر .

ساسة الغرب ومرامهم وآرائهم من أمثال نابليون وبوت ومرتنيخ
واسكندر الأول ومن اليهم ، حتى المسألة المصرية وتمهضة محمد علي
نستطيع أن تكون أدق فهماً لها إذا درسناهما في لندن أو باريس ،
على الرغم من أن القاهرة أصبحت في هذه الأيام — أى النصف
الأول من القرن التاسع عشر — مركزاً من مراكز السياسة العالمية
يحسب له كل حساب

يبالغ المؤرخون الأوروبيون في تقدير الأدوار التي لعبتها دولهم
في هذه الفترة ، فالفرنسيون يصورون أنفسهم يصرفون السياسة
العالمية ويرسمون للدنيا سبلاً جديدة من العيش ، ويزعمون أنهم كانوا
يجاهدون هذه الأيام ليخلصوا بالدنيا إلى فراديس الحرية والمبادئ الجديدة
والعصر السعيد ، والانجليز ليسوا على هذا الرأي طبعاً، وإنما هم محور
سياسة الدنيا وأصحاب الكلمة الأولى والأخيرة في تاريخ العالم حتى
أيام نابليون نفسه . وكذلك الروس والنساويون وغيرهم ، ولست
تجد في حديث أحد من مؤرخيهم كلمة واحدة تدل على أنهم يشعرون
بوجود أى لون من الحياة في الشرق الاسلامي . فمسألة تركيا نزاع بين
الفرنسيين والروس والانجليز والنساويين ، لا ناقة فيها للأتراك ولا
جمل ، ومسألة مصر نزاع بين الانجليز والفرنسيين ، وهكذا يتخذ كل
مؤرخ ناحية تختلف بحسب جنسيته ، فيرجع كفة دولته ويبالغ —
كثيراً أو قليلاً — في تقدير أثرها والدور الذي قامت به وهذا
أمر يجعل دراسة الاتجاهات الدولية في هذه الفترة معقداً شائكا
وكان سبباً في كثير من الأخطاء في فهم اتجاهات هذا العصر على
حقيقتها

المؤرخون الأوروبيون
واختلاف آرائهم

أشرنا في الفصل الماضي إلى صعود نجم الفرنسيين في الشرق وما
وفقوا إليه من امتيازات اقتصادية وسياسية حسدتهم عليها بقية

تفوق فرنسا

الدول ، وقد زاد في مقام الفرنسيين في شرق البحر الأبيض انصراف منافستهم — إنجلترا — في النصف الثاني من القرن الثامن عشر إلى شئونها في البحار والمستعمرات ، ووقوف بقية الدول الأوروبية من تركيا موقف العداء ، فانفرد الفرنسيون بالتقرب من السلطان وكسبوا ثقته ، وأصبحوا أرجح كفة من سواهم

يقترن هذا التوفيق الفرنسي باسم الماركيز فيلنييف Villeneuve وهو أول حلقة من هذه السلسلة الطويلة من السفراء الأوروبيين في الاستانة أو القاهرة أو الشام الذين سيصبحون أصحاب الكلمة النافذة واليد العليا في تصريف سياسة الدول الشرقية الإسلامية ؛ استطاع فيلنييف بفضل الظروف الدولية التي أشرنا إليها أن يوفق لدى السلطان توفيقاً مشكوراً ، فأصبح ناصحه الأمين فيما يعرض له من مشاكل السياسة وأحوالها ، وقد بدأ نفوذه يظهر بوضوح في الحوادث التي أدت إلى صلح بلغراد في أول سبتمبر سنة ١٧٣٩ الذي استردت به الدولة كثيراً من أملاكها فعاد إليها كثير من مقامها وهيبتها بين الدول الأوروبية ، ثم توسط بين تركيا والسويد فعقد بينهما صلحاً موفقاً في يولييه سنة ١٧٤٠ فأصبح بذلك موضع ثقة السلطان وصاحب الرأي النافذ في سياسة الدولة العثمانية ، ولم يجد السلطان — ليؤكد شكره وتقديره لفيلنييف — إلا أن يجدد الامتيازات التي كانت فرنسا قبل كسبها قبل ذلك ، وبهذا أصبح الشرق امبراطورية استعمارية عظيمة لنا (أي للفرنسيين) يستورد بضائعنا ويصدر لنا بضائعنا بظروف طيبة موفقة جداً وأصبحت الأماكن المقدسة في فلسطين خاضعة لسلطان رجال الدين اللاتين (أي الفرنسيين) على الرغم من المزاغم الأورثوذكسية (أي الروسية) التي كانت ترعاها روسيا ، وأصبحت

تجديد امتيازات
فرنسا في تركيا

امتيازات سنة ١٧٤٠ — مرة أخرى — قانون الفرنسيين الذى يعيشون بمقتضاه فى بلاد الدولة (١) «

ولكن هذا التوفيق الفرنسى لم يدم مداه طويلا ، أذ أراد الفرنسيون بعد ذلك بقليل أن يستغلوا ثقة الدولة فيهم وتقديرها لهم فأحبوا أن يدفعوا بها فى تيار السياسة الأوروبية جملة ، وسعى فيلنوف لادخال تركيا فى حرب الوراثة النمساوية ، ففطن الأتراك إلى ذلك ورفضوا دخول حرب لامصلحة لهم فيها ، فأحفظ ذلك الفرنسيين عليهم ، وبدأت العلاقات بين الدولتين تفتت ، وسترى أن السياسة الفرنسية بدأت تأخذ وجهة جديدة ليس فيها من العطف شئ كثير ، ولكن اضطراب امور فرنسا الداخلية الذى انتهى إلى ثورتها المعروفة فى نهاية هذا القرن (الثامن عشر) ثم اشتغالها بالمنافسة الانجليزية على المستعمرات صرفها عن ذلك فلم تأخذ السياسة الجديدة مظهرها الحقيقى إلا فى السنين الثلاثة الأخيرة من القرن الثامن عشر ، أى حين سكن غليان الثورة واستقرت الامور لحكومة الادارة

تموت العلاقات بين
فرنسا وتركيا

هنا ، يقف المؤرخ الفرنسى وقفة طويلة جدا ، يعدد مشاريع نابليون وخططه التى كان يرسمها لحل المسألة الشرقية ، وسياسته ومراميه التى كان يرجو بلوغها ، ومحالفاته العديدة مع الروس وغيرهم لادراك هذه الغاية ، بحيث يقتنع القارىء أن فرنسا كانت محور السياسة العالمية فى الشرق والغرب فى ذلك الحين ، والحقيقة أن أثر فرنسا فى المسألة الشرقية فى هذه الفترة لم يبلغ ذلك المبلغ ، إذ أن مشاكلها فى غرب أوروبا وقابها ، حالت دون أن يتمكن نابليون من توجيه سياسة هذه المسألة إلى الناحية التى أراد ، ولم تخرج المسألة فى أى دور من أدوارها عن أن تكون محاولات لا أكثر ، لم تؤت من اتساع الوقت والعناية

نابليون
ومشاريعه
للشرقية

ما يسمح لها بأن تكون ذات أثر في مجرى الحوادث في الشرق الاسلامي

حملة نابليون على مصر

ماهى الدوافع الحقيقية التى دفعت بنابليون إلى القيام بحملته المعروفة على مصر ؟ .. وهل هذه الحملة تدل دلالة صادقة على سياسة مبيتة رسمتها الحكومة الفرنسية ؟ .. وماذا كان يريد من ورائها ؟ لىكى نجيب على تلك الاسئلة يحسن أن تقول لنا لانوافق كثيرين من المؤلفين الذين يذهبون إلى أن حملة نابليون على مصر كانت مغامرة حرية قام بها هذا الرجل ليشبع رغبة خيالية كانت تضطرم في رأسه ، أو أن رجال حكومة الادارة دبروا له هذا الامر إبعاداً له عن فرنسا ، كل هذه الفروض والتعليلات غير مقبولة عقلاً ، فان تنظيم الحملة واعدادها والوثائق الخاصة بها تثبت أن الامر كان ثمرة سياسة منظمة مدبرة وانه كان يرجى من ورائها أمور عديدة ، أكثرها تحقيق لمطامع فرنسا القديمة في شرق البحر الأبيض المتوسط .

مطامع فرنسا
البعيدة في شرق
البحر الأبيض
المتوسط

لفرنسا في شرق البحر الأبيض مطامع بعيدة . موصولة من أيام الصليبيات ، وقد كان الفرنسيون أشد أمم أوروبا كفاحاً في الحروب الصليبية وأشدهم اصراراً على مواصلتها ، فلما ثبت لديهم أن الدولة الاسلامية قوية لا تقوى في سهولة ويسر ، كفوا عن المحاولة إلى حين ، فلما بدأت الدولة الاسلامية تضعف ، ولما استبانوا ذلك الضعف تجددت هذه الرغبات وعادت لها حداثتها الأولى فنشطوا يحاولون من جديد ^(١) ، ولا عبرة في هذا لما حصل من تغيير في

(١) إلى هذا يشير الأستاذ سورل فيقول في مقدمة السلام عن فتح مصر :

" Un rêve qui; depuis les croisades, hante les imaginations francaises " Sorel: Bonaparte et Hoche en 1796, p. 37 : أى : حلم يطرف بأذهان الفرنسيين منذ الحروب الصليبية

حكومة فرنسا وسياستها والقائمين بأمرها لأن حكومة الجمهورية لم تفعل أكثر من أن نفذت ما كانت الحكومة الملكية تريد وتحتجج عنه (١) ، وتوسعت في هذا التنفيذ لأنها وجدت في الحروب الخارجية

(١) تتبع الاستاذ الجليل محمد رفعت في كتابه القيم « تاريخ مصر السياسي في الازمنة الحديثة » الجزء الاول ، المحاولات المتكررة التي قامت بها فرنسا لتحقيق حلمها القديم في احتلال مصر ، واليك ايجازها :

(١) محاولة لويس التاسع (١٢٤٨ — ١٢٥٣ م) التي انتهت بهزيمته وأسرته عند المنصورة وفشل الحملة

(ب) معاهد فرنسوا الاول مع سليمان القانوني سنة ١٥٣٥ الذي أكسب فرنسا في ذلك الوقت في أملاك الدولة مركزا ممتازا ، « . . . » وتعتبر التسبيلات والاعفاء التي نالها الفرنسيون وغيرهم بفضل هذه المعاهدة أساساً للامتيازات الأجنبية »

(ح) مشروع الفيلسوف لينيئز الذي عرضه على لويس الرابع عشر سنة ١٦٧٢ ، وقد أهمل هذا المشروع . ولكن الحكومة الفرنسية ماقتت تعود اليه بين الحين والحين « وقد عثر تاليران ونابليون بونابرت عندما فكرا في مشروع الحملة ثناء بحثهما في سجلات الحكومة على مشروعات وخرائط كثيرة خاصة بالاستيلاء على مصر »

(د) رحلة البارون دي توت سنة ١٧٧٧ الذي « كان مكلفاً ، أن يقوم باستطلاعات حرية وناحية حالة السواحل والقلاع الواقعة على البحر الأبيض المتوسط ومعرفة أعماق الماء في الموانئ » وسيشار إلى ذلك بعد قليل

(هـ) آراء الرحالة الفرنسيين الذين كانوا لا ينفكون يسألون على دولتهم غزو مصر ، وفي مقدمتهم في Volney الذي نشر رحلته سنة ١٧٨٧ فكان مجاهداً فيها « أنه ليس في المدينة (أي الاسكندرية) سوى أربع مدافع في حالة صالحة ، وليس بين الحامية التي يبلغ عددها خمسمائة من يمكنه أن يصيب المرمى بل جميعهم من العمال العاديين الذين لا يحسنون سوى التدخين » وبما قاله أيضا « إن الاستيلاء على مصر يجب أن يكون محور السياسة الفرنسية »

(و) محاولة نابليون التي كانت حكومة الادارة تمهد لها الأمور منذ زمن طوبل ، وحسبت حساب الاستيلاء على مصر في معاهدة كيو فورميو فاستولت على جزائر الأيونيان ، وقد كتب تاليران مدير الشؤون الخارجية في حكومة الادارة الى نابليون بتاريخ ٢٦ أغسطس يقول « يجب أن تكون علاقاتنا ودية مع البانيا واليونان ومقدونيا وجميع ولايات الدولة العثمانية في الشرق ، بل مع جميع الشعوب التي تمس سواحلها البحر الأبيض المتوسط وخاصة مثل مصر التي قد تصبح يوما مازادات منعمة عظيمة لفرنسا »

تاريخ مصر السياسي في الازمنة الحديثة . ج ١ ص ٣٢ — ٣٦ الطبعة الرابعة

تثبيتاً لأقدامها ورفعاً لها في عيون الشعب الذي قامت بين أعجابه وتهليله . وكانت الفترة التي قام فيها نابليون بحملته على مصر مناسبة جداً لتحقيق ذلك الحلم القديم ، كانت تركيا في حالة من الضعف يرثى لها ، وكان ضعفها قد تجلى ولم يعد يخفى على أحد ، فأسرعت الحكومة الفرنسية بالتنفيذ ، ويسر لها الأمر وجود ذلك القائد المغامر الذي كان يتوق في نفسه إلى بناء مجده الحربى العظيم ، فأسرع في التنفيذ . ويظهر أنه كانت لديه تعليمات خاصة بهذا الفتح قبل القيام بالحملة بزمان طويل ، إذ أنه قام ببضعة أعمال أثناء فتح إيطاليا تنبئ أنه يهدد لأمر دى بال في شرق البحر الأبيض ، فقد حرص في معاهدة كمبر فورميو على أن يكون لفرنسا نصيب موفور من الجزائر والشواطىء ، وكتب إلى حكومة الإدارة ينبئها عن الحالة البحرية في شرق البحر الأبيض وامتلاكات الدولة ، ولا شك أن سرعته في تنفيذ مشروع مصر مردودة إلى أنه قد خبر الأمر بنفسه ورأى ببصره الثاقب سهولة الأمر وما ينطوى وراءه من توفيق عظيم

نابليون يدبر الحملة
على مصر

ولم لا نفهم شيئاً من رحلة الرحالة فولنى التي قام بها سنة ١٧٨٧ ولبث أربع سنوات في مصر والشام ، ثم عاد إلى بلاده يحدث تلاميذه بما رأى من ضعف بلاد الاسلام واضطراب أمرها وسهولة فتحها ، لقد كان هذا الرجل في الفترة التي قامت فيها الحملة عضواً في المجمع الفرنسى (دخل المجمع سنة ١٧٩٥) وكان قبل ذلك أستاذاً للتاريخ في مدرسة المعلمين بباريس ، وكان عضواً في الجمعية العمومية والجمعية التشريعية ؛ لم لا يكون هذا الرجل وأمثاله كثيرون قد صوروا للحكومة الناشئة الحال في مصر والشام فجعلت حكومة الإدارة بالتنفيذ انتهازاً للفرصة السانحة (١) ؟

Constantin Francois Chasseboef. (Comte de Volney

١٧٥٧ - ١٨٢٠ رحلة ومؤرخ فرنسى ، قام في سنة ١٧٨٧ برحلته إلى مصر وقضى فيها في الشام

بيد أن الثابت أن حكومة فرنسا كانت تؤكد لنفسها أن هذه الحملة لن تؤثر من جانب السلطان هذا الغضب الذي أثارته كله ، كانت تأمل أن يرضى السلطان عنها لحررها المماليك وقضاؤها عليهم ، وكانت تحسب أن المصريين سيخفون اليها مهالين لما ثقل عليهم من ظلم المماليك ، ولكنهم نسوا ما أشرنا اليه من أن كل دولة اسلامية لها كيان «اسلامى» داخل الكيان السياسى ، وان هذا الكيان شديد الحساسية لا يصيبه الوهن ، فلا يكاد يمسه السوء حتى ينتبه ، لم تكن الحملة انقلابا من نوع ما ألفه المصريون من كثرة الحروب والاضطراب . ولكنها مست عاطفتهم الدينية ولم تعد فى نظرهم إلا عدوان جديد للنصرانية على الاسلام فكروا أمرها كرهاً بالغاً ،

لنتتبع علاقات فرنسا بتركيا قبيل الحملة عسانا نكشف من أسبابها أمراً مستورا ، عرفنا أن جهود فيلنيف كادت تنتهى إلى الفشل لمحاولة فرنسا الاستفادة من ثقة فرنسا فيها، ولكن العلاقات عادت بعد قليل إلى ما كانت عليه على يد السفير Aubert Dubyet الذى كسب

أربع سنوات ثم عاد إلى بلاده حيث نشر عن رحلته كتابه الذى أشرنا اليه ، ثم انتخب عضوا فى الجمعية العمومية ثم فى الجمعية التشريعية ، ثم عين أستاذا فى مدرسة المعلمين ، وكتب كتابا آخر عن علاقة الدولتين الروسية والتركية هو *Con siderations sur la guerre des Turcs et de la Russie* وقد أرسلته حكومة فرنسا فى رحلة سياسية سنة ١٧٩٥ الى الولايات المتحدة لبحث مسألة لوزيانا فلم يخف على حكومة الجمهورية أمره وقبضت عليه ولعل الرجل لم يكن مكلفا رسمياً من الحكومة بالقيام برحلته الى مصر ولكنه صور الحال للحكومة الادارة وسهل لها الامر ، ونلاحظ من منشورات الحملة الفرنسية وتصرفاتها ان القائمين بامرها كانت لديهم فكرة واضحة جدا عن البلاد قبل أن ينزلوا بها . ولا يبعد أن يكون ذلك من عمل فولتي وغيره من الرحالة والتجار

وقد حار فى كتابه المسمى : —

Les ruines, ou meditations sur les revolutions des empires « من مصر نستطيع الوصول الى الهند ، ونمبر طريق السويس ونستطيع أن نترك طريق الرجا الصالح » وقد صدر كتابه هذا قبل قيام الحملة على مصر بسنوات قلائل

صدقة السلطان وحسن ظنه ، واستطاع أن يؤكد امتيازات فرنسا التي كانت كسبتها سنة ١٧٤٠ ، وهذا نصر اقتصادي حاسم لا شك فيه يؤكد ما ذهبنا اليه من مطامع فرنسا في شرق البحر الأبيض في ذلك الزمان .

فرنسا تسمى لتصلح
الدولة العثمانية

فاذا تم لفرنسا ذلك واطمأنت إلى أنها صاحبة الكلمة العليا في الاستانة ، فقد بدأت تعمل على تقوية الدولة العثمانية من الناحية الحربية ، لتقوى على صد الروس ؛ وكان دوباويه رجلا فرنسياً بارعاً استطاع أن يكسب حب السلطان وتقديره . واستطاع أن يقنعه بضرورة الاصلاح ، فاستمع اليه وطلب منه أن يمدد بالمهندسين والمدافع ثم كلفه بتنظيم الجيش التركي نظاماً جديداً .

بدأ الاصلاح
في تركيا :
الجيش

هكذا تكون نقطة البدء في الاصلاح هي الجيش ، في تركيا ثم في مصر وسنرى خطأ ذلك بعد قليل ، استطاع دوباويه أن يعدد للسلطان ثمانمائة مدفعي وفرقة من الفرسان وفرقة من المشاة منظمين على أحدث الأساليب ، وفعلنا سمي هذا الجيش الجديد الصغير : النظام الجديد

ولكن حكومة الادارة لم يكن لديها من الصبر ما يمكنها من الانتظار لقطاف الثمر بعد حين طويل (١) ، فما كاد نابليون ينتصر في الحملة الايطالية ويوقع اتفاق كامبو فورميو حتى خطر له أن هناك سيديلا أخرى لا تقاؤ ما ترمى اليه فرنسا ، سيديل سريع لا يكلفها إلا جيش صغير يضرب ضربة حاسمة في مصر ، فتفهم تركيا ويرتد شر إنجلترا ويذهل الروس وتتبدد السحب ، ولم يكفد يخاطب رجال الحكومة في الأمر حتى توافقوا في الشئ اليه وهلل تاليران للفكرة وصفق لها ، ومن هنا بدأ

التفكير في انقاذ
الحملة

الاستعداد لها

الاستعداد للحملة ، استعداد خارجي واستعداد داخلي ، أما الاستعداد الخارجي فارسال الرسل الى اليونان يحرضونهم على الثورة ، يؤكدون لليونان أنهم « سلاسل الاسبرطيين . الشعب اليوناني الوحيد الذي

(١) اذ كانت ترمى من وراء محاولاتها لاصلاح الدولة الى السيطرة عليها جملة ، وكان سفراؤها يهدون لذلك على مهل .

حافظ على حريته » ، ومخاطبة نابليون لعلى باشا والى يانينا بقوله «أيها الصديق المبجل » وارساله اليه أحد ضباط أركان حربه للتفاهم معه ، ثم العناية بالاستيلاء على ساحل دلماشيا وجزائر البحر الادرياتيكي .. كل هذه مقدمات للحملة على مصر . كانت فرنسا تدبر — ولاشك — أمراً خطيراً ولكن الظروف وحدها ومعارضة الدول ضيقّت حدود البرنامج الفرنسي الى هذه الحملة التي لا تعد أكثر من فشل من الناحية السياسية . فإذا تم هذا كله فقد تمت معه المعدات في داخل فرنسا بهذه الحملة المصرية ، وأعد لها الجنود والعلماء والآلات ، ووضع لها برنامج عظيم لا يدل إلا على أن الذين رسموا للحملة نظامها أرادوا بها أن تكون فتحاً واستقراراً واستعماراً «ومما يدل على أن فرنسا كانت تريد تأسيس مستعمرة فرنسية بمصر ما أرسلته مع الحملة من علماء وصناع وعدد وآلات ومطابع ومترجمين (١)»

الاستعداد للحملة

كذلك لا نزاع في أن الفرنسيين استبانوا أهمية مصر للتجارة الهندية ، قال تاليران في خطابه الى نابليون في ١٣ سبتمبر سنة ١٧٩٧ « ان مصر كطريق تجارى ستعطينا تجارة الهند ، لأن المعول في التجارة على الوقت ، وبلاستيلاء على مصر نستطيع أن نقوم بخمس رحلات مقابل ثلاث بالطريق المعتاد حول رأس الرجاء الصالح » وكان الصراع على المستعمرات على أشده بين انجلترا وفرنسا في ذلك الوقت ، وكانت الأخيرة قد فقدت مستعمراتها في الحروب مع انجلترا ، ففكرت في الاستيلاء على مصر لتستطيع ضرب انجلترا في الهند ضربة قاضية ، اما بالتجارة معها كما رأيت من كتاب تاليران واما بالاتصال بامرائها الوطنيين ودفعهم الى الثورة على الانجليز ومدّهم بما عسى أن يحتاجون اليه من آلات حديثة وتنظيم .

وكانت انجلترا في هذه الأيام ترقب بعين القلق تطور فرنسا وازدياد قوتها ، وكانت تخشى أن تثب فرنسا أو روسيا على الدولة العثمانية فيبتلعانها لأن هذا يخل بالتوازن الدولي ويجعل لاحدى الدولتين قوة خطيرة في أوروبا ، فكانت تهتم في هذه الأيام اهتماما خاصا بشؤون القارة أى بشئون أوروبا ، لما لها — أى لانجلترا — من المصالح التجارية العظيمة مع دولها . فكانت تحرص الحرص كله على أن تبقى الدولة العثمانية على ما هي عليه ، لا يهدد سلامتها عدو ولا يفوز بأرضها منافس ، لهذا ستكون سياسة انجلترا أزاء الدولة العثمانية هي المحافظة عليها من كل خطر يهدد كيانها ، خارجي كالروسيا أو داخلي كالثائرين من أمثال محمد علي وسنعود إلى هذا الأمر بالتفصيل بعد قليل

كان الفتح الفرنسي لمصر كفتح الاسكندر للشرق سواء بسواء ، كان خطوة بالحضارة إلى الامام لانصرأ من انتصار الميادين ، فان وقائع شبراخيت والأهرام وأبى قير وحروب الصعيد وهذا الصراع الطويل الذى استمر بين الفرنسيين والمماليك لا يكاد يعد نصراً للأول ولا يستحق أن نقف عنده طويلا ، فهذه جنود أوروبية منظمة على أحدث الأساليب يقودها نابعة من توابغ الحروب . تلقى شرازم من الفرسان لانظام لها فليس بغريب أن تنتصر الأولى على الثانية ، بل لعل تفاصيل الصراع أن تقلل من جمال « اللوحة » التى يتأق فى رسمها الفرنسيون عندما يتحدثون عن هذه الفترة من تاريخهم . فقد دافع المماليك دفاعا مجيدا وثبتوا ثباتا جليلا ، وحاربوا عن أرض مصر شبرا شبرا ، وناجزوا الفرنسيين فى أقاصى الصعيد طويلا ، وخف لعونهم مسلمو الحجاز وعبروا اليهم البحر الأحمر وثبتوا معهم ثباتا طيبا ، بل ثبتوا لنابليون نفسه وحاربوه حربا شديدة استحقوا بها

موقف انجلترا

الحلة العرسية من
الاحية الحرية

دفاع المماليك

لعجابه فقال انهم فرسان يخشى بأسهم ! redoutable بل انهم كادوا
يظفرون به في رمال الصالحية في الوجه البحري ، لولا أن أنقذه رجاله
فنجامن الهلاك المحقق ، كل هذا الجانب الحربى يسير لا يستأهل الفخر
ولا الذكر وإنما المجيد حقاً هو هذا الجهد العلمى العظيم الذى بذله
الفرنسيون في مصر على رغم ما شغلهم من أحداث السياسة وما أحاط
بهم من مخاطر الأعداء .

الحلة الفرنسية من
الناحية العلمية

كان جيش نابليون جيشين في واقع الأمر ، أحدهما جيش
المحاربين والآخر جيش العلماء . فأما الجيش الأول فقد انصرف من
أول الأمر إلى هذا الصراع الطويل الذى لم ينته إلى شيء ، إذ ظلت
القوى الحرية التى أنفقوا جهدهم في قهرها على حالها تقريباً لم تحصد
شوكتها إلى حد محسوس ، ظل المماليك يتحينون الفرص في دنقلة بل
تقدموا في الصعيد واستقر بعضهم في الجيزة والبحيرة ولبث الأتراك
يحمون حول البلاد حتى جلاء الفرنسيين ، وظل الانجليز مسيطرين
على مصير الحملة ورجالها بهذا الحصر البحرى الذى أحكموا حلقاته من
سواحل الاسكندرية الى سواحل الشام

وأما الثانى فجيش العلماء والباحثين ، ما كادت الحملة يستقر بها
المقام حتى بدأت العمل في جد ونشاط وحتى تناولت مصر كلها بدراساتها
وأبحاثها فوفقت في الميادين التى تناولتها توفيقاً محموداً مشكوراً .

أنشأ الفرنسيون معهد القاهرة . Institut du Caire وتولى
العمل فيه طائفة من أقدر العلماء من أمثال مونج وبرتوليه وفورييه
وجوفرى سانت هيلير وكونتيه ، وبدأوا يعملون لآحياء مصر من جديد
كما يقول الأستاذ دريو . فاستوفقت أنظارهم آثار مصر القاسمة في
نواحيها والتى تتحدث عن ماضيها ، فبدأوا ينصرفون الى دراسة هذه
الآثار ووصفها ورسمها والاعجاب بها ، وتشاء الفرصة المواتية أن يعثر

أحد ضباط الحملة الفرنسية على ذلك الحجر الشهير الذى أزاح الستار
عن ماضى مصر البعيد ، أقصد حجر رشيد الذى نقل الى لندن حتى
يقض الله له العالم الفرنسى شمبوليون الذى أكب عليه يدرسه بحماس
يقرب من الجنون ، حتى انتهى بعد جهاد عظيم لا يخلو من روعة الى
أن يحل رموز الكتابة الهيروغليفية سنة ١٨٢٢ ، فبدأ بذلك عصر
جديد لمصر ، وانفتح ميدان واسع للعلم ، فكان هذا الكشف فى حسابنا
نحن المصريين أجل نتائج الحملة الفرنسية وأبعدها أثراً إذ أنار للعالم ناحية
أطبق عليها الظلام وسادها السكون وأخرج الى النور فقرة مفقودة كان
لابد من العثور عليها حتى تستقيم سيرة الحضارة متصلة الحلقات ،
موصولة الفقرات ، وأنار لمصر سبيلها فعرفت نفسها ومقامها بين أمم
التاريخ فلم يخطئ دريو على ذلك حين قال إن هؤلاء العلماء « أحيوا
مصر من جديد »

وبدأ كوتيه من ناحية أخرى ينشئ المصانع ويغرس فى شرى مصر
هذه البذور التى كانت أولى معالم العصر الحديث ، وعنى بالزراعة فأخذ
يذيع أبحاثه فى الحاصلات وتجاربه فى الزراعة كيما يعود الى البلد
وخاؤه الذى انصرف عنه من يوم أسدل الستار على ماضيه البعيد

ودرس المهندسون وسائل الإصلاح فاعادوا الى الوجود مشروع
قناة تصل النيل بالبحر الأحمر وأنفقوا جهداً مشكوراً فى دراسة مشروع
قناة السويس ، وكان هذا الأمر الأخير من الأعمال التى كلفت بها
الحملة رسمياً ، ومسحوا الأرض وأنشأوا يعيدون تنظيم القاهرة وتنظيفها
بما تراكم عليها طوال العصور الوسطى . . وبدءوا يدخلون إصلاحات
حماية ويضطرون الناس الى الأخذ بأساليب غير مألوفة لديهم ، فحرموا
الدفن فى البيوت والمنازل وأرغموا الناس على كنس الشوارع ورشها
واضامتها ليلاً .

كتاب وصف مصر وكانت خلاصة أعمال هؤلاء العلماء ذلك الكتاب الضخم الجليل الذى كتبوه حين عادوا إلى بلادهم ، ودرسوا فيسه مصر دراسة وافية كاملة ، وأثبتوا في أجزائه العديدة خلاصة جهودهم التى أنفقوها طوال أقامتهم بمصر لاعادة الحياة إلى وادى النيل ، وأقصد بذلك كتاب وصف مصر Description d'Egypte

كانت هذه الاصلاحات ايذانا يبدأ عصر جديد لمصر والمصريين، نعم انهم لم يأخذوا بها ولم يعجبوا بها ، وإنما وقفوا منها موقف العدو الكاره وأقدموا عليها اقدام المرغم المضطر ، ولكنها كانت — كما سنرى — حجر الأساس الذى سبنى عليه صرح النهضة المصرية

قلنا ان الانجليز حينما نعى اليهم أن الفرنسيين يعدون فى الخفاء أمراً جليلاً ، وانهم يعدون الاساطيل والجنود والعلماء لحملة ذات بال ، أسرعوا فأرسلوا قائدهم المعروف نلسون ليقف على حقيقة الأمر. وليحبط مساعى الفرنسيين أياً كانت ، وصل نلسن الى البحر الأبيض. ومر بالاسكندرية قبل وصول حملة نابليون ثم مضى الى الشام ، ولم يكذب يولى مصر ظهره حتى أقبل الفرنسيون ونزلوا أرض مصر ، ووضعوا أسطولهم فى أبى قير ثم بدأوا يغزون البلاد ، كان نلسن لا يدرى أين يريد الفرنسيون ، وكان يحشه عنهم صورة لطيفة جداً من النزاع بين الانجليز والفرنسيين فى هذه الأيام ، بحث عنهم فى صقلية وفى المورة وفى كريت . وأخيراً عثر عليهم فى أول أغسطس سنة ١٧٨٩ وهناك أنزل بهم هزيمة ساحقة ، تحطم فيها الأسطول الفرنسى تماماً ومات قائدها برويز ودوتى ثوار واستطاع فيلنيف المعروف أن ينجو بسفينتين .. وتلاشت معها آمال الفرنسيين التى كانوا يعلقونها على هذه الحملة ، وأصبح موقفهم فى مصر من اليوم

انجلترا والحملة الفرنسية على مصر

واقعة النيل البحرية

أشبهه بالأسير الذى يجاهد حتى لا يجمع على نفسه عار الأسر وشنار
التسليم المخجل

تركيا والحلة الفرنسية
على مصر

أقفل الباب على الفرنسيين فى مصر ، وتنفست تركيا الصعداء
وتأكدت أن « بضاعتها مردودة اليها » واستراح الانجليز إلى القضاء
على هذه الحملة التى كانوا يخشونها كثيراً ، وانقلب الفرنسيون الى مصر
وقد وطنوا العزم على اتخاذها وطناً ، وبدأت سياستهم نحو المصريين
تتغير ، ومن هنا بدأوا يوطدون أقدامهم باكمال الفتح من جهة
وبالاصلاح واستقلال البلاد من جهة أخرى ، وهذا هو أصل كل
المشاريع التى نفذها الفرنسيون من مجمع على الدواوين للحكم واصلاح
أو تجديد : سياسة تمهيد الى الاستقرار ، أملاها اليأس من الاتصال
ببلدهم فرنسا بعد تحطم الأسطول ووقوف الانجليز فى البحر بالمرصاد
نشط السلطان بعض النشاط ، وقد ضرب له الانجليز الضربة
الحاسمة وبقي عليه أن يجهز على الفرنسيين ، وقد كان هذا الاجهاز أمراً
ميسوراً لو أن القاشمين بأمره لم يكونوا هم رجال الدولة العثمانية فى ذلك
الحين . دبروا حملتين : احدهما بحرية والاخرى برية تلتقيان فى مصر
وتقضيان على الفرنسيين دفعة واحدة .

ولكن نابليون لم يمهل الأتراك حتى ينفذوا هذه الخطة ، إذ فضل
— كما هى عادته — الهجوم على الدفاع ، تخف الى الشام بجيشه فى خريف
١٧٩٩ ، وكان السلطان قد أمر واليه على الشام أن يهاجم الفرنسيين
فى مصر . سار نابليون فى البلاد سيراً هيناً ، يشبه الى حد كبير مسيره
فى مصر ، استولى على العريش وغزة ويافا ، وشتت الجيش التركى
البرى الذى أقبل لملاقاته فى موقعين إحداهما فى دمشق والثانية فى
طبرية ، وكان قد أرسل مدافع الحصار بطريق البحر لتوافيه فى الشام
فلم يفسوت الانجليز هذه الفرصة ، وكانوا قد أقاموا فى البحر الأبيض

سيدنى سميث أمير لايا جديداً هو السير سيدنى سميث ، فاستولوا على مدافع الحصار
 نابليون أمام عكا حاول نابليون أن يستولى على عكا ، وهى حصن قوى منيع يقع
 على طرف اسدان من الأرض تمتد فى البحر ، فلم يكن فى استطاعة نابليون
 الوصول إليها عن طريق البر لوقوف الانجليز فى البحر ، ثم أن الجزار
 باشا والى المدينة كان يعينه فى صد الحصار مهندس فرنسى آخر ، من
 الاشراف المهاجرين ، اسمه فيليبو استطاع أن يقوى الحصون ويمنعها
 من نابليون . وأخيراً . . عاد نابليون الى مصر ، يائساً كل اليأس من
 الاستيلاء على الشام وآسيا الصغرى . عاد ليجد جيش الأتراك الثانى
 قد وصل بسلامة الله الى مصر ، وأنزل جنوده على شاطئ أبو قير فلم
 يمكن أسهل عليه من هزيمتهم والقضاء عليهم . عند أبو قير

موقعة أبو قير البرية

اطمأن الانجليز إذن إلى أن الفرنسيين قد حصروا فى مصر
 وألاًّ خطر جديد يخشى منهم ، فبدأوا يدبرون أمراً آخر لاجراهم
 من مصر جملة .

الحالة السياسية فى كانت الاحوال قد تعقدت فى أوروبا ، وتألبت الدول على فرنسا
 أوروبا واستولت على ممتلكاتها وهددت بلادها ، وتطالب الأمر قائداً ماهراً
 ليرد عادة المتألمين ، وعلم نابليون بذلك فدبر هروبه من مصر وترك
 مقاليدها بيد كليبر وبارح الاسكندرية فى ٢٢ أغسطس ١٧٨٩ ليحدث
 انقلاب برومير ويصبح القنصل الأول .

رجل نابليون
 الى فرنسا

كليبر يبدأ بدأ كليبر يتفاهم مع الانجليز والأتراك ليصل معهم إلى حل معقول
 المفاوضات للمسألة وتشدد الانجليز بادىء الرأى ، ولكنهم ، بعد مفاوضات عديدة
 اتفاق العريش دارت على سفينة السير سيدنى سميث ، انتهوا الى ابرام اتفاق العريش
 فى ٢٤ يناير سنة ١٨٠٠ الذى يقضى بأن تنقل الجنود الفرنسية إلى
 فرنسا على سفن انجليزية

ولكن رجال السياسة فى انجلترا لم ينظروا الى الاعتبارات الكثيرة

التي عرضها سدي سميت ، فلما وصلهم الاتفاق بعد وضعه بقليل
ليبدوا رأيهم فيه وليأذنوا للسير سميت في تنفيذه ، رفضوا قبوله
وأرسلوا إلى سميت يقولون إنهم لا يرضون إلا أن يُسلّم الجنود
الفرنسيون كأسرى حرب .

وكانت الحكومة الفرنسية قد تأكدت أن الحملة المصرية قد
فشلت تماما ، وأخذت تدبر الوسائل لاسترجاع جنودها من مصر
لأنقاذهم من أسرهم الطويل ، وللإستفادة منهم في حروبها الكثيرة
في أوروبا . فكتبت في مايو سنة ١٧٩٩ إلى نابليون تصف له سوء
الحال وتستقدمه وجنوده إلى أوروبا ، بل شرعت تأخذ الأهبة لإعادة
هؤلاء الجنود فكلفت الاميرال بروى Bruix بأن يخرج من ميناء
برست ومعه ٢٥ سفينة ويشارك مع الأسطول الاسباني ويخترق البحر
الايض المتوسط ويصل إلى الاسكندرية ، ولكن هذه الخطة
فشلت لرفض الأسطول الاسباني التعاون مع الفرنسيين على الانجليز .

وكان الجنود أنفسهم قد سئموا المقام بمصر ولج بهم الشوق إلى
بلادهم ، فأخذوا يكتبون الخطابات إلى ذويهم في فرنسا يبسطون لهم
سوء حالهم ويستصرخونهم سرعة العمل لأنقاذهم ، ولم يقدر لهذه
الخطابات أن تصل إلى فرنسا لأن الأسطول الانجليزي استولى عليها
فنشرتها الحكومة الانجليزية في كتاب خاص ؛ وبدأ الشقاق يدب بين
القادة — بعد سفر نابليون — ومال بعضهم ميلا ظاهراً لمبارحة مصر
والعودة إلى فرنسا ، وعلى رأس هؤلاء كليبر الذي أسخطه هروب
نابليون فكتب إلى حكومة الإدارة يشكوها إليها ويبسط أخطاءه
ويرجوها أن تنظر في أمره ، ومال بعضهم الآخر إلى البقاء حرصاً
على مصلحة فرنسا السياسية والتجارية الآجلة ، وتطرق هذا النزاع
إلى الجنود ، وشابته نزعات شخصية فلم يعتم الجيش كله أن ضج بالشقاق

سأم الجنود الفرنسيين
من مصر

والمحاكمات العسكرية والعقوبات ، مما هبط بالروح المعنوية هبوطاً شديداً ، وزاد الأمر حرجاً انسحاب الجيش الفرنسي من الصعيد بعد أن أخلاه ديزيه قبيل موقعة أبوقير البحرية ، فتقدم المماليك وأخذوا يرفعون رأسهم من جديد ويهددون البلاد تهديداً شديداً ، فبدأ الأهالي يضجون بالشكوى بل شكوا في قوة الفرنسيين الذين ضعف سلطانهم على البلاد ضعفاً ظاهراً ، وفاضت نفوسهم بالثورة وباتوا يتربصون في انتظار الفرصة المواتية ، وبلغ بهم السخط أن ثاروا بشيوخهم ورموهم بالخيانة والتعاون مع الفرنسيين

انسحاب الجيش
الفرنسي من الصعيد

في هذه الأثناء كان كليبر قد اطمأن إلى أنه مغادر مصر بسلام ، فأخذ يعد المعدات للرحيل ، وسمح للأتراك بأن يعبروا حدود مصر وأن يصلوا إلى قرب القاهرة ، وتسامع المصريون بقرب الأتراك ففرحوا فرحاً بالغاً . . ورحبوا بهم ترحيباً طيباً ، لا لأنهم الأتراك . . بل لأنهم المسلمون يخلصونهم من النصارى

الفرنسيون يستعدون
للرحيل

فلما وصل رد الحكومة البريطانية إلى السير سدنبيث ، وبلغه إلى كليبر ، أبى هذا أباء شريفاً أن يسلم تسليم أسير ، وقال انه « لا يجب على هذه الإهانة إلا بالانتصار » وكان الأتراك يومئذ في عين شمس فسار إليهم وانتصر عليهم انتصاراً حاسماً في ٢٠ مارس سنة ١٨٠٠ وفر من نجاحهم إلى الشام . وصمم الفرنسيون مرة أخرى على البقاء في مصر إلى النهاية ، وبدأ كليبر يتفاهم مع المماليك وصالح مراد بك وأخذ ينظم حكومة مصر تنظيمًا دقيقاً ، ولكنه فوجئ . وهو في حديقة داره بطعنات سليمان الجلبى الذي قتله في ١٤ يونيو سنة ١٨٠٠ خلفه مينو ولم يكن على شاكاة سابقة (١) فبدأ يتفاهم مع الانجليز والأتراك على الخروج من مصر ، ورضى الانجليز بأن ينقل الفرنسيون

رفض الحكومة
الانجليزية

موقعة عين شمس

مينو

(١) كانت صلته تكثير من ذوى السلطان في الحكومة هي السبب في وصوله إلى درجة الجنرالية وكان رملؤه يعرفون ذلك ويكرهون الخضوع لرحل ليس له ماضٍ حربي أو انتصارات سابقة ،

إلى بلادهم . أما السبب الذى حدا بالانجليز إلى قبول ذلك وكان فى استطاعتهم أن يستمروا على حصارهم للفرنسيين فهو ان الحرب بينهم وبين نابليون كانت قد قاربت الانتهاء ، وبدأت طلائع صلح أميان تبدو ، وخافوا أن تبدأ المفاوضات والفرنسيون فى مصر فيكونوا مخيرين بين أحد أمرين : إما ابقاؤهم فى مصر والاعتراف بحكمهم فيها ، وإما اخراجهم منها وتعويضهم بجزء من الأرض فى أوربا أو فيما وراء البحار ، فآثر الانجليز أن يخلصوا من هذه الورطة وعجلوا بنقل الفرنسيين ، وكانت السياسة الانجليزية قد بدأت تتبدل من العداء الشديد إلى التفاهم ، إذ سقطت وزارة بت وجاءت وزارة أدنجتون فبدأ التفاهم ، والتمهيد لصلح أميان ، وأسرع فى العمل ثم اخراج الفرنسيين من مصر بالقوة ، إذ سلم بليار القاهرة فى ٢٦ يونية سنة ١٨٠١ ، وسلم مينو فى ٣ ديسمبر من السنة نفسها

خروج الفرنسيين
من مصر

هكذا انتهت هذه الحملة التى لم تنتج شيئاً فى عالم الفتوح والتى يبدأ بها تاريخ المسألة المصرية وفى التاريخ (٢) وسنعرض الآن لأهم آثارها وأبقاها ، وهو الروح القومى والنهضة المصرية ، وقد عرضنا قبل ذلك إلى آثارها فى الحضارة والعمران ، بقى أن نشير إلى أنها نبهت السياسة الأوروبية إلى مصر ، ولفتت الأذهان إلى ضعفها وسهولة الاستيلاء

فاخذوا يحتملونه واحس منهم ذلك فبدأ يخاضعونهم ويضطهد كثيرا منهم بل باعدهم وخاصهم وكان لهذا أثره السيئ فيما اصاب الحملة فى أواخر أيامها .

(٢) أما من الوجهة السياسية الدولية فانه منذ ١٩ مايو سنة ١٧٩٨ وهو الروم الذى خرجت فيه الحملة الفرنسية من ميناء طولون قاصدة مصر ، ولدت المسألة المصرية وأخذت صبغتها السياسية فوراً : لأنه إذا كان الاستحواذ على الهند مغنا اقتصاديا هاما . فان الاستيلاء على مصر بعد ان استقر بأرضها نابليون يمثل تلك السهولة أصبح من المسائل السياسية الدولية الأولى التى ما دقت تشغل بال الدول إلى الآن . ففرنسا وحدها هى الأولى التى اخترقت بصدق نظرها للحجب السميكة التى أخفت مركز مصر عن انظار الدول فى ذلك الوقت »

الاستاذ محمد رفعت فى تاريخ مصر السياسى ص ١٨١

عليها ، وانها نهبت الانجليز إلى ضرورة الاهتمام الشديد بشئون شرق البحر الأبيض وحراسته ، ومن ذلك اليوم يبدأ الانجليز يتقربون من الباب العالي لمنافسة الفرنسيين السائدين هناك ، فلما اقتربوا ونظروا الأمر عن قرب لمحوا عدوا آخر يتربص ، واستبانوا أنه أشد خطرا من الفرنسيين : عدوا كان يخيفهم في أواسط الشرق وأقاصيه ، نجفوا إليه سراعا ، وأعدوا العدة لكفاحه والحد من خطره وحماية الدولة العثمانية المسكينة منه ، ذلك هو الدب الروسى ..

هذه الحملة كانت بعيدة الأثر في مستقبل مصر السياسى والاجتماعى. حتى ليسر حصر كل نتائجها حصرا تاما ، ونكاد نحن نحس هذه الآثار باقية إلى اليوم على رغم بعد الشقة وتقادم العهد .

آثار الحملة

بدأت هذه الحملة عصر جديد لمصر والمصريين ، وليس هذا لأن المصريين استيقظوا على ضجيجها وفهموا مبادئها وأقبلوا عليها ، وليس لأن أفكار الحرية والمساواة استقرت في أفهامهم وأخذوا يؤمنون بها ، بل ليس ذلك لأن الفرنسيين كشفوا الستر عن تاريخ مصر القديم ومجدها الذاهب فاستيقظت في المصريين آمالهم ، لم يحدث شيء من هذا كله أثناء الحملة ولا بعدها بعشرين أو ثلاثين سنة ، اذ لم تكن الأفكار قد نضجت بعد لتلقى هذه الآراء الحديثة ، وكانت سحب الجهل قائمة جدا لا تخترقها أشعة النور التي كان يحملها الفرنسيون ، بل كان لا يخطر على بال المصرى العادى انه صاحب حق في إدارة شئون البلاد والتصرف فيما يهمه من الأمور ، ولم تكن تربطه بأرض مصر صلة ولا تحفز به إلى حبها عاطفة : كل هذا لم يكن آن أوانه ، وكل الذى حدث هو تهيؤ الظروف لنشوءه وقيامه بعد زمن طويل (١)

بدا عهد جديد لمصر

(١) ولا ينافى هذا وجود نهر قليل من الدين كانوا يحسون بعاطفة صحيحة نحو البلاد وأهلها كما سنرى ، وإنما تتكلم الآن عن عامة الناس .

كسر شوكة
المماليك

أما هذه الظروف المواتية فأهمها كسر شوكة المماليك وإضعافهم بهذه الضربات المتتالية التي لن يعود أمرهم بعدها إلى ما كان عليه في سابق الأيام ، كان المماليك قبل ذلك سوطا يلهب ظهور أهل البلاد ، وكان هذا الخوف من المماليك وطول الخضوع لهم قد ذهب بالكثير من شعور المصريين بأنفسهم ووقف بهم عن أى تقدم معنوى أو انتاج فكري ، فلما هزم المماليك وأخلوا البلاد أمام الفرنسيين وأحس المصريون أنهم نجوا من شرهم ، تنفسوا الصعداء وشعروا بالحرية وبدأوا يثقون في أنفسهم ، وسنلاحظ في سياق حديثنا أنهم ينهضون عقب ذلك نهوضا سريعا ، يكون مظهره الجرأة على المماليك والآتراك ، والمطالبة بأن تكون لهم « إرادة » مسموعة مطاعة ينزل عندها المماليك والآتراك ، ولا شك أن الثورة المقبلة — التي ستكون نتيجة وليا محمد علي — هي مظهر من مظاهر هذه الجرأة والشعور بالنفس الذي كان نتيجة طبيعية جدا لما أصاب قوة المماليك من تدهور وانهمزام على يد الفرنسيين

أثر الحملة في
مستقبل الفكر
والعلم في مصر

وكان للجهود التي بذلها العلماء الفرنسيون أبعد الأثر في مستقبل مصر الثقافي والفكري ، إذ أصبحت مصر شديدة الاتصال بفرنسا والتأثر بها في هذين الميدانين ، سيتوجه إليها محمد علي ببعثاته ومطالبه من العلماء الاختصاصيين الذين يريدهم ، وستزداد هذه الصلة على مر الأيام حتى يزول كل أثر للعداء بين فرنسا ومصر ، ويحل محل ذلك وئام وصلاح وعلاقة هي أشبه بعلاقة التلميذ الأستاذ ، بل ستستثمر مصر في كل مناسبة بالميل لفرنسا والعمل لمصلحتها ، وسيشقى محمد علي بذلك كثيرا إذ لا زال بالمرستون يرميه بأنه صنعة الفرنسيين والعوبة في أيديهم ويعارضه في كل مشاريعه لأنه — أى بالمرستون — يعتقد أنه بذلك يقاوم فرنسا نفسها ، ولو أن فرنسا استمرت على حالها من القوة

العلاقة بين فرنسا
ومصر بعد الحملة

أثناء القرن التاسع عشر لأفادت مصر كثيراً من صداقة فرنسا ورعايتها
ولكن هذه الأخيرة كانت شديدة الاضطراب حافلة بالمصاعب
والنكبات بل هبطت أسهمها هبوطاً شديداً بعد سقوط نابليون ،
وليت فرنسا كانت ترى هذه العاطفة حق الرعاية وتتفطن إلى ما وراء
هذا المركز الممتاز في مصر من كسب عظيم ، ولكنها لم تتأخر في أى
لحظة من اللحظات عن أن تهوى بيدها على رأس مصر مع الأعداء
بل قبل الأعداء ، ولو أنها وقفت الى جانب مصر مرة واحدة فقط :
سنة ١٨٤٠ مثلاً أو أثناء مشا كل ديون اسماعيل لكان لها من ذلك كل
خير ، ولكنها لم تثبت على سياسة واحدة ازاء هذا البلد الذى كان
يختصها بالحب ويواليها بالتقدير والاحترام والا كبار

سياسة فرنسا نحو
مصر

أصبحت مصر ميداناً خصباً للثقافة الفرنسية والعلم الفرنسى ،
وأصبح الأدب الفرنسى أحب ألوان الآداب إلى المصريين وأقربها
إلى نفوسهم ، وأصبح الفلاسفة الفرنسيون أئمة الفلسفة والفكر
عند زعماء النهضة والثقافة فى مصر ، وقد بلغ من عمق هذا الأثر أن
الانجليز لم يفلحوا فى محاربته والقضاء عليه على الرغم مما بذلوا من جهود
منذ احتلالهم لمصر (أى بعد ذلك بنحو ثمانين سنة) فقد فرضوا اللغة
الانجليزية فى المدارس وحاولوا أن يجعلوا من مصر هندا أخرى ،
فلم ينتج ذلك إلا أثر قليل ، إذ عادت الثقافة الفرنسية فاحتلت مكانها
وغلبت على غيرها ، وهؤلاء أئمة الفكر فى مصر فى القرنين التاسع عشر
والعشرين تغلب أ كثرهم الثقافة الفرنسية واللاتينية . ولعل أهم هذه
الآثار الثقافية هو القانون الفرنسى ، الذى وُسم القانون المصرى على
غرارهِ بل نُقل عنه ، وبذلك كسبت فرنسا التراث التشريعى كسباً عوض
عليها كل ما خسرت فى ميدان الحرب والسياسة والمال فى مصر . وإذا
علمنا أن المصريين كانوا إلى أمد قريب جداً يرون أن دراسة القانون

الثقافة الفرنسية
فى مصر

القانون الفرنسى

هى الدراسة الوحيدة الجديرة بالتقدير ، وحسب الانسان أن يكون
محامياً أو قاضياً أو مستشاراً أو ما إلى ذلك حتى يكون قد بلغ من العلم
مشتهاه وغايته ، وإن ذلك كان يدفع بالكثير منهم إلى السفر إلى فرنسا
لدراسة القانون فكانوا بذلك رسل الثقافة اللاتينية في مصر ودعاتها
وأعلامها فأكملوا مافات الفرنسيين ، وبهذا سادت مصر الثقافة اللاتينية ،
ولم يتفطن المصريون إلى الثقافة السكسونية (الألمانية والانجليزية)
إلا منذ أمد قريب جداً .

وكسبت فرنسا إلى جانب ذلك كسباً اقتصادياً وافراً إذ أصبح
للفرنسيين مقام ممتاز عند حكام مصر منذ محمد على إلى اليوم ، فنالوا
من الامتيازات والاحتكارات وحقوق الاستغلال ما لا تزال ترى
آثاره في مصر إلى اليوم ، وقد كان الفرنسيون على عكس ما أراد
المصريون ، إذ أظهروا جشعاً شديداً لم يجارهم فيه غيرهم ، وأصبح همهم
خداع المصريين — حكومة وشعباً — والفوز بأكثر ما يمكن الفوز به ،
ولا تزال تذكر موقفهم حيال مصالح مصر في مسألة قناة السويس
و ديون اسماعيل أو معارضتهم الشديدة في مسألة الامتيازات ، بحيث
لا تخطئ إذا قلنا إن الفرنسيين أسلبوا مصر الانجليز

وكان لفرنسا مثل هذا المقام الثقافي الممتاز في الشام ، كانت تتذرع
بنشر العلم لتبعث البعث التبشيرية الكاثوليكية ، وتتذرع بالكاثوليكية
لزيادة سلطانها السياسى في الشام ، وكانت الحروب الصليبية قد خلفت
في الشام أثراً عميقاً من الكاثوليكية ، فرحب نصارى الشام ببعوث
الفرنسيين ومبشرهم وعلمائهم ، ومن ثم زكت الثقافة الفرنسية في
الشام ولبنان على الخصوص ، وانتشرت اللغة الفرنسية ومال الأهليون
إلى الفرنسيين ميلاً ظاهراً

على هذين العمادين القويين — مصر ولبنان — قامت الثقافة

الفرنسية في الشرق الاسلامي قوية العماد لا تكاد تغلبها ثقافة أخرى ،
وسادت اللغة الفرنسية وأقبل الناس على تعلمها حتى أصبحت — دون
غيرها من لغات أوروبا — رمز الثقافة الأوروبية وبرهانها الذي
لا يخطئ . وفي مصر ولبنان كانت نهضة الفكر الشرقى وحياء العلوم
والآداب ، فغلب على العلوم والآداب لون ثقافى لاتينى قوى ملحوظ
الى يومنا هذا

وهذا — فى حسابنا — هو أعز آثار الحملة الفرنسية وأزكى ثمراتها
وهو فضل ليس بقليل .

ويهمنا أن نقف لحظة عند الآثار العلمية التى خلفتها هذه الحملة .
فهى فى ذاتها أحسن العوض عما أصاب الفرنسيين من فشل سياسى .
أو حربى فى هذه الحملة

استقر جيش العلماء — الذى أشرنا اليه فى مصر — وبدأ العلماء
من أمثال كنتيه Conte ومنج Monge وليپر Lépre بوالون جهودهم
تحت اشراف نابليون ، واسكن ظروف الحملة فى سنتها الأولى لم تسمح
لهؤلاء العلماء بالعمل المنتج الصحيح . فلم ينشط المجمع وتنتج جهوده
إلا فى عهدي كليبر ومينو وفى ١١ نوفمبر سنة ١٧٩٩ كون كليبر لجنة
كبيرة لتنظيم عمل المجمع ووزعت الأعمال على اللجان الآتية :

- ١ — للتشريع والدين والعادات ٦ — للتجارة والصناعة.
- ٢ — للإدارة ٧ — للزراعة
- ٣ — لنظام الشرطة ٧ — للتاريخ الطبيعى
- ٤ — للتاريخ والحكومة ٩ — للآثار القديمة
- ٥ — للحالة العسكرية ١٠ — للنيل والفيضان

وبذلك بدأ هذا المعهد الجليل Instuti du Caire يوالى أعماله

وبجوئه في شتى نواحي الحياة المصرية ، فألقى أضواء ساطعة على هذه النواحي التي غشيتها الجهل ورائت عليها ظلمات القرون ، وكان الفرنسيون قد بدأوا ينظمون القاهرة ويزيلون سقوف طرقها ويوسعون طرقاتها فوصلت الشمس هذه الطرق والدور ووصلها النور الزكي فأخذت الحياة تتنفس في ربوعها ودب فيها ديب الحياة ويهمننا من نتائج أعمال هؤلاء العلماء أمران سيكون لهما أبعاد الأثر في مستقبل مصر السياسي والاجتماعي في العصر الحديث

الأول : هو دراسة آثار مصر القديمة وكشف تاريخها ، « وأهم هذه الأبحاث ما قاموا به في دراسة الآثار القديمة في طيبة وأبيدوس « وعين شمس » فوصفوا هذه الآثار وصفاً دقيقاً بقدر ما وصل إليه علمهم ونقلوا صورها بأيديهم » (١)

وأعقب ذلك كشف حجر رشيد على يد الضابط بوشار Bochar وحل رموزه بعد ذلك بعشرين سنة ، على يد العالم الشاب شامبليون Champolion ، فاستقامت بذلك سلسلة التاريخ متصلة الحلقات موصولة الفقرات ، وأزيع الستار عن مجد مصر الخالد القديم ، وعرف الناس لهذا الشعب المصري المجيد مقامه في سيرة الحضارة العالمية ، وأخذوا ينظرون إليه بالاكبار والاجلال ، بل بدأ بذلك عهد جديد لمصر والمصريين .

* * *

كانت القاهرة تختنق منذ بداية القرن السابع عشر ، كانت تسير نحو الخراب ويئدا ، وكان مقدرا لها أن لا تنجو من المصير السيئ الذي آلت إليه كل العواصم الاسلامية الكبرى التي تقدمتها كبغداد والقيروان ، ينحط أمرها ويهجرها أهلها ، ولا تغدو غير قرية صغيرة لا قيمة لها

(١) الأستاذ محمد رفعت « تاريخ مصر السياسي »

ولاحساب . وكانت — بحكم تأسيسها والظروف التي أحاطت بها — مدينة سيئة الحظ من يوم وضع أساسها جوهر ، كانت بمنأى عن النيل يحتضنها الجبل ويردمها شيئا فشيئا بأترته ورماله ، وتشرف عليها تلك القلعة التي لم يشرفها الله بجند مصر منذ قامت الى يومنا هذا ، والتي كانت طوال تاريخها حصن الغاصب وذل الرعية .

كانت أسوارها قوية محكمة البناء منذ جدد بناءها بدر الجالى وجلب أبوابها الضخمة من الرها ، فاصبحت كأنها أيد قوية تضغط عنق هذه المدينة فتموت شيئا فشيئا ، كانت الأحياء تموت وينتقل اليها الخراب ، كل عام ينقضى يحل البوم محل الناس في ناحية ، وكلما أقبل حاكم جديد أو مملوك شارد حياها بطلب المال وفرض المغارم ، تؤذيها له من دمها ولحمها . حتى أفلس متاجرها وأملق صناعها ولم يعد منها في مطالع القرن الثامن عشر ، إلا أشباح من الناس تترى على الأرض كأنها الأموات ، تبذل العمر في جمع القوت لتدفعه ضريبة أو أتاوة أو فدية أو غرامة ، فلا غرامة أن رآها الفرنسيون عند ما أقبلوا قبرا مظلميا يضم طوائف من الناس في أطمار هي أشبه بالأكفان ، وقد انتقل كل ما فيها من خير أو مال الى هذه الطغمة الظالمة من الأجلاف والعبيد والأرقاء والجنود ، الذين يعد انتسابهم الى الجندية خطأ من الشرف العسكري .

وكان لا يصلها بالحياة إلا شيئان ، ترعة صغيرة تشقها من شملها الى جنوبها ، وخيال زائف من الأزهر : الأولى تصله بالنيل منبع حياة مصر ، والثاني يصلها بالاسلام والثقافة الاسلامية منبع العلم والاسلام في مصر منذ العصر الفاطمي .

وكان كلا الموردین — مورد الماء ومورد العلم — ضئيلا يؤدى
أكثر مما يفيد ، خيالا من خيال ، يفيض الخليج بالأمراض والأوبئة
ويفيض الأزهر بقشور من العلم هى أقرب الى الجهل .

اضمحلال مصر
من الناحية الزراعية

وكان النيل فى هذه السنوات قاسيا شحيحا ، لا يكاد يحمل الماء
سنة حتى ينذر بالقمح سنوات ، فبدأت الصحراء تغزو المزارع وأخذ
خير البلاد يقل شيئا فشيئا ، حتى إذا كان أواخر القرن السابع
عشر أصبحت مصر كلها ظلالا نحيلا هزيبا ، لا يكاد أهله يقفون على
أقدامهم ، ومن خلفهم الجلادون بالسياط ، ياخذون منهم أولا بأول
ما عسى أن يجتمع لهم من أطراف الخير وقات النعم ، وفى وسطها
تقوم القاهرة فى أسوارها وخرابها كأنها شاهد على قبر عزيز

فقر المصريين

أبصر الناس عوارض جديده تنذر بالتغير منذ زمن بعيد ، ولكنها
كانت ضئيلة خافية لا تكاد تدرك فى بادئ الأمر ، كان المصريون قد
أفلسوا افلاسا تاما ، لم يعد فى طاقتهم أن يدفعوا للماليك او الاتراك
مليما واحدا ، وكان طريق التجارة الشرقية قد اوصد فانقطع عن
الماليك ما كان يصلهم من الخير من هذا السبيل ، فلم يجدوا الا الشعب
يؤدى لهم ما يريدون طوعا أو كراهية ، حتى إذا بذل الناس كل ما
عندهم ولم يعد لديهم ما يسد جوعهم فقد وصل الأمر الى نهاية المحتومة
لا بد أن يكف الناس عن الدفع لأنه ليس لديهم ما يدفعونه ، ولا بد
أن يفهم الماليك ذلك فيلجأوا الى شئ آخر غير الارهاق ؛ الى الحيلة
والمراضة والاحاح فى الطلب ، وعلى مر الأيام أخذوا يلينون ويضعفون
أمام الرعية ، فأخذت — أى الرعية — سبيلها الى النهوض والشعور
بالنفس أولا . ، ويكون ذلك مقدمة النهضة الحديثة التى سنراها بعد قليل
ولنتفطن قبل ذلك لمى أمر آخر كان له أبعاد الأثر فى تاريخ مصر
فقد يذكر القارىء ما ذكرناه فى الفصل السابق من أن قوام الحياة

والحضارة في بلاد الشرق الأدنى إنما هم عامة الناس المقيمون في بلدانه أو المنتشرون في مزارعه ومراعيه ، وإن هؤلاء يحتفظون بما يصل اليهم من ألوان الحضارات ويصقلونها ويهذبونها ويوافقون بينها وبين طبيعة بلادهم ، وإن هؤلاء الناس مُرْتَبُّون بين الحين والحين بهذه الغزوات الهدامة التي يقوم بها البدو والآتراك ومن اليهم ، وانهم يظهرون بمظهرهم الحقيقي اذا اضمحل أمر هؤلاء الغزاة وسكنت ريحهم . هناك يأخذ أهل البلاد في الظهور ويبدأون نشاطهم العمراني الموروث . . هذه الظاهرة تنطبق في تلك الفترة التي تتولى درسها الآن . أقبل الفرنسيون فكان بينهم وبين المماليك صراع عنيف ، انتهى بانتهزام المماليك وخروجهم من مسرح السياسة المصرية ، فلا نعود نراهم إلا ضعافا لاحول لهم ولا معين ، متفرقين في الصحارى أو في فيافي السودان .

ويشعر أهل مصر بذلك ويخف الضغط عنهم فيأخذون في النهوض والظهور ، ويغريهم هدوء الحال — نوعا ما — بالعمل والنشاط ، فنراهم يتقدمون على المسرح في خوف أول الأمر ، يوفقون حيناً ، وينهزمون أحياناً ، يسودون المماليك يوما ويسودهم المماليك أياًماً . حتى يؤذن الله فيفيقوا ، فاذا المماليك قد انكسرت شوكتهم وتفرقوا وقضى الله فيهم قضاه الذي لن تقوم لهم بعده قائمة . هنالك يقفزون الى الميدان في شيء من الثبات وحسن الاستعداد ويشاركون الفرنسيين في ادارة شئون البلاد ويحسنون القيام بنصيبهم من هذه الشراكة ، فتبدأ ارادتهم في الظهور وينبئون عن شيء يشبه الشعور القومي ، ينفجر بالثورة من حين الى حين ، ويجاهدون الفرنسيين عن حقوقهم جهادا شديدا ويسببون لهم من المتاعب شيئا كثيرا . ولكنهم يوفقون الى التأثير في الفرنسيين فيجذبونهم جذبا شديدا ، حتى اننا لنجد الفرنسيين يذعنون لهم حيناً ويتمردون عليهم أحياناً ولكنهم يعترفون

ظهور المصريين
على مسرح
السياسة

بوجودهم وقوتهم في كثير من الأحيان .

بدء شعور المصريين
بأنفسهم

هنالك بدأت الحياة تدب في أهـل هذا الوادى ، وكان لابد
لإنهاضهم أن يحال بينهم وبين الاتصال بالأتراك أو الاعتماد عليهم
لأن الاتصال بالأتراك والخضوع لهم يضعف الشخصية المصرية ويجعل
المصرى تابعاً مطيعاً ، وهذا الاعتماد يميل به إلى الاستئانة عن حقوقه
والركون إلى الأتراك في كل ما يهم من الأمور ، ولعلك رأيت المصريين
لا يستحيون أن يقولوا للنلسن إن هذه الأرض — أى أرض مصر —
هى أرض السلطان لا أرضهم ؛ فكانت الحملة الفرنسية قطعاً لهذه الضلة
وقتلًا لهذا الاعتماد ، إذ حيل بين الأتراك والمصريين ثلاث سنوات
أو ما حولها . ولا نزاع في أن المصريين حنوا إلى الأتراك حينئذ متصلاً
طول هذا الزمان ، إذ كانوا يشعرون شعور الطفل القاصر الذى يخاف
الحياة وحده ولا يستريح الا إذا كان إلى جانبه الوصى أو المربي ،
ولو كان كلاهما يؤذيه يشتد عليه . ثم كانت ثورة القاهرة الثانية قضاء
تاماً على ثقة المصريين بالأتراك لأنهم دفعوا بالمصريين إلى الثورة
وأشعلوا نيرانها ثم تركوهم وحدهم يصلون لحييها ويحملون أوزارها ،
وهذا هو السيد السادات يعبر عن شعور المصريين نحو الأتراك بعد
فشل هذه الثورة ، فى الكتاب الذى كتبه لعثمان كتحدا الدولة يقول
له فيه : « ألزمت الغنى والفقير والكبير والصغير إطعام عسكركم الذى
أوقع بالموثمين الذل وبلغ فى النهب غاية الغايات فكان جهادكم فى
أماكن الموبقات والملاهى . أخفتم أهل البلد بعد أمنها ، وأشعلتم نار
الفتنة ثم فررتم فرار الفيران من السنور » . (١)

بأس المصريين من
الأتراك

(١) الجبرتى - ٣ ص ١٠٨ حوادث شوال وذى القعدة ١٢١٤

والاستاد شفيق غزال : الخزال يعقوب ، ص ١٦

فاذا خابت آمال المصريين فى الأتراك ، ورأوا بعينهم مصارع
الممالك ، فعلى من يكون المعول وقد أحاطت بالبلاد الخطوب ومصر
» عرفها كفار الافرنج وان يتركوها أبداً كما قال مراد بك

كان لا مفر من أن يعول المصريون على أنفسهم ، مكرهين لا طائعين ..
وقد أحس المصريون أن التبعة ملقاة على عواتقهم وأنهم مطالبون بأن
يعملوا دون خوف ، فليس لهم من الأعداء وقاية من تركى أو حماية من
ملوك وكان لابد أن يغير العلماء — وهم ألسنة الشعب — أسلوبهم فى
العمل السياسى ؛ كان لابد أن يشعروا بالمسؤولية ف يأخذون بنصيب من
العمل أكثر مما قنعوا به فيما مضى ، وهذا تطور فى التفكير بعيد الأثر
فى مستقبل مصر السياسى فى ذلك العهد وما يليه . ان يكتبى الشعب بعد
ذلك بالهياج والاحتجاج ثم الركون الى الوعود أو الخوف من التهديد
بل ستتصل جهوده ويعان غير هياب سخطه على الحاكم ويطلب عزله
متأكداً من أن للرعية خلع الحاكم إذا أساء السيرة ، ولن يقنع
كذلك بالضجيج « والسكرانكة » فى الشوارع والحارات بل سترام
يسير إلى القلعة ليرفع ظلامته فاذا لم تجب خلع الوالى التركى وأقام
مقامه والياً آخر يرضاه ويثق فى عدله ؛ وان يكتبى العلماء بالوساطة
بين الحاكمين والمحكومين ، بل سـيتزعمون المحكومين ويخاطبون
الحاكمين بلهجة شديدة الجرأة بعيدة المعنى ، وهذا هو البعث الجديد
لمصر ، وهو سر هذه القوة التى بلغت فى السنوات الأولى من القرن
التاسع عشر . وهو عماد محمد على وسبب انتصاراته .

بدأ هذا الشعور يظهر ويتجلى حين تم جلاء الفرنسيين عن مصر
وتقررت رجعة الأتراك اليها فوجد المصريون أنفسهم مسوقين مرة
أخرى إلى السلطان التركى يعيد عليهم سلطانه ويذيقهم عذابه .

تشويكة الاستقلال
عد المصريين

فروعوا من ذلك روعاً شديداً وبدأوا يتحدثون بالاستقلال والبرية الأولى فكر جماعة من أبناء هذا الوادى فى الاستقلال ووضعوا مشروعا لذلك ، ونظموا وفداً محترماً ، خف إلى إنجلترا وإلى فرنسا ليحقق استقلال البلاد .

فلما أدرك المصريون أن أمانهم فى الاستقلال قد خابت ، وثبت لهم أنهم مسوقون على رغمهم إلى طاعة السلطان تفرقت نفوسهم حشرات ، وتجلت لهم ويلات الحكم التركى ظاهرة بينه زادها الشعور بالنفس والوطن اتقاداً وقوة ، فبدأت شكواهم تعلو وأحسن التعبير عنها راوية هذه الأيام الشيخ الجليل الجبرى .

العلماء فى مصر
وازداد نفوذهم السياسى

من هنا بدأ المصريون يعملون للخلاص ، ويتلفتون بأعينهم إلى منفذ يخرج بهم من هذا الحظ العاثر الذى أراده لهم القدر ، كانت بلادهم قسمة ظالمة بين أوباش الأتراك وصعاليك المماليك ، وكانت مصر طعنة باردة لأذى هؤلاء ومظالم أولئك ، ولم يجدوا أمامهم إلا هذه الطائفة الطيبة من العلماء التى كانت تتولى قيادة الأمور وسياسة الشعب — فى واقع الأمر — من أوائل القرن الثامن عشر ، فأولوها ثقتهم ومدوا لها العون ، فبدأت تنشط وتسعى وتأخذ سبيلها إلى الحياة وكان لسانها الناطق ورمزها الصادق ذلك العالم الجليل السيد عمر مكرم .

نابليون والعالم

قال نابليون فى مذكراته : « لى نسوس هؤلاء الناس — أى المصريين — لابد من وسطاء يسعون بيننا وبينهم ، كان لابد أن نقيم عليهم رؤساء وإلا أقاموا رؤساءهم بأنفسهم ، وقد فضلت العلماء وفقهاء الشريعة لأنهم (أولاً) كانوا كذلك — أى رؤساء — بطبيعتهم (وثانياً) كانوا مفسرى القرآن ، ومعروف أن أكبر العقبات أنها تنشأ عن أفكار

دينية ؛ (وثالثاً) لأن للعلماء خلقاً ليناً ولأنهم — دون نزاع — أكثر أهل البلاد فضيلة ، لا يعرفون كيف يركبون حصاناً ولا قبـل لهم بأى عمل حربى ، وقد أفدت منهم كثيراً واتخذت منهم سبيلاً للتفاهم مع الشعب ، وألفت منهم ديوان القضاء « (١) .

لم يخطئ القائد العظيم فيما ذهب إليه ، فقد كانت هذه هى صفات العلماء وفائدتهم للفرنسيين فى مصر ، بل كان نابليون مصيباً كل الصواب فى اختيار هذه الفئة لتتوسط بينه وبين الشعب لأنها كانت تنزعهم وتولى شئونه كما قلنا ، وكانت لسانه الناطق الذى يعبر عن شكواه الشعب واحتجاجه وسخطه ، ويملى أوامره على المماليك فيطيعون . وهذا الوصف ينطبق على البارزين من رجال مصر فى هذه الأيام كالمهدى والصاوى والسادات والأمير والفيومى ، ومن يقترب منهم من كبار المصريين والتجار كالسيد أحمد المحروقى الذى أوجز مراد بك وصفه حينما قال له « مثلك من يخدم الملوك » .

ولكنه لم يحسب حساب السيد عمر مكرم فى هذا الحديث ، ولو قد ذكره لرأى فيه لونا آخر من العلماء لا يتصف باللين ولا الاستسلام وإنما بشئ تستطيع أن تسميه وطنية ، وبالشعور بالكرامة الإسلامية ولعله أغفل ذكر هذا الرجل لأنه — أى عمر مكرم (٢) — كان طوال العصر الفرنسى شريداً أو محتكفاً ، وكان هدفاً للكثير من المظالم التى لم يعلنها عليه الفرنسيون وحدهم بل زملاؤه

عمر مكرم

Napoléon: Campagne d'Egypte, Vol II. pp. 151 sq. (١)

Correspondance, de Napoléon Vol, XXX. pp. 83-84.

مترجمة عن النص الوارد برسالة الاستاذ غربال : الجنرال يعقوب ، هامش ص ٩

(٢) « والظاهر أن السيد عمر كان على جانب من علو الهمة وقوة الشخصية ، بمته للعمل

على النفوذ السياسى »

الاستاذ غربال : الجنرال يعقوب ، ص ١٥

العلماء الذى سرهم ابتعاده عن الميدان فعاونوا على اقصائه ليفوزوا بمكانه وينعموا بمنزلته .

السيد عمر مكرم شريف يتصل نسبه بالامام على كرم الله وجهه ، ولد فى أسيوط وفيها نشأ وتعلم ، ولانعلم كيف ارتقى إلى نقابة الاشراف ولكننا نفهم من بلوغه هذا المنصب أنه كان واسع المواهب عظيم الاقتدار ، ويؤكد لنا ذلك أن الفرنسيين حين أقبلوا وجدوا عمر شخصية كبيرة يحسب لها حسابها .

فى عمر مكرم تتمثل الوطنية الاسلامية التى فصلنا أمرها فى الفصل السابق ، أى أن عاطفته الاسلامية حفزته إلى مناهضة الفرنسيين والسعى لإخراجهم من مصر . تمثلت الحملة الفرنسية فى خاطره اعتداء من النصرانية على الاسلام ، فكانت قيادته للناس استنفاراً لهم للجهاد الدينى وإثارة لعواطفهم الاسلامية ، وهذا ما ينبغى أن نتفطن اليه فى قيادة هذا الشيخ للحركة المصرية فى ذلك الزمن ، فكان إذا أراد إلهاب عواطف الناس لأمر من الأمور لجأ إلى الشعور الدينى فأثاره « وصعد إلى القلعة فأزل منها بيرقاً كبيراً أسمته العامة البيرق النبوى ، فنشره بين يديه من القلعة الى بولاق ، وأمامه ألوف العامة » وهذا هو استنفار الناس للجهاد الدينى ودعائهم إلى رد الكفار . فلم يكن العلم الذى حمله علم مصر وإنما علم الاسلام وهو البيرق النبوى الذى ينبغى أن يهتم المسلمون للدفاع عنه مصريين كانوا أو غير مصريين .

ذلك تحليل شعور عمر مكرم - فيما نرى - ولا صحة لما يبالغ البعض من وصفه به من وطنية صادقة وشعور قومى صحيح ، إنما سيتطور شعور عمر مع الأيام نحو هذه الغاية ولكنه لا يصل إليها فى صورة صافية خالصة . والسكى يصبح عمر كذلك « كان لابد من أن يحال بين الناس وبين دعوات الجامعة الاسلامية » كما يقول الأستاذ غربال لأن

منشؤه

وطنية عمر مكرم

الوطنية الاسلامية كما ذكرنا — شئ آخر غير الوطنية القومية ، أنهما ، يتعارضان تمام التعارض وقيام إحداهما ينفي وجود الأخرى . . . الوطنية الاسلامية تباعد ما بين الانسان ووطنه وتزهده فيه وتوجه مشاعره وحبه وعواطفه نحو شئ واحد جدير بالحب والحماية والتضحية . هو الاسلام والدولة الاسلامية . لو تعارضت مصلحة السلطان مع صالح مصر فلتضخ مصلحة مصر ولتحقق غاية السلطان . وإذا سأل نلسن أهل الاسكندرية عن بلدهم أجابوا « تلك أرض السلطان » لأرضهم ، انهم يعيشون عليها فقط . بذلك المعنى الذى أراده العربى عند ما سئل عن ماله فقال « إنه لله فى يدى » .

استنفر عمر الناس للجهاد والماليك على الفرنسيين ساعة دخولهم مصر فاتحين ، وهذا يؤكد ما ذهبنا اليه ، إذ نسى المصريون مساومات الماليك ووقفوا إلى جانبهم ، لأنهم مسلمون مثلهم يحاربون كفارا .

فاذا انهزم الماليك ووجد عمر أنه مساق على رغمه إلى الخضوع للفرنسيين أثبت عليه كرامته الاسلامية أن يقبل هذا الهوان ، فآثر الهجرة وأزمع الرحيل ، وأحب الفرنسيون أن يحببوا اليه الإقامة فاختاروه عضوا فى الديوان الأول ، فأبى وشد رحاله إلى الشام وهناك بقى حتى أدركه الفرنسيون فى حملتهم على الشام . فقابلته نابليون فى يافا ، وكبر فيه عاطفته المشبوبة ورأسه المرفوع ، وأمر بارجاعه إلى مصر فأعيد معززا مكرما ، واعتزل فى بيته واعتكف عن الفرنسيين لم يمد لهم يدا ولم يل لهم أمرا :

فى هذا المعتزل ، لابد أن عمر قد أطال التفكير فى أمر البلاد ، وتأمل هؤلاء الفرنسيين ودقق النظر فى أمورهم ، ولا شك أن هذا التفكير أثار فى نفسه بعض الخواطر الجديدة . لا شك أنه

تساءل عن هذا « الجمهور الفرنسي » الذى يطيعه القادة ويفنى فى سبيله الأفراد ، ولاشك أنه فهم أن هذا « الجمهور » هو الرعية نفسها ، وأدرك أن لاضير على الرعية إذا حكمت نفسها بنفسها مادام فيها القادرون على ذلك ، ومادامت تحس أن «حكامها» لا يحسنون ولاية أمورها لاشك فى أن أمثال هذه الخواطر طرقت فكر الشيخ الجليل وخلفت فيه بعض الأثر ، ولاشك فى أن هذه الأفكار الجديدة صادفت من نفسه هوى فأخذ يترواها ويزن الأمور بمقتضاها ؛ نقول هذا والحوادث مصداقنا فى قوله ، فنشاط عمر مكرم قبل الحملة الفرنسية يختلف كل الاختلاف عن نشاطه بعدها ، وآراؤه واتجاهاته تختلف فى الحالتين اختلاف النقيض عن النقيض

نشاط عمر مكرم قبل
الحملة الفرنسية

فعمر مكرم قبل قدوم الفرنسيين صديق مخلص لآبراهيم ومراد : يسفر لهما لدى الحكومة العثمانية ، ويسعى فى إقامة سلطانهما ، ويغضى عن مساوئهما بل يتصدى للدفاع عنهما ، ولم يكن ذلك لاشترائه فى آثامهما أو لمساهمتهم معهما فيما كانا ينزلانه بالناس . بل لأن مقاييس الحكم وقواعد الحياة العامة فى عصره لم تكن لتبيح له الثورة على هذين الطاغيتين رغم كل مساوئهما ، إنما سيفكر عمر فى الثورة على الحكم حين يعرف مقاييس جديدة وقواعد أخرى حديثة .

نشاط عمر بعد
خروج الفرنسيين

وعمر بعد خروج الفرنسيين رجل يفكر تفكيراً جديداً جداً : يتحدث عن حق الرعية فى عزل حاكمها إذا أساء السيرة فيها ويفسر الآيات القرآنية — التى كانت تعتبر دستور الحكم فى هذه الأيام — تفسيراً جديداً : فأولو الأمر الذين تجب طاعتهم هم « العلماء وحملة الشريعة والسلطان العادل » : السلطان العادل فقط لآبراهيم ولا مراد ومن شاكلهما من العفاة والطواغيت ، وأصبح يجد الثورة واجبة على الحكم إذا هم « خرجوا على الحق وثاروا على القانون » وهذه آراء لم تكن جديدة الجدة كلها على التفكير الإسلامى السياسى فهى — بشهادة

الحوادث — جديدة كل الجدة على تفكير عمر وأسلوبه في النشاط السياسي .

ويمكننا أن نلاحظ هذا التطور في تفكير عمر إذا تأملنا أعماله من دخول الفرنسيين إلى رحيلهم . فحيما دخل هؤلاء البلاد ولى عمر هاربا في ركاب المملوك ابراهيم : ولى وترك البلاد تنعى من بناها ، ولوقد كان تركه والبلاد بدافع السعى لدى الأتراك في التعجيل بارسال القوات لاجراج الفرنسيين منها لما أقام في يافا بل لاتبجه إلى القسطنطينية وظهر له جهد هناك . ولكنه اطمأن في يافا فأقام فيها لا يبدل في انقاذ البلاد جهداً ولا يبدى ما يبدل على أن ذلك الأمر كان في همه ، بل لو طلب من مبارحة البلاد أمراً آخر غير الفرار لآثر الذهاب مع شعبه المدافعين عنها : شعبة مراد التي اتجهت إلى الوجه القبلي وأخذت تناجز الفرنسيين

تطور تفكير عمر

أقام الرجل في يافا فأخذ الاطمئنان يسرى إلى نفسه من ناحية الفرنسيين ، إذ رأهم يوقرون العلماء ولا يأخذون أحداً بوقية ، فالت نفسه إلى العودة ، ولم يلبث أن عاد بعد دخول نابليون يافا ، عاد ليقبض في عقر داره لا يعترض ولا يتصدى للدفاع على كثرة دواعي الاحتجاج في هذه الأيام

عودة عمر
وانزوائه

ولم يرفع عمر صوته بالشكوى إلا بعد أن رفعها العامة ولم يبق في القاهرة أحد لم يجرؤ عليها : وذلك في مارس سنة ١٨٠٠ (شوال ١٢١٤هـ) أى بعد أن اطمأن إلى أن نجدة الأتراك على الأبواب وأن خيل المماليك تطوى أرض الصعيد إلى القاهرة . بل لم يقم على هذه الثورة ، ولم ينهض بما كانت تتطلبه منه زعامته لها في مثل هذه الظروف ، إذ اسرع الفرار حين قضى الفرنسيون على الثورة ودخلوا القاهرة

عمر في ثورة
القاهرة العتائية

ولكن الواقع أن فكره كان يتطور هذه الأيام ، كانت المدة التي أقاسها في

مصر كافية لتمكّنه من تأمل هؤلاء الفرنسيين وتلمس محاسنهم ، وكان اشتراكه في ثورة القاهرة قد فتح أمامه الآمال في الزعامة والعمل وكان الفرنسيون لا يكفون هذه الأيام عن التحدث الى المصريين واذاعه آرائهم بين جمهورهم لاستثارة غضبهم على الاتراك والمماليك ، فلا نزاع في أن بعض المصريين قد تروى هذه الآراء وتأثر بها وكيف يقال ان أذكىاء المصريين لم يتأثروا من قول الفرنسيين يخاطبون المصريين

: «وقولوا لهم أيضاً إن جميع الناس متساوون عند الله ، وإن الذى يميز بعضهم عن بعض هو العقل والفضائل والعلوم ، وأى شىء فى المماليك يميزهم عن غيرهم ويستوجب أن يتملكوا مصر وخدمهم ، فحيثما تكون أرض مخصبة فهى للمماليك ، ومثل ذلك أحسن الجوارى وأكرم الخيل وأجمل المساكن . فإن كانت الأرض المصرية التزاما للمماليك فليظهروا لنا الحاجة التى كتبها الله لهم» (١) ... نعم بأى حق ينفرد هؤلاء المماليك بأرض مصر وخدمهم ؟ أين الوثيقة التى تثبت هذه الملكية ؟ .. بل أين الوثيقة التى يملك بها السلطان أرض مصر ، لماذا يختص نفسه بالحكم والخير ومن دونه رعية تعيش فى الأطمار وتأكل القفار .. ألا يكون هذا السلطان غاصباً ظالماً .. ألا يكون مستبدّاً سيئ التديير جديراً بأن يثب الناس به ويعلموا عليه العصيان ؟

لا نستبعد أن يكون عمر قد بدأ يفكر على هذا الأسلوب ، فتصرفاته بعد ذلك تدل على أن تطوراً شاملاً قد مس جوانب تفكيره ووجهه وجهة جديدة : فبعد أن كان عاملاً من عمال الطواغيت أصبح عدواً لهم ، وبعد أن كان من طبقة الحاكمين نزل إلى الميدان وخالف الناس ونصرهم على الحاكمين ، بل لا مغالاة فى القول بأن هذا التطور كان قد أخذ يغزو أذهان غيره من المصريين ويفتح عيونهم : فهذا هو الخبرتى يصور لنا يأس المصريين من الاتراك والمماليك واحتقارهم لهم

(١) من منشور نابليون للمصريين .

وإعجابهم ببعض ما رأوا من امتياز الفرنسيين فى السياسة والحرب
وقد كان عمر حين دخول الفرنسيين يوقر المماليك لأنه كان
يحسبهم حماة الاسلام وفرسانه : كان يحسب مرادا وإبراهيم من طراز
بيبرس وقلاوون والناصر الذين سجلت الحوليات الصليبية لهم مجد
الدفاع عن الاسلام ، ولهذا كان لا يأنف من خدمتهم اقتداء منه
بأمثاله من العلماء كعيسى الهكارى وعز الدين بن عبد السلام والقاضى
الفاضل وتاج الدين بن بنت الأعز وابن دقيق العيد وغيرهم من أقطاب
العلماء فى دولتى الأيوبيين والمماليك ، ولكن حوادث الأيام أخلمت
ظنه وأثبتت له أن ممالك أيامه لا يشبهون المماليك الأول فى شئ : فهم
جنباء عتاة ظالمون لا يثبتون للفرنسيين ولا يكلفون أنفسهم عناء الدفاع
عن المسلمين أمام النصارى : بل ان مرادا لم يأنف من التفاهم مع الفرنسيين
وحكومة الصعيد بأسمهم ، فيئس عمر من المماليك وأنف أن يمضى على
العمل فى خدمتهم ، ورأى بعينه بؤس المصرى الذى تحمل مساءلتهم
فيما انقضى من الأعوام ثم لم يجد منهم حاميا ، فبدأ - أى عمر - يحس
العطف على مواطنيه ويرق لهم ، وزاده رقة ما وجد من اجتهادهم فى
مدافعة الفرنسيين أثناء ثورة القاهرة ، وما أولوه من الثقة أثناءها ، فوفر فى
نفسه أن يتصدى الدفاع عن هؤلاء الضحايا الذين لا يجدون انصافا من
أحد . ومن ذلك الحين بدأ يتجه وجهة جديدة بتأثير الأفكار الجديدة .
وبدئى أن يقال إن عمر كان قد عيس كذلك من أصحابه
العلماء الذين رضيت لهم ضمائرهم خدمة الغاصب الكافر
فأسرفوا فى الخضوع له إلى حد كاد يمس شرفهم ، وماذا
يكون هؤلاء العلماء - الذين يتهزون فرصة فرار صاحبهم
«عمر» لينقضوا على ما خلفه كالضباع الكاسرة - إلا طغمة

تغير عمر على
المماليك

عمر يحس آلام
مواطنيه

يأسه من العلماء

لا شك أن الرجل بدأ يميل يوماً فيوماً إلى الجمهور المصري ، ولا نزاع في أنه أحس بالآلام هؤلاء المساكين الذين يعود عليهم كل ضرر ويحفلون بكل بلاء ولا نصيب لهم في خير أو غنم . كان الرجل أسويطياً أى مصرياً ، وكان شريفاً فاضلاً صادق العاطفة لا يسعى لمنفعة ولا يرجو نوالاً وإنما كان يفكر تفكير كل مصري في هذه الأيام ، وهذا هو الجبرتي يعان آراء المصريين في هذه الفترة ويعبر عن ميولهم في صراحة لا تحتل الجدل أو التأويل وهي لا تخرج عما ذهبنا إليه في تحليل تفكير عمر . فما يمنعنا من القول بأن هذه نفسها كانت آراء عمر مكرم ، وأنها كانت أحلامه وأمانيه التي ستكون برنامجاً سياسياً في مستقبل الأيام .

تطور شعور عمر
إلى عاطفة وطنية

وكانت الظروف نفسها تسمح بهذا التفكير بل تغذى الأمل في شيء من هذا القبيل ، كانت كل القوى المسيطرة على السياسة المصرية في هذه الفترة قد انتهت إلى الضعف ، بحيث لا يرجى من إحداها أن تغلب الأخريات وينتهي إليها النصر في آخر الأمر .

كانت القاهرة في هذه السنوات (١٨٠٠ — ١٨٠٥) كالمرجل المضطرب ، يشتد فيها النزاع والصراع بين القوى المختلفة التي كانت تحاول كل منها — عبثاً — أن تصل إلى الزعامة آخر الأمر .

تنازع البقايا في مصر

كان الباشا التركي يدعى السيادة على كل شيء ، ولكن دولته كانت تخذله ، لم تكن تمده بالجند اللازمين للسيطرة على الحال ، وإذا أرسلت جنداً لم تمده بما يلزم من المال لدفع أعطياتهم ، فإذا تأخرت الأعطيات ثاروا به وعزلوه أو قتلوه . حدث هذا مراراً في هذه الفترة مما انتهى بالباشا التركي إلى أن يصبح عاجزاً تمام العجز عن تنفيذ ما يريد بل عن التأثير في مجرى الحوادث ، ذلك أنه هبط بسمعته ومقامه وجعله في حال هي أسوأ مما كان عليه المماليك .

الوالي التركي

وكان الجند الأتراك الذين اختارتهم الدولة لمصر هذه الأيام شيئاً آخر غير الجنود ، سمهم لصوصاً ، سمهم قطاع طرق ، سمهم شحاذين ، قل إنهم مجانين (دلاه) ولا تقل إنهم كانوا جنوداً ، فلم يكونوا يشبهون الجنود في شيء . يصورهم لنا الجبرتي تصويراً دقيقاً وافيّاً ، ويذكر لنا طرفاً من أفعالهم ويعدد لنا مساوئهم ويصف لنا حال القاهرة وأهلها معهم فلا نملك أنفسنا من الاستمزاز من هذه الحال السيئة التي لا مزيد عليها .

كان جنود الوالى فريقين الانكشارية وهم القوة الرسمية ، ثم الأمباد التي كانت ترسل كالألبانيين والدلاه ، وكان على رأس الألبانيين قواد كثيرون أشهرهم طاهر باشا ومحمد على ، وكان هذا الأخير يرقب الأمور في هدوء وحذر ، وينتظر الفرصة المواتية ليفعل شيئاً ، كان الجند عامة في ثورة دائمة واضطراب لا ينقضى ، لأن رواتبهم لا تدفع ، وكانوا لا يجدون سيلاً يحصلون منه على ما يريدون إلا ارهاق المصريين وابتزاز أموالهم ، كان أحدهم يجلس على باب المتجر ويفرض على صاحبه ضريبة ثقيلة جداً ، هي مقاسمته الربح كما لو كان شريكاً له في رأس المال ، وكان التاجر من جهته مضطراً لقبول ذلك . وإلا أصبح محله عرضة لأي جندي تركي يمر به ويستحل ما لديه .

فإذا ازداد الطلب على الوالى كان بين أمرين : إما فرض ضريبة جديدة ، فيثور المصريون ، أو رفض الدفع فيثور الجنود ، وبين هاتين الشورتين ضاع مقام الوالى التركي وضعف أمره ، فإذا أضفنا إلى ذلك أن الولاة الذين اختارتهم الدولة كانوا من نوع سيء جداً ، لا خبرة لهم ولا أخلاق ولا حزم ، استطعنا أن نكون فكرة كاملة عن الأتراك كعامل من العوامل المؤثرة في السياسة المصرية .

أما المماليك فكانوا — بعد حربهم الطويلة مع الفرنسيين — قد

المماليك

بلغوا مبلغاً من الضعف لا ترضى لهم معه قائمة ، وأصبحوا فئة من المشاغبيين ، المتأمرين المشردين الذين لا يجدون لهم مكاناً في البلاد ، فتارة هم في البحيرة ، وأخرى في الصعيد ، لا ينفك الوالى التركى يكرهم ويحاول الايقاع بهم فى سلسلة طويلة من المؤامرات نجوا من كثير منها ولكنها أضعفتهم على كل حال ، مؤامرات تركية ، لو استقام هذا التعبير تقوم على دعوتهم إلى وليمة فى منزل أو سفينة ، ثم تصوب اليهم البنادق ويقتلون مقتلة تثير الاشمئزاز .

وازاء هذا رحبوا بالتعاون مع أى حليف ، وصاروا يميلون ميلاً شديداً إلى الانجليز والفرنسيين ، لم تكن لهم سياسة مقرررة ثابتة إنما كانوا يلتزمون العون من أى سليل ، مالوا أول الأمر إلى الانجليز ، ورحب بهم هؤلاء وناصروهم علانية وتولوا حمايتهم من كثير مما أريد بهم كتدخل الجنرال هتشنسون وطلبه أن يطلق سراح من بقى حياً من المماليك ، وأن تسلم جثث الذين قتلوا عند ما بلغه خبر المؤامرة التى دبرها القبطان حسين باشا للقضاء عليهم فى أوائل اكتوبر سنة ١٨٠١ . وكانت الصداقة معقودة فى أغلب هذه الأيام بين الانجليز والمماليك ، كان الأولون يرون فيهم خصوما طبيعيين للفرنسيين ، فجالفتهم عدااء للسياسة الفرنسية ، ولا نحسب أن الانجليز كانوا يفكرون فى هذه الأيام فى احتلال مصر أو الاستيلاء عليها ، ليس هناك دليل واحد يثبت هذا ، وقد عرض الأستاذ شفيق غربال فى كتابه « نشأة المسألة المصرية » مئات الرسائل الخاصة والمذكرات التى كان يكتبها سفراء انجلترا وقناصلها وليس فى واحدة منها فكرة من هذا القبيل ، إنما كانت انجلترا تريد أن تبعد فرنسا عن مصر ، لأن هذا جانب من سياستها التى أشرنا اليها وهى المحافظة على الدولة العثمانية الضعيفة فى شرق البحر الأبيض المتوسط .

ميل المماليك للانجليز

هل كانت انجلترا تريد احتلال مصر فى هذه الأيام

ولكن المماليك كانوا قد وصلوا في هذه الأيام إلى درجة من الانحطاط المعنوى استحالت معها الاعتماد عليهم أو التعويل على عهودهم ، كانت الدنيا قد اسودت في وجوههم واصطلحت عليهم الأحداث وكسرت الحملة الفرنسية شرفهم فلم يعد لهم من الحول ولا المركز ما كان فيما مضى ، وإنما أصبح رايشة في مهب الرياح ، لا يكاد يتوود اليهم أحد ويعرض عليهم صداقته حتى يستجيبيوا له ، لأن شعورهم بالضعف كان بالغاً ، فسهل على السياسة الفرنسية أن تجذبهم لصفها في كثير من الأحيان كما حدث في الأيام الأولى لوصول الميسو « لسبس » مرسلًا إلى مصر من قبل الحكومة الفرنسية في أغسطس سنة ١٨٠٣ . إذ جرت بينه وبين ابراهيم بك مقابلة أسف فيها البك أسفاً بالغاً لجهل المماليك إذ قاوموا الحملة الفرنسية ، لأن معاملاتهم مع الانجليز والأتراك قد فتحت أعينهم ، وهم الآن مستعدون لانجاز كل ما يريد من نابلون « ان له أن يأمر وعليهم الطاعة فيفتحوا الشام وينزلوا له عن مصر ، أو يبقوا في القاهرة ويصبحوا من رعايا السلطان المخلصين أو يتركوا هذا كله ويقنعون بالنفي في الصعيد » (١) واستقبلوه استقبالا حافلا عند وصوله الى القاهرة حتى « أحس مندوب انجلترا أن في الأمر مؤامرة مدبرة لتسليم مصر لفرنسا ، كانت القرائن كلها تدل على ذلك . وبهذا تنبى المشاهدات الخاصة والعامة ، وإن استقبل دلسبس هذا الاستقبال الحافل ، ومجيئه إلى مصر على عجل تاركا عائلته وراه ثم اظهاره خدمة في لباس فرنسي لينذر بيده التنفيذ » فلم يكذب المندوب الانجليزى — مِسْت — « أن أسرع إلى البرديسى فتحدث إليه في الأمر ، وحاول أن يتعجب

مظاهرة ملوكية
للفرنسيين

إلى أسوأ أحلاف فرنسا سمعة ، ولكن هذا التحجب لم يكن كافياً .
كان لابد أن يقدم للبرديسى شيئاً أقيم من النصيح . (١)

نقر الممالك

وهذا الشيء الذى كان الممالك بحاجة إليه هو المال ، كانت كثرة
المصائب وتواتر الحروب واجتماع الأعداء قد انتهت بهم إلى الحاجة
الشديدة والعوز البالغ ، وأصبح المال اغراء مؤثراً فى نفوسهم . . ولم
يلبث مسّت . أن فهم هذا ، فأنشأ يوزع المال وينثر الرشى فعاد الممالك
إليه ، فأسخط هذا مندوب فرنسا ، وأراد أن يقلد خصمه ولكن أين
له المال وحكومة الجمهورية مفلسة لا تستطيع أن تمده بالمال اللازم
لهذا الامر ، فلم يجد أمامه إلا الخبز يقدمها للممالك ليكسب ودهم . .
كانت الخبز تدخل البلاد باسمه معفاة من الضرائب وكانت رخيصة الثمن
لا تتكلف الحكومة شيئاً كثيراً فأسرف دلسبس فى استعمالها ولم يستح
أن يجعل فى داره حانا كما قال مسّت ، وهناك يتردد عليه الممالك
فيحاول أن يكسب ودهم ويعيدهم الى حسن الظن به وبفرنسا ، ولكنه
لم يفلح وانتهى به الامر أخيراً الى اليأس من الممالك والاحتقار
للبرديسى فوصفه بقوله : مشاغب جشع ومملوك ظالم . (٢)

عثمان بك البرديسى

وكان البرديسى غير مرتاح لهذه المناورات ، كان الجو قد خلا
له بسفر الألفى إلى لندن وكان يريد أن يقوم بنفسه بكل تفاهم أو
تحالف نائباً عن الممالك ، ويظهر أن لسبس كان يحاول الاتصال
بممالك آخرين ، فلم يلبث أن سخط عليهم وبأدهم العداء فأعلن
صراحة رأيه فى الفرنسيين قائلاً « لقد جردتمونا وطرّدتمونا . . وهذا
(أى موقف الخداع والعداء) وهو شكرنا لكم . . . » (٣)

(١) نفس المصدر ص ٢١٥

(٢) من خطاب من لسبس الى تاليران — عن نشأة المسألة المصرية ، ص ٢١٦

(٣) نفس المصدر والصفحة

هكذا فشل دلسبس ووجد نفسه في موقف حرج وسأل في حيرة « إلى أى النواحي يستطيع مندوب دولة أن ينجاز في وسط تلك المذاهب المتطرفة » ، بل إن اليأس بلغ به حدا لم يطق معه الإقامة في مصر فألح على الحكومة بعد شهرين أن تنقله منها .

تفاقم الحالة
في القاهرة

وليت المماليك صدقوا في ودهم للانجليز . كان انتصار مندوب انجلترا خدعة فقط ، إذ اعترف البرديسي بأنه كان يكرهه ، وتخرج مركز مسّت هو الآخر بل مركز الأجانب جميعا ، وأيقنوا أن لا أمل لهم في نفوذ سياسى وسط ذلك الخضم المضطرب ، وانسحبوا شيئا فشيئا ، ولم يبق في الميدان غير البرديسي ، بل اعترف مندوب فرنسا بأنهم لا يطلبون النفوذ السياسى وانما الأمان ، وتسرب الخوف الى قلب مسّت نفسه وتحدث في بعض رسائله بأنه لا بد مهدّد بالمقاومة المسلحة في حالة اقتحام منزله بالقوة ، واعترف بأن الواجب وحده هو الذى يضطره إلى قبول مثل هذه المعاملة المهينة .

في هذه الظروف العصبية كان لا بد من رجل يخرج بالبلاد من هذه الفوضى الضاربة ، وذلك قانون من قوانين التواريخ التى تصدق في كثير من الأحيان : كل فوضى سياسية وحروب أهلية تنتهى آخر الأمر الى ظهور رجل قوى يسيطر على الحال ويعيد الهدوء ويعان الدكتاتورية . هكذا ظهر قيصر من فوضى الحرب الأهلية بين الأحزاب في روما ، ونابليون من فوضى الثورة في فرنسا ، وصالح الدين من فوضى الاسلام قبيل الحروب الصليبية ، ومحمد على من هذا المرجل الفوار الثائر الذى وصفناه .

للظروف تستدعى
ظهور رجل قوى

في سنة ١٨٠٣ أبدى الكولونل ويلسن دهشته من عدم وجود مخاطر قوى موهوب طموح ليقود فرقة من الجنود ويقاوم المماليك (١)

(١) Wilson : History of the British Expedition, p. 243.

عن نشأة المسألة المصرية ، ص ٢١٠

وكتب أمريكي كان في القاهرة سنة ١٨٠٤ يقول « إن مصر من غير رئيس ، ولا بد لها من رئيس جديد ، وأول متقدم سيقابل بالترحيب » (١) والواقع كما يقول الأستاذ غربال « أنه لم يكن هناك مخرج الا باحتلال أجنبي أو ظهور مخاطر على المسرح واستيلائه على السلطة . كان المماليك بأعدادهم القليلة عاجزين تماما عن استرداد ما كان لهم من مقام وعن طرد الأتراك ، ولم يكن في استطاعتهم أن يجلبوا جنودا جددا من الشرق ، لأن الباب العالي قد حرم إدخال الصبيان إلى مصر . (٢)

الاجانب يتوقعون
ظهور رجل قوى

لم يخطئ هؤلاء الأجانب فيما ذهبوا إليه ، وكان لابد أن يظهر « البطل » وكانوا على حق في تساؤلهم لأنهم لم يكونوا يدركون هذا التطور الهادئ الذي تناول المصريين وأخذ يعدهم شيئا فشيئا لليوم الموعود ، وكانوا يجهلون بطبيعة الحال ما انتهى اليه الشيخ الجليل عمر مكرم وهو في معتزله يتأمل الأحوال ويرقب الحوادث ، ولم يكن عندهم نبأ بأثر ثورة القاهرة الثانية في نفسه ... وما عليهم بأن هذا الرجل قد يؤس من الأتراك يأسا تاما ، وتجلى له شرهم وسوء حالهم من هذا التصرف السيئ الذي ظهروا به أيام هذه الثورة ، وكيف أقاموا القاهريين وأشعلوا نيرانهم ثم تركوهم يصلون نار الفرنسيين . حامية ، وكيف غدروا بهم واستعانوا بقوتهم حتى اذا استتب لهم الأمر لم يكن لهم عمل الا نهب البيوت والاعتداء على الأمنين وفرض الاتاوات واصلاء الناس سوط العذاب .. أين لهم العلم بهذا التطور العظيم الذي شمل هذا الرجل الهادئ المطمئن الذي كانت الايام تعدده وتصلقه ليكون على يده خلاص البلاد حين يعم الطوفان ، وتندثر المقادير بالبلاء العظيم ..

(١) من خطاب رجل أمريكي الى السير الكسندر بول (قنصل إنجلترا في المطلة) ٣١ ديسمبر سنة ١٨٠٤ عن المصدر السابق نفس الصفحة .
(٢) نشأة المسألة المصرية ، ص ١١٢

لا شك أن عمر كان يحس احساس المصريين في ذلك الحين ، وكان تواتر الشقاء قد انتهى بهم إلى حال من السخط ليس بعدها زيادة لمستزيد . أصبحوا في فقر بالغ ومع ذلك يزداد عليهم الطاب وتتوالى المصائب كل يوم ولا رحمة ولا هوادة . لم يجد الشعب بطبيعة الحال أمامه الا علماءه الذين تعود أن يلجأ اليهم كلما اشتد به الضيق وناه صدره بالآلام . وكان عمر رأس هؤلاء العلماء وأشرفهم وأكثرهم إحساساً بالآلام المصريين ، وكان يشعر تمام الشعور بواجبه وما ينبغى عليه عمله ، وكان يحس إحساساً صادقاً بأن الغليان شديد وأن الانفجار بات قريباً . فجمع زمام المصريين في يده ولبث يتحين الظروف ليضرب الضربة القاضية . ولكن . . . أكان في استطاعته الانتظار . ان الظروف تتطور بأسرع مما كان يتوقع ، وهؤلاء المماليك لا يتقون الله في هذا الشعب الأعزل المسكين ، وهؤلاء هم الأتراك لا تأخذهم رحمة ولا يراعون في رعاياهم حرمة الدين وشرع الاسلام . . فما العمل . . لابد من السعي والتعجيل بالعمل .

لم يكن عمر سياسياً وإنما كان شيخاً فقيهاً متديناً لا قبل له بالسياسة ومناوراتها وتقلباتها القريبة والبعيدة ، وهو رجل شريف طاهر لا يريد الا خلاص الناس عن أى سبيل . إنه يقبض على زمام الشعب ويسيطر عليه تماماً ولكن ما عساه أن يفعل . . إنه يرجو الخلاص من ولاية السلطان لا من السلطان نفسه ، إنه يسعى للانقاذ ولكنه لا يريد أن يكون ملكاً أو أميراً . . فليس هذا من خلق العلماء ولا حماة الشرع ولا رجال الدين ، إن عليهم أن يولوا على الناس أصلحهم ، وأن يشدوا أزر الصالحين ، ويحولوا بينهم وبين الظلم إذا مالت بهم نفوسهم الى الطغيان . كان عمر يائساً من الولاة والباشاوات والبكوات ، وكان يدور بعينه باحثاً عن رجل يعهد اليه بالحكم ، رجل صالح

عمر يشعر بصعوبة
العمل

عمر والسياسة

قادر رحيم .. متدين .. وكان لا بد أن يكون تركيا .. فهذا منطق السياسة في هذه الأيام .. لا مفر من أن يكون الحاكم تركيا حتى لا يغضب السلطان خليفة المسلمين .

كان هذا الرجل يرقب الأمور في هدوء ، وأغلب الظن أنه لم يكن يفكر في الولاية أو السلطان هذه الأيام ، كان على رأس جنوده الألبان يتأمل الأحوال في حذر ، ولاشك في أنه استبان اضطراب الأحوال وود لو كان على يديه الخلاص من هذه الفوضى ، فبدأ يتحرك في حذر شديد .

كان جند الأتراك فريقين ، فريق الانكشارية وفريق الألبان أو الأرنؤود ، وكان محمد على رأس الطائفة الثانية ، وكان الجميع ساخطين من سوء الحال وانعدام الرواتب ، وكانوا لا يفتأون يصبون غضبهم على المصريين المساكين ، فيشكوا هؤلاء لعلمائهم ، فيتوسط هؤلاء لدى والى ومحمد على ..

هنا تقابل محمد على وعمر مكرم ، فأحس محمد على — بالفتنة الهادئة التي هي العنصر المميز للعباقرة — بأن فرصته قد أقبلت وأنه لا بد أن يبدأ العمل ..

بدأ طهور محمد على

بدأ فأمر جنوده أن لا يعتدوا على الشعب وأن لا يؤذوا الناس ، وأن يتظاهروا بالغضب على الباشا وجنوده ، وأن يقولوا للناس صراحة « انا معكم ، وأنتم الرعية ونحن العسكر ، ولم نرض بهذه الضريبة ، ورواتبنا على الميرى لا عليكم ! » ، فأشع عزاء هذا للمصريين ، وأى عطف يقابلونه بالشكر والعرفان .. هكذا بدأت الأنظار تتجه نحو هذا الرجل ، وتعلق عليه الآمال الكبار وتنظر اليه كمخلص وحليف ..

حركات محمد على الأولى

هكذا خرج الألبان ورئيسهم من هذا المعترك الحامى الذى

سينشب بين الجند الأتراك وولاتهم ، وكلما اشتد الضغط على الجنود وزاد تأخر مرتباتهم حاصروا الوالى ، فلا يجد مناصا من الهرب اذا اسعفه الحظ كما فعل خسرو فى أول مارس سنة ١٨٠٣ .

فاذا هرب الوالى ، فالى من يلجأ الجند الا لهذا الرجل الذى يحرص أشد الحرص على أن يظهر بمظهر العادل الحكيم الذى ينفر من كل هذه الأعمال والتصرفات يذهب الكثيرون الى أن كان يستطيع أن يصبح واليا فى هذه المناسبة ولكنه أثر الزهد فى الولاية .

ولكنه كان أذى من أن يقتحم الأمور هذا الاقتحام ، كان يترىث فى أموره ويحكم تدبيره ، ويحذر الحذر كله من أن يغضب السلطان ورجال السلطان ، فأصر دائما على أن يتنجى عن الميدان ، اما ليهرب من غضب السلطان أو يفر من المسؤولية . فجعل همه أن يوصى بتولية من يكون فى مصر من الباشاوات فيعمل على ولايتهم ثم يدبر لهم ، وكان أعلم الناس بأن القاهرة فى هذه الفترة بركان نائر ، وأن منصب الولاية كان أمام الفوهة ، عليه ينصب غضب الناس الذين اشتد بهم الظلم . . ونحوه تنطلق قنابل الجنود الذين لا تصلهم الأعطيات .

كان هناك قائد آخر للألبان . هو طاهر باشا أحق منه بهذا المنصب لأنه باشا ، ولأنه لا يعرف الخطر الجائم خلف قبول منصب كهذا . كان أسلوباً ماهراً لجأ اليه محمد على ليخلص من طاهر قائد الألبان ، حتى تنتهى إليه قيادة هؤلاء الجنود ، فيصبجوا بعد ذلك آلة فى يده يحقق بها مطامعه . وكان هؤلاء الأتراك هم العماد الثانى الذى ارتكزت عليه قوة محمد على ، والعماد الأول هم المصريون طبعاً . . لقد عمل وعاون على ولاية طاهر ورضى عنه ، ثم أنشأ يحفر له البئر من خلف .

دركز محمد على

طاهر باشا

كان على طاهر أن يجيب مطالب الجنود الثائرين ، وكان عليه كذلك أن يحول بينهم وبين المصريين العزل المساكين ، وأن له أن يجمع بين النقيضين ويرضى الطرفين ، وهو رجل شرير ظل طول حياته وحكمه رمزا للفوضى التي كانت شائعة هذه الأيام ، ويدا شديدة تضغط عنق القاهرة التي أشرفت على الموت و « لو طال عمره أكثر من ذلك لأهلك الحرث والنسل » كما يقول الجبرتي .

ولكن عمره لم يطل .. في ٢٥ مايو سنة ١٨٠٣ (٤ صفر سنة ١٢١٨) دخل عليه موسى أغا و اسماعيل أغا وحدثاه في رفع الظلم وصرف المتأخر من المال فأبى ، فقطعا رأسه ورمياه من الشباك .
وخلا الميدان مرة أخرى .

ونظر محمد علي فاذا باشا ثالث مار بمصر في طريقه إلى المدينة المنورة .. فلم لا يقام واليا .. لم لا يوضع في الآتون حتى يُفرغ من أمره .. وهكذا أقيم أحمد باشا واليا ..

أحمد باشا

لا شك أن محمد علي كان يعمل جادا في هذه الأيام .. كان يعرف عرفان الواثق أنه لا بد لهذه الفوضى من آخر . لا مناص من القضاء على كل عناصرها حتى تهدأ الحال وتعود الأمور إلى مجاريها ؛ فهو لاء هم ولاية السلطان وجنوده متروكون لبعضهم ، كلما أكل الجنود باشا قدم إليهم باشا آخر .. فلا يلبثون أن يأكلوه .. لا بد أن ينتهي الباشاوات يوما من الأيام .. فيخلو الجو أمام غيرهم .

بقي المماليك عنصرا قويا مهاب الجانب ، فكان لا مفر من انتقاء شرهم والكيدهم ، كانت أول الحلقات التي تبدأ بها « سلسلة الحوادث التي انتهت بقبضه على السلطة » هي ثورة الألبانيين التي أشرنا إليها والتي انتهت بمقتل طاهر باشا ، فلم يكد المماليك يتسامعون بذلك حتى قفزوا إلى الميدان ، ووجد محمد علي أنهم سيصبحون أصحاب السلطة

محمد علي والمماليك

وأولى الأمر . فأسرع وبسط لهم يده ، وحالفهم ليتق شرهم من ناحية وليدبر لهم من ناحية أخرى ، « كانت خطوة جريئة ، لأن المماليك كانوا عصاة في نظر الباب العالي وكان الباشا الشرعى (وهو خسرو وكان في ذلك الحين في دمياط منذ هروبه من القاهرة) ما زال في البلاد ، فكان (محمد على) ماهرا كل المهارة في الزهد في كل مظهر غير شرعى والمساهمة بنصيب كبير في النظام الجديد » (١)

وأراد المماليك أن ينتهزوا هذه الفرصة ليصبحوا أصحاب الأمر والنهى في البلاد ، ولم يكن يرضيهم بطبيعة الحال أن يظلوا على هذه الحال من النفي خارج القاهرة فدبروا هجوما عليها ، يطردون به والى التركى أو يقتلونه فيخلو لهم الجو . ومن ثم دخل المماليك من الجيزة وعلى رأسهم البرديسى و ابراهيم بك فأسرع أحمد باشا بالهرب ، فلم تدم ولايته أكثر من يوم وليلة . وهب الانكشارية لمقاومة المماليك ، فوجد محمد على الفرصة سانحة لتجريد الولاة الأتراك من قوتهم . وهم الانكشارية فعاون المماليك على التخلص منهم ، فطردوا من القاهرة ونادى المنادى في ربوع البلد « بالأمان حسب ما رسم ابراهيم بك حاكم الولاية وأفندينا محمد على » .

افندينا محمد على

ولكن محمد على وجد أنه سار فى الأمر إلى أبعد مما ينبغي ، لم تكن الخشية من السلطان هى التى حفزته إلى الانزواء بعض الشئ ، وإنما كان يعلم حق العلم أى بركان يكمن تحت قدمى حاكم البلاد ، لقد أعلن اليه صديقه عمر مكرم أن الثورة تغلى فى النفوس وأن المصريين قد زاد بهم عبث العاشرين . وانهم سيخطون إلى الإمام يوما ما ويفتكون بكل من يحدونه أمامهم واليا كان أو مملوكا . فرأى محمد على أن يتراجع بعض الشئ ، حتى إذا انفجر البركان نجا من ثورته . . ثم خطا مع الداخلين .

الاتفاق بين عمر مكرم ومحمد على

بدأ حكم البسكوات بما يبدأ به حكمهم عادة ، بالظلم والضرائب ، وارهاق الناس ، فبدأت بذلك سلسلة الحوادث السريعة المتعاقبة التي انتهت بالثورة المصرية وولاية محمد علي .

عودة الألفي

في هذه الأثناء تسامع البرديسي ومحمد علي بعودة الألفي من رحلته إلى إنجلترا ، « وقد كانت خدعته وعود الانجليز فذهب إلى إنجلترا ، وكان منذ زمن بعيد مخلصاً لهم دون تحفظ ، يتبع آراءهم ولا ينصت إلا لنصائحهم (١) » وكانت هذه الرحلة قد انجالت عن معاهدة سرية بينه وبينهم تقتضي بأن يكون لانجلترا الحق في احتلال موانئ البحرين الأبيض والأحمر في حالة ما إذا أصبح المماليك أصحاب السلطة في البلاد ، وكانت الوزارة الانجليزية تدافع بقوة عن قضية تابعها « الألفي » أمام الباب العالي (٢) . يؤيد الأستاذ الرافي هذا الرأي وإن كانت الحقائق لا تدل على صدقه فقد كان الألفي موغراً المصدر على الانجليز لأنهم « قد عرفوا بلادهم ويتمنى لو أعماهم » وكان قد أحس أنهم لا ينوون به الخير الكثير فعاد وفي نفسه سخط عليهم ، ذلك هو رأي السير الكسندر بول مندوب إنجلترا في مالطة ، الذي قال عن الألفي انه « شرير محزون ، ربما أصبح عدواً لانجلترا » ولكن إنجلترا رأت أن تستفيد منه فسعت ليكون بينه وبينها محالفة أو ما يشبه المحالفة لأنها كانت تعرف — إلى حد ما — مدى سلطان هذا الرجل ومقدار ما كان يستطيع من الأعمال .

عودة الألفي من رحلته إلى إنجلترا

عاد الألفي من زيارته الغربية إلى لندن . وألقت به السفينة الانجليزية على شاطئ مصر بعد أن استراح في إنجلترا فترة قصيرة من الزمن ، وكان قد رحل إليها مع الجنرال ستياوات ، لابتدعوة من الحكومة

(١) Mengin : L'Egypte sous Mohamed Aly' I' 25

ص نشأة المسألة المصرية ، ص ٢١٩

(٢) Naurioz : Histoire de Mohammed Aly' I' 242

عن نفس المصدر السابق ، ص ٢١٩

البريطانية او ترحيب منها ، وكان ستيوارت ، قد تخوف من زيارته فأنزله في ماطلة فترة من الزمن حتى يعرف رأى حكومته في هذه الزيارة ، تم سمح له بعد ذلك بالذهاب إلى إنجلترا فوصل لندن في أكتوبر سنة ١٨٠٣ (١) ، فأثارت زيارته قلقاً كبيراً في تركيا وإنجلترا ، فأما الأتراك فقد أوجسوا شراً ، وخافوا أن يكون لهذه الزيارة معنى سياسى ، فسارع الانجليز وأكدوا لهم أنهم لن يقبلوا من الألفى شيئاً فيه ضرر على الدولة العثمانية ، وأكد الألفى نفسه ذلك ، لأنه كان يحس بأن الدولة لن ترضى عن زيارته ، ولن تكف ساعة للايقاع به والخلاص منه ، وكان يبنى نفسه في واقع الأمر بكسب ود الانجليز وحسن ظنهم ، بل استطاع في لحظة ما ، أن يشغل بال نفر من السياسة الانجليز فوضعوا المسألة المصرية موضع الدرس والتفكير ، ولكنهم عادوا فقدروا المصاعب التي تعترض تنفيذ أى مشروع للتدخل في المسألة المصرية ، وقدروا غضب الفرنسيين وسخط الأتراك والمشاكل العديدة التي تنشأ عن ذلك . فكفوا عن العناية بالألفى ولم يستمعوا له ، ولم يفكروا في معاونته جدياً ، ولعل الحكومة الانجليزية لم تكن تعاق عليه ولا على زيارته أملاً كبيراً ، لأنها لم تكن بحاجة إلى رأى منه أو وعد من ممالكه ، إذ كانت تعرف تمام المعرفة أنه ان كان هناك خير في التعاون معه ، فهي قادرة على الحصول على معاونته وهو في مصر نفسها ولا حاجة لوجوده بلندن ، أما هو فكان يؤمل في الحكومة البريطانية أملاً عريضاً ، وكان يبنى النفس بجيش قوى ومال طائل ينفق منه ، حتى يستطيع القضاء على الأتراك والسيادة على أعدائه من ممالك البرديسى ، فترددت الحكومة البريطانية تردداً طويلاً في اجابته إلى مطالبه ، وخيبت آماله فعاد آخر الأمر يجر أذيال

خوف الأتراك
من هذه الزيارة

الاعمال والألفى.

الألفى والانجليز

الحية ، وقد أخطأ كثير من المؤرخين في معنى هذه الزيارة وتأويلها وعلقوا عليها نتائج كثيرة ليس من الانصاف أن تنسب اليها ، اذ « من الواجب علاج هذه المسألة بشيء من التفصيل لأنها كانت أساساً لأغرب الآراء والمذاهب ، فيذهب منجان — وأخذ عنه كل مؤرخي محمد علي الذين أتوا بعد ذلك — إلى أن الألفى « خدعته وعود الانجليز فذهب إلى انجلترا ، وكان منذ حين مخلصاً لهم إلى غير حد ، متبعاً آراءهم عاملاً بنصائحهم » . والواقع أن البك استقبل بالترحاب في بادئ الأمر ، ثم أهمل اهمالاً تاماً ، ولكن الأمر تغير حينما وردت الاخبار بدخول المماليك القاهرة ، فأصبح الألفى مرة أخرى موضع الرعاية وفتحت له الحسابات . . . الخ . وأقام الرجل ما أراد الله له المقام في بلاد الانجليز ، ثم عاد منها صفر اليدين لا يعزيه وعد أو أمل . . عاد ليُلقى على شاطئ مصر في سكون كما ذكرنا ، فلا تكاد قدمه تمس ثرى مصر حتى يسرع بالاختفاء « لأن الأوامر بقتله كانت قد انتشرت في كل مكان » كما يقول الجبرتي .

أوجس البرديسي — بل محمد علي — خيفة من هذا القادم الجديد لأنه كان رجلاً ممتازاً شديد الذكاء « وهو آخر من أدر كنا من الأمراء المصريين شهامة وصراحة ونظراً في عواقب الأمور ، وكان وحيداً في نفسه فريداً في أبناء جنسه ، وبموته اضمحلت دولتهم وتفرقت جمعيتهم وانكسرت شوكتهم ، وزاد تفرقهم ، ومازالوا في نقص وادبار وذلة وهوان وصغار ، ولم تقم لهم بعده راية وانقرضوا وطردهوا إلى أقصى البلاد في النهاية » كما يقول الجبرتي . وكان الألفى محبباً إلى الناس لشهامته وفروسيته وبعد صيته في الشجاعة ولما له من المهابة الشخصية ، وكان الجبرتي يحبه ويقدره تقديرًا عظيمًا ، وقد اختصه

البرديسي وعودة
الألفى

رأى الجبرتي في
الألفى

برثاء طويل حزين تشعر فيه بحبه لهذا المملوك القوي المهاب ، ولعل ذلك راجع إلى أن الاثنين كانا يكرهان البرديسى أشد الكراهية ويشتركان فى الميل إلى علم الفلك كما يقول الأستاذ غربال .

لهذا سارع البرديسى فى انفاذ الرجال لقتل منافسه ، ولعل محمد على هو الذى دفعه إلى أن يفاجئ الأتلى بهذه العداوة الشديدة دون تريث أو انذار ، فلم يجد الرجل بداً من أن يهيم على وجهه ويظل مخنفياً فترة طويلة من الزمن .

البرديسى حاكم
بأمره

بهذا حسب البرديسى أن الجو قد خلا له وأن أمور مصر انتهت بحمد الله إلى يديه الكريمتين ، وكان إلى جانبه هذا الرجل القوى الواسع الذهن يدبر له نهايته صابراً متشدداً ، وكان هو — أى البرديسى — لا يكاد يفطن إلى قوة محمد على ولا يلقى إلى تديره بالا ، فسهل على محمد على الايقاع به والخلاص منه .

هنا نبدأ سلسلة الحوادث المتعاقبة التى تنتهى فى أقل من عامين بولاية محمد على واستقرار أمور البلاد ، وخلاصها من هذه الفوضى التى ظلت تسودها طوال الأعوام الماضية ، إذ لم يكن من المعقول أن يصفوا الجو إلا إذا زالت عوامل الفساد والاضطراب وهى المماليك والأتراك ، وحلت محلها عناصر جديدة تحسن القيام بالأمور ، وتعمل جادة مخلصه ، لا تساووم ولا تعبت ، ولا تبيع البلاد بدراهم معدودات ، هذه العوامل الجديدة هى العنصر المصرى الذى تتبعنا تطوره نحو القوة فى شىء من التفصيل . ثم محمد على الذى سيوجه نشاط هذا العنصر ويحسن الاستفادة منه على أحسن وجه يكون . هذه الحوادث التى تنتهى إلى الثورة المصرية ، التى كانت السكسب الوحيد الذى يعزى المسلمين عن الخسائر المتوارة التى تعاقبت على بلاد الشرق الاسلامى فى هذا القرن العصيب .

الدور الذى لعبه
محمد على

ونحب أن نعلق هنا على ما تجمع عليه الكثرة الغالبة من أن محمد على كان روح الحركة وعمادها طوال هذه الأيام ، وأن كل خطوة أو حركة لابد أن يكون له فيها أصبع وأثر . تلك مبالغة لا معنى لها ولا تضيف إلى عظمة الرجل شيئاً كثيراً ، لأن عظمته الحقيقية إنما تتجلى في سياسته وإدارته بعد أن أصبح والياً لمصر ، أما صراعه للوصول إلى السلطة ومناوراتهِ التي قام بها لبلوغ هذه الغاية ، فأمر متوارد كثير الحدوث في التواريخ الشرقية . وقصارى ما يقال في ذلك أن الرجل أحسن انتهاز الفرص وأحكم سياستها . وحرص أشد الحرص على أن لا تفلت منه الثمرة آخر الأمر . ولكنه لم يكن كل شيء . . كانت الى جانبه قوى أخرى تشد أزره وتعاونوه وإذا كان له أثر محسوس في توجيه الحوادث في هذه الأيام فلم يكن ذلك لأنه كان محمد على فقط ولا لأنه كان قائد الألبانيين ، بل لأنه كان حليف المصريين .

وليس بغريب أنه أصبح والياً لأن خسرو و طاهر واحمد وعلى الجزائرلى ثم خسرو مرة أخرى ثم خور شيد أصبحوا ولاية دون مشقة . لم يبق في البلاد باشا تركى : ماراً في الطريق أو والياً على الاسكندرية أو سجيناً إلا أصبح والياً ، فلم لا يصبح محمد على وهو التركى الوحيد الذى بقي في البلاد ، إذا كان كل هؤلاء قد أصبحوا ولاية للدولة على مصر دون أن يحتاجوا لبلوغ هذا المنصب الى عبقرية خاصة أو تدبير واسع كان يكفي أن يكون المرء تركياً وقائداً لنفر من الأتراك حتى يصبح والياً على مصر في تلك الأيام ، فإذا كانت لمحمد على سياسة خاصة تذكر ، فهى حذره الشديد وتريشه الطويل حتى تتم تصفية جميع القوى المؤثرة في القضية المصرية حتى إذا انتهت تقدم في كثير من الثقة والاطمئنان . فإذا كانت ولاية محمد على أمراً عادياً لا يفترق في كثير عن ولاية غيره من الباشاوات الأتراك . فما ميزته عليهم ، ولماذا استطاع الثبات في حيث فروا ، والنصر في حيث انهزموا ؟

لم يكن هو وحده قائد الجند الألبان ، فقد كان طاهر باشا — وهو
أفضل ولاية هذه الفترة — قائداً لهؤلاء الجنود . بل كانت قيادته لهم
سبباً في فشله وقتله والقاء رأسه لجنوده !

ولم يكن ذلك لأن فرنسا اصطفتها من بين القائمين بالأمر في
القاهرة ، لأنها وجدت فيه رجل الساعة . . . أولان المسيو دلسبس ارتأى
فيه الرجل القادر على قيادة الأمور والخروج بالبلاد مما هي فيه ، ليس في
هذا الزعم ظل من الحق ، ولا ريب في أن مؤرخ أسرة دلسبس كان مخطئاً
حين قال عن مهمة المسيو ماتيو دلسبس حينما وصل القاهرة في
سنة ١٨٠٣ :

" Il fut le premier instrument de l'élévation de
Mehemet Aly. Il avait pour mission de chercher en
Egypte un homme de caractère, capable de rétablir
l'ordre en s'élevant (au dessus des Mamélukes
contraire à la politique française). Il avait distingué
et singalé à son gouvernement Mehemet Ali qui
était colonel " . (١)

هذا زعم باطل تنفيه المراسلات الرسمية الباقية من هذه الفترة ،
إذ في هذا الظرف بالنفس كان تاليران وزير الخارجية الفرنسية يشتد
في التنبيه على المواطن دلسبس بأن يبتعد عن كل نزاع ويتجنب أي
تدخل في شؤون البلاد .

" que le citoyen Lesseps apporte dans sa condite
et ses demandes auprès du chef délégué par la porte
toute la sagesse et la circonspection dont il est
capable. Il s'applique à se concilier son estime et
sa confiance en évitant toutefois de s'immiscer dans
les querelles des deux parties " . (٢)

(١) آثرنا أن نثبت هذا النص كما هو بدون ترجمة لاهميته عن :

Bridier : Une Famille française, p. 129.

عن نشأة المسألة المصرية ، ص ٢١٣ (٢) نفس المصدر

هل لفرنسا أثر
في ولاية محمد علي

كذب هذه الدعوة

فرنسا تأمر
سفيرها بموالاته
الأتراك

لم يكن دلسيس إذن مكلفاً بالبحث عن رجل يعهد إليه بشئون البلاد . وإنما كان مكلفاً رسمياً بالتودد إلى الوالى التركى واحترامه ومعاملته المعاملة اللائقة بمقامه السياسى . والبعد عن المنازعات وعدم التدخل فى الأمور . .

وكانت تصرفات دلسيس كلها لتدل على أنه كان يسعى - ولو بصفة شخصية - الى ادراك هذه الغاية ، فقد حالف الممالك غداة وصل القاهرة واحتفلوا به احتفالا جليلا ، وقد لبث على هذا فترة عجز بعدها تماما عن التدخل بأى سبيل . وتساءل فى حيرة : « الى أى النواحي يستطيع ممثل دولة أجنبية أن ينضم فى وسط هذه المذاهب المتباينة » . بل كان يشكو طول الوقت من قصر بابه وقلة موارده . كان ينظر بحسد الى المستر هسست مندوب انجلترا الذى تمده حكومته بما عسى أن يحتاجه من المال . وبعد أن يئس تماما من المال ، انشأ يوزع الخبز كما قلنا ، على الألبان والممالك لكي يعترفوا بوجوده على أقل تقدير .

تحالف ماتيو دلسيس
مع الممالك

وايت المواطن الماهر وفق فى هذا ، لقد فشل وتخرج موقفه وخرج الأمر من يده تماما ، وسارت الأمور فى مجراها وهو يرقبها دون أن يكون له أى أثر ، بل لدينا ما يؤيد أنه كان لا يرتاح لمحمد على ولا يرى فيه شيئا يستحق الذكر ، واليك رأى فيه من خطاب أرسله لحكومته : « ان محمد على رئيس الألبان يطلب حماية فرنسا وتوسطها لدى الباب العالى (١) وأؤكد لكم مقدما أن مشروعه ليس أكثر من خيال . وأنه يرجو أن يصبح السيد الأعلى . ولكن على الرغم من أن هذا الرجل أقل وحشية من نظرائه ، فانه منظم لنا فيما يظهر ، ولا

رأى لدلس
فى محمد على

(١) وهذه عبارة لها معناها ودلالاتها على تصرفات محمد على قبل ارتقائه الولاية والوسائل التى كان يتخذها لبلوغ ذلك ، وهى - من بعض وجوهها - لا تكاد تختلف عما كان يفعله الممالك من تذبذب بين الفرنسيين والانجليز وحذر دائم من الانزلاق .

أعتقد أن لديه القدرة على ترسيم مشروع لهذا السبيل واكتشاف الوسائل لتحقيقه (١) « وهل كان دلسيس في حال تسمح له بالتدبير ورسم الخطط ، لعلمنا نظمه بهذا الزعم اذا كان الرجل مسكيناً لا يكاد يقف على قدميه ، وقد كاد يعجز تماماً عن الدفاع عن نفسه ، وقد اعترف هو بذلك فقال « إن ما بذلته من التضحيات لاصلاح ما بيني وبين رؤساء الالبان قد أنقذني الى الآن » الى الان فقط . أما بعد ذلك فلا قدرة له على المقاومة أو الثبات ، أما التضحيات التي أشار إليها . فهي — كما يقول الأستاذ غربال — الخمر التي كان ينفقها دون حساب . بل كان الرجل غير ان يأكل قلبه الحسد لما وفق اليه مسّت مندوب انجلترا بفضل ما لديه من مال « ليس لدى مع الأسف ما أعطيه وانجلترا تبعثر الذهب والهدايا ... » (٢)

لسيس يأس

بل كلما استعصب الطرف واقتربت الثورة كلما فكر الرجل — أي مندوب فرنسا الذي أرسل الى مصر لاختيار رجل الساعة في الرحيل — حتى اذا تخرج الأمر وأنذرت بوادر الأحوال بشورة المصريين على الممالك — وهي أول موقف حاسم ظهر فيه محمد علي — جمع الرجل متاعه ورحل الى الاسكندرية تاركاً مرشحاً ينقذ نفسه ان استطاع . تخرج فرنسا اذن من الميدان ، لم يكن لها في ولاية محمد علي يد بل لم تكن ترضى بهذا التعيين .

لسيس يمر الى
الاسكندرية

إذن لماذا انتصر محمد علي .. ولماذا ثبت ؟

لأنه كان مرشح المصريين وصديقهم ،
واليك التفصيل :

(١) من خطابات دلسيس الى تاليران بتاريخ ٢٢ فبراير سنة ١٨٠٤
عن شاة المسألة المصرية ، ص ٢٢٢

(٢) If republican poverty prevented him from scattering gold, republican virtue did not scruple at the use of liquor.

يبالغ الأستاذ الجليل الراجي في تقدير حالة المصريين المعنوية ،
ويذهب الى انهم لم يكونوا أقل من الفرنسيين الذين قاموا بالثورة
المعروفة ، ونسى أن ثورة فرنسا كانت لها مقدمات بعيدة مهدت
الطريق للفرنسيين حتى وصلوا إلى حالة معنوية قوية جداً ، كان
الكتاب والفلاسفة قد ملأوا الأرض بآراء الحرية والمساواة وحقوق
الانسان ، وأفاضوا في مجد فرنسا ونهوا إليه الأذهان ، ونسى أنه كانت هناك
طوائف كثيرة من المتعلمين تعليماً مدنياً في القانون والآداب والفلسفة
وما إلى ذلك .. وأولئك هم الذين قادوا الثورة وأشعلوا نيرانها وأفاضوا
عليها هذا التآلق الخالد الذي يحيط بها في صحائف التاريخ .. ثم كان في الأمة
جيش وطني ، مهما تكن حالته المعنوية فهو جيش على أي حال ..
ولقيام الجندية في الشعوب أثر اجتماعي معروف .. وللجنود القدما
في الثورة الفرنسية أثرهم الذي لا يخفى .. أما في مصر فلم يكن هناك
إلا عمر مكرم وطائفة قليلة تفهم الأمور حق الفهم وتجروء على الثورة
والمناهضة ، وهو — أي عمر — بعد ذلك كله ، عالم لا تميل نفسه إلى
السياسة ولا يرجو السلطان ولا المنصب . بل إنه كان إسلامي التفكير
لا يكاد يرى الأمان إلا في ظلال السلطان ولا يتصور الانفصال
عنه . بل هو ما زاد في ثورته على أن خلع والياً تركياً وأقام مقامه
والياً تركياً آخر ، وهذا لا يتنافى مع ما ذهبنا إليه في تحليل فكره
السياسي ، لأن ما ذكرناه كان يدور في ذهنه أما عواطفه فقد ظلت
إسلامية إلى النهاية ، وكانت عواطفه — كما ذكرنا — أغلب
من رأيه .

رأى الأستاذ
الراجي

هل الثورة المصرية
— تشبه الثورة
الفرنسية

لنحذر إذن المبالغة في هذا التقدير ، ولنعرف أن المصريين لم يكونوا
يطلبون الحرية والاستقلال كما نفهمهما الآن . وإنما رفع المظالم وتخفيف
الضرائب وابعاد الممالك والألبان وهدوء الأحوال ، بل عمر نفسه

لم يكن يرجو أكثر من ذلك . ولم يكن ليعرف الاستقلال والحرية كما نفهمها نحن اليوم ، أو ليطوف بخلده أن يرفع المصريين إلى مراتب الحكم وأصحاب الأمر والنهي في البلاد .

تفكير السيد عمر
السياسي

ولنذكر إلى جانب ذلك أن السيد عمر لم يكن يسعى للرئاسة أو الحكومة وإن استحقهما ، ولم ينفرد وحده بذلك لعفة نفسه بل كان مثله فيه كمثلكل الوجهاء وذوى اليسار والسطوة من أهل البلاد مهما بلغت مطامعهم وترامى طموحهم ، فلم يكن أحد منهم يفكر فى أن يتولى بنفسه حكومة البلاد ، بل كان أقصى أمانهم أن يتقربوا إلى أولى الأمر وأن يحظوا منهم بالعطف والقربى والرعاية على أى لون من الألوان . وتلك نتيجة طبيعية للوضع السياسى الذى وجد الشعب المصرى نفسه عليه فى ظل الحكومات التى تواترت عليه من قديم الزمان ، إذ اضعف فيه ثقته بنفسه وجعله يخشى المسؤولية ولا يقتدر على إعباء الحكم ، فيكتفى بأن يكله إلى غيره من الأجانب ويتولى هو المعاونة والمساعدة ، وهذا ما سيفعله عمر مكرماً ، فلم يكن لينقسه إلا أن يمسك الصولجان كما يقولون . . ولكنه ترك الأمر طواعية لمحمد على وسلمه كل مقومات الحكم ، كأنه كان يشعر فى نفسه أنه غير كفء له ولا قادر عليه . واستمر يعاونه سنوات طويلة ، وهو يعلم العلم كله أن لا بقاء لمحمد على إذا تخلى هو عن نصرته . ولكن نفسه لم تتطلع إلى الحكم أو مركز الولاية .

حالة المصريين
المعنوية

فاختيار المصريين لمحمد على للولاية لا يسمى نضوجاً سياسياً ، ولا يعتبر دليلاً على إحساس الشعب بنفسه أو فهمه أن من حقه أن يتخير حاكمه ويراقب أعماله ، فكل تلك أمور سيدركها الشعب المصرى بعد حين — بعد أن يرتقى تفكيره السياسى ويزداد إحساسه بنفسه — أما فى هذه الأيام فلم يكن المصريون ليطالبون إلا حاكماً صالحاً قديراً على

نشر العدل وقطع دابر اللصوص والعابثين بالأمن ، فاذا وجدوه لم يكن لهم بعد ذلك مطمح ولا غاية ، ولا يصح الاعتراض على ذلك بأن المصريين كرهوا حكم نابليون بالرغم من أنه كان أصلح من حكم المماليك ، لأنهم إما كرهوا نابليون بعواطفهم الدينية لا السياسية ، ولا يعترض عليه كذلك بأنهم كرهوا محمدا عليا بعد حين ، فقد كانت تلك الكراهية لأسباب أخرى سيرد تفصيلها بعد قليل .

بيد أننا ينبغي أن نلاحظ أمراً آخر على جانب من الخطورة والأهمية ، وهو أن الشعب المصرى كان قد وصل فى تلك الأيام إلى حالة من التيقظ الذهنى والاحساس بالنفس جديدة بالتأمل والاعتبار ، ولو قد رزق الشعب رجلاً قادراً يستطيع الاستفادة من تلك اليقظة لأفاد منها فائدة عظيمة ، ولخطت البلاد فى سبيل التقدم السياسى خطوات سريعة واسعة نحو الشعور بالكيان والوطن ، ذلك ان للشعوب والجماعات لحظات من « الاشراق » تنفتح فيها عيونها ونفوسها . فتفهم بوحى البديهة واجبتها وتحس بالغريزة بما يحيط بها من خطر ، وتتصرف من تلقاء نفسها التصرف الواجب ، وتلك هى اللحظات الحاسمة فى تاريخ الأمم ، اللحظات التى لها ما بعدها ، وإنما تصل الشعوب إلى تلك الحالة فى لحظات الحرج والضيق والاحساس العام بالخطر على الأرواح والأرزاق فىكون احساسها بالخطر المقبل منها لعواطفها النائمة : تلك هى الحالة التى أدركها اليونان قبيل سلاميس ، والمسلمون قبيل بدر والمسيحيون قبيل بواتيه والفرنسيون قبيل فالمرسى ، لحظات تنسى الشعوب فيها نفسها فتأتى بما لم تكن لتستطيعه فى لحظات أخرى باضعاف العدة وفى قيادة أمهر القواد . ولو قد كان لشعب مصر فى هذه الأيام قادة محنكون يحسنون توجيهه لجنّت البلاد من ذلك أعظم الخيبر ، ولأدركت فى ذلك الحين درجة من النضوج السياسى لن تدركها إلا بعد

ذلك بنحو قرن من الزمان ، ويكفى للدلالة على ما أدركه الشعب في ذلك الحين من القوة والاقنذار ، انه أرغم القوى كلها على الخضوع لارادته واحترامها والتسليم له بما أراد (١) .

مقدمات الثورة
المصرية

أدرك السيد عمر أن محمد على هو أصلح للناس لولاية أمور هذه البلاد ، وسعى محمد على نفسه جاهداً حتى استطاع أن يؤكد لصاحبه أنه لا يريد إلا الخير ولا يبغى إلا خلاص أهل البلاد مما هم فيه من الاضطراب وسوء الحال ، وكانت التنكبات المتواترة والشروا المتوالية قد أيقظت في نفوس العامة شعورا من الرعب جعل الحرب والسلم في نظرهم سيان ، وأصبحوا - ولا أمل لهم في الحياة - على تمام الأهبة للحرب والاستئساد ، وكان زعيمهم عمر يشعر شعوراً تاماً بأن لا أمان للأتراك ولا صلاح للمماليك ولا ضمير عند صاحبه من العلماء ، وأحس بهمته العالية بما كان يعانيه الشعب من الآلام والخرج ، فعول على أن يبذل ما يستطيع من قوة حتى يقيم محمد على الصالح العادل على هذه البلاد ، فكان هذا إبدانا ببدء المعركة الحامية التي استمرت شهورا عدة وتقلت في ميادين مختلفة حتى انتهت آخر الأمر بانتصار السيد عمر ومن معه من أهل مصر . وكان محمد على قد يئس تماماً من أن يجعل لنفسه مكاناً - أى مكاناً - في هذه البلاد : إذ خذله الأتراك وكرهه خسرو وعاداه وتخونه البرديسى وعبث به بعد أن « جرح كل منهما يده وأذاق زميله من دمه علامة على عقد الأمانة والاختلاص » (٢) وبعد

(١) وعلى الرغم من أن محمد على أوقف ذلك الشعور فإنه استطاع أن يستفيد من نزوح الشعب المصري في حيوشه التي تمكن من أن يتصرف بها على الأتراك بعد حين . وهي انتصارات تدل على حالة معنوية طيبة جدا ، وبغير ذلك لم يكن محمد على ليستطيع الانتصار على الأتراك بجهد المصريين الذين لا عهد لهم بالحروب قبل ذلك

(٢) سيرة السيد عمر مكرم للاستاذ جليل محمد مريد أبو حديد (طبع القاهرة سنة ١٩٣٧) ص ١١١ .

أن أحس الغدر والخيانة من جنوده ومواطنيه من الألبان إذ تهددوه بالتورة وتمردوا عليه كثيراً ، فلما أحس أن السيد عمر مرتاح إليه وأنه يرشحه للولاية عرف أن هؤلاء المصريين هم خير من يعول عليهم لأدراك غايته ، وأحس بفطرته الهادية مدى ما يستطيعون من عمل في هذه الأيام .

بدء المعركة :
هزيمة المماليك

بدأت المعركة الحاسمة في أواخر فبراير سنة ١٨٧٤ ، إذ بدأ السيد عمر ومن معه من أهل مصر يزيلون العقبة الأولى التي تعترض محمداً علياً : وهى المماليك الذين كانوا يدعون الحق في حكومة مصر ويسعون لذلك عن أى سبيل : لا يستحيون أن يتوسلوا لذلك بالانجليز أو الفرنسيين . وكانت زعامتهم قد انتهت في ذلك الحين إلى البرديسى الذى أصبح شبه حاكم على مصر بعد أن تخلص من الآلئ وشرده في نواحي البلاد . وأراد البرديسى أن يمسى على مثل ما كان عليه سابقوه من فرض الضرائب والأثقال على الناس بها . فلم يكده يفعل ذلك حتى هب الناس في وجهه ، وأعلنوا عليه الثورة والهاج ، وأدركهم من ذلك بأس شامل وكمد مقيم ، فلبسوا السواد وناحت النساء ، كأنما أصبح الناس حيال ذلك الأمر كأنهم حيال قدر ظالم لاحيلة لهم فيه ، وتحمسوا وساروا إلى دار البرديسى يهتفون به « إيش تاخذ من تفليسى يا برديسى » وأحس جند الألبان حرج الموقف وخافوا على أرزاقهم فوثبوا يعقدون الخناصر مع المصريين ، فوجد البرديسى نفسه بين نارين : نار الجمهور الساخط ونار مدافع الألبان ، فعجل بالهرب من القاهرة ، وتبعه عامة أمراء المماليك في فزع لا يوصف وتفرق جمعه وجمعهم في الصحراء أو الأرياف « وكانت سقطة حكم الأمراء هذه المدة آخر عهدهم بحكم البلاد ، فانهم لم يدخلوا القاهرة بعد ذلك حكماً ، بل مازالوا يحاولون ويعجزون حتى قضى عليهم محمد على

القضاء الأخير بعد ذلك بسبع سنوات ^(١) وبذلك قرر أهل مصر
مصير المماليك وأخرجوهم من الميدان فذلت العقبة الأولى التي كانت
تعترض محمد على .

المصريون يقررون
حقهم في اختيار
حاكمهم

هنا يبدأ الدور الثاني من المعركة : وكان العدو هذه المرة هم
الأتراك أنفسهم ، فقد استبان الشعب أنه لاصلاح لأموار مصر معهم :
إذ أرادوا من أول الأمر أن يرغموا الوالى التركى على أن يحسن
السيرة فيهم وصبروا لذلك صبراً طويلاً ، فلما يئسوا انعقد عزيمتهم على
الخلاص منه واستبدال غيره به ، فلم يجدوا الجديد خيراً من القديم .
ومن ثم عولوا على أن يختاروا هم بأنفسهم بعد أن أيأسهم السلطان
بسوء الاختيار . كان الوالى فى هذه الأيام هو خورشيد باشا وكانت
الأخطار قد أحذقت به من كل جانب ، إذ أحاط المماليك بالقاهرة
وحصروها حصراً شديداً وأقلب عليه جند الألبان ، فليجأ إلى
القاهريين يطلب اليهم أن يعاونوه على أعدائه فأبوا ورفضوا أن يبذلوا
له المال الذى طلب ، فأسقط فى يده وجعل يستصرخ الدولة فى أن
تبعث اليه جنداً جديداً يخرج به من الحرج الذى صار اليه ، وازدادت
الأحوال حرجاً بعد حين إذ نفر منه رؤساء الجند من أمثال محمد على
وصادق أغا وصار يتخوفهم أكثر مما كان يتخوف أمراء المماليك ،
وأصبح أمله معلقاً بالنجادات التى بعث يطلبها من الدولة ، ويأليته
ما انتظر . . فقد كان وصول هذه النجادات ضغثاً على إباله : إذ لم يكونوا
غير شرادم من الأجلاف واللصوص جمعتهم له الدولة من نواحى الشام
وآسيا الصغرى وحصبت بهم مصر فكانوا كالقذى استقر فى عينها ، إذ
انصرفوا للسلب والنهب فزادت ثورة الناس واشتد هياجهم وأصبح
العداء بينهم وبين ممثل السلطان عداء واضحاً صريحاً ، وأحس قواد

(١) سيرة السيد عمر مكرم للأستاذ ابو حديد ص ١١٦

الألبان أن خورشيد لا يريد من هؤلاء الجنود إلا كسر شوكة من تحدّثه نفسه بالمعارضة منهم ، فاتحدت غايتهم مع غاية المصريين وبدأ الاثنان يعملان متعاونين ، وشعر خورشيد بذلك فأحب أن يفرق شمل الحليفين فسعى لنقل محمد علي من مصر ، واستطاع أن يستصدر من الدولة فرمانا بتعيين محمد علي واليا على جده ، ولكنه خدم محمدا عليا بذلك خدمة كبرى من حيث لا يشعر ، إذ أصبح محمد علي من باشاوات الدولة جديراً بولاية أمور البلاد ، ولم يكن المصريون ليفكروا في إرغام الدولة على إقامته واليا لو لم يتطوع خورشيد بالسعي لرفعه إلى مرتبة الولاة الباشاوات ، إذ « ما دام محمد علي جديراً بحكم جدة ، فهو أولى بأن يبقى في مصر ليكون حاكماً عليها » (١)

تعيين محمد علي واليا
على جده

وكان محمد علي لا يرى ضيراً في ذلك ، فهو وال علي جده وليس هناك ما يمنع من نقله إلى مصر ، ومن ثم صارع صاحبه عمر مكرم بذلك واتفق الاثنان عليه . وأعلنه السيد عمر لأصحابه واتباعه فلقى من نفوسهم موقع الرضا ، ولم يلبث العامة أن نادوا به حاكماً ، واحتفل الجميع بتعيينه احتفالاً شعبياً جميلاً لا يخلو من مظاهر شتى تدل على سمو الشعب وشعوره بقدر نفسه وفرحه بالانتصار الجزئي على السلطان التركي في ١٣ مايو سنة ١٨٠٥ .

المصريون يولون
محمد علي حكومته
مصر : ١٣ مايو
سنة ١٨٠٥

أنشأت هذه الحركة في مصر موقفاً شاذاً ، فقد أصبح في البلاد عاملان تريان : أحدهما معين من قبل السلطان والآخر معين برغبة سواد أهل مصر ، وتلك هي المرة الأولى التي يستطيع أحد الشعوب الإسلامية أن يثور على الخلافة ثورة معقولة منظمة ، فقد جرت العادة قبلاً بقتل الحاكم أو طرده والاعتداء عليه ، فيعد هذا خروجاً صريحاً على السلطان ، أما آل مصر فقد اكتفوا بإقامة حاكمهم الذي

(١) سيرة السيد عمر مكرم للأستاذ أبو حديد ص ١٤٢

ارتضوه وتركوا عامل السلطان يفعل ما يريد متحصنا في القلعة ، ثم بعثوا إلى السلطان يطلبون اليه تثبيت الحاكم الذى ارتضوا . ولم يفعلوا ذلك جبانة ولا خوفا وإنما حكمة وقدرة ، ^(١) وبعثوا ينتظرون رأى السلطان وهم على أحر من الجمر وعلى تمام الأهبة لتثبيت اختيارهم بقوة سواعدهم .

يبدو أن خورشيد لم يرزق من الصبر ما يعينه على انتظار رأى السلطان ، فلم يلبث أن ملكه الغضب وعجب لهول ما رأى : رعية تختار حاكمها وتعزل حاكم السلطان ! وانحاز اليه نفر من جنده وأخذ يستعد للقضاء على هذه الحركة ورأسها السيد عمر ، وهنا يبدأ القسم الثانى من المعركة الحامية التى أثبت فيها آل مصر أنهم مستمسكون برأيهم أشد الاستمساك ، وانهم مستعدون للمناخفة دونه ، والبذل فى سبيله « وانه لمن المعجب أن تتصور شعب مصر وقد حمل شتى أنواع الأسلحة من العصى والهاوى الغليظة (النبايت) والبنادق والسيوف والخناجر ، وهم وقوف جماعات فى شبه صفوف الجنود ، وقد أقاموا من بينهم نقباء وعرفاء يأتمرون بأمرهم ويطيعونهم ويقومون على انفاذ ما يلقونه إليهم من الخطط ، وهم بين تاجر وصانع ومحترف بحرفة أو صاحب مهنة ونفوسهم مضطربة بالآمل الجديد الذى طلع عليهم ، يعتزون بأنهم يقيمون بناء استقلالهم بأنفسهم ويشترون حريتهم بدمائهم » ^(١) ، وقد وقف جند محمد على إلى جنب المصريين فى هذه المعركة ، ولكن أى وقوف : وقوف الأجنبي المتهاون الذى لا يتردد فى التخون والتخاذل لآفته الأسباب ،

استبسال المصريين

(١) والغالب أن ذلك كان من ترسيم محمد على نفسه

(٢) سيرة السيد عمر مكرم : للاستاذ أبو حديد ص ١٤٥

وقد حدث أن تخونوا قائدهم في هذه اللحظة العصبية وأخذوا يهاجمون أحلافهم المصريين حتى كاد يسقط في يد محمد علي ، لولا أن سارع عمر مكرم فشد عزمه وأمر المصريين بقتال الألبان كأنهم أعداء ، ولهذا لا يخطئ من يقول إن آل مصر هم الذين ولوا محمد علي وحموا ظهره وشدوا أزره ، ولو تخلوا عنه لحظة لانهار بنيانه ، ولو وقفوا منه موقف مواطنيه الألبان لضاعت أياديه سدى ولقضى عليه في ذلك الحين ، إذ أن السيد عمر : « أقام منهم فرق حلت محل الجنود الذين تخلوا عن أداء واجبهم ، فأصبحت القلعة منذ اليوم السابع عشر من شهر يونيه ، وكل من حولها من المحاصرين من أهل مصر وعامة سكان القاهرة ، ولا ينبغي لنا أن ننسى أسماء بعض زعماء هذا الشعب النبيل ، ولو كان هؤلاء من أفقر الطبقات وأضعفها ، ولنترحم عليهم جاعلين إياهم رمزا للجهيل من أبطال تلك الثورة : فقد خلفت لنا الأخبار أسماء حجاج الحضري واسماعيل جوده وابن شمعة شيخ الجزارين (١) »

عمر مكرم يقوم الثورة وطالت مدة الحصار واستأسد المصريون وأبلوا بلاء طيبا ، وحاول الأتراك أن يأخذوهم بالحيلة والخديعة فلم يوفقوا ، وبدت على بعض أفراد المصريين مظاهر البطولة والقـدرة على النضال والصراع ، واقتدر السيد عمر مكرم على قيادة الناس قيادة موفقة طيبة فكان حركة دائمة طوال هذه الأيام ، ينتقل بين أبواب القاهرة ويسرع من جماعة لجماعة يصدر الأوامر ويرسم الخطط ويدبر الأمور تدبير الزعيم الذي مارس الزعامة والقيادة ، واستمر الأمر على ذلك حتى استأسس السلطان من النصر على المصريين ، فلم يلبث أن أرسل إليهم فرمانا يقر اختيارهم ويثبت الباشا الذي طلبوا ، فكان وصوله فرجا من حرج ، وأحس

(١) سيرة السيد عمر مكرم : للاستاذ أبو حديد ص ١٤٨

المصريون يومئذ كيف يؤتى الثبات أكله ، استقبله القاهريون كلهم عن بكرة أبيهم ، وساروا به « حتى بلغ منزل محمد على باشا في الألبانية ، وكان حجاج الخضرى يسير في طليعة الجماهير وفي يده سيف مسلول وابن شمعة إلى جواره تعلوهم علامات الابتهاج والاعتداد بالنفس ، وفرق المرسوم الذى يحمله الرسول على الناس » (١) فلا مبالغة فى القول بأن هذا اليوم العشرين من ربيع الأول سنة ١٢٢٠ هـ . والثامن عشر من يولييه سنة ١٨٠٥ يعتبر فاتحة نهضة الشعب المصرى الحديث ، والبشارة الأولى ليقظة الشعوب الاسلامية فى العصر الحديث .

وليس إلى الشك سبيل فى أن عمر كان يتصرف إذ ذاك عن شعور وثيق بحق الأمم فى تقويم الحاكما إذا مال عن الهدى ، وأنه لم يكن يفعل ما فعل جريا وراء جاه أو منصب أو مال ، فسنرى أنه كان طوال حياته عزوفا عن المال زاهدا فى الجاه منصرفا عن المناصب ، ولكنه كان شديد التعلق بالمبادئ يفهمها حق فهمها ويرعاها حق رعايتها ، ومصداق ذلك هذا الحديث الذى جرى بينه وبين أحد أتباع خورشيد باشا ، إذ قال مندوب الباشا : « كيف تشرون على من ولاه السلطان عليكم . وقد قال الله تعالى : وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » : فأجابه السيد عمر جوابا يفهم منه أن الرجل كان يفهم مهمة الحاكم حق الفهم ويعرف حقوق الرعية فى الرقابة على الحكم : إذ قال له : « ألا فاعلم أن أولى الأمر هم العلماء وحملة الشريعة والسلطان العادل : وهذا الحاكم الذى أرسلكم ما هو إلا رجل ظالم خارج على قانون البلاد وشريعتها ، فلقد كان لأهل مصر دائما الحق فى أن يعزلوا الوالى إذا أساء ولم يرض الناس عنه ، على أنى لا أكتفى بذكر ما جرت عليه عادة البلاد منذ الأزمنة القديمة ، بل أذكر لك أن

(١) سيرة السيد عمر مكرم الاستاذ ابو حديد ص ١٥١

السلطان أو الخليفة نفسه إذا سار في الناس سيرة الجور والظلم كان لهم عزله وخلعه ، وتلك مقالة تدل على فطانة ذلك الرجل وإيمانه بمبدئه وفهمه لحقه وواجبه واستعداده لبذل نفسه في سبيل العدل وصالح الناس ، وهي وخدها دليل على أن السيد عمر لم يكن رجلا عاديا بل كان زعيما صادق الفهم عزيز الارادة ، لا يجبن ولا يخاف ولا يتردد ، وإنه قد قبس الكثير من آراء الفرنسيين وأفاد منها ، فليس في موروث الحكمة الاسلامية السياسية ما يؤيد السيد عمر في موقفه ، ولم يحدث أبدا في أية دولة إسلامية أن خوطب الحكام بهذه اللهجة الصادقة الواضحة الجديرة بالاعجاب والنظر ، ولم يوجد بين المسلمين من يضارح الخليفة بحق الرعية في عزله إذا استبد أو أساء . لم يفعل ذلك أحد في ظل أعنى الحكام وفي وجود أعظم العلماء ، فعمر يعبر هنا عن شعور جديد ورأى جديد ونفس متوثبة للحرية ، لا تسكاد تحفل للهوت أو تطلب العافية على مثال من نعرف من سروات المسلمين قبل ذلك ، فهذا المصري العريق يعد بلا نزاع أول الأحرار المسلمين ، وأولى بشرى البعث الجديد في أرض المؤمنين . وليت عمر اكتفى بذلك فما هو يعلن لمندوب الحاكم - أى مندوب السلطان - استعداداته للثورة قائلا إننا نقاتلكم لأنكم عصاة قد خرجتم عن الحق وثرتم على القانون « فهو لا يخشى المجاهرة بالثورة ويصر عليها إصرار المؤمن بما يفعل الواثق من حقه في فعل ما فعل ، العالم بجرائم ما يأتي ، فأين هذا من المملوك المتخون الغادر الذي يكره السلطان ولا يجسر على المجاهرة ، والذي يثور ولا يجسر على المقاتلة إلا في الظلام ، بل أين هذا من وزراء السلطان وعامة السراة والوجهاء في كافة بلاد المسلمين

عمر مكرم
أول الأحرار

بيد أننا نلاحظ أمرا آخر . هو أن عمر لم يقل بحق الأمم في حكومة نفسها ولم يجز لفظ الحرية أو الاستقلال على لسانه بل كان يبحث عن الحاكم

الصالح فقط سواء أ كان تركيا أو شر كسيا . وهذا أصدق دليل على أن فكره لم يكن يترامى إلى الآفاق التى نعرفها نحن اليوم ، وأنه كان لا يريد لشعب مصر الاستقلال عن الأتراك أو القيام بشئون بلادهم بل لعل ذلك لم يخطر له على بال .

وكان محمد على يرقب الأمور تجرى بين يديه فلا تفوته العبرة تضمها ولا السر تطويه ، فها هو يرى بعينه كيف يقتدر هؤلاء المصريون على الكساح والنضال ، وكيف يعيون مكر الأتراك وخديعة المماليك وقوة الاثنين معا ، وكان يعلم أن النصر نصرهم واليد يدهم ، وكان قد قبل أن يرقضى منهم رقباء عليه إذا قدر له الوصول إلى الولاية ، فلما تم له الأمر وأحس أنه أصبح حاكما بدأ يفكر فى تحديد العلاقة بينه وبينهم ، وكان رجلا ذكيا أرييا يلبس حقائق الأمور بفطنته وزكاته ، فعرف أنه لن يتفق وإياهم إذا بدأ العمل على النظام الذى رسم ، لأن إفهامهم مراميه كان يستدعى الصبر الطويل وهو معجل لا يستطيع أن يتأذى ، لا بد أن يحتج عليه المصريون ويرفضوا الماضى وإياه إلى حيث يطلب من وجوه الإصلاح والتجديد ، وكان يعرف أنهم لن ينظروا إلى الإصلاح بعينه وإن يقدروه قدره ، فاحب أن ينحيهم عن هذه الرقابة التى بسطوها عليه لأنها تضرهم ولا تنفعهم ، وكان يرى بعينه ما لقيه مصطفى الثالث من معارضة الشعب فى إصلاحاته ، فاحب أن يتخلص من تلك الرقابة حتى يستطيع أن يمضى فى سبيله حرا طليقا . وكان يعلم كذلك أن السيد عمر أقرب منه إلى قلوب الناس وأقدر على قيادتهم فصار يخشاه فى نفسه وإن حمد له يده وأقر بفضلته ، على هذا الأمر عقد محمد على النية حين استوى فى حكم مصر وبدأ العمل بنشاطه المعروف (١) .

(١) ويعلب أن محمد على كان قد أطال التفكير فى ذلك الأمر وأنه كان قد عقد العزم على تنحية المصريين والتخلص من رقابتهم إذا صار له الأمر على هذا يدل الحديث الذى دار بينه وبين المسير

أما السيد عمر فكان يهيم في واد آخر ، لم يكن يفكر إذ ذاك في المعارضة ولا العداء ولا شيء من ذلك ، فقد كان قد أدرك غايته بتولية الرجل الصالح أمور الناس ، ولم يبق له ما يشغله إلا أن يعتكف كسابق عهده حين يقر باله وترضى نفسه ، فلا يتحرك إلا لشفاعة أو وساطة أو رد مظالمه ، وكان في تفكيره السياسى يعلم أن « أولى الأمر هم العلماء وحمله الشريعة والسلطان العادل » فكان يعتبر نفسه من العلماء وحمله الشرع الذين يشرفون على السلطان العادل ويردونه إلى حدوده إذا حاول الحيد عنها أو يعزلونه إذا اقتضى الأمر لأن لأهل مصر « أن يعزلوا الوالى إذا أساء ولم يرض عنه الناس » وكان مطمئناً تمام الاطمئنان إلى محمد على فترك له الأمور واعتكف راضياً مطمئناً .

وانتظر محمد على الفرصة المواتية ليعلم صاحبه أن واجبه في العمل قد انتهى ، وإن أعباء القيادة قد سقطت عنه منذ الساعة ، ولكنه ظل محافظاً على ولائه له حذراً من غدر يكون من جانب السلطان أو المماليك ، وقد أفاد محمد على من وده لعمر فوائد جلية إذا استطاع أن يستعين به في رد الألفى عن دمنهور ، واستطاع كذلك أن يتخلص من محاولة الدولة نقله إلى سلاويك بعد قليل ، وكان محمد على يبذل قصارى جهده في هذه الأيام ليظهر بمظهر المصرى الخالص الذى لا ينتمى إلى الأتراك في شيء فكان « يسير في طرق القاهرة يحيى الناس وهو مرتد لباساً قريباً من لباسهم ، وقد خلع عنه لباس الجنود والأغراب ، واتخذ له عباءة كالبرنس تزيل بعد الشقة التى بين الناس وبينه » (١) وبذل المصريون

فيلسكس منجان مؤرخ محمد على ومعاصره إذ قال محمد على بأنه سيحول بين المصريين وبين شئون الحكم والادارة

Felix Mengin, Histoire d'Egypte .

(١) سيرة السيد عمر مكرم : للاستاد أبو حديد ص ١٦٠

من جانبهم أعظم الجهد في الاستمساك به ، وأظهر السيد عمر مكرم
همة عالية في ذلك السبيل ، فاستطاع أن يحمي دمنهور من الآلاني ويفسد
على الأتراك غايتهم ، وانتهى الأمر باستقرار الأمر لمحمد علي وإلغاء
أمر النقل إلى سلانيك .

وشهد محمد علي بعينه آخر طيف من أطياف المماليك يمضي أمامه
على حافة الصحراء محزوناً كثيراً بعد أن أعجزه المصريون عن
الاستيلاء على دمنهور وخيخوا أمله في التعاون مع الأتراك والانجليز ،
رأى محمد الآلاني يمضي في الصحراء من البحيرة إلى الصعيد ، ويتوارى
عنه خلف تلال الصحراء فازداد ثقة وأمناً ، وأيقن أنه آمن بعد ذلك
ماعاش وما بقي هؤلاء المصريون إلى جانبه . ولابد أن ذلك الأمير
العظيم - محمد الآلاني - كان غارقاً في التفكير وقد ألقى رأسه على صدره
ومضى به الركب إلى الصعيد أيضاً محزوناً ، لابد أنه عرف خطاه
وخطأ شيعته في معاداة أهل مصر والاشتداد عليهم ومحاولة تخونهم
والغدر بهم ، لابد أنه أحس جرمه وندم على ما فرط في أمر هذا
الشعب بعد أن رأى ما وصل إليه محمد علي بتأييدهم ونصرهم ، ولقد
روى لنا الجبرتي أن الرجل كان شديد الحزن بالغ الأسى وأنه كان
لا يفتأ يبكي مصر وآلها ومصيرها والسكمد يأكل نفسه ، بل لقد أكد
الجبرتي أن الرجل مات كمداً على ماضيه من أمور مصر ، وأسفاً
على ما أصابها بيده أو يد غيره من المماليك ، فكانت خاتمة أروع
ختام لقصة المماليك .

استوثق محمد علي بذلك من أمر نفسه ، وغدا ينتظر الفرصة
المواتية حتى يخلص من رقابة السيد عمر ويمضي في برنامج الإصلاح
مسرعا ، وقد سنحت الفرصة حين أرسل الانجليز حملة إلى مصر سنة
١٨٠٧ معظم جندها من المرتزقة لا لتحتل مصر بل لترغم السلطان
المصريين يهزمون
الانجليز سنة ١٨٠٧

على الخروج على نابليون والتخلي عنه ، وكانت أنباء هذه الحملة قد روعت المصريين فهموا لردّها ، وكاتبوا السيد عمر فارسل لهم يستحثهم إلى المسير إلى رشيد ، فتجمع الناس في بيت القضاى واجتمعت الآلاف وأخذوا يستعدون للخروج لرشيد في حماس وقوة عظيمتين . « وأخذوا يدبرون الخطة للدفاع عن عاصمتهم ، وعزموا على أن يتبعوا في ذلك خطة الفرنسيين (١) » ، وتوافد أهل رشيد والوجه البحرى إلى قرية الحما حيث قابلوا الانجليز وهزمهم هزيمة منكرة ، وعاد محمد على من الصعيد بعيد ذلك فذهب إليه السيد عمر وأعلمه بما جرى فرضى الرجل واطمأن ولسكنه رأى في ذلك ما يهدد سلطانه : لقد كاتب الناس عمر مكرم ولم يكاتبوه هو ، واستوثقوا من أمر أنفسهم وأصبحوا يعتمدون عليها ويشعرون أنهم في غير حاجة إلى الحاكم أو والى نخشى محمد على مغبة ذلك ولم يحمد عقباه على نفسه ، وكان برنامجهم يقتضى أن يشرف بنفسه على كل شىء وأن يسكت كل صوت معارض حتى يستطيع المضى في سبيله ، فافهم السيد عمر وأصحابه أنهم لم يعودوا مكلفين بالدفاع عن البلاد بعد أن صار فيها جيش قادر وان عليهم أن يلزموا حدهم في دفعوا ما يطلب اليهم لعدة الجند وكفاهم بذلك فضلا . لم يفعل محمد على بذلك الا ما جرى به مألوف العادة في كل الدول الاسلامية ، اذ أن الحاكم الشرقى يحس في نفسه أن رعيته بعض من يخشى من العدو ، وان عليه أن يأخذ نفسه بالثقية منها كما يتوقى أى عدو مخطر في الخارج ، حتى ليندر جدا ان نجد حاكما اسلاميا يجند جيشه من أهل البلد الذى يحكمه خشية أن يستخطوا عليه في عزلوه ، فكانوا يفضلون الجند المؤجرين لى يكونوا ملك يمينهم يضربون بهم الأهلين وغير الأهلين سواء بسواء . وكان هذا حال محمد على مع

نحرف محمد على
من ذلك

لماذا تصرف محمد
على على هذا النحو

المصريين ، رأى بعينيه قوتهم واقتدارهم ، وكان يعلم - ويعلمون - أنه في الحكم بساعدهم وتأبيدهم ، فازداد خوفه وأحب أن ينحيه عن الميدان فكان له ما أراد . وكان يعرف أن السيد عمر هو صديق هؤلاء الناس وملجأهم فاحب أن يبعده عنهم حتى لا يعودون يحتمون به ، وقد أسف عمر أسفا بالغاً لما فاجأه به محمد على من الرد فأخذ يتباعد عنه ويحافيه . وهنا يبدأ فضال خفي على السلطة : فمحمد على يرى عمر يقبض على زمام الناس ويحسب أنه يريد أن يحل محله ، وعمر يرى نفسه حقيقياً برقابة الحاكم ورده الى حدوده اذا بغى أو طغى ، ولكن الفرق بين الرجلين كان عظيماً : فعمر عالم مسلم لا قبل له بالسياسة ولا بتقلباتها ولا بأحوالها ، ولا يرجو غير العدل وهدوء الحال ، ومحمد على ترى في أحضان السياسة وعرك ألوانها وطال مراسه لأفانينها وتأمله في أحوالها ، فكان الكفاح بين خبير وغير خبير ، بين مدرب وغير مدرب ، وكان طبعياً أن ينتصر محمد على وهو المدرب الخبير القادر ويتنحى عمر المسلم الذي لا يرجو الحكومة أو السلطان

نفى عمر مكرم
الى دمياط

ولا يتسع المقام لتفصيل ما وقع بين الرجلين ، وإنما نجتزئ بالقول بأن محمد على انتهز فرصة احتجاج عمر على بعض أعماله ونفاه الى دمياط وأنه استعان على ذلك بنفر من علماء مصر وسرواتها : بادروا الى تخون زميلهم ليحظوا بمكانه وأمواله ، فظل الرجل في المنفى حيناً ، وكان محمد على يحفظ له يده ويعرف له فضله ، فلم ينله بأذى ولم يمسس أمواله بضر كما فعل مع الشيخ الشرقاوى مثلاً ، وحاول محمد على أن يترضاه بالمال وان يكسبه بحسن المودة فأبى الرجل أن يتزحزح عما طلب من الإشراف والرقابة . والغالب أن الرجل لم يغضب لسلطة نزعت منه أو حق غصب على رغبه ، وإنما كان يخشى أن يستبد محمد على بالناس وأن يسئ السيرة فيهم ، ولهذا لم يكذب يعلم أن محمد على قد تمكن من فتح

الحجاز حتى أرسل اليه يهنئه ، ففرح محمد على بتهنئة عمر مكرم فرحا عظيما ، وأرسل اليه خطا بايقض رقة وعذوبة بدأه بقوله « إلى مطهر الشمايل سنيها حميد الشئون وسميها ، سلالة بيت المجد الأكرم ، والدنا السيد عمر مكرم دام شأنه » (١) مما يدل على ما كان محمد على يكتنه في نفسه من الحب لذلك الرجل والتقدير له والعرفان بجميله .

عودة عمر من المنفى وعاد عمر إلى القاهرة ليجد محمداً علياً قوياً مهيباً ينشر على الناس ظلال العدل ويقودهم إلى معارج العز ومراقي السلطان ، فرضيت نفسه وأقام ساكناً مطمئناً ، ينتظر لقاء ربه ، ولكن الأيام لم تهادنه حتى أيامه الأخيرة ، إذ ضج الناس بضريبة فرضها محمد على على المساكن فتهافتوا على السيد عمر يرجون وساطته ، فلم يلبث محمد على أن أمر بنفي السيد إلى طنطا ، فمضى إليها في الخامس من إبريل من سنة ١٨٢٢ . ومات بعد ذلك بقليل . بعد أن وضع الأساس في بناء مصر الحديثة ، وبعد أن خلاص بلاده من الفوضى والاضطراب ، وبعد أن نفّض عن شعب مصر أدران القرون ، وأنهمهم على أقدامهم وأعدهم ليلعبوا الدور الخطير الذي سيلعبونه في السياسة العالمية بقيادة محمد على العظيم .

أكان محمد على على الحق فيما ارتأى من إبعاد جمهور المصريين عن ميدان السياسة والاستشارة به وحده . أكان ذلك ضرورياً له لكي يستطيع المضي في خطته الإصلاحية ؟ يبدو أنه بالغ في التحوط حين سلك هذا السبيل ، إن سبيله كانت تكون أيسر وأهون لو لم يخرج المصريين من الميدان جملة ، فانه بات يشكو بعد خروجهم قلة الرجال وندرة الكفايات معه ، ولو لم يبادر إلى الاستعانة بهم في جيوشه لما استطاع أن ينتصر على الدولة الانتصارات التي أدركها ، نعم كان المصريون بعيدين عن أن يفهموا غاياته ومراميها ، وكانت عامتهم مستعدة للسيخط

هل كان محمد على مصيباً في تنمية المصريين .

عليه إذا أجبرها على بعض ما تكره من وجوه النحضر ، ولكن لانزاع
في أن نفرا منهم كان قديراً على مجاراته ومتابعته بعد صبر قليل ، وان
بعض أهلها كانوا إذ ذاك في حالة معنوية تمكنهم من مجاراته وفهم مراميه
إذا تفاهم معهم عليها ، لو فعل محمد على ذلك لما شكوا الفقر في الرجال
والكفريات بعد قليل ، فقد كانت نفوس المصريين قد تفتحت في ذلك
الحين وتأهبوا للعمل العظيم ، فكان حالهم كحال الصبي الذي ينفعه
التشجيع والاطراء وإظهار الإعجاب ويقتله التخذيل والاضضاء وإظهار
الاحتقار والازدراء ، فلو قد شجع محمد على المصريين واحتمل منهم
ما يحتمله الأب من الوصب في تربية أبنائه ، لما شكوا الفقر في الرجال
بعد قليل ، ولما أخرجهم من طاعته وحبه وأوقفهم منه موقف العدو
بعد حين ، فقد تحمل المصريون في رفعه وصبا وجهداً بليغاً ، وقد
بذلوا في سبيله بذلاً كريماً ، فكانوا حقيقين لديه بالتربية والتعليم ،
وليس هناك أمة تهذبت وارتقت من غير معلم وليس هناك أمة
تسمو وتعلو مع انصراف حكامها عنها وتحذيلهم إياها .

لو فعل محمد على ذلك لضمن لإصلاحه قوة وثباتاً من روح
الشعب وقوته ، ولوجدت بذوره تربة طيبة تغيب فيها لتنبت نباتات
زكيا ، ولما كان إصلاحه مس الأساس دون السطوح . . أما وقد
أبعد أهل البلاد فقد جعل عمله سطوحاً زائلاً يقوم بقيامه ويموت
بموته ، ولو قد كان المصريون شركاء له في العمل لما أهدم عمله عن آخره
بعيد وفاته ، ولو قد تمخض جهده كله عن خلق طائفة من المصريين
تفهم الأمور فهمها لها وتحسن سياستها كما كان يحسنها ، ولو قد ربي معه
مدرسة من المصريين يقومون على نواحي العمل من بعده لكان ذلك
أجدى على البلاد من قونيه ونصيبيين ، بل لوجد لنفسه حصناً آخر
يحتوى به حين ضرب نابيير الاسكندرانية . . لوجد نفس الحصن الذي

حماء من قبطان باشا ولما آل أمره إلى الخاتمة المحزنة التي صار إليها آخر الأمر ، لو فعل ذلك لربح وربحنا ، ولربح الشرق الاسلامي وربحنا خطوات واسعة في ميدان الرقي والنهوض

ينبغي على القارىء أن يلاحظ بعض أمور قبل المضى في دراسة محمد على والحكم على أعماله ، إذ بغير هذه الملاحظة لا يتأتى فهم الرجل وأعماله على وجهها الصحيح . بل قد يتعرض الباحث للخطأ الشديد في فهم هذا الرجل إذا هو أهمل الالتفات إلى هذه النواحي . فلنعرف أولا أن محمدا عليا كان تركيا شرقيا أولا ثم مصلحا حديثا ثانيا . كان تركيا عثمانيا في تفكيره وتربيته وطبيعته وغاياته ، نلاحظ في تصرفاته الأساليب التركيبية المعروفة من الخنق في تدبير المؤامرات إلى الميل إلى اتساع السلطان إلى الرغبة في الاستئثار بالسلطة والاستبداد بالرعية ، إلى الالتواء والتعقد ، إلى غير ذلك من الأمور التي نلاحظها بشكل واضح جدا عند غيره من الأتراك ، كان كذلك في أساسه وقبل كل شيء ، وغير ذلك أمور جدت عليه بعد ذلك أدركها بفكره الشاقب ونظره البعيد فحاول أن يستربها طبيعته فأفلح تارة ولم يفلح تارات .

طبيعة محمد على

ولنذكر أن محمد عليا قام بأعماله في بلد متحضر لأهله ماض قديم في الحضارة والرقي والانتظام ، وأن الحالة التي وجده عليها يوم بدأ أعماله كانت طارئا لا بد أن يزول ثم تعود البلاد سيرتها الأولى . فالأمة المصرية ليست أمة بدوية ولا همجية ولا طارئة في عالم الدولات ، وإنما كانت شعبا ذكيا متحضرا يفهم واجبه حيال الحكومة ويمهد السبل لمن يريد النظام ، وليست الدول المنتظمة ولا الرخاء الشامل ولا الفتوح الواسعة بالأمر الجديد على بنى مصر . فلم يكن على محمد على

شعب مصر قابل للتحضر

أن يعلم بل يوجه ، وكان عليه أن يبدأ فتم الرعية ما بدأ ، بل لعلها لم تكن تطلب اليه أكثر من أن يشعرها بأن هناك حكومة قوية ساهرة تؤمنها على أرزاقها ، حتى تنشأ هي من تلقاء نفسها تعمل وتنشط فتبلغ من الرقي والانتظام مبلغا عظيما

ومن الخطأ أن نزن كذلك أن محمدا عليا كان صنيعة دولة من لم يكن محمدا علي صنيعة فرنسا الدول أو ستارا تختبئ وراءه إحدى القوى الأوروبية ، فلم يكن الرجل آلة في يد فرنسا ولا صنيعة من صنائعها ، لأنه كان أذكى من ذلك بكثير . ودراسة أعماله دراسة دقيقة تدل على أن الرجل لم يكن أقل مراعاة للخواطر الانجليزية من مراعاته لحسن ظن الفرنسيين . بل الظاهر الذي لا نزاع فيه أن الرجل كان أحرص على كسب ود الانجليز منه على إرضاء الفرنسيين ، وقد كان الرجل يحس أن بالمرستون لا يرضى عنه ويسى الظن به ويكيد له . فظل شقيقا بذلك مدى طويلا . وبذل الكثير من الجهد ليستعيد حسن ظن الانجليز به وإذا كنا قد أيدنا بالبرهان البليغ أن الفرنسيين لم يكن لهم أى أثر في ولايته ، فمن اليسير جدا نستنتج بعد ذلك أن الدعوى القائلة بأنه كان صنيعة فرنسا لا تقل كذبا عن الدعوى الأولى . بل كان الرجل نفسه يشعر بأن ادعاء الفرنسيين صداقته لهم وتقديره إياهم يضره ولا يفيده . فهو يشير عليه غضب انجلترا ولا يحميه من جرائم هذا الغضب ، ويخيف السلطان منه ولا يمنحه ما يأمن به غضبة السلطان ، ومصداق ذلك أنه أبى أن يفتح الجزائر لحساب فرنسا خوفا من غضب انجلترا والسلطان ، ولو كان صنيعة فرنسا للي طلبها مسرعا دون أن يحسب لغيرها حسابا ، بل لعمل على إرضائها لا على إرضاء غيرها كما حدث .

وعسانا لا نتابع غيرنا فيما يسرفون فيه من لوم محمد علي على اهتمامه بشئون الحرب وحدها دون التفات صادق إلى أية ناحية أخرى من

لماذا انصرف محمد علي
لشئون الحرب وحدها

نواحى العمل والنشاط ، وعسانا أن نذكر - قبل أن نوجه اليه اللوم - أن محمدا عليا لم يكن فريدا في هذا الباب ، وأن روح العصر كانت تفرضه فرضا وتمليه إملاء . كان الرجل يعيش في عصر نابليون ، في عصر الحروب والثورات والانتصارات والهزائم ، في عصر انصرفت فيه قوى الدنيا كلها نحو الحروب والجيوش والأساطيل . وماذا فعلت فرنسا في هذه السنوات الأولى من القرن التاسع عشر غير إعداد الجيوش وتنظيمها وتسييرها نحو الميادين . وماذا كانت تعمل انجلترا غير تنظيم الأسطول وإعداد الجنود وإرسالهم يحاربون في نواحى القارة الأوروبية . بل ماذا كان قيصر الروس وامبراطور النمسا يعملان . . . وماذا كانت الدنيا كلها إلا مجدا حريا ونظاما عسكريا فحمد على إذن يمثل عصره ولا لوم عليه في ذلك . بل لم يكن له عن هذا الاهتمام منصرف وهو سليل أمة حربية لم تعرف الحياة إلا في ظلال السيوف وريش القشاعم . ولم يكن الفكر العالمى قد تعلق بعد بالمثل العليا الاجتماعية ولا النواحى الثقافية التى نعتبرها اليوم أساس حياة الشعوب . بل لم يكن الحاكم ليدخر لأمته من القوة أحسن من جيش قوى يهرب به جيرانه

وسائل محمد على وغاياته

وانلاحظ كذلك أن خلافا جسيما كان يوجد بين وسائله وغاياته في كثير من الأحيان ، فقد كانت وسائله الحديثة كفيلة بأن تجدى عليه أعظم الجدوى لو طلب منها غايات حديثة ، ولكنها لم تكن لتعين على إدراك الغايات القديمة التى طلبها ، فتتظيم البلاد واستصلاح أرضها وتعليم أهلها وتقوية مرافقها شئ . . ومحاولة الفتح والتوسع وإنشاء الامبراطوريات شئ آخر . . والشيطان لا يتوافقان بل يتعارضان ، وكيف كان الرجل ينبغي أن تتنظم الزراعة ويسود الرخاء وهو لا يكاد

يبقى على الأرض مواطناً قوياً صالحاً إلا قذف به في ميادين القتال ، وكيف كان يدخر المال للإصلاح والمشاريع ومن ورائه جيش عرمرم يحتاج إلى ميزانية تعادل ميزانية مصر عشرات المرات ، ثم كيف كان محمد على يرجو أن يرقى بنفوس الناس ويرتفع بحالتهم المعنوية وهو يحصد شبابهم حصداً وياقى ٣١ في سيادين الحروب ، فينفهم من الحرب ، ويزرع في قلوبهم كراهية النظام والعسكرية ، كان لابد أن يوجد محمد على شيئاً من التناسق بين غاياته ووسائله ، وبين غاياته وأحوال بلاده ، وكان لابد أن يجرى على شيء من النظام في أعماله ، فلا يكلف الناس إلا وسعهم ، ولا يهبطهم بأمر ثقيل تنبت بعده قواهم ولا يستطيع أن يفيد منهم شيئاً بعد ذلك

ولنذكر كذلك أن الرجل كان مرغماً في كثير من الأحيان على إتيان كثير من الأمور التي نعيمها عليه ونأخذ من أجلها بالملامة ، لنذكر أنه كان مرغماً حين قذف بجنده في صحراء العرب لحرب الوهابيين ، فقد كان والياً من ولاية السلطان ليس عليه إلا الطاعة ، وما دام السلطان قد أراده على ذلك فليأته طائعا مسلما . وقد كان الرجل مرغماً كذلك حين دبر للبهاليك المذبحة المشهورة في القلعة ، فقد تعذر عليه الاعتماد عليهم أو الإلمة إلى حل معقول في شأنهم فلم يكن له بد من الخلاص منهم على أي سبيل ، وما داموا لا يشبهون له في ميدان ولا يكافؤونه وجها لوجه ، فلم يكن له بد من الخلاص منهم على هذا السبيل لا على غيره .

محمد على يعمل منفردا

تلك أمور لابد من ملاحظتها حتى يصح حكمنا على أعمال محمد على ويصح تقديرنا له ، فلا نكون معه على محاباة ولا عليه على ظلم واجحاف ولنذكر كذلك أن الرجل كان يعمل بمفرده ، لا يؤازره أحد من أهل البلاد ولا من غيرهم ، فأما الأولون فقد كان استبد بالامر من

دونهم وأرغمهم على المضى معه دون أن يوضح لهم غايته فكرهوه من أول الأمر ولم يؤازروه إلا على جبر واضطرار ، وأما الآخرون فقد كانوا أعداء له يخادعونه ويساوونه ولا يكاد أحدهم يخلص له في قول أو في فعل ، وإزاء هذه الحقيقة يهون كل خطأ لمحمد على ، فلم يكن ليتاح له أن ينفذ هذا البرنامج الواسع كله ثم يأمن الخطأ بعد ذلك ، بل كيف نطالبه بعد ذلك بأن تكون أعماله وافية كاملة لا يفرط فيها من شيء . . .

بدأ محمد على إقامة حكومته والناس لا يرون في الحكومات إلا أنها هيآت غاشمة من الظالمين والعفاة ، وذلك لكثرة ما تواتر عليهم من عهود الظلم ومساءات الحاكمين ، وما كان الناس ليحسنوا الظن بحكومة ما بعد أن تقلبت عليهم مظالم حكومات الترك والمماليك بضعة قرون . فكان الناس يكرهون الحكومة يأسا من الحاكم الصالح لا عن جهل بفكرتها ، ومن هنا كان طبيعيا أن ينظر الناس بعين الريبة إلى حكومة محمد على ونظامه ، فهم يتوقعون الشر في كل ما يبدر لهم من أعماله حتى لو بدا لهم جانب الخير منها ، فإذا افتتح لهم مدارس ودعاهم إلى دخولها حسبوا أن تلك مؤامرة براد من ورائها الشر بآبائهم يخافوا وأجفلوا ، وإذا أقام مستشفى تخوفوا دخولها مخافة أن يكون وراءها شرا ، وإذا كرى ترعة اجتنبوا خشية المغارم التي ربما قدرها على مائها وحذرا من رجال الحكومة والسلطان ، وبهذا حاقت مظالم أسلاف محمد على به وشقى هو بمرارتها وحده ، ولم يكن على المصريين لوم في ذلك ولا تثريب ، فمن أين لهم أن يحسنوا الظن بهذا الباشا الجديد وقد آذاهم كل باشا قبله ، ومن أين لهم أن يفتنوا إلى الخير البعيد الذي يقر بهم إليه بينما لا يجدون في حاضرهم إلا غصصا وشقاء ، ولا لوم عاينه هو الآخر إذا كرههم وأساء الظن بهم وتجنب

فكرة الشرقيين عن
الحكومات

أشراكهم معه في أعماله فقد كانت ظروفه تتطلب السرعة ، وكان محتاجاً إلى من يتابعه في غير تردد ولا حذر ، فاذا لقي منهم الخوف وسوء الظن فلا غرابة ينسكرك ذلك عليهم ولا يراهم يصلحون لشيء إلا لحمل الأثقال وسوق الحمبر (١)

وربما بدا لنا موقف المصريين من محمد علي غريباً وأنكرنا عليهم كراهيتهم لأساليه ونفورهم من مظاهر الإصلاح والتجديد التي استحدثها ، فهذا رجل يسعى لخيرهم فيأبوا عليه ذاك وينفروا ، ويحقق لهم استفلاهم فلا يزالوه ويسخطوا عليه السخط كله ، ولكن الحقيقة أن آل مصر لم يكن يسعهم إلا أن يتفوقوا من محمد علي هذا الموقف لبضعة أسباب :

أولها أنهم لم يخلصوا من المظالم والمساوات إلا منذ هنيئة قصيرة جداً ، فكانت قواهم واهنة ، وعزوماتهم منحللة وكانت الحوادث المتلاحقة التي تواترت عليهم في السنوات الأخيرة قد زادت ذلك الضعف فكان لا بد لهم من فترة من الراحة يستجمعون فيها ويستعيدون ماتفرق من قواهم ، فلما دعاهم محمد علي إلى موافاته وموالاته والخروج معه إلى ميادين الحرب ، والنهوض وإياه لشئون الصناعة تخاذلوا عنه ، ولم يكن لهم من ذلك بد ولا محيص ، ولو قد أخذهم بالإصلاح على هيئة دون أن يثقل عليهم بحرب ولا أسطول ولا ضرائب ثقيلة لتفطنوا هم إلى الخير الذي يعده لهم بعد أن يعوضوا ما فقدوا في العصور الماضية .

وثانيها أننا نتصور نظام الحكم في البلاد الإسلامية تصوراً بشعياً لم يكن يحسه أهل هذه الأزمان ، فاذا كانت المظالم كثيرة فقد كانت

المصريون وأسلامة
الحكم السابقه

(1) Dodwell : The Founder of Modern Egypt .
(Cambridge 1931) P 194

الحيل للأفلات منها كثيرة أيضاً ، فإذا طلب الحاكم مثلاً من الناس ضريبة عقارية توازى عشر قيمة العقار لما شقى الناس بذلك عشر الشقاء الذى نتصوره ، فقد كان فى الامكان تقديم الرشى إلى الجباة والمحصيلين فلا يجبون الضريبة إلا على جزء صغير من العقار . وكانت الحروب إلى ذلك أمراً يقع عبئته على الحاكم لا على الرعية ، فلم يكن ليطالب الحاكم رعيته بالخروج معه إلى الميادين والاستشهاد فى سبيله ، وإنما كان يشتري الجند من ماله ويبيعهم يحاربون باسمه من غير أن يكون على الناس إلا غرم المال الذى يطلب ، أما محمد على فقد طاب إلى الناس أنفسهم أن يخرجوا معه إلى الميدان وأن يخوضوا معه غمار البحار ، ومن ثم كان البلاء الذى ليس بعده بلاء . ولم يكن هذا الأمر غريباً على أهل مصر وحدها بل نفر منه أهل الشام أيضاً - وهم أهل حرب وكفاح - وكانت الأنظمة القديمة تترك الناس أحراراً فيما يأتون من أمر دون أن يكون عليهم حرج من حاكم أو قيود من حكومة ماداموا يؤدون للحاكم المال الذى يطلب ، وما داموا يتركونه وشأنه فلا يسألونه ولا يستدركون عليه بشيء ، ومن هنا كان الناس يشعرون بشيء من « الحرية » فى ظل الأنظمة القديمة . فلما أراد محمد على أن يفرض عليهم الأنظمة الحديثة ساء لهم ذلك ولم يروا فيه إلا « حجراً » على حريتهم وتدخلوا فى شئونهم فأسخطهم ذلك ونفروا من هذه الأنظمة ، اذ لم يعد الناس يستطيعون اخفاء شيء أو التصرف حسبما يريدون . ومن هنا كان طبعياً أن نجد شيخاً مستنيراً كالجبرتي ينفر من أنظمة محمد على ولا يرى وجه الحق فيها . بل يشكو منها ويسخط عليها ، لأنه شعر بأن محمداً عالياً يريد أن يحذف من هذه الحرية التى كان الناس يستمتعون بها فى حكم أعتى المماليك وأشأم الأتراك

حريات الناس فى
أنظمة الحكم القديمة

نفور المصريين من
الانظمة الحديثة

وثالثها أن أنظمة محمد على كانت أمراً جديداً - وكل جديد غريب ،
وقد أراد محمد على أن يأخذ الناس بتغيير أساليب حياتهم وشؤون
معاشهم فشق عليهم التغيير ، خصوصاً وهم لا يفهمون المراد منه .
ولا يصاون بأبصارهم إلى الآفاق البعيدة التي كان محمد على يسوقهم
نحوها ، فإذا ذكرنا إلى ذلك ما سبقت الإشارة إليه من تخوف الناس من
الحكومات عرفنا أن نفورهم من أنظمة محمد على واجتنابهم أساليبه
كان موقفاً طبيعياً يتفق مع أحوالهم . وكان لابد من فترة طويلة حتى
يتبينوا بأنفسهم الخير الذي يرجى من وراء هذه الأساليب

طبيعة اصطلاح
محمد على

ورابع هذه الأمور أن محمداً علياً لم يدخل هذه الأنظمة الأوروبية
كاملة بحسناتها ومساوئها ، وإنما جردها من هذه المحاسن في الغالب
فنظام التجنيد الذي أدخله لم يكن يشبه نظام التجنيد في فرنسا مثلاً
فالجندي الفرنسي كان يذهب إلى الجيش فتفرض له الأغطية الوافرة
ويكسى اللباس الفاخر ، وكان يجد في معسكره الطعام الكثير والطبيب
المعالج ، وكانت تطاق له بعض الحرية فيصيب نصيباً من المتعة فيما يفتح
من البلاد ، أما الفلاح الذي كان محمد على يحجره من داره إلى المبدان
فلم يكن يتمتع بشيء من ذلك . كان يعطى أخس الأجر ، ويكسى أقل
الكساء ، ولا يجد الطبيب المعالج ولا شيئاً من التسمية ولا جانباً من
المتعة ، ثم لم تكن مدة الجندية محددة ، بل كان يدخل الجيش دخولا
أبدياً (١) ، فهو شهيد أو كاشيد ، ومن هنا نفر الناس من الجندية واقترنت
في أذهان المصريين بالويل والشر وأصبح الناس يبتكون الدخول في
« الجهادية » بكاهم على الذهاب إلى الآخرة ، لأنه لا فرق بين الحالين
في حسابهم ، وهم على حق في ذلك . وعلى هذا القياس كانت بحرية محمد
على ومدارسه ومصانعه ، حتى بعوثة العلمية . ولهذا لم ير الناس من

هذه الاصلاحات إلا وجوه الشر وخفيت عنهم وجوه الخير فابتعدوا عنها وأنكروها كل الانكار .

محمد على والمصريون

وكان طبيعياً أن يسيء محمد على الظن برعاياه المصريين لذلك . ولو قد فكر قليلاً في حقيقة أمرهم لما أشجاه وأسخطه نفورهم منه وعدم مجاراتهم إياه . ولكنه كان معجلاً لا يملك من الوقت ما يفكر فيه ، كان يريد أن يأمر فيطاع دون سؤال أو تردد ، ولم يكن لديه من الفراغ ما يمكنه من تربية هذا الشعب واعداده في هواة ورفق ، فلم يجد بداً من الاستغناء عنهم والاعتماد على طائفة من الأتراك من جهة وطائفة من الأجانب من جهة أخرى . ولو لم ينصح به درفتي Drovetti قنصل فرنسا بالاستعانة بالمصريين وبيصره بملكائهم المكنونة واستعدادهم الفطري لما فكر في الاستعانة بهم أبداً ، ولظل على حذرهم منهم لا يكاد يباليهم أو يحفل لهم .

الاوروبيون ومحمد على

ولم يكن موقع الرجل من الأوروبيين بأحسن حالا من موقعه من المصريين ، بل كان الأولون أسوأ به ظناً من الآخرين ، وقد شق محمد على بهم أضعاف شقائه بالمصريين ، لأن هؤلاء كانوا ساخطين ولكن على صمت ، منطوين على أنفسهم لا يكادون يتوجهون إلى الوالى بنقد أو يجاهرونه بمعصية ، أما الأوروبيون فكانوا لا يترددون في إعلان سخطهم عليه وسوء ظنهم به ، بل من قناصل الانجليز في مصر والشام من كان يستمرى التهجم عليه ويجدل لذة في إحراجه بما يثير ويسخط ، وكان محمد على يعلم ذلك ويسذل وسعه ليرغمهم على حسن الظن به . إذ كان يعتقد في قرارة نفسه أن جانباً كبيراً من آماله قد يتحقق بمجرد ثقة أوروبا فيه واعتمادها عليه .

الانجليز ومحمد على

كان الانجليز أضرب أعداء محمد على وأشد هم خطراً عليه وأكثرهم إساءة إليه . وقد حاول مؤرخوهم أن يعللوا ذلك بالقول بأنهم كانوا

لا يرضون عن « طبيعة » الرقي الذي استحدثه في مصر ، وانهم كانوا لا يرضون عن أساليبه ويرون فيها ألوانا من الظلم والارهاق لرعاياه ، وربما ذهب بعضهم إلى أن عداء الانجليز له راجع إلى تأكدهم من ضعفه وعجزه عن النهوض بأعياء الدور الذي كان يريد أن ينهض به ، وانهم كانوا على ثقة من أنه لن يستطيع الحلول محل الدولة العثمانية وإيقاف التيار الروسى ، ولهذا وجدوا أن « التوازن الدولي » يقتضى حماية الدولة منه وإيقافه عند حده حتى تظل الدولة العثمانية على حالها ، ذلك لأن محمداً علياً كان رجلاً مسنناً يعمل منفرداً وسط نيام . . . ومن المنتظر أن تدركه منيته بين يوم وليلة . . . فما العمل لو حدث ذلك . . . ماذا تكون النتيجة لو هدم محمد على الدولة العثمانية اليوم ثم تدهمت دولته نفسها غداً . . . إلا يجر ذلك إلى نتائج سياسية خطيرة أفل ما فيها حرب عالمية بين الدول على تقسيم هذا التراث الذى آل إليه ثم انفرط من بين يديه ؟

حقيقة موقف الانجليز
من محمد على

يبد أن كل هذه تعلات كانت السياسة البريطانية تخفى بها أسباب سخطها على محمد على وشجاعتها بنهضته ، وحقيقة هذه الأسباب لا تكاد تخفى على من يتأمل الأمور تأملاً دقيقاً ويسأل : لماذا كانت إنجلترا تعرص على بقاء الدولة العثمانية ؟ ، فيعرف أن سبب ذلك كان ضعف تركيا . ولو كانت تركيا قوية لشمر الانجليز عن ساعد الجذم لهدمها والقضاء عليها . لأن مصالحها كانت تقتضى قيام دول ضعيفة على طول طريق تجارتها إلى الهند حتى تأمن على هذا الطريق ، فعارضتها في تقسيم تركيا لم تكن رحمة بها أو مراعاة للجانب الانسانية ، وإنما كانت خوفاً من أن يقع جزء من أراضي الدولة في حصة دولة قوية أوروبية فتهدد تجارتها بالخطر ، ومصادق هذا أنها سارعت فأصابته أخطر جزء من أراضي هذه الدولة حين سئحت الفرصة . . . فوضعت يدها على مصر وفلسطين

وامنت بذلك سبيل مواصلاتها . هذا إلى أن أفكار السياسة الانجليزية بدأت تتجه إلى الاستيلاء على مصر بعد استيلاء فرنسا على الجزائر ، وتوغل الروس في آسيا واستيلائهم على البحر الاسود ، وتمكنهم من تسيير السفن البخارية فيه وفي أنهار روسيا ، إذ أحست إنجلترا أن مركزها في البحر الأبيض أصبح على خطر بوجود فرنسا ، وأن شمال الهند لم يعد آمناً لتقدم الروس ، ونادى بعضهم بضرورة إيجاد مركز لانجلترا في البحر الأبيض . ولم يكن هذا المركز غير مصر (١)

نهوض محمد علي بضر
المصالح الانجليزية

وكانت لانجلترا كذلك مصالح تجارية نافقة في بلاد الدولة العثمانية ، وكان سر انتشار هذه المتاجر خلق بلاد الدولة من المصانع أو معاهد الانتاج ، فكانت للانجليزية احتكارات قوية وتجارات نافقة لا يكاد ينافسها فيها أحد ، فلما نهض محمد علي أنشأ في بلاده المصانع والمعامل واستغنى بذلك عن الوارد الانجليزي ، فاستخطهم ذلك وتوجه القناصل الى الحكومة الانجليزية بالشكوى ، وحاولوا أن يشوهوا أعماله ويتهموا به بكل نقيصه وانذروا الدنيا بالبلاء من جرائر أعماله وأنظمته ، وصادفت هذا الشكوى هوى من نفوس السياسة الانجليزية في الغوا في تصويرها لمواطنيهم ، وزاد في سخطهم حدة أن محمد علي زاد الضرائب على الصادر والوارد في البلاد التابعة له ، فبعد أن كان مُصدّر القطن يدفع ضريبه تصدير قدرها ٣ في المائة أصبح يدفع ١٢ في المائة ، وبعد أن كان التاجر الانجليزي يدفع ٢ في المائة على ما يدخل من بضاعة في الشام أصبح يدفع اثني عشر في المائة ، فلم يلبث الانجليز أن أحسوا بأن الباشا يخرج صدورهم فرفعوا صوتهم بالشكوى والسخط ، وستروا هذه الأهواء بدعوى السلام الدولي والنفور من أساليب الوالى . فبينما كان بلمرستون . يتحدث محمد علي باسم سلامة الدولة العثمانية كان يسعى بقناصله لدى الدولة ليقبض الثمن . . وما كان الثمن

(1) Hoskins : British Routes to India. (New york; 1928) P.142

إلا تجديدًا لامتيازات الانكليز في مصر نفسها سنة ١٨٣٨ (١) الانجليز يتهمون محمد علي بمخالفة فرنسا

ومسألة ثانية كانت تسخط انجلترا على محمد علي وتحفز همتها إلى القضاء عليه ، وهي اتهامه بأنه كان آلة من آلات السياسة الفرنسية ، وصنعية من صنائعها ، وقد سبقنا الإشارة إلى خطأ المؤرخين الفرنسيين فيما يدعونه من أنهم أصحاب الفضل على محمد علي وأنهم رفعوه إلى هذه الدرجة التي صار إليها ، وأنهم كانوا عماده في كل ما أراد من اصلاح وما نهض به من عمل ، ومن ثم تخوف الانجليز من محمد علي وتصوروا الفرنسيين يستترون في أردانه فصار حوه بالعداء واشتدوا في ذلك ، ظنا منهم أنهم يحيطون بذلك مسعى من مساعي الفرنسيين ويفوتون عليهم غرضا من أغراضهم

تلك كانت الأسباب الحقيقية التي أغرت انجلترا بمحمد علي وأوقفتها منه موقف العداء ، ولا محل للسمو بالانجليز عن الأنانية والنفاق واعتبارهم أنصار الحق والعدالة حيثما كانوا ، وسرى كيف حاقت بمحمد علي من جراء هذه العداوة مصائب وويلات شتى

هذا وكان اتساع محمد علي وامتداد أياده في السودان وبلاد العرب والشام يخيفهم ويحد من مطامعهم ، فاما استيلائه على السودان والحباز فقد جعل البحر الأحمر بحيرة مصرية ، وهذا ما لم يكونوا ليرضونه ، ولهذا عجلوا باحتلال برسيم على الشاطئ الأفريقي ثم عدلوا عنها إلى عدن على شاطئ بلاد العرب ، وأما إكمال فتح بلاد العرب فهدد سيادتهم على خليج فارس وزاد تخوفهم منه أن الرجل بدأ يساهم في تجارة الهند فسير سفنا له في هذا الخليج فاسخطهم ذلك وآذاهم ، وكان وجوده في الشام يعوق مساعيهم في الاستيلاء على الجزيرة

(1) Dodwell; Op-Cit, P. 22

العراقية والملاحة في الفرات في طريقهم إلى الهند ، إذ كان الشام في قبضته في نفس الوقت الذي بدأت بعثة الكابتن كسني Chesney تقوم باحتباراتها في مياه الفرات وطرق الشام ، فكان وجود محمد على سبباً في بعض ما لقوا من العقبات

موقف الفرنسيين
من محمد على

أما الفرنسيون فقد اختلفوا مع أنفسهم ولم يقفوا من الوالى موقفاً واحداً أو مفهوماً ، فقد جاھروا بالاعجاب به ومناصرتهم ما أمكنهم الجهر ، ولكن عطفهم عليه كان « افلاطونيا » ، أى اقتصر على نية الخير وحسن الرجاى ، فخذلوه في كل مناسبة احتاج فيها إلى المعاونة الجدية ، بل حاربوه برجالهم وسيوفهم في تارات شتى ، وقد كان الرجل يحسن الظن بهم إلى حد كبير ، وكان إلى آخر لحظاته على أمل الخير فيهم والعون منهم ، ولهذا لم يلبث العجب أن مـلـكـه حين وجد فرنسا تناجزه العداوة وتعقد الجناسر مع انجلترا عليه . . وحينما حاول قنصل فرنسا كوشليه M. Cochelet أن يبرر موقف دولته إزاءه بقوله « إن المسألة ليست مصرية بل شرقية وأوروبية ايضاً إن فرنسا أيدتك ولكنها لم تستطع أن تتدخل من روابط السياسة التى تربطها بأوروبا وبانجلترا خاصة » . . لم تجز هذه التعللات على هذا الشيخ المثار المحزون وأدرك آخر الأمر حقيقة هؤلاء الفرنسيين فقال « لست أطلب أن تتخلى فرنسا عن احنافها لخاطرى ، وإنما وددت لو أقصرت فلم تقف منى موقف العدا » (١) . وليت ضمير فرنسا احس بهذه الشكاة الصادقة التى توجه بها اليها هذا الرجل الصادق من كل نفسه . . ليتها أحست بذلك فلم تجر فى السكيد له إلى هذا الشوط البعيد

(1) Driault : L'Egypte et l'Europe. (Caire). Vol I
P. LXIM et LXIV

وعسى من يقول أن مساهمة الفرنسيين في أعمال محمد علي وإسراعهم للعمل معه ومعاونته في مشاريعه ينهض حجة تدحض هذا الرأي ، وتؤكد أن فرنسا كانت لا تغادر جهدا في سبيل محمد علي إلا بذلته راضية قريرة العين ، وتلك حجة أبسط ما يسقطها أن هؤلاء الفرنسيين الذين خفوا لعون محمد علي لم يكونوا من طراز الرجال الافذاذ الذين تهديم دولة لصاحبها ، وإنما كانوا من النفاية التي تتخلص منهم بلادهم على هذا السبيل ، فلم يكن هؤلاء الفرنسيين الذين اعانوا محمدا عليا بالا كفاء (خلا السكولونيل سيف) الذين يمكن الاطمئنان اليهم والركون إلى خبرتهم ، بل كانوا ذوى كفايات محدودة جدا كما تدل على ذلك أعمالهم التي كانوا بها . . وأمامك القناطر الخيرية التي أقامها لينان تؤيد ما نقول ، هذا إلى أن هؤلاء الرجال لم يكونوا مبعوثين من قبل الحكومة الفرنسية ، وإنما دخلوا خدمة الباشا عن رغبته في الكسب والمغامرة لا غير

أما موقف الدولة العثمانية منه ، وموقفه هو من هذه الدولة فوضعه الفصل التالي من هذا الكتاب ، وإنما يهمنا أن نذكر أثر هذه العلاقات بينه وبين الدولة في حكومته ونظامه . لكي نعرف هذا الأثر ينبغي أن نسأل . هل كان محمد علي يستعد من بادى الأمر ليلعب هذا الدور مع الدولة ، أو أنه انساق إليه رغما عنه ؟ الجواب نعم ولا .

فأما نعم فلأن حال الدولة في ذلك الحين لم يكن مما يبعث على الاطمئنان والاستقرار ، وكان ولايتها كلهم يعرفون تقلب أحوالها واضطراب سياساتها وميلها إلى الغدر بالحكام أو إرهابهم بالمطالب المشروعة وغير المشروعة . وكان محمد علي نفسه أولى الناس بأن يفهم ذلك يأخذ الأهبة له ويتوقاه ، فقد مارس سياسة الدولة وناوش

اعوان محمد علي
من الفرنسيين

محمد علي وتركيا

رجالها قبل ارتقائه الولاية ، فعرف آخر الأمر أن هؤلاء الرجال لن يعفوه من الكيد واللدن إلا إذا اعتصم منهم بجيش قوى وعدة صالحة وإدارة حكيمة تستطيع أن تقيمه ولا تتخونه ، وبهذا كانت هذه العلاقات سببا من أسباب نشاطه الإداري ، وأما لا . فلأننا نستبعد أن يفكر محمد علي من بادى الأمر في أن تصاريف الأيام ستضطره إلى حرب الدولة ومطاولتها واجتياح أرضها والاشراف على القضاء عليها ، وأغلب الظن أن الجيش كان يعد في بادى الأمر « للتخويف » والاشعار بالقوة التى تكبت الكائد وتحبط الساعى ، ولهذا بادر إلى إجابة طلب السلطان حين ندبه لحرب الوهابيين وبذل فى هذه الحرب جهده لى تظهر هذه القوة . .

لم يكن عصر محمد علي يطالبه بأكثر مما فعل ، وإذا قارنا الأمور التى استحدثها فى البلاد بما كان فيها قبل مجيئه لتجلى لنا عبقريته واقتداره ، بل لعل عصره يتألق لو قارناه بمن أتى من بعده من أبنائه . . وسلائله .

وأعمال الرجل ناطقة بذلك تدل عليها الأرقام والمبالغ . . فهذا رجل يبلغ متوسط إيراداته السنوية حوالى النصف مليون من الجنيهات على أحسن التقدير ، فإذا قلنا أن ميزانيته انتظمت على هذا المنوال مدى ثلاثين سنة لكان مجموع ما اتصل به من إيراد خمسة عشر مليوناً من الجنيهات . فتصور أن الرجل أنشأ من المصانع والمعاهد فقط ما قدرت قيمته باثنى عشر مليوناً من الجنيهات . . ومن الملايين الثلاثة الباقية أنشأ والقناطر الخيرية والمحمودية وميناء الاسكندرية والابراهيمية وقلعة القاهرة . بنى أسطولين فى كل منهما عشر سفن كبيرة . . واستطاع أن يمون

جيشا عدته مائة ألف بضع عشرات من السنين ، وانفق على حملة
الوهابيين وحروب اليونان وحروب الشام وفتح السودان . وأرسل
الاموال الى القسطنطينية واشترى ضمائر رجالها في أوليات أيامه وأخرياتها ،
تصور هذه الميزانية الصغيرة واذكر مانشأ في «حدودها» من الأعمال
الباقية تعرف أى مدبر كان هذا الرجل ، وأى حكيم عالم بشئون المال
حتى قام بذلك كله ولم يقترض مليا واحداً . . بل استطاع في معظم
أيامه أن يحفظ النسبة بين الدخل والمنصرف . فكان لديه دائما مبلغ
احتياطي كبير نسبيا

حقيقة كان الكثير من أعماله سطحيا وصار أكثرها إلى زوال ،
ولكن الرجل ليس هو المسئول الوحيد عن ذلك . . فقد غرس البذرة
وكان على خلفائه والقادرين من رجال أمته أن يتعهدوها بالعناية
والتشجير . . ونقول القادرين من أمته ، لأن الغالبية من أمته لم تكن
على درجة من حسن التقدير لتعرف ما يعود عليها من الخير بقاء هذه
المصانع والمعاهد . فكان على خلفائه ورجاله أن ينفقوا مالمسكوا من
جهد للحفاظ على هذه المعاهد والمؤسسات باقية حتى يعرف الشعب
جدواها ويقدرها قدرها فيمنض لحمايتها والمحافظة عليها ؛ وهذا لم يكن أحد
من معاصريه — في مصر أو أوروبا — لينظر بالعين التي ننظر بها
الآن ، بل كان معظم المنشآت التي انشئت يومئذ في أوروبا نفسها
سطحيا ، وما كان الفرنسيون بأحكم من محمد علي في تشييد امبراطوريتهم
التي ملئوا بذكرها الآفاق .

بيد أن محمد عليا لم يكن مجدداً غالبا في التجديد . ولم يقلب نظم
العمل والحياة في مصر رأسا على عقب ، كما قد يقع في أخلاذ الكثيرين ،
ولنما الحقيقة أن نظم الحياة ظلت على عهدة شريعة كما وجدها ، ولم
يستعمل الأساليب الأوروبية إلا لتحديثها واصلاحها فقط ، أو

اضبطها حتى تنف علىه غاية درها من المال ، فنظام الاحتكار الذى بعد أساس نظامه المالى والحكوى نظام شرقى سبقه اليه الكثيرون من حكام الشرق ، بل كان يعاصره فى الهند وفارس وغيرهما حكام يتناولون التجارة ويحتكرون بعض أصنافها كما فعل . ولكن الرجل يمتاز عن هؤلاء كلهم بأنه عرف كيف يستفيد بهذا المال الذى وصل إلى يديه عن هذه الأساليب ، بل أفاد منه إلى حد أدهش معاصريه من الأوروبيين وحير ألبابهم . فقد كان كثيرون من الأوروبيين ينتظرون إفلاسه بين آونة وأخرى ، ولكنه لم يكن يلبث حتى يخيب ظنونهم ويتخلص من أثقال الضائقات التى تهبط عليه ، ففي سنة ١٨٢٧ مثلاً أبهظته تكاليف حرب المورة وهبط النيل سنتين متتاليتين . فتبادل القناصل التهانى بالفراغ من أمره . . . أخيراً . . . فاذا به يضاعف همته فى إنشاء المصانع والاحواض فى الاسكندرية ، وبعد أربع سنوات أخرى ، كان آخذاً فى مشاريع تفوق حرب المورة نفقات وتكاليف ١ . (١)

وفى سنة ١٨٣٧ اطمأن المستر باركر إلى أن الرجل معان إفلاسه ولا شك بعد ما أنفق فى حرب السلطان ، وإذا به يفاجأ بأن محمداً علياً قد أمر بدفع متأخرات جنوده ! ، فلم يشك باركر فى أن الرجل قد عثر على كنز عظيم ، عثر عليه بمصباح علاء الدين (٢) .

أجل ، كان للرجل كنز عظيم لا يفرغ على كثرة ما يؤخذ منه ، ولم يكن هذا الكنز إلا تديره وحصافته فى شؤون المال .

طبيعة محمد على الشرقى وليس أدل على شرقية محمد على وأساليبه من أنه لم يضع للمالية ميزانية أو شيئاً يشبه الميزانية إلا بعد زمن طويل ، بل كان يضع ما يريد إليه من المال فى خزائنه وينفق منه بغير حساب مكتوب على أسلوب الحكام

الشرقيين من قديم الزمان ، ولكنه اجتهد دائما في أن يكون منصرفه أقل من إيراده وظل على ذلك حتى وضع له وزير مالىته بوجوص بك حسابا منظما كالمتبع في أوروبا بمعاونة الفرنسي جومار .

ودليل آخر على ذلك ، هو أن « الرعية » لم يكن لها حساب في مشاريعه ، ولم يكن لها حظ من خيراته وأرباحه ، فقد استصلح من الأراضين مائة ألف فدان وأدخل محاصيل جديدة وفيرة الربح والخير كالقطن والتوت ولكن الفلاح لم يربح منها مليما واحداً . بل عادر بها كله على الوالى وحده ، وظل الفلاح أجيرا مسكينا مسخرا كما كان على عهد المماليك والأنراك . وقد كانت للرجل مصانع عظيمة تدر الربح العظيم . . . ولكن رعيته كلها كانوا أجراء لا ينالون من المال إلا ما يتبلغون به ، وكانت للرجل نجوش حارب فيها الآلاف من رعاياه واستشهد فيها آلاف كذلك ولكن أحداً من هذه الرعية لم يرتفع عن مكان الجندى المسكين الذى يؤمر فيطاع وحسبه ذلك . وهكذا كان الرجل شرقيا بل تركيا صميا

ودليل ثالث على ذلك ، وهو أن أساس سياسته وخططه كان شرقيا . أساليب محمد على السياسية فكان الرجل ماهرا في تدبير المسكائد ، قديرا على حيلها بالخداع والوقعة والتفريق وما إلى هذا ، كما رأينا في موقفه من زعيم المصريين عمر مكرم ، وكما ظهر بشكل جلى في مصانعته للمماليك واحتياله عليهم حتى تخلص منهم ، وكان يؤمن إلى ذلك بفائدة المال فى السياسة وأثره البعيد فى نفوس رجالها ، فأكثر من الرشوة لرجال الدولة والقناصل ، وقد جنى من ذلك ثمرا طيبا ، اذ اشترى ضمائر طائفة من قناصل الدول فأصبحوا أسرى فضله وعبيدا إحسانه وظلوا على ذلك زمانا طويلا (١) .

وكانت فكرة الرجل عن التعليم شرقية لا غربية . ليس المراد منها

تعليم الشعب وتثقيفه وتحسين حاله ، بل المراد اخراج نفر يدخل في خدمته
ويني بحاجاته ، ومن هنا كان أول الأساتذة الذين جلبهم من أوروبا
إيطالي اسمه كوستي ، أخذ يعلم تلا ميه الرسم والحساب ، وكان أكثر
مدارسه صناعيا ، وعلى هذا الغرار كانت بعوثة . ولكن فكرته لم
تلبث أن تطورت بعض الشيء فبدأ يفكر في إنشاء مدارس للتثقيف
ورفع مستوى الأمة بعد ذلك بقليل .

بيد أن الرجل كان عمليا يعرف ما يريد بالبداهة الهادية ، ويعرف
كيف يدركه بالفطنة والزكاة ، فلم يستغلق عليه وجه العمل أبدا ، ولم
تشبك في وجهه المسالك قط ، ولم يجعل نفسه مركبا لقنصل من
القناصل ، أو غرا يركبه الشطار بالحيلة والبراعة ، وأعانه على ذلك أنه
كان حذرا لا يكاد يثق في أحد غير نفسه ، فصدر في كل أموره عن رأيها
وكان على الحق في ذلك فلم يكن فيمن حوله رجل — شرقي أو غربي —
يساويه في فطنته وذكاؤه .

محمد علي لا يتقيد بالتقليد

ومن فضائل الرجل أنه كان صادق التقدير للتراث التركي الذي
انتهى إليه ، فكان يعرف ضرره وسوءه ووخامة عقباه ، فكان على
استعداد دائما للتخلي عنه أو عن بعضه ، فلم يتقيد بأشراط الدين
وحودوده وساهم في تجارة الخمر واحتكر العرق ، وأنشأ محاكم تجارية
تقضى بالعرف التجاري ولا تتقيد بأحكام الشرع التي كان المسلمون
يتقاضون في حدودها ، وأباح تشريح الأجساد وغير ذلك مما كان
معاصروه يتحرجون من فعله .

اسراع محمد علي في
كل شيء

ولنذكر إلى ذلك أن الرجل كان قد أدخل في الشينخوخة حين
استهل أعماله وإصلاحاته ، فكان عليه أن يسرع حتى يرى نتيجة أعماله
قبل أن يحين حينه ، فكانت السرعة رائدة في كل شيء . . . فالحمل الذي

يتطلب عشر سنوات لاتمامه لا بد أن يكون تاما في عام ، والخططة التي تستلزم عاما لانفاذها تنفذ في شهر واحد وربما في يوم فقط ! . وفي غمار هذه السرعة أخطأ الرجل جوانب شتى من التوفيق ، فلم يكن لديه الوقت للتجويد والاتقان والتجريب ، وكان هذا عاملا من عوامل ضعف أعماله وقلة ثباتها . نشأت كلها في يوم وليلة وضاعت في يوم وليلة غير مخلفة بعدها أثرا .

. ***

توجه محمد علي بهيمته إلى نواحي الادارة جميعا . وتناولت أعماله محمد علي والجيش نواحي النهضة كلها ، فباشرت التجارة وأنشأ البحرية وكون الجيش ونظم المالية وأقر الأمن ورعى الصحة العامة ونهض بالزراعة واهتم بالتعليم . ولكن الجيش والبحرية كانا موضع اهتمامه وسر نشاطه كله ، لأنه كان في أشد الحاجة اليه لحماية نفسه في عصر كثرت فيه الحروب والوقائع والجيوش ، ويشهد التاريخ بالعبقريية لمحمد علي في ذلك ، عبقرية استطاعت أن ترسل إلى الميدان آلافا من خيرة العسكر يحاربون مخلصين بشجاعة ومهارة ، يشهد له بأنه أقبل على البلاد وليس فيها جندي واحد جدير بهذا الاسم ، فاستطاع في فترة قصيرة جداً أن يحول مصر إلى « قوة » حربية من الدرجة الأولى يخشى بأسها ويحسب حسابها ، ملأ بها نواحي الدولة الاسلامية حربا ونصرا . . من السودان إلى بلاد العرب إلى الشام إلى الأناضول واليونان وكريد ، فأى توفيق ذلك وأى نجاح ، لقد أثبت هذا الرجل للرأى الأوروبي أن الشرق لازال قادرا على إعداد الجيوش وتسيير الجحافل وكسب المواقع والانتصارات ولو لم تكن السن قد علت به حين تأزمت الازمات واصطلحت عليه الدول ، لكان له شأن آخر مع المتحالفين عليه سنة ١٨٣٩ ، ولكنه كان يرى رجله في القبر ، ولم يحب أن يغادر الدنيا إلا وعرشه آمن .

أما أعمال محمد علي الأخرى فيكاد شرها يعادل خيرها ، ولا نرى فيها شيئا يستلزم عبقرية لقيامه ، فلا مصانعه تستوقف النظر ولا مزارعه تستحق الإعجاب ولا منشآته في البحر والبر مما يستحق الذكر ، وإن كانت كلها مجتمعة تصور نظرية الرجل عن النظام المالى للدولة ، وهى نظرية « الاستقلال الاقتصادى للدولة » وتمكينها من سد حاجاتها بنفسها ، اهتدى اليها هذا الرجل الذكى بفطرتة السليمة ، ولم تهتد اليها أوروبا نفسها إلا بعد الحرب الكبرى ، وهما هى الدول كلها تحاول اليوم أن تصل إلى ما حققه محمد قبل قرن من الزمان .

جهود محمد علي
في الصناعة والزراعة

إيمانه بنظرية الاستقلال
الاقتصادى للدولة

ومن الملاحظ أن إيرادات مصر في أيامه كانت في صعود يتناسب مع صعود مشاريعه واتساع دائرة أعماله ، ولم تززع هذه المشروعات نظامه المالى ، فظلت النسبة بين الإيراد والمنصرف محفوظة ، ولم يكن الرجل من الحكام الذين يدخرون المال ويبدلون الوسع في ملأ الخزائن بالذهب ، وإنما كان ينفق على مشاريعه وأعماله بسخاء ، ويعرف الوجوه التى يجمع من أجلها المال ، وتلك ناحية أخرى تميزه عن غيره من الحكام الشرقيين ، فقد فطن هذا الرجل إلى أن قوة الحاكم ليست بما لديه من ذهب وإنما بما فى بلده من مصانع وما على سواحله من موانى ودور صناعة وما فى أرضه من محصول وما فى مياهه من سفائن ، ولم يكن فى أوروبا ملك يعاصره يفهم مهمة الحاكم على خير من هذا الوجه « فلو قد قسمت الأيام لمصر خلفا لمحمد على يرث مواهبه ومشاريعه لضربت البلاد لأهل الغرب مثلاً فى الإصلاح السياسى لا يقل عن مثل اليابان ، ولكن أمراً واحداً ينفق عمره فى تأثيل ملك سياسى ، لا يملك بداهة أكثر من أن يضع برنامجاً للتقدم الانشائى » . (١)

أغراض محمد على
الاساسية

ماذا أراد محمد على من ذلك كله ؟ . . ما هي الأغراض التي كان يرمى اليها من وراء هذه الحكومة التي أنشأها والقوة التي هيأها ؟ . . لقد ثبت أنه لم يكن يرجو فقط خير مصر وأهلها من وراء ذلك المسعى، وثبت كذلك أنه لم يكن من الحكام المثاليين الذين يصلحون للإصلاح في ذاته ولا يمكن القول كذلك بأنه كان يرجو انهاض الاسلام وإقالة عثرته من أول الأمر ، فإذا كان غرضه من ذلك ؟

لقد بدأ يستعد لغرض بعيد من يوم استقر على ولاية مصر : بدأ يعد الجيش ويفكر في الأسطول وينظم نفسه ليدرك هذه الغاية التي طواها في نفسه ، فأى الغايات هي ياترى ؟

حرف محمد على من
رجال الدولة

لا نزاع في أن محمدا عليا كان يلمس ضعف الدولة العلية ويحس أنها مقبلة على نهايتها ، ولا نزاع في أنه كان يعرف أن سوء نظامها واختلال أمورها قد هبطا بها إلى الدرك الذي لا نهوض لها بعده ، ولا شك في أنه - يوم استقرت له الأمور في مصر - أحس بأنه لن يزال في خوف من رجالها - أى رجال الدولة - ما ظلت الأمور متصلة بينه وبينها ، ولا نزاع كذلك في أنه كان يعرف أن السلامة مكتوبة له في الخلاص منها والنجاة بنفسه من الهوة التي كانت تسير نحوها ، بهذا تنطق البيانات الأولى وتؤيده تصرفاته في أوليات أيامه وعلاقاته مع رجال الدولة والبارزين فيها ، وإلا فما كانت حاجته لاعداد الجيش العظيم في مصر من زمن مبكر جداً إذا كان قد وطن نفسه على أن يكون والياً عادياً من ولاية الدولة لا يظهر نحوها غير الولاء والطاعة ؟

١ - الدور الاول
الاستقلال بمصر

نستطيع إذن أن نقول أن آمال الرجل في هذه السنوات الأولى

كانت لا تتعدى الرغبة فى الاستقلال عن الدولة وإقامة دولة قوية فيها له ولأولاده من بعده

ولكن مصر أعطته أكثر مما طلب اليها ، لم يكد يبدأ العمل فيها بنظامه وتديره حتى وجد خيراتها وأزوادها تنثال عليه فى وفرة ظاهرة ، فاذا جيشه أضعاف ما طلب وسلاحه يوفى على الحاجة من الاستقلال ويزيد . . وإذا بآماله تنمو مع قواته وازدهار حاله . . وإذا به يجد نفسه على حال من القوة تفوق سلطانه وخليفته ، ثم لم يلبث إلا قليلا حتى أحس أن الناس يرون فيه هذا الرأى ، ويدركون أنه أصبح « أكبر قوة فى الدولة الاسلامية » بل لم يلبث أن وجد السلطان نفسه يعترف بهذا ويؤكدده ، ويستعين به على الخارجين عليه الذين عجزت يده عن ردهم إلى الطاعة . . فيستنجد به على الوهابيين ، وإذا به - أى محمد على - يحقق الأمل الذى رجاه فى نفسه والذى رجاه الناس فيه ، فيهزم الوهابيين ويعيد بلاد العرب إلى طاعة السلطان

فاذا دخل الحجاز فى زمامه فقد استتبع ذلك نتائج سياسية على جانب عظيم من الخطورة ، أصبح محمد على أمير مكة والمدينة وصاحب الأمر فى الحجاز ، وهو بعد أقوى قوة فى الدولة الاسلامية ، ودولة الخلافة عاجزة كل العجز عن أن تقيم نفسها . ومن هنا أخذ الناس يتساملون : من أحق بالخلافة . . أهذا العاجز المنبث فى القسطنطينية أم ذلك القوى الناهض الذى يملك القاهرة ومكة والمدينة ؟ بل لم يملك إبراهيم أن كتب الى أبيه يلهج الى هذا الأمر ويشير إليه — من خلف حجاب — قائلا إن السلطان لن يذكر بعد ذلك على المنابر كخادم الحرم الشريف (١) ، ولم يلبث الناس كلهم أن جعلوا يتناقضون

ب - الدور الثانى
اتساع آماله
الى غير مصر

(١) الدكتور مبرى : الامبراطورية المصرية فى عهد محمد على ص ٢٨١
ويجد القارئ تفصيلا اوفى لهذه المسألة فى الباب الرابع من هذا الكتاب

الفكرة ويرددونها ، حتى لتوقعوا أن يعلن شريف الحجاز أن صاحب الكعبة وحاميها هو خليفة المسلمين (١)

السياسة الاوربية
تعين على اتساع
آمال محمد علي

وكانت السياسة الاوربية في ذلك الحين تعين على ظهور هذه الفكرة وتنميتها في نفسه ، فقد كان ذلك أوان الصراع بين الانجليز والفرنسيين من جهة ، وزمان الكفاح بين الروس والانجليز من جهة أخرى ، ومن ثم وجد الفرنسيون أن مصالحهم تستدعي تقويته وإنهاضه ، بل فكر بعض الانجليز في الأخذ بيده ليوقف تقدم الروس . . وأخذ دعاة من الجانبين يتحدثون بذلك الى أنفسهم وربما تحدثوا إليه فيه ، « وأخذت الصحف والمراسلات الفرنسية الرسمية تغذى في نفسه الاعتقاد بأن إعلانه الاستقلال بنفسه سيلقى التسامح والعطف في كل مكان ، وزاده التفاتا نحو هذه الوجهة ما كان يرى من ظواهر العداوة التي كان السلطان ووزراؤه يطالعونه بها » حتى كتب كامبل من القاهرة الى بنسني في الشام يقول « ان التهديد ومظاهر العداء التي يبدىها السلطان نحو محمد علي لحرية بأن تزيده تعلقا بالاستقلال ، وبمحاولة تحقيق الغرض الذي لا أراه إلا مفكراً فيه دوماً وهو إنشاء خلافة عربية ، انه شديد الطموح بطبعه نحو القوة والأبهة ، وأنه لينفرد من بين عامة المسلمين برغبة قوية تخالط دمه في أن يخلد اسمه في صحائف التاريخ . . ولقد طالما حالقه الطالع السعيد (٢) . »

موقف السلطان منه
يدفعه الى الوثوب به

وأى طالع أسعد لمحمد علي من هذه الاخطاء السياسية الكبرى التي اجتريها السلطان حياله ، نخدعه وغرر به وآذاه ، ولو قد وفي له

(١) من خطاب من باركر الى س كاتنج في ٢٣ فبراير سنة ١٨٣٢ (مكاتبات وراة الخارجية البريطانية رقم ٧٨ — ٢١٣) عن دودويل وكامبل قنصل إنجلترا العام في القاهرة وبنسني قنصلها العام في الشام

السلطان بما وعد يوم طلب عونه في حرب اليونان ، لما وجد محمد علي فرصة يحقق بها أمله في الاستقلال التام عن السلطان . بل أى طالع أسعد من هذه الانتصارات المجيدة التي منحه الله إياها على جنود السلطان ، لقد أصبح بعد نصيين سيد الدولة بلا نزاع ، ودخلت في طاعته دمشق فلماذا لا يصبح خليفة المسلمين ، لقد كان السيف أصدق الحاكمين في مصائر الدول والخلافات فيما مضى ، فإذا يمنع محمداً علياً من التفكير في تحقيق هذه الغاية الإسلامية ، وليس عليه من حرج أو جناح إذا فكر في ذلك.

قوة محمد علي 'تمهد
له سبيل السيادة

بل لم تلبث عواطف المسلمين كلهم أن أيدته فيما صبا إليه ، لقد استعان السلطان بالروس وألقى بنفسه في أحضانهم فإذا بعد ذلك ، وإلام طاعة هذا الخليفة الضعيف الذي يستعدي جند النصارى على جند الاسلام . هكذا كان الناس يفكرون في القسطنطينية نفسها ، وترامت الى محمد على نفسه أخبار تؤكد له أن الناس هناك يرون فيه الحصن الأخير للدولة من الاخطار المحيطة والنوازل المتكاثرة (١)

ح - الدور الثالث
محمد علي يفكر في
اصلاح الدولة العثمانية

يغلب على الظن أن محمداً علياً طرب لذلك ورجا أن يحققه ، ولكنه كان يعرف أن تحقيقه لن يتم بالسهولة التي كان الناس في القسطنطينية يتصورونها ، كان يعرف أن الانجليز لن يخلوا بينه وبين ما يريد ، فأخذ يفكر في سبيل لاقتناع هؤلاء أولاً ، ومن ثم كتب مذكرة وسلمها الى قنصل انجلترا ليبيعت بها إلى دولته ضرب فيها على الوتر الحساس عند ساسة الانجليز ، فأثبت بذلك حصافة رأيه وحسن

محمد علي يحتر
الانجليز

حيلته . ذهب في هذه المذكرة الى أن غايته الأولى إنما كانت القضاء على مذكر محمد علي الدولة
البريطانية
سلطان الروس في تركيا ، وإعداد قوة كافية لأرغامهم على احترام استقلال
تركيا وفارس أيضا ، وأنه لم يرم من وراء احتلاله الشام إلى غير هذه
الغاية وأنه كان يرجو بعد موقعة قونية أن يحدث في حكومة الدولة في
القسطنطينية من التغييرات ما يحبط مساعي الروس لو أعانته إنجلترا
وفرنسا . وذكر أنه إن يلبث أن يعد جيشا عدته مائة وخمسون ألفا
من الأجناد لمعاونة الانجليز لأدراك غايتهم السامية وهي الخلاص
بتركيا وفارس من نير الروس ، ثم رجا في آخر المذكرة أن تكون
العدالة الانجليزية إلى جانبه حين يعلن استقلاله لأنه سيفعل ذلك اذا
استمر السلطان على عدائه (١) . وبهذا أثبت الرجل ذكاه ورعي
عهد التاريخ في زكائه وبعد نظره ، نعم أن هذا الخطاب
لم يحقق الرجاء الذي علق عليه ، ولكنه دل على أن الرجل كان يحسن
التفكير في موقفه ، وأنه كان يزن الأمور وزنا عادلا دقيقا ، ومن
دلائل ذكائه أنه لم يتوجه برجاه كهذا للفرنسيين لأنه كان يعرف أنهم
"كالطبل ضخامة صوت وقلة جدوى .

كانت نفس محمد علي إذن متعلقة بانشاء دولة إسلامية جديدة ،
د - الدور الرابع
ياس محمد علي من بعث
الدولة العثمانية
وكانت عدته كله وآماله كلها تتجه نحو هذه الغاية ولو لم يقف الانجليز
في وجهه ، ويقضوا على آماله لتحقيق غرضه هذا ، ولفتح في تاريخ البلاد
الاسلامية فصل جديد ، ولاتجهت الشعوب الاسلامية نحو القوة ، ولصار
لها مستقبل لا يقل عما صارت اليه اليابان كما قال دودويل .

(١) من رسالة من يوغوص بك الى كامبل في ٣ سبتمبر سنة ١٨٣٤ . عن دودويل ص ١٠٣

انشاء دولة إسلامية
عربية جديدة

فاذا يئس محمد على من ذلك الأمل الواسع فقد اختصر آماله بعض الشيء وقنع بما كان في زمامه ، وكان سلطانه يشمل في ذلك الحين مصر والسودان والحجاز والشام ، فأحب أن يستقل بهذه النواحي ، وأن ينشئ من الشعوب التي تتحدث العربية دولة إسلامية عربية ، فعاد يعرض على الانجليز هذا الرأي ويجس نبضهم حياله ، فخير الانجليز بين أن يؤيدوه في هجوم على القسطنطينية أو يعزروه إذا خرج على السلطان وأعلن استقلاله في البلاد التي يحكمها باسم الدولة ، ويبدو أن أمله كان قوياً في أن يوافق الانجليز على الرأي الثاني ، ولكن رجاءه لم يلبث أن تحطم إذ أبى الانجليز ذلك بحجة أنهم لا يستطيعون مناصرة ثورة على صاحب عرش من أحلافهم ، ولم يكن ذلك إلا حجة تذرعوها بها ليخفوا أغراضهم التي سبق بيانها ، (١) وزاد عليها سبب جديد أبان عنه بالمرستون في خطابه إلى السير ولیم كبل وهو الحذر من تسليم طريق الانجليز إلى الهند عن سبيل الفرات إلى محمد على بعد أن أصبح في يده طريقها عن سبيل السويس (٢)

ذلك كان الغرض البعيد الذي كان محمد على قد رمى إلى تحقيقه فخلت الأيام بينه وبين ما طلب كما سيحى بيانه ، ولكنه حرى أن يستوقف انتباهنا لأنه كان محاولة جدية لاقالة الدولة الإسلامية من عثرتها التي صارت إليها .

العقبات في سبيل
انشاء دولة إسلامية

بيد أن الدلائل كلها كانت ناطقة بأن هذا الأمل كان مآله الحبوط حتى لو لم تمنع إنجلترا في تنفيذه ، وذلك لعدة أسباب ، أولها أن هذه البلاد التي رجا محمد على أن يجمعها في لواء واحد لم تكن بينها رابطة غير

(١) دودويل ص ١٣٢

(٢) دودويل ص ١٣٤

الدين واللغة ، وفيما خلا ذلك كانت تختلف فيما بينها أشد الاختلاف بحيث كان من العسير جداً حكمها زماناً طويلاً . وثانيها أنه كان لابد من محمد على آخر يخلفه ليقوم على شؤون هذه الدولة ويتعهد بها بنفسه صائب ورأى حصيف وقدرة عظيمة ، ولم يكن في الميدان امرؤ آخر من هذا الطراز ، لا من سلالة محمد على ولا من غيرها ، وثالثها أن قيام هذه الدولة كان لا يحل الأزمة القائمة ، إذ ماذا يكون مصير القسطنطينية وخلافتها ، وقد فصل عنها جسدها وبقيت قائمة تنوشها الرياح الهوج ولا تسكاد تثبت للروس ، ورابعها أن الروس لم يكونوا ليخلوا بين محمد على وذلك الأمل ، بل كانوا خليقين أن يسعوا له بالمكيدة وسوء التدبير . وغير ذلك أمور كثيرة

هكذا حالت أوروبا دون بعث الدولة الإسلامية من جديد ، وأصرت على أن تبقى في حيث هي : ضعيفة عاجزة ينخر السوس عظامها ولا يجرؤ أحد على أن يتقدم إليها بعلاج . ولقد حاولت مصر — أي محمد على — أن تصلحها وتبعث الحياة في كيانها الواهن فلم تستطع بل انتهى الأمر — كما سترى — بالقضاء عليها نفسها . فلامفر للثنتين — تركيا ومصر — من أن تصبرا لهذا المصير وتعملا الحيلة للخلاص والفرار من نيره ، فلنخلفهما في مكانهما لنطوف طوفة على الشعوب الإسلامية الأخرى لنرى أثر هذا الاتصال بأوروبا فيها .

الرحلة الفرنسية على
مصر في الدولة
العثمانية

كانت ضربة الفرنسيين في مصر قبلة هائلة أفزعت الدولة وأقضت عليها هجوعها الطويل ، فأفاقت على عجل وأخذت تلتمس السبل للخلاص من هذه النازلة التي بلغت على غير موعد ، ولو قد أحسست في نفسها القدرة على دفع ذلك الشر بسلاحها لما كان ثمت مجال للحيرة ، ولكنها كانت قد عرفت أنها لا تملك من الجند والعدة ما يمكنها من مدافعة الأعداء ومغالبة الخصوم ، ومن ثم قصرت همها على محاولة التقرب من الدول

ذوات القوة والسيادة لتحتمى بها وتعيش في كنفها ، ولم يكن يوجد في هذه الأيام من القوى التي يعتمد عليها غير الانجليز والروس .

وأحست الدول كلها بذلك فتسارعت إلى القسطنطينية حتى لا تفوتها حصتها عند التقسيم ، ومن ثم حفلت القسطنطينية بعدد حافل من السفراء والقناصل والمندوبين فوق العادة والقائمين بالأعمال وغير هؤلاء من رجال السلك السياسى ، وأخذ هؤلاء كلهم يبحثون الموقف فلم يخطئوا في « تشخيص » المرض ولكنهم أخطئوا في العلاج ، وكان الشفاء الذى يطلبونه لهذا المريض هو ابتلاعه والخلاص منه على أهون سبيل .

احساس الدول
بقرب تفرق الدولة
العثمانية

بيد أن اختلاف الأعداء كتبت السلامة للفريسة ، فوقفت كل منها عن كسب حذر الآخرين ، وأخذت كل منهن تحتال على الأخرى وتخاذعها وتقرر بها ، أخذ الروس يتقربون من الانجليز ويتوددون إليهم حتى يوافق الأخيرون على تقسيم تركيا ، وفهم الانجليز أن ود الروس لم يكن في حقيقته إلا خبا سئما ، كأنهم عرفوا بالفطرة ما تنطوى عليه الرسائل السرية التي كان يتبادلها ديتالنسكى مبعوث روسيا في القسطنطينية وتشارتوريسكى وزير خارجيتها في أكثر هذه الأيام فرفضوا اجابة الروس إلى هذه المطالب وأبوا الاشتراك وإياهم في تقسيم الدولة العثمانية

اختلاف الدول
على تقسيم الغنيمة

بيد أن كلا منهما - روسيا وانجلترا - كانت في حيرة من أمر فرنسا وعلى حذر منها ، وكان نجم نابليون الصاعديشير في نفسيهما قلقا مؤسسا اذ حسبتا أنه لا ينبغي شيئا بعد ابتلاع الدولة العثمانية والفوز بأرضها جملة ، ولم يكن العهد بعيدا يحملته على مصر منذ سنوات ، بيد أن الأمر لم يكن في حقيقته كذلك ، فما كان نابليون ينتوى شيئا نحو تركيا ، وما كانت فكرة تقسيمها لديه إلا وسيلة يخيف بها أعداءه أو يجتذبهم بها إلى صفه حسب الحاجة (١) ، ولهذا ان نجدله أى أثر إيجابى على كثرة

(١) عن نشأة المسألة المصرية للاستاذ غربال ص ١٨٤

ما نجد من مشاريعه وخططه في هذا الصدد ، وحتى بعد تلات - بعد أن أصبح في مكانه أن يفعل ما يريد دون أن يكون عليه حرج من ذلك - لم يكن يرجو من وراء مشروع التقسيم الذي عرضه وزيره تاليران على النمسا ، إلا إخافة روسيا وارهائها^(١)

نابليون والمسألة
الشرقية

بل كان نابليون يرجو مخلصا أن ينهض الأتراك على أقدامهم فيغلقوا الباب في وجه الروس من جهة ويحبطوا مساعي الانجليز ويأخذوا عليهم طريق الهند من جهة أخرى ، ولكن تركيا كانت أعجز من أن تأتى من الأمر شيئا ، لا لصالحها ولا للأخريات « فقد كان الباشاوات في الولايات لا يربطهم بالدولة غير ولاء ظاهرى ، وكان الانكشارية لا ينفكون يشيرون بالدولة ويعقدون الحناصير مع اللصوص سرأ وعلائية ، وكانت عصابات السراق تصل بغاراتها إلى أبواب القسطنطينية ، وكانت مصر قسمة ضائعة بين المماليك والألبان ، وخرجت مكة والمدينة من يدهم إلى الوهابيين ، ولم يكن بين أنصارها أو خصومها خلاف على أن نهايتها أوشكت أن تكون »^(٢) فكيف تستطيع والحالة هذه أن تحرك ساكنا

نابليون يحاول إيقاف
السلطان

ولكن نابليون لم يطق على هذه الحال صبرا ، ولم يلبث العجب أن ملسه من أمر هذا السلطان الذى يرى الأعداء يجتاحون بلاده فلا يتحرك لرد أحد منهم ، فأهاب به . « أنت ! .. ياسليل آل عثمان العظام .. ألم يعد لك حكم ولا حيلة .. انهض ياسليم ! »^(٣) ولكن سليمان لم ينهض ! لاعت انصراف عن النهوض ، بل خوفا من الروس ، وهم يشرفون عليه من شمال ولا يعفونه من شر إذا هومد يد الحليف لعدوهم نابليون ، ويغلب على الظن أن هذا الأخير قد أدركه اليأس من الأتراك فأرسل سفيره سبيستيانى يستطلع الأمر ويدرس شئون

1 Vandal Napoleon et Alexandre I, P. 4

2 Driault, Question d'Orient. P. 82

(٣) نشأة المسألة المصرية : ص ٢٠٠

الدولة ، فلم يكذب هذا الرجل الماهر ينزل بلاد الدولة حتى وجد أمراً عجيباً ، وجد النفوس عطشى الى الخلاص والامال حيرى تبسحت عن مخرج من حرج الروس وضيق اليأس ، فلم يكادوا يرون رسول نابليون بينهم حتى هللوا لمقدمه واحتفلوا به أحسن احتفال سواء في ذلك أهل طرابلس والاسكندرية والقاهرة وعكا وأزمير وجزائر اليونان ، أو أية ناحية أخرى زارها ، ولم تكن دهشة الرجل لهذا وحده بل لما لمس من ضعف القوى الاسلامية حتى لقد أكد في تقريره الذي نشر في مجلة المونيتير سنة ١٨٣٠ أن ستة آلاف جندي فقط قد يرون على احتلال مصر (١)

تقرير سيسياني
بشعر عاوف الانجليز

أثار هذا التقرير مخاوف الانجليز ، ولكنهم لم يبلغ من الاتراك مثاراً ، فظلوا يظنون خوفهم حذراً من الروس ، فلما ترامت إليهم أنباء أوسترليتز ، وأمنوا شر الروس « هبوا دفعة واحدة يعلنون لسيد أوروبا ما أمسكهم الخوف عن اعلانه ، وبدأ بوضوح أنهم يرون في نابليون يداً أرسلتها العناية لعقاب عالم مسمى » (٢)

ونفض سليم ، وكان يفكر منذ حين في الإصلاح ، ولم يكن له عن ذلك محيص وهو يرى الموت يدب في أوصال الدولة ويسرع بها نحو الفناء ، فلم يكذب يفعل ذلك حتى قامت في وجهه الحوائل وأنذرتة النذر بشر مستطير ، وذكرته بأنه لا مفر له من أن يزيل حطام البيت القديم ليستطيع إقامة الجديد على أساس جديد

ولكن سبيله لم يكن ميسرة ولا مأمونة ، أيريد السلطان أن يبني جيشاً جديداً على النظام الحديث ؟ فاحيلته اذن في هؤلاء الانكشاريين الذين أصبحت الحرب في يدهم احتكاراً لا يكاد ينافيهم فيه أحد ،

بهم الإصلاح
في تركيا

Moniteur Afficel, 30 Jan, 1803

(١)

Driault, Op. Cit P. 82

(٢) عن خطاب من المستر اربثنو سفير انجلترا الى المجراف : ١٥ فبراير سنة ١٨٢٦

أريد أن يستبدل بهم جندا جديدا على « نظام جديد » ؟ إذن فليأخذ الحذر تقية من ثورة تكون منهم ، فهم لا يسلون أنفسهم بهذه السهولة وما كان هؤلاء « التناقلة » أن يفهموا من دعوة الإصلاح إلا أنها مؤامرة لا يراد منها غير القضاء عليهم والخلاص من أمرهم

من ثم بدأ صراع طويل بين الجديد والقديم في تركيا : سلطان يرى الخطر بعينه ويوجس خيفة من المستقبل المظلم ، وشعب راكد مجهد ، ران على نفسه الكسل وفاضت روحه باليأس وأغلق أذنيه مخافة أن يسمع شيئا ولا يسمح بالتغيير أبدا . وهذا خلاف ما رأيناه في مصر ، فهناك الشعب كره الإصلاح لأنه لم يفهمه على وجهه ، ولم يحاول أن يقف في وجهه أو يعوق سبيله ، وإنما سمح به لأن طبيعته — أى طبيعة الشعب — تسمح بالتقدم وتألف التغيير — فتركيا شعب طال به الأمد في جهل الغرور وأحلام السيادة ووجد في قبول الإصلاح مسبة له وعارا ، فأصر على العناد ، وفي مصر شعب أعزل يستطيع فرض الإصلاح عليه وتوجيهه إلى نفسه . أما في تركيا فجيش على شيء من القوة لاسيلا إلى إرغام أنفه وإذلاله ، وهذا هو الفرق بين البلدين وهو السبب في تفوق المصريين على الأتراك في أوائل القرن التاسع عشر ، وتفوق المصريين على غيرهم من أمم الشرق في ميدان التقدم والتحضّر .

حاول السلطان سليم الثالث أن يصلح ، فبدأ بإصلاح الناحية الحربية فاصطدم بالانكشارية . وكان من حظ السلطان أنه لم يكن وحيدا كما كان محمد على في مصر ، بل وجد من رجال دولته أنصارا أقوياء على رأسهم البير قدار مصطفى (١) ولكن الانكشاريين انتصروا وأرغموا السلطان على سحب « الخط الشريف » الذي أعلن به تأليف

(١) يجد القارىء تفصيلا للإصلاح في تركيا في الباب الثالث من هذا الكتاب

الجيش الجديد ، ولم يسكن غليان النفوس بذلك إذ لم يزل السلطان على نيته ولم يزل الانكشارية على الحذر ، وانتهى الأمر بثورة أخرى من جانب الجند عزلوا بها السلطان وقتلوا سبعة من وزرائه ليستريحوا من شرهم .

انتصار الرجعية وتعاقبت الثورات وكثرت الاضطرابات وخلف السلاطين بعضهم بعضا على يد الجند ، وانتهى الأمر بانتصار الرجعية والجمود ، وخمود فكرة التقدم والعودة إلى النوم^(١) .

ولكن ذلك لم يكن إلا ظاهراً يستتر تحته أموراً أشد خطراً ، لقد نسى السلطان وجنده أن أفكار الحرية تنتشر مع الهواء ، وان دعاوة العصر الحديث لا تحتاج للرسميات لتقرر أو تلغى ، فليتنظر الحيان قليلا على مضض اليأس وخوف الكيد واللد ، وليؤمنوا ماشاء بأن النهاية كربت أن تكون ، ولينظروا في يأس إلى هذا المصير الأسود ، ولكنهما عسيان أن لا ينسيا أن صروف الأيام سوف تخلف منهما كل مقدور ومنظور

وعلى هذا الغرار قس بقية البلاد الاسلامية ، سرى إلى نفوسها الاحساس بالخوف من الغرب والحضارة الغربية ، وزادها خوفاً وقلقاً ان أوروبا طالعتها بمظاهر قوتها قبل أن تطالعتها بمظاهر حضارتها ، أو قل أنها فهمت وجهها الأول وغاب عنها وجهها الثاني ، ولما كانت شعوب الشرق قد نفضت أيديها من السياسة من قديم الزمان وتركت ميادينها للحكام والأمراء فقد وجدت أن الخطر الأوروبي لا يعينها وإنما يعنى حكامها وأمراءها ، لأنه — بعد — شأن من شؤون الحرب

ار الاتصال بالغرب
في الشعوب الاسلامية

(١) ذلك إيجاز للحركة . ويعد القارىء عنها تفصيلا في الجزء الخاص بالاصلاح في تركيا في الفصل الثالث من هذا الكتاب

والسياسة وتصارييف الدول والحكومات وليس لها نصيب في ذلك كله ، ولهذا أحس بالخطر سلطان تركيا ووزرائه ولم يحس به شعبها ، واهتم للأمر محمد على ولم يحفل له عامة شعب مصر ، وروع للخطر شاه فارس ولم تبال به أمة الفرس لأنها حسبت الأمر ، لا يعينها ولا يتهدها بشر ، ومن يدري فربما رأت في غلاب القوى الغربية لحكوماتها سبيلا للخلاص من هذه الحكومات ، وكان من المعقول جداً أن يقع من كثرتها موقع الرضى لو لم تكون أوروبا مسيحية ولو لم يعد هجومها على الشرق بغياً على الاسلام .

وكانت أمم الاسلام كلها قد وهن أمرها وحل فيها الضعف ضئف الدول الاسلامية في مطالع العصر الحديث ، حتى فارس التي لم تكن لها بالدولة العثمانية صلة ، والتي كانت حرية أن تظل على حالها من القوة لقلّة ما نزل بها من الاحداث وما عرف عن أهلها من اتصال النشاط واضطراد الجهود والنهضات ، ولكن الغالب أنها كلها - أى أمم الاسلام - كانت تمر في دور من الانحلال السياسى والاجتماعى ، يؤذن بيده عصر جديد .

أحسّت فارس بخطر الغرب احساساً ظاهراً ، إذ تهدها الروس فارس والروسيا من بدء الأمر ، أى من أيام بطرس الأكبر . إذ كان سييلهم اليها بين البحرين — قزوين والاسود ، وبين النهرين أى تركستان ، وقدمسل للروس هذه المهمة أن هرقل حاكم إقليم جورجيا أسلم للروس بلاده في أوائل القرن التاسع عشر ، وبهذا انفتح الباب على مصراعيه ، ووجد الفرس أنفسهم وجها لوجه أمام الروس فملكهم خوف شديد (١) وكان على عرش فارس في هذه الايام أمير على جانب من بعد النظر الشاه فتح على

(١) نجد في الباب الثالث من الكتاب تفصيلاً وافياً لتاريخ فارس في العصر الحديث

وحسن الفهم وهو الشاه فتح على ، عرف بالفطرة - والتجربة أيضا -
أن قواه لن تثبت لطوفان لروس فأسرع يستعين بالسياسة الأوروبية
يستفيد من أحوالها وصروفها ، ولانزاع في أنه كان على اتصال بأوروبا
لأنه لم يلبث أن عرف عداء الروس للفرنسيين فعجل بارسال
مندوبيه إلى نابليون يستعديه ويحتفى به ، وكان نابليون يميل كل الميل
إلى استعمال القضية الشرقية لارهاب أعدائه الروس والانجليز ، فلم
يكذب رسل الفرس يلقونه في فنكيشتين في ٤ مايو سنة ١٨٠٧ حتى وقع
معهم معاهدة من هذه المعاهدات التي كان لا يعنى ما يقوله فيها ، وإنما
يوزعها ترصية للناس وسلوى ، فضمن لهم حقهم في جورجيا
واستأذنهم في أن تمر جنوده ببلاذهم في سبيلها إلى الهند .. وما
كان يرجو من وراء ذلك كله إلى أكثر من أن يتسامح الانجليز بأنه
لا زال يدبر للهند ويلتمس السبيل إليها ، بل لعله لم يندب « جاردان »
ويبعثه إلى فارس ليدرس خطة فتح الهند منها ، إلا لكي يشعر الانجليز
أنه لا زال يسعى لحتفهم ، ومصادق ذلك أنه لم يكذب ينتصر على الروس
ويكسب ودهم بعد فريدلند في ١٤ يونيو سنة ١٨٠٧ حتى نفذ يده من
فارس وغير فارس ، ولا عليه بعد ذلك : أكلها الروس أو أبقوا عليها
فما كان له في عونها أرب ولا غاية

كان اللقاء الأول بين الشرق والحضارة الغربية شراً مستطيراً
على شعوب الشرق الاسلامي ، لأنه كشف للغرب عن حقيقة هذه
الشعوب فلم تعد يخشاها ولا يحسب لها حساباً ، وأخذ يرسم الخطط
لابتلاعها . وتقسيمها ، وعادت إلى أذهان الغربيين ذكرى الحروب
الصليبية فسار بعضهم - كالروس - في الأمر وكأنه يثار ليوم حطين .
وأدركت شعوب الشرق ضعف أمرها وهوان شأنها ، وعرفت

اللقاء الأول بين
الشرق والغرب

أن لا يحيص لها عن دفع الخطر الغربي بالأساليب الغربية ، فحاولت أن تستعين بأوروبا لادراك هذه الغاية فوجدت أوروبا تخدعها ولا تنبئها ذلك إلا بأعلى ثمن وهو الحرية ، بل أحسست أن أوروبا كلها يد واحدة ورجل واحد وإن اختلفت النزعات والألوان والأحوال ، وعرفت أن أوروبا مستعدة لأن تفهم المسألة على أنها حرب صليبية ، فتقف كلها صفاء واحدا كما وقفت قبل ذلك بقرون .

ازاء ذلك لم يبق للشرق من أمل في غير نفسه ، فعاد اليها ينظر فيها ويبحث أمرها ، وقرنها إلى مارأى من حضارات الغرب وأحواله فاستطاع أن يفهم حقيقة علته ، وأخذ يلتمس السبيل للخلاص منها ، ولكنه لم يكده يفعل ذلك حتى وجد السبيل تؤخذ عليه فلا يسمح له بأن يصلح من أمره على هيئة ؛ حيل بين الوهابيين وما طلبوا من اصلاح المسلمين في أمور الدين ، وحيل بين محمد علي وبين تحضير مصر وأنهاضها ، وحيل بين سلطان تركيا وبين اصلاح بلاده ، وحيل بين شاه فارس وبين حماية نفسه من الروس ، فما العمل إذن ؟ فاما التسليم بالموت والهزيمة فأمر لم يحسن حينه ، وأما انتظار العدل والانصاف فانتظار الموت والفناء ، فلم يبق إلا التعجيل بالعمل ، وإذا كانت الحوائل تحول دون هذا التعجيل فلا سبيل إلا الثورة ، وما دامت « الدولة الاسلامية » بحالتها الراهنة عقبة من عقبات النهوض فليبدأ بالثورة عليها جملة ، ثورة عليها كنظام ديني وكنظام اجتماعي وكنظام سياسي ، ثورة شاملة يشترك فيها المسلمون أجمعون بدوهم وحضرهم ، فاعل الدولة الاسلامية ، أن تخرج من مرجل الثورة وقد رتها نيرانها فتستطيع أن تسير إلى الامام بخطى ثابتة بعد أن نفت عنها النار أو شاب الماضي وعقائيل القرون .

الثورة على الدولة
الاسلامية

تفكك الوحدة الإسلامية

قرأت الشعوب على ملامح عواهلها علائم الخيبة ، وقد حاول هؤلاء الحكام أن يتسكتموا أخبار الهزيمة أو يسترخوا أمارات اليأس فظلوا على حالهم من الترفع على الرعية والتعالى عنها ، كأن ما نزل بهم لم يهن منهم جنانا ولم يثر روعا ، فكانوا في ذلك مخطئين ، ولو أنهم فكروا منذ تلك اللحظة في الاستعانة بالشعوب ودعوها للتعاون معهم لكان لهم منها حى ومأمن ، ولكنهم لم يفتنوا إلى ما فطن اليه أباطرة اليابان قبيل ذلك الزمان ، فقد فطن هؤلاء إلى أن رعاياهم أحنى عليهم وأرعى لعهدهم من أية قوة شرقية أو غربية ، ومن ثم بدأ ذلك التعاون الجليل الذى ارتفع باليابان من الخضيض الى الاوج فى سنوات ، ولكن حكام الشرق كانوا يحكمون بوحي الماضى لا بوحي الحاضر ، فكان ذلك سبباً فى هذه المآسى المتتالية التى ستعمر تاريخ الشرق الاسلامى فى ذلك العصر الحديث ، والتى ستحمل الوبال على الحاكمين والمحكومين معا .

وكانت الشعوب قد أدركت منذ حين ضعف حكوماتها وعبرت فى مناسبات عدة عن سخطها على هؤلاء الحكام وعدم اقتناعها بصلاحياتهم للحكم ، وسرى فى كثير من الأقوام الخاضعة لآل عثمان شعور بأن القائمين بالامر قد وهن أمرهم واضمحل حالهم واجتاحتهم موجة الترف التى انتابت الدول الاسلامية قبلهم . وأحس هؤلاء الأقوام بأن التاريخ يناديهم ليتموا دورة العمران التى تكررت على مسرح السياسة الاسلامية مثنى وثلاث ، فبدأت أقوام البدو تتحرك لتشن غارتها على الحضرة لتزيلهم وتبعث الحياة فى جسد الدولة الاسلامية من جديد .

هكذا نستطيع أن نعلل الحركات الاصلاحية التى نشأت فى بعض النواحي الصحراوية فى الدولة الاسلامية ، وليس من الصواب القول

سببها بأن الأول هو الاتصال بأوروبا وانتشار آراء الحرية بين المسلمين كما يزعم نفر من المؤرخين (١) لا نزاع في أن معظم الحركات التي ستحدث في العالم الاسلامي ستكون ناشئة عن الاتصال بأوروبا ، ولا جدال كذلك في أن الاتصال بالغرب والحضارة الغربية قد فتح عيون المسلمين ودفعهم إلى التفكير في الإصلاح ، ولكن القول بأن الحضارة الأوروبية أصبحت السبب الوحيد في كل ما سيقع في نواحي الدولة الاسلامية من الحركات والاحداث مبالغه لا يؤمن معها الخطأ ، فقد فكر المسلمون في الإصلاح قبل الاتصال بأوروبا بزمان طويل ، وتبينوا تماما أن القائمين بالحكم فيهم أصبحوا غير قادرين على القيام باعباء الحكم على الوجه المطلوب وان استبدال غيرهم بهم أصبح من ألزم الأمور للاحتفاظ بكيان الدولة الاسلامية .

المقياس الديني

ذلك ان المسلمين درجوا على أن يزونا دولاتهم بميزان الدين ، ويقدروا صلاحية حكاهم للحكم أو عجزهم عنه بمقدار محافظتهم على قواعد الدين واشراطه ، وهذا مقياس بين واضح ، لا يحتاج المسلمون إلى آراء الغرب ليعرفوه ، فما دام الحاكم مستمسكا باهداب الدين فحكومته بخير وعافية ، واذا تغاضى عن الدين وأهمل جانبه فحكومته باغية لابد من الخلاص منها .

يبد أنه لابد من القول بأن الحضارة الغربية ساعدت على ظهور هذا الضعف من ناحية ، وأبرزت هذا السخط من ناحية أخرى ، فقد كان ضعف الحكومة الاسلامية لا يضير المسلمين ماداموا في أمن من العدو المهاجم الذي يهدد حياتهم وأرزاقهم بالخطر ، وقد كانوا في غنى عن الثورة عليها مادامت لها هيبتها وقوتها ، أما وقد رأوا بعيونهم

(١) راجع : Driault, La Question d'Orient. P.89

جبوشها تهزم وألويتها تنهافت ، أما وقد وجدوا الروس يعبثون بها والفرنسيين لا يرعون لها حرمة ولا مكانة فقد بدا لهم ضعفها واضحا ولم يعد للمسلمين بدمن أن يتداركوا أنفسهم قبل أن تصبحهم النازلات بخيلها . ومن هنا برز السخط وتجلي بعد أن كان خافيا مستورا .

وأيقظ الاتصال بأوروبا عوامل الحقد بين الأجناس فأوجد بذلك سبباً جديداً من أسباب الثورة على الدولة الاسلامية ، فرفعت الأجناس المتنافرة رموسها وبدأت تطالب باستقلالها وخروجها عن سلطان آل عثمان ومن هنا نشأت الحركات الاستقلالية في العرب واليونان وعامة شعوب البلقان

وتبينت دول أوروبا ضعف الدولة الاسلامية فأخذت تفكر في تقسيمها والخلاص منها ، فلما وجدت أن ذلك سيطول أمره أخذت كل منها تفكر في الاستيلاء على ما تقدر عليه من أراضيها ، ومن هنا فكر الفرنسيون في الاستيلاء على الجزائر والروس في الاستيلاء على فارس .

من هذا كله ، تجتمع لدينا سلسلة من الأحداث والثورات ثورات في كل مكان الداخلية والخارجية ترمى إلى الخلاص من الدولة العثمانية والقضاء عليها ، فثار الوهايون على نظامها الديني ، وثار محمد علي على نظامها السياسي ، وثار البلقانيون على حكمها ، وثار السلطان نفسه بنظامها الحربي ، وثار أوروبا بوجودها جملة

إزاء ذلك كله كان على العثمانيين أن يعرفوا أن علاج ذلك كله هو أن يثيروا هم الآخرين بأنفسهم ، فينفضوا عن أنفسهم وضر الماضي بعلائه وعيوبه ويبرزون للعالم أمة جديدة في كل شيء تسير العصر الحديث وتقتدر عليه كما فعلت اليابان

فكرة الإصلاح الديني عند المسلمين قديمة جدا ، فكروا فيها منذ
ثورة على النظام
الديني للدولة الشمانية
منتصف القرن السابع الهجرى ، ونادى فيها منهم دعاة على جانب
عظيم من الاخلاص والايمان والاقتدار وكان ظهورها موافقا لظهور
الضعف فى الدولة الاسلامية ، وخوف المسلمين من انهيارها ، كما
رأوا فى إصلاح الدين صلاح السياسة . ولهذا نلاحظ توافقا عكسيا
بين حال الدولة ونشاط الدعوة إلى الإصلاح : فكلما تصدع كيان
الوحدة الاسلامية وبدأ عليها الوهن كلما اشتد المسلمون طلبا للإصلاح
وتعلقا به ، ولهذا ستلاحظ أن حركات الإصلاح ستكثر وتشتد
ويعظم اقبال الناس عليها خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر :
أى خلال الفترة التى ظهر الخطر على الدولة الاسلامية فيها واضحا
جليا .

ابن تيمية
وقد بدأ هذه الدعوة عالم من علماء حران هو ابن تيمية (تقي الدين
أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن محمد) قام
ينبه المسلمين إلى ما وقعوا فيه من الفساد بسبب الانحراف عن جادة
الايمان الصحيح فهاجم الحكام واتهمهم علانية بالمروق ومخالفة الدين
وهاجم علماء عصره وانتقد طرقهم فى التعليم والافتاء والتشريع ، وهاجم
العادات الشائعة فى زمانه إذ وجد فيها مخالفة للشريعة الحنيفة ، ولم
يقتصر على ذلك بل « هاجم بقلبه ولسانه كل الفرق الاسلامية
كالخوارج والمرجئة والرافضة والقدرية والمعتزلة والجهمية والكرامية
والاشعرية وغيرها » و « طعن كذلك على الرجال الذين يعتبرون
حجة فى الاسلام ، فقال على منبر جامع الصالحية أن عمر بن الخطاب

وقع في كثير من الاخطاء ، وقال أيضا : أن علي بن أبي طالب أخطأ
ثلثمائة مرة « ولم يتردد في مهاجمة كثير من الأعلام الذين سبقوه
وانعقد اجماع الناس على تفردهم بالعلم والتفقه في الدين والفلسفة «فهاجم
الغزالي بشدة كما هاجم يحيى الدين بن عربي وعمر بن الفارض والصوفية
بوجه عام» (١) وبهذا ثار ابن تيمية وتلاميذه على نظام الدولة
الاسلامية الديني ، ودعا الناس في كثير من الجراة والقوة إلى اصلاح
شأنها وتقويم أمرها ، ووصف للناس سبيل هذا الاصلاح والتقويم
بأن نصحبهم بالرجوع إلى القرآن والحديث والاكتفاء بنصيهما ، كما
فعل مارتن لوتر حين دعا المسيحيين إلى إصلاح شأن دينهم بالرجوع
إلى الكتاب المقدس وحده (٢)

رحب الناس بأبن تيمية واستمعوا إليه وأعجبوا به وتعصب له
منهم فريق ، ولكن دعوته لم تلق من التوفيق ما هي جديرة به لأن
الناس كانوا في زمانه مشغولين عن الاصلاح الديني بحرب التتار
وغيرهم من الشعوب التي تهددت المسلمين بالهجوم في ذلك الحين ،
وكانت دعوته كذلك خليفة بأن يعرض عنها الحضرة الذين عاش وتقل
بينهم في مصر والشام ، ولو قد كانت دعوته في قوم من البدو لفعلت
فيهم فعلها منذ ذلك الحين . ولهذا ظلت دعوة الرجل على ركودها
زمانا طويلا حتى تأذن الله لها بان تصل إلى آذان بدو العرب في
جزيرتهم بعد ذلك بنحو أربعة قرون ونصف حملها إليهم محمد بن

(١) محمد بن شنب في دائرة المعارف الاسلامية . مادة ابن تيمية — للترجمة العربية
(طبع القاهرة)

(٢) سعادة الاستاذ حافظ ومبه : جزيرة العرب في القرن العشرين (طبع القاهرة ١٩٣٦)

عبد الوهاب الذى عاش فى أوائل القرن الثامن عشر الميلادى (النصف الأول من القرن الثانى عشر الهجرى)

محمد بن عبد الوهاب

حول محمد بن عبد الوهاب مبادئ ابن تيمية إلى برنامج سياسى ، فقد عرف بداهة أن لانجاح لأرائه مادام الناس خاضعين لهذه الدولة العثمانية التى أصبحت تعتبر الاصلاح أيا كان لونه خطراً على كيانها وأضحت مع الجامدين إلماً على كل مصلح وناصح ، وكانت حياة أستاذه الأول ابن تيمية قدأ كدت له أن لا أمل له فى عون رجال الدين فى الحواضر الاسلامية كالقسطنطينية ودمشق والقاهرة ، لأن هؤلاء الرجال قد تحولوا بمرور الأيام إلى موظفين رسميين جامدين ، لا يميلون إلى التغيير أو التطور أو الثورة ، وأصبحت لهم أرزاق موصولة ومراكز موموقة لا يجازفون بها فى سبيل نظريات لا يؤمنون بها كثيراً ، وعرف كذلك أنه لا بد له من سند سياسى يعزز مبادئه الدينية ، لأن النظريات لا تنصر بقوتها وصدقها بل بما يؤيدها من قوى السياسة ، فباعده نفسه عن هذه الحواضر وأوساط المدنية وعاد بأرائه ودعوته إلى البيئة المناسبة لها وهى البيئة الصحراوية التى تميل إلى الزهد والتقشف بطبيعتها ، وكانت طوائف البدو تنطوى على الكراهية والاحتقار لهذه الجماعات الاسلامية الحضرية المترفة ، وكانت ترميها بأنها كانت السبب فيما أصاب الاسلام من نكبات فاحسن ابن عبد الوهاب استغلال هذا الشعور ، واستطاع أن يكسب ود أمير الدرعية محمد بن سعود جدد آل سعود الحاليين ، واستعان بقوته وسلاحه لى ينشر مبادئه بين قبائل العرب بحد السيف حتى استطاع قبل موته سنة ١٧٩١ ميلادية أن يجمع جزيرة العرب كلها إلى لواء آل سعود ، وأن يفرض آراءه ويعاونه على أهل الجزيرة جمعاء . (١)

فانقطعت الصلة بين بلاد الدولة العثمانية وأصبحت خارجة عن طاعة خليفة المسلمين .

ابن عبد الوهاب
والاسلام الرسمى

لم تلق أفكار الوهابيين قبولا عند عامة المسلمين لأن القائمين بأمر « الاسلام الرسمى » فى الحواضر الاسلامية تصدوا لهدم الدعوة وحرصوا على أن يشوهوا مبادئها لكي يثيروا السلطان عليها ، فألجأوا فى ذلك ، إذ وقع فى ظن السلطان ورجاله أن حركة الوهابيين حركة انصافية ينبغى القضاء عليها عن أى سبيل ، وذلك لأن الوهابيين أعلنوا سخطهم على كل الطوائف الاسلامية الحضرية التى استسلمت للترف والرخاء ، ولأنهم لم يقفوا عندهذا الحد بل أخذوا يصارحون الدولة بالعداء والتحدى ، وأخذوا يعملون صراحة للاستقلال والانفصال إذ استطاع سعود الثانى الذى خلف أباه سنة ١٨٠٣ ، أن يفتح المدينة سنة ١٨٠٣ ومن ثم أرسل إلى السلطان ينهيه عن إرسال المحمل السنوى إلى الحجاز مصحوبا بالزمور والطبول ، وجرى فى مخاوف الدولة أن الرجل يعد حملات لا تلبث أن تغير على العراق والشام (١) .

الوهابيون يشبهون
فى الجهاد الدينى

واشتد إيمان الوهابيين بأنفسهم حين ترامت اليهم الأنباء بهزائم الدولة أمام القوى الأوروبية واضطرارها إلى الخضوع لهذه القوى ، فنسب الوهابيون ذلك كله إلى تهاون العثمانيين فى شعور الدين وأحسوا أن واجبهم الدينى يتطلب منهم أن يخفوا للدفاع عن حوزة الاسلام فى هذه اللحظة التى أرادت فيها النصرانية أن تقضى عليه ، وهكذا فهم الوهابيون وغيرهم من الجماعات الاسلامية هذا الصراع الجديد بين الشرق والغرب على أنه عدوان من النصرانية على الاسلام ، وعادت الى أذهانهم ذكرى الحروب الصليبية الراقدة فى عقولهم الباطنة ، فوقع فى ظنونهم أن حماية الاسلام إنما تكون بالاعتصام بحبل الدين

(١) انظر تفاصيل غارات الوهابيين على العراق فى الجزء الخاص به فى الباب الثالث من هذا الكتاب

والرجوع الى أصوله ، والا بتعداد عن كل جديد على اعتبار أنه بدعة تضر الاسلام وتضعفه في صراعه مع النصرانية .

لم تكن بلاد العرب من البلاد الغنية التي تحرص الدولة العثمانية على الاستيلاء عليها ، ولم يكن في موقعها ما يغري بالمحافظة عليها أو يساوى جهد الاحتفاظ بها ، ولكن بقاءها في يد الخليفة كان أمراً لا بد منه حتى تتم « تشكيلات » خلافته ، لا بد أن يكون خليفة المسلمين حامى البلاد المقدسة وصاحب الخطبة على منابرها ، ومن هنا كانت خشية السلاطين من أن يظن الناس بهم الضعف والوهن لعجزهم عن استرداد هذه البقاع .

أهمية بلاد العرب
للدولة العثمانية

ولم تكن ثورة الوهابيين أخطر ما نزل بالدولة من الثورات والأخطار في ذلك الحين ، فان نواحيها جميعا كانت تفيض بالحركات الهدامة والمبادئ الانفصالية . وكانت الهزائم التي أصابت الدولة في ذلك الحين على يد الروس والفرنسيين قد أيقظت الرعية في كل مكان ودفعتها إلى التفكير في الثورة ، ولا يعمل اهتمام الدولة بالبدء باخماد ثورة الحجاز الا بحرص السلطان على أن تتم له تشكيلات الخلافة حتى لا يهون أمره على رعاياه المسلمين ، وربما بالغ بعض المؤرخين فذهب إلى أن الدولة لم ترد من الاستعانة بمحمد على الا القضاء على قوته التي كان ماضيا في انشائها في ذلك الحين ، لأن جيش محمد على لم يكن قد بلغ إذ ذاك المبلغ الذي يخيف الدولة منه ويدعها إلى السعى للقضاء عليه وإنما الحقيقة ان السلطان أحس بضرورة الاسراع بالقضاء على هذه الحركة الثورية الناشئة ، ولم يجد في يده الجند الكافين للقضاء عليها في هذه اللحظة التي كثره الأعداء فيها ، ثم وجد أحداً تابعه — محمداً علياً — قادراً على القيام بهذا العمل فكلفه به ، ولم يجد محمد على بداً من الطاعة والاذعان .

لماذا عجلت الدولة
القضاء على الحركة
الوهابية

لا يهمننا تفصيل حوادث الصراع بين محمد علي والوهابيين ، (١) الوهابيون ومحمد علي وإنما يهمننا أن نلاحظ كيف سارت هاتان القوتان اللتان كانتا ترميان إلى غاية واحدة — وهى إحياء الدولة الإسلامية — احدهما نحو الأخرى ، كان الوهابيون يريدون أن يعيدوا مجد الدولة الإسلامية من الناحية الدينية ، وأراد محمد علي أن يعيد مجد الدولة الإسلامية من الناحية السياسية ، وكان من خير الاسلام لو تعاونا وتصالحا ، ولكن صروف السياسة قضت أن تكون إحداهما حتف الأخرى ، فكأبما خنق الاسلام نفسه بيده .

أراد الوهابيون ومحمد علي غرضاً واحداً ، ولكنهما اختلفا في السبيل التي اختارها كل منهما لادراك هذه الغاية ، فأما الوهابيون فقد اختاروا سبيل الارتداد إلى الاسلام الأول ، لأنهم رأوا — وكأوا على حق — أن الاسلام كان بخير مارعى المسلمون حدوده وأشراطه ، وأنه ضعف وهان أمره حين أهملوا حدوده واستهانوا بأسسه ، وجرى في ظنهم ان العودة إلى التقشف والابتعاد عن البدع الدخيلة وتنقية العقيدة مما ليس منها يبتعث في نفوس المسلمين روحاً جديدة فيعودون كما كان أجدادهم الأول حماساً وحمية ، أى انهم فكروا في « إصلاح بدوى » ، يتفق تمام الاتفاق مع البيئة التي كانوا يعيشون فيها ، وكان برأيهم هذا خليقاً أن يفلاح لو أن الدنيا كانت في أيامهم كما كانت

(١) يمكن إيجاز حوادث فتح المصريين لبلاد العرب فيما يلى . اتفق محمد علي مع الشريف غالب في ينبع على التعاون للقضاء على الوهابيين ، وكان أهل مكة والمدينة وينبع ساخطين على الوهابيين لاشتدادهم في تطابق مبادئهم ، ونزلت الحملة المصرية الاولى في ينبع سنة ١٨١٢ بقيادة طوسون بن محمد علي . فانهصر طوسون أولاً عند بدر ثم عاد الوهابيون فأوقعوا به ، فلم يسع طوسون الا التقهقر الى ينبع بخسائر فادحة في الجند والمال . وسارع محمد علي فارسل مدداً جديداً لطوسون ، فخرج من ينبع قاصداً المدينة محاصرها حتى استولى عليها ، ثم سقطت جدة فحكة فاطائف في يده ، ولكن المصريين لم يلبثوا أن تخلوا عن هذه المواقع بعد قليل فسارع محمد علي بإرسال ابنه ابراهيم فاستطاع الاستيلاء على الدرعية في ابريل سنة ١٨١٨ ودمرها وأسر قائد الوهابيين عبد الله ، وبعث به الى القاهرة ومن ثم الى القسطنطينية حيث أعدم فيها .

فى أيام أجدادهم ، أو أيام ظهر عبد الوهاب : صحارى وبلاد قريية من الصحارى ، أو يوم كانت البيد موطن القوة ومنبع النهضات فى العالم ، ولكنهم نسوا التطور العظيم الذى شمل الدنيا ، وغابت عنهم قوة الحضارة الجديدة التى استحدثها الأوروبيون ، ولم يكن الذنب ذنبهم ، فلم يكن ينتظر منهم أن يفكروا إلا على هذا النحو ، ولو أنهم اطاعوا على مظاهر الحضارة الجديدة وعرفوا مكانها من القوة لاخافهم ذلك وألقى الروح فى نفوسهم . ولا يبعد أنه كان يفت فى عضدهم من أول الامر ، ولو أنهم عرفوا سبيل الاستفادة منهما لما استطاعوا أن يفيدوا ، لأن الأساليب الأوروبية لا تنهض باعبائها غير الدول المنتظمة ذات المال الوفير ، ولم يكونوا على مال أو ثراء . لهذا سهل على محمد على أن ينتصر عليهم لأنه كان يحاربهم بقوة الحضارة الجديدة ، ولو لم يقض عليهم هو لقصت عليهم الحضارة الأوروبية عن سبيل أخرى . كما ستقضى على الحركتين المشابهتين لها بعد حين وهما السنوسية والمهدية .

كانت نهضة الوهابية غنية بالروح والايان ، وكانت نهضة محمد على غنية بالرأى والمادة ، ولم يكن الاسلام لينهض إلا إذا اجتمعتا فى يد واحدة ، وسيمضى على الأهم الاسلامية كلها حين طويل حتى تعرف ان النهوض الصحيح لا يكون إلا باجتماع هاتين الناحيتين - لأن الأوروبي الحديث روح قوى ورأى سديد - وهنا تتغير صفحة العالم الاسلامى وتفلح حركاته كما سنرى .

استتبع فتح بلاد العرب نتائج سياسية هامة ، أولها أنه أعاد للخلافة آل عثمان هيبتها وجمع إلى لوائها العالم الاسلامى من جديد ، فقد كان انقطاع الحج قد روع المسلمين وقطع سببا من أسباب التواصل والتفاهم بينهم ، ولو قد استمر الحجاز خارجا على السلاطين لزاد عامل جديدا من عوامل التفكك والانحلال فى جسد الدولة الاسلامية . فهذا الفتح أعاد إلى

النتائج السياسية
لفتح بلاد العرب

الخلافة هيبتها الشككية على الأقل . وكان انتصار المصريين على الوهابيين أول حجة في زعامة مصر على العالم الاسلامي في ذلك العصر الحديث فقد انتهت على محمد علي آيات الولاء والاعجاب من انحاء الدولة الاسلامية ، فأرسل اليه الصفويون صولجانا محلي بالجواهر ، وتردد ذكره في انحاء العالم الاسلامي ، ومن هنا نشأ تفكير محمد علي في إنشاء دولة عربية جديدة ، وقد كسب المصريون لأنفسهم أنصارا في بلاد العرب نفسها ، لأن ابراهيم كان قد سار في فتح بلادهم سير المخلص لا الفاتح فسكان لا يأخذ زق ماء ولا بلحة ولا قطعة خشب إلا دفع ثمنها مضاعفا ، وحال بين الجند وبين النهب والسلب فاعتبرهم الأهلون مخلصين ، ومن هنا لم يكن غريبا أن نسمع أن شريف الحجاز انحاز لجانب محمد علي أثناء صراعه مع الدولة العثمانية ، وكان مستعداً للخطبة باسمه على منابر الحجاز . بل ان نفرا من الأتراك أنفسهم كانوا ينظرون إلى المصريين نظارهم إلى المخاضين المنقذين ، وسيلجأون إلى عونهم كلما أحاطت بهم المصاعب والازمات .

كذلك فتح الغزو المصري أعين الأوروبيين إلى بلاد العرب ، وأيقظ الخوف في قلوب الانجائز من هذه القوة الجديدة التي أصبحت تشرف على طريقى الهند العظيمين ، طريق البحر الأحمر وطريق الخليج الفارسي ، وزاد مخاوفهم أن الرجل لم يقنع بمجرد دخول هذه النواحي في طاعته اسميا ، بل بدأ يفكر في المساهمة في تجارة الهند فعين « فوربس وشركاه » وكلاء له في بمباي ، وأخذ يصدر إلى الهند البضائع الأوروبية ، ولم يقتصر على ذلك بل فكر في أن ينزل أسطولا تجاريا في الخليج الفارسي ، ليقضى على قراصنة الوهابيين من جهة وليسهم في تجارة الهند من جهة أخرى . واتجه ببصره نحو البحر الأحمر الذي أصبح بحيرة مصرية بعد فتح السودان فأخذ يحمد من حرية السفن الأوروبية

الثغرات الأوروبية
إلى بلاد العرب

الاحمر يتخوفون
من محمد علي

التي كانت تمرح فيه دون رقيب ، وأصدر أمراً يحرم على السفن الآتية من بمباي أن تصعد في البحر الأحمر شمالاً جده ، مما أثار مخاوف الانجليز وجعلهم ينظرون إلى محمد علي كخطر جديد على طريق الهند ينبغى القضاء عليه عن أى سبيل (١) . وكان اعتماد الانجليز في البحر الأحمر على موانئ السودان واليمن ، فلما أصبح السودان في يد محمد علي زاد اعتمادهم على اليمن ، ولما دخل اليمن في طاعة محمد علي (٢) أحس الانجليز أن البحر الأحمر خرج من يدهم إلى مصر . فسعوا لاستخلاص التجارة منه جهرا وعلانية . فأبوا على سفينته المسماة « افريقيا » التي كان أرسلها لتطوف بأفريقية عن طريق الرأس - أن تصل إلى البحر الأحمر عن ذلك السبيل ، وأرسل القنصل سولت إلى حكومته يقول : « أما فيما يختص بمصر ، فقد اندمج الباشا في تيار التجارة حتى لقد جعل نفسه تحت رحمتنا تماما ، إن موارده تعتمد اليوم على التجارة كل الاعتماد ، بحيث أصبح من المستحيل عليه أن ينهض بتكاليف حكومته بدونها ، ولهذا يستطيع أمير البحر الانجليز في البحر الأبيض - في رأيي - أن يضطره إلى الطاعة إذا جنح إلى عدائنا ، بغير أن يحتاج إلى قوة جديدة زيادة عما لديه ، وذلك بأن يلقى مراسيه في أبي قير ويطلق مدافعه على الساحل وكذلك الأمر في البحر الأحمر ، إذ تستطيع سفينتان بين جده والسويس أن تأخذا عليه سبيل البحر فلا يلبث أن يعود إلى الطاعة (٣) » وسارعوا بكسب حقوق تجارية

(١) انظر : دودويل : ص ٥٥ — ٥٧

(٢) كان امام صنعاء حاربا عن طاعة السلطان حتى قيام الثورة الوهابية ، ولم يكن للخليفة سلطان عليه ، فلما أتم محمد علي فتح بلاد العرب نزل لامام البين عن بعض نواح شمال الحديدة على أن يقدم الامام كل عام قدراً من البن للسلطان ، فاعتبر هذا البن حزية تدل على طاعة الامام للدولة واعتبرت البلاد بذلك داخلة في طاعة السلطان من ذلك الحين : انظر دودويل ص ٦٠

(٣) دودويل ٥٨ — ٥٩

في اليمن ، فطلبت شركة الهند تعويضا من امام صنعاء ، فلم يحفل لهم
الامام ، فعززوا طلبهم بضرب مخالب المدافع وهاجموا حصون البلد بما اضطر
اليمنيين الى التسليم بمطالب الشركة ، وعقدت معاهدة أصبح للمقيم
الانجليزى بمقتضى نصوصها الحق في أن يحيط نفسه بحرس كما هي الحال
في بغداد والبصرة ، وأن يسير في الطرقات على ظهر حصان ، وأقطع
الأوروبيون قطعة أرض يدفنون فيها موتاهم ، وأدخل تجار سورات
في حماية الانجليز . وخففت المكوس التي يدفعها التجار الانجليز
فأصبحت مساوية لما يدفعه الفرنسيون (١٥ يناير سنة ١٨٢١) وبذلك
اطمأن الانجليز إلى أنهم أخذوا الطريق على محمد علي وحصلوه بين
أسطولهم في البحر الأبيض وأسطولهم في المحيط الهندي .

سيطرة انجلترا على
سواحل بلاد العرب

ولم يخف على الانجليز كذلك وجه الفائدة من أعمال محمد علي ،
فقد كان قراصنة الوهابيين ينزلون بمتاجر شركة الهند أذى كبيرا ،
ولم يكونوا يتخرجون عن ذبح من يقع في يدهم من بحارتها ، واستولوا
على بعض سفن الشركة ونهبوها ، فسارعت وأرسلت اليهم حملة تأديبية
استطاعت أن تقضى على كثير من سفنهم ، واستولت على مركز أعمالهم
في « رأس الخيمة » بمعاونة امام مسقط ، وأصبحت كل الامارات
العربية الواقعة على سواحل بلاد العرب الجنوبية والشرقية شبه خاضعة
لنفوذ الانجليز (١) ، ولهذا لم تكف أخبارا تصارات محمد علي تتصل بهم حتى
سارعوا للتحالف معه والاستعانة بسلطانه الذي شمل بلاد العرب كلها
من البحر الأحمر الى الخليج الفارسي ، ولكن محمدا عليا لم يحفل لذلك
كثيرا لأنه لم يكن ينظر إلى هذا المدى الواسع من وراء فتحه لبلاد
العرب . كذلك كانت هذه البلاد سرا مغلقا أمام انظار الأوروبيين إذ لم
يجسر أحد منهم حتى الساعة أن ينزلها أو يتوغل في مجاهلها ، فلما مهدتها
جيوش مصر سارع الأوروبيون فدخلوها في حماية الحراب المصرية ،

(١) أنظر تفصيل ذلك في الداب الرابع من هذا الكتاب .

واستطاع سادلييه الانجليزى أن يخترق البلاد للمرة الأولى ، وكان قد أرسله
مست قنصل إنجلترا فى مصر لينهى إبراهيم باشا بانتصاره فى الدرعية (١) .
قضى محمد على على قوة الوهابيين الأولى ، وأعاد البلاد إلى طاعة
السلطان ، ونشر فى نواحيها الوية الأمن والطمأنينة من جديد ، فكان
أول من ألقى الضوء الجديد على أهلها ، ثم سلمها للدولة أكثر انتظاما
فاستطاعت هذه أن تحكمها بيد أقوى و سلطان أظهر مما كان لها قبل
فتح محمد على

بهذا ، أصبحت مصر قوة جديدة يحسب لها حساب فى عالم
السياسة الدولية ، أصبحت عماد الدولة الإسلامية ودرعها الذى يقىها
من كل عدو خارجى أو داخلى ، فتطلعت إليها الدول الإسلامية كزعيمة
ومنفذة ، وأخذت الدول الأوروبية ترصدها بعين الحسد والعلم ،
لأنها أثبتت — بزعامة محمد على — أنها قادرة على أن تنهض بنفسها
وتسترد ماضى من عافيتها ، وأن تنفض ما تراكم عليها من غبار القرون
ومسادات الأجانب فى لحظة عين

طهور مصر فى عالم
السياسة الدولية

— ٢ —

كان فتح السودان مشروعا اقتصاديا من مشاريع محمد على الكثيرة ،
وقد قدمه على غيره من المشروعات لأنه رجا أن يجده أسهل من غيره
مؤونة وأقرب جنى ، وكان الرجل يتسامع بما تضمنه أرض السودان
من مناجم الذهب ومعادن الفضة ، وكان إلى ذلك ضيقا بجنوده الألبان
الذين فرغوا من حرب الوهابيين وعادوا إليه يشغبون عليه ويسببون
له متاعب شتى ، فخطر له أن يقذف بهم فى مجاهل السودان وفلوات
الاستواء ، ولم يكن بحاجة إلى تشجيعهم على الاسراع فى الذهاب بعد

فتح السودان
وأسبابه

(١) وانظر أثر ذلك فى السياسة الانجليزية الشرقية فى الباب الرابع من هذا الكتاب

أن علموا هم الآخرون أن السودان يفيض ذهباً وفضة، وإنهم غامون من خيراته وأمواله الشيء الكثير، ولم يكن يخشى افتهاره إلى الجند بعد الخلاص منهم لأنه رجا أن يستبدل بهم جندا من عبيد السودان الذين كانوا يعجبونه في الحرب والطاعة والاخلاص، وربما أسرع به إلى تنفيذ هذا المشروع عرفانه جهل أهل البلاد بوسائل الحرب الحديثة وعجزهم أمام النار، فلم يكن في المشروع شيء يخشاه فعجل بالتنفيذ. وكان الرجل يرجو كذلك أن يزداد عليها بما وراء مصر من النواحي لعله يجد فيها مجالا جديدا للرزق والكسب، ولم يكن بعسير عليه أن يقدر أن هذه البلاد أغنى من مصر وأكثر زرعاً وماشية وأوفر ماء، وأنه إذا تم فتحها جنى من أرضها البكر الخير الكثير.

لماذا اراد محمد على
حلب الخدم
السودان

غير أننا نلاحظ في هذا الفتح بضع نواح جديدة بالنظر: أولاها تفكيره في جلب الجند من السودان وأماه الكثيرون من المصريين يستطيع أن يجندهم في جيشه دون أن يكلفه ذلك عناء الحرب والفتح، فأننا لا نظن أن محمداً عليا كان يفضل السوداني على المصري في ميدان الحرب، أو يراه أقدر منه عليها وانفض باعبائها منه، لأنه لمس يديه اخلاص المصريين وثباتهم واقتدارهم على مواصلة الحرب واحتمال مضائكمها، ولا نظن كذلك أنه فضل أن يترك المصريين في زراعة الأرض حتى لا يحرمها اليد العاملة، لأنه لن يتأخر عن تجنيد المصريين حين يلفت دُرُوفَتِي نظره إلى ذلك، وربما كان التعليل الوحيد لذلك أن محمداً عليا اتبع خطة حكام المسلمين جميعهم في الاعتماد على الأجانب في الجيوش والحذر من استعمال أهل البلاد، خشية ثورتهم وانقلابهم عليه، وذلك أمر طبيعي جدا من رجل كان يحس إلى الساعة أنه غريب عن البلاد وأنه «كسبها بالسيف» كما قال، فلم يكن له بد من قوة غريبة تحس الاخلاص والولاء نحوه فقط، وكان الى ذلك يشعر أن

نفوس المصريين قد بدأت تتغير عليه ، ولا ترضى عن الارهاق المالى الذى أخذ يريدهم عليه ، اذ كانت اعباء حرب بلاد العرب قد ثقلت عليهم وبدأت ضرائبه ومغارمه تزداد ، ولا بد أن نفوسهم حدثتهم بالخروج على طاعته وولائه ، ولا بد أنه خشى ذلك على الأقل فمضى يبحث عن حرس أجنبي جديد .

ومن هذه النواحي أنه استصدر فتوى تشرع له فتح السودان وما كان بحاجة إلى ذلك ، لأن النواحي التى كان قد أزمع فتحها لم تكن داخلية فى طاعة السلطان ، ولم يكن على محمد على حرج فى أن يفعل بها ما يريد ، ولا يعلل ذلك إلا بأن الرجل لم يكن مطمئناً إلى هؤلاء الألبانيين الذين سيرهم فى طلب هذا الفتح : لعله خشى استبدادهم بما يفتحون من الأرض على اعتبار أنها إنما فتحت بسيوفهم وحدها ولا شأن للسلطان بها ولا طاعة له عليهم فيها . وكانت هذه البلاد اسلامية يعمر الدين الحنيف نواحيها ولا يبيح الشرع الاسلامى حرب أهلها أو سبيهم ، واسترقاقهم بغير سبب ، فاحتياط لذلك بتلك الفتوى الشرعية التى أحلت له الفتح وجعلته مشروعاً ، والغالب كذلك أنه خشى أن يلقى من أهل هذه البلاد حرباً شديدة فرجا أن تؤثر فيهم هذه الفتوى الشرعية فيسلمون له طائعين مختارين .

استصداره فتوى
تشرع له فتح
السودان

ومن هذه النواحي كذلك أنه أصحب الحملة نفرًا من العلماء تشبهاً منه بالفرنسيين فى حملتهم على مصر ، وقد يكون غرضه من ذلك يختلف تمام الاختلاف عن غرض نابليون من العلماء الذين استصحبهم معه إلى مصر ، فقد أراد نابليون أن يدرس البلاد دراسة علمية حديثة حتى يتمكن من حكمها واستغلالها على أحسن سبيل ، فى حين رجا محمد على أن يثبت هؤلاء العلماء دعاية اسلامية له حتى يوفروا عليه كثيراً من الجهد فى الحرب والنضال ، ولكن ذلك لا يخلو من دليل على أن الرجل

محاولة تحضير السودان

قبس الكثير من أساليب الفرنسيين وتمكن من استعمالها والاستفادة منها. كان فتح السودان فتحاً يسيراً سهلاً لم يتكلف جند محمد علي فيه عناء كبيراً ولا مشقة زائدة، وكانت نفقاته كذلك يسيرة لم يشغل بها على نفسه، ولو لم يكن قائد الحملة اسماعيل قد أساء السيرة مع أهل البلاد، وأبدى لهم من الجفاء والاحتقار ما أبدى لما كانت كارثة شندى ولما كان للحملة خسائر تذكر. ذلك أن جند محمد علي كانوا مذودين بالبنادق والمدافع فاستطاع جيشه أن يحصد أهل البلاد حصداً في غير عناء ولا مشقة، وقد استمر الأتراك يسر الفتح وضعف أهل البلاد فانزلوا بهم أذى شديداً، وقسوا عليهم قسوة لا هودة فيها، حتى أن الدفتردار صهر محمد علي لم يرض بأقل من عشرين ألف رجل من أهل البلاد فدية لاسماعيل بن محمد علي: إذ قتلهم شر قتله.

لم يوث هذا الفتح محمداً علياً بشيء من طلب، فلا الذهب وجده نتائج الفتح ولا الجند استطاع الحصول عليهم، فأسف لذلك أسفاً شديداً، ولم يطمئن إلى ما كان يبلغه إياه قواده من ندرة الذهب، ولم يزل على شكه حتى مضى هو بنفسه محتملاً متاعب الشيخوخة سنة ١٨٣٨ ليستوثق من ذلك الأمر، فما كان ليصدق أن هذه الآمال التي عقدها انتهت إلى هذا الفشل، وقد حاول أن يعرض خسارته في انعدام الذهب باستغلال

مزارع السودان، فندب نفراً من مزارعي مصر وأرسلهم إلى السودان ليعلموا أهل أساليب الزراعة، ومنح نفراً من الذين درسوا أساليب الزراعة الحديثة قطعاً من الأرض مساحة كل منها مائة فدان معفاة من المال، وأباح لكل منهم أن يأخذ نفراً من أهل البلاد يعملون في أرضه دون مقابل، وكان لا يفتأ يخاطب أهل البلاد ويستحثهم على الإقبال على الزراعة والتعلم، حتى يرتفعوا من درك السوائم إلى مستوى البشر وحتى

محاولة تعليم السودانيين
أساليب الزراعة

يدركوا الثروة ويتعلموا كيف يستمتعون بخيرات يحول جهلهم دون
تصورها ،^(١) ولكن ذلك لم ينتج إلا أثرا ضئيلا .

بيد أن هذا الفتح فتح باب السودان بعد أن كان موصدا ، وجعل
بينه وبين العالم سببا ، فمن ذلك الحين بدأت طوابع الحضارة الحديثة
تتوغل فيه ، وبدأ الأوروبيون يفكرون في استكشاف نواحيه ونواحي
النيل معاً ، وكان وصول أول هذه الطوابع على يد محمد علي إذ أرسل
البيكباشي سليم أفندي في ثلاث رحلات مختلفة بين سنتي ١٨٣٨
و ١٨٤١ ليستكشف أعلى النيل ومنابعه ، فاستطاع هذا أن يجمع بعض
المعلومات عن بعض أجزاء النيل كنهر السوبات ، وبعض التفاصيل
عن مناخ البلاد وأهلها .

فتح باب السودان
للعالم

دراسة السودان العليا
ومحاولة استكشاف
مناخ النيل

ولو قد وفق محمد علي إلى عمال قادرين على القيام بأعباء الحكم
لاستطاع أن يجني شيئاً من الثمر من هذا الفتح ، ولما كان لأهل البلاد
خير من ورائه ، ولكن معظم العمال كانوا يستبدون بأهل البلاد
ويشتدون في تجنيدهم واسنراقهم دون رحمة ولا هوادة ، كانوا يجمعون
عشرات الألوف بأقصى الأساليب وأبعدها عن الإنسانية ، ويرسلونها
إلى مصر كما ترسل السوائم ، لا يحرصون على صحتهم ولا على طعامهم ،
فكانوا يتساقطون في الطريق صرعى المرضى وقلة الغذاء والضرب
الشديد ومتاعب المشى الطويل وما إلى ذلك ، فأصاب السودان وأهله
من جراء ذلك أذى شديد ، ولو قد وفق محمد علي إلى عمال قادرين
مصلحين لأفاد من ذلك ، ولأفاد أهل البلاد منه كثيراً . ولما كان
هذا الفتح الجديد خيراً للسودان وأهله .

حاجة محمد علي إلى
الحكام القادرين

ولعل أهم نتائج هذا الفتح هو تنظيم البلاد وتحديددها ، وتقسيمها

تنظيم السودان
وتقسيمه وتحديدده

إلى مديريات بعد أن كانت فضاء غير محدود ولا معروف ، فقد أوجد لها هذا الفتح كيانا سياسيا ونظاما إداريا ، وأقام فيها حكومة منتظمة بعض الانتظام ونقلها من الفوضى التي وقعت فيها بعد اضمحلال سلاطين الفونج والفور ، وأنشأ لها عاصمة جديدة هي الخرطوم التي وجدها جند محمد على قرية صغيرة خاملة فسكنوها وأنشأوا بها المباني واستحدثوا فيها المنشآت فلم تلبث أن أصبحت مدينة عامرة في عهد خورشيد باشا ، وكثرت فيها مزارع التين والعنب ، ولم تلبث أن اتخذت مركزا لحكم البلاد .

واستتبع هذا الفتح نتائج سياسية كثيرة ، أهمها بسط سلطان مصر إلى أعلى النيل بعد أن كانت عند حلفا ، فأصبحت هذه البلاد من ذلك الحين جزء من مصر يحرص حكامها على حكمها وبسط سلطانهم عليها ، وأصبح واجب السياسة المصرية تمكين الصلة بين البلدين ، وهذا أمر طبيعي يحتمه الوضع الجغرافي لمصر والسودان واتفاق مصالحهما واشترائهما في نهر واحد هو النيل . كذلك أيقظ الفتح المصري المطامع الأوروبية نحو السودان فتخوف الانجليز من انبساط سلطان مصر على شواطئ البحر الأحمر كلها شرقا وغربا ، فبدأوا يعملون من ذلك الزمان على محاربة سلطان محمد على الذي أصبح قابضا على زمام هذا الطريق الخطير إلى الهند .

وثورة ثالثة بل توارت ثالثات ، اضطربت نيرانها في البلقان في سنوات متقاربات كما كانت كلها على موعد ، حتى أصبح البلقان شعلة ذاكية اللهب لا يكاد السلطان يخمد منها جانبا حتى تأخذ النار في جانب ؛ ففي أواخر سنة ١٧٩٧ وثب بالدولة عثمان باشا اللبسنى المسلم المعروف ببسوان اغلو وظل يطاول الدولة حتى سنة ١٨٢٧ ، وما هي إلا سنوات حتى تجاوزت انداء الثورة في مخارم الجبل الأسود ، ونادى أمير الجبلين

بأن الجبل الأسود لم يكن قط ولاية إسلامية ، وما هو إلا قليل حتى تنادى بالثورة أهل اليونان ، فأصبح البلقان كله خارجا عن طاعة السلطان لا يكاد يملك حياله أمرا .

شعوب البلقان

يقف أهل البلقان بين الشرق والغرب ، ولكنهم إلى الشرق أقرب ، سواء من ناحية الجنس أو العقيدة أو الأخلاق والعادات أو الحضارة ، فمخضوعهم للاتراك لم يكن أمرا شاذا كما قد يقع في أخلاذ البعض ، بل لعنا لا نخطئ إذا قلنا إنهم كانوا أسعد رعايا الدولة وأحسنهم حالا ، وكان اليونان منهم خاصة يساهمون في حكومة الدولة ويشتركون فيما تنزله بالناس من مظالم ومساءات ، بل كان هؤلاء اليونان على الخصوص أظلم من الأتراك للرعية ، وماتولى أحدهم في ناحية إلا عسف الناس وآذاهم أشد الأذى . ومن هنا ليس بصحيح ما يراه البعض من أن فتوح العثمانيين في البلقان كانت أمرا غير طبيعي ، وأن سلطانها هناك كان حريا أن يزول ، لأن أهل هذه النواحي كانوا طوال تاريخهم أعداء أوروبا لا أصدقاءها ، وكانت أوروبا تشعر أنهم غرباء عنها ، ولم يتصادق الحيان إلا في فترات صغيرة جدا كـ بعض سنوات الحرب الصليبية ، ولم تكن الصداقة بينهما إلا خداعا من الجانبين ، ينطوى فيه كل منهما نحو الآخر على الشك والحذر والريبة ، بحيث لا نخطئ إذا قلنا أن الصليبيين الغربيين كانوا يشعرون أن امبراطور بيزنطة عدو لهم لا صديق ، ومصدق ذلك أن هؤلاء الصليبيين لم يطبقوا كتمان هذا الشعور ، فلم يلبثوا أن أعلنوه صراحة وأعلنوا « حربا صليبية » على الدولة البيزنطية ، فهاجموها وأقاموا فيها دولة غربية سنة ١٢٠٤ ، لافرق في حسابهم بينها وبين الشام أو مصر الاسلاميتين ، ولا حاجة بنا إلى الإشارة إلى العداء الذي ظل يتأجج في صدر كل من الكنيستين الغربية والشرقية ، والصراع العنيف الذي استمر بين باباواتهما . وقد ظل هذا العداء بين الجانبين

اليونان

حرب صليبية على شرق أوروبا

العداء بين الكنيستين الشرقية والغربية

زمانا طويلا خلال العصر الحديث ، فلم تمن الدول الأوروبية بشأن
البلقان إلا بدوافع سياسية ضيقة ، بل الامبراطورية النمساوية نفسها
لم تكثر للبلقان الا في زمان متأخر جدا ، وكان التفاتها اضطرابا
لا اختيارا ، أى حينما أقفل بسمرك في وجهها باب التوسع في الغرب
فالتفتت الى الشرق مكرهة

ثورة البلقان
فثورة البلقان إذن لم تكن تعصبا خالصا للغرب ولا رغبة من أهله
في الحرية أو صدى لانتشار مبادئ الثورة الفرنسية ، ولم تكن
ثورة أوروبا من أجلها صادرة عن تعاطف بين هذه الدول وأهل
البلقان ، بل كانت في الغالب صدى مباشرا للصراع بين روسيا وتركيا
ونتيجة طبيعية لتوالى هزائم الثانية على يد الأولى . بل ليس من
الخطأ في شيء أن نقول إنها لم تكن تعبر عن ميول عامة اليونانيين ،
ومصادق ذلك أن طلائع الثورة لم تلق قبولا عند عامة أهل البلقان
فاصدر بطريق القسطنطينية قرارا بجرمان قائدها الأول « اسكندر
ابسلنتي ، وتحلى عنه أنصاره ، وقعد عامة اليونانيين عن مناصرته ، فلم
تلبث حركته أن ماتت في مهدها (١)

ومصادق ذلك أن آراء الغرب وأفكاره ظلت زمنا طويلا
تلقى من أهل اليونان إلا الزاوية والانكار ، فحينما قام سيريل
لوكاريس في أوائل القرن السابع عشر يتغنّى بمبادئ الغرب ويحض
قومه على التمثل بأهل غرب أوروبا ، ويميل على مواطنيه من كرسى
البطرقة في القسطنطينية بمبادئ الكلفنية التي كان يعجب بها كل
الاعجاب ، ويتخير النابهين من أبناء الكنيسة ليلقي بهم في كنائس
الغرب ومعاهده ليتشربوا هذه المبادئ والأفكار ، لم يكد يفعل هذا

(١) تاريخ مصر السيامي للاستاذ رفعت ص ١٦٤ — ١٦٥

حتى ثار به مواطنوه وأنكروا أمره ، واستعدوا عليه خليفة المسلمين ،
وطردوه من كنيساتهم سنة ١٦٩١ (١)

الشاعر كوريس

ولا يتنافى هذا مع القول بأن بلاد اليونان ضمت في ذلك الحين طائفة
قليلة من السراة وذوى الثقافة العالية ، ممن اتصلوا بالحضارة الغربية
وأعجبوا بها وسعوا في نشرها في بلادهم ، كالشاعر كوريس الذى جاهد
طويلا لخلق اللغة اليونانية الحديثة ، وظل طول حياته يدعو أهله
للأخذ بأسباب حضارة « أوروبا المستنيرة » كما كان يسميها (٢)

مبادئ الثورة اليونانية

وحقيقة الثورة اليونانية أنها كانت نتيجة للعلاقات السياسية بين
الروسيا وتركيا ، وحيلة من الحيل التى لجأ الروس إليها للقضاء على
تركيا ، فالروس والبلقان إخوة في البيئة الجغرافية والمذهب الدينى
والأخلاق ، وكان الروس يبذلون قصاراهم إذ ذاك للقضاء على تركيا
والوصول إلى البحر الأبيض ، فلما عز عليهم ذلك عن طريق القسطنطينية ،
حاولوا أن يبلغوه عن طريق إثارة شعوب البلقان إلى جانبها والعمل
على تحريرها من غير الدولة العثمانية ، فاما أدخلوها في زمامهم أو أصبحوا
ذوى الكلمة النافذة في مرافقها ونواحيها ، وكانت دول أوروبا
تعرف هذه الحقيقة ولهذا تدخلت في المسألة اليونانية وعملت على
انهاؤها ، ولولم ير الانجليز والفرنسيون والنمساويون شبح الروس
مستترا خلف دخان الثورة اليونانية لما تدخلوا وأعانوا اليونان على
التحرر .

فمن الخطأ إذن أن ننظر لثورة اليونان على أنها كانت ثورة شعب
ثقلت عليه وطأة الحاكم الاجنبى وسعى للحرية فقام يجاهد في سبيلها ،

(1) Toynbee : The Western Question in Greece
and Turkey P. 8

(2) Ibid P. 9.

نعم كان فيها شيء من ذلك ، ولكنه لم يكن كل شيء ، بل لم يكن أكبر شيء . حتى زعماء الثورة أنفسهم لم يكونوا يصعدون في أعماقهم عن وحى من الشعب اليوناني بقدر ما كانوا يعبرون عن ميول القيصر السياسية ، « فـكابود سترياس » مثلا - من أوائل زعماء هذه الثورة - لم يتوان عن خذلان مواطنيه اليونانيين حين أحس أن القيصر راغب في ذلك ، وقد كان في استطاعته أن يفعل كثيرا إذ كان وزيرا لخارجية القيصر في ذلك الحين ، بل كان نفر من « الشعب اليوناني » نفسه يبيع السفن لمحمد علي ويمد جيشه في المورة بالامدادات لكي يمضى في حرب مواطنيه .

أصبح الروسيا
في الثورة

ثورات البلقان إذن مظهر من مظاهر الصراع الطويل بين روسيا وتركيا ، ولم يكن اليونانيون أنفسهم إلا آلات يحركها الروس ، ومن دلائل هذا أن رجال الثورة لم يلبثوا أن أصبحوا قراصنة ينهبون السفن الانجليزية والفرنسية في البحر الأبيض وهم على علم بأن الانجليز والفرنسيين يعطفون على قضيتهم الوطنية ، ولكنهم لم يكونوا ليحفلوا لذلك ، إذ كان الغنم والنهب أحب إليهم وأقرب إلى أفهامهم من دعوى الحرية والاستقلال . ولا يقتصر ذلك على ثورة اليونان وحدها ، بل ينطبق على ثورة الصرب كذلك ، بدليل أن ميلوش ابرونوفتش الزعيم الصربي لم يتردد في قتل زميله الزعيم قره جورج حين وجد أن هذا الأخير ينافسه السلطان الذي وصل إليه ، بعد أن نال من الدولة حق الاستقلال الداخلي للصرب سنة ١٨١٧ (١)

المذابح بين الفريقين

أما الذي أفاق الخواطر وأجج نيران الثورة وأقام الشعب اليوناني كله عن بكرة أبيه فهي المذابح التي أنزلها كل من الفريقين بالآخر جهلا

وزيادة في التطرف والنكاية ، وهى مذابح تقع مسئوليته على اليونانيين وحدهم ، إذ لم يكن ينتظر أن يتلقى المسلمون بالسكوت نبأ مقتل عشرين ألف مسلم في اليونان ، بل المعقول أن يجيبوا عليها بمثلها ، ولو قد قيل لدعاة الانسانية من جماعات الهيلينيين - الذين كانوا يتشدقون بالانسانية في ذلك الحين في مجالس لندن - أن عشرة انجليز فقط ذبحوا في الهند لدفعت الهند ثمناً لذلك آلافاً من أبنائها ، ولكان دعاة الانسانية أنفسهم غرقى في الدماء إلى ذقونهم ، باسم الانسانية أيضاً ، ولكن هؤلاء المتحمسين الخياليين من أمثال بيرون وكشران كانوا صليبيين في الباطن ، وأن تستروا بالشعر حيناً وبالانتصار لآباء الثقافة الأوروبية حيناً آخر .

غير أن الغريب أن الدولة عجزت عن القضاء على هذه الثورة في
عمر الدولة من القضاء
على هذه الثورة
أدوارها الأولى ، لأننا لانستطيع أن نفهم كيف لاتستطيع الجيوش العثمانية أن تقضى على جماعات من الثوار وليس بينهم وبين بلادهم إلا بحر صغير ، ولا عبرة بالقول بأن اليونان كانوا قد أخذوا البحر على الأتراك وملكوا ناصية الشواطئ ، فقد استطاع ابراهيم باشا أن يصل البلاد ويعبر البحر الأبيض وهو أوسع وأحفل بالخطر ، هذا إلى أن بلاد اليونان كانت تضم في ذلك الحين حاميات تركية كثيرة كافية جداً للقضاء على الثورة لو شامت ذلك وعملت له باخلاص .

لا يعجل هذا إلا بأن رجال الدولة من الصدر الأعظم إلى الانكشارى
فساد رجال الدولة
البسيط كانوا قد فسدوا تماماً ، ولم تبق في قلوبهم ذرة من الوطنية أو الحمية أو الاخلاص أو الشرف ، ولولم تكن لدينا بينات صادقة لكفى بالهزيمة يئنة ، فما كان ثوار اليونان بحاجة إلى « نظام جديد » حتى تخمد حركتهم وإنما كان يكفي جداً أن يبرز لهم جنود مخاصون ذوو حمية وإخلاص ، ولم تكن الدول قد تدخلت بعد ، ولم تكن روسيا قد أسفرت عن

وجهها وكانت النمسا تومىء بالميل إلى معاونة السلطان على الروس ، وكان في الامكان تدارك الأمر وإقفال الباب وتسوية المسألة لو أن السلطان فرقة واحدة من الجند المخلصين الأوفياء . فلم يكن دودويل مبالغا حين همس في أذن السلطان محمود الثاني بأن أيامه لم تعد أيام سليمان القانوني (١)

كان الصدر الاعظم إذ ذاك خسرو الذى لقيناه في مصر منذ حين ، وكان لا يحفل أوفى السلطان أو اندحر ، فلم ينصرف في معمران القتال عن أن يناجز محمدا عليا ويكيد له ويعاينته ، فكان يتأخر عن معاونته ويتركه في ساعة الحرج أو يشى به عند السلطان ، كأن الأمر صفاء والحال رخاء ، وكان ما بينه وبين محمد على أعظم شأننا مما بين السلطان وبين اليونان ، وأما الجند فكانوا هم الانكشاريون ، وليس هناك دليل على انحطاط شأنهم أكثر من أنهم انهزموا أمام طوائف من الثوار على طول الخط ، واضطروا قائدهم خورشيد باشا إلى الانتحار بعد انهزامه عند « ترمويل » وبسبب هؤلاء الجند أعانت اليونان استقلالها بزعامة ماورو كرو داتس بطل ترمويل ، وديميتري ابسلنتي أخى اسكندر ابسلنتي في يناير سنة ١٨٢٢ .

في هذه اللحظة العصيبة تقدمت النمسا إلى السلطان بالنصيحة فالتفت بصره إلى واليه في مصر وقوته ، ونصحت له بأن يعتمد عليه في القضاء على هذه الفتنة قبل أن يتفاقم أمرها وتتدخل الدول فيها ، ولم يكن دافع النمسا إلى ذلك مجرد الاخلاص للدولة ولا مخض العدا للافكار الثورية وإنما كانت تأخذ نفسها بالتقية من روسيا ، وذلك بأن تقفل باب الثورة اليونانية قبل أن تجد روسيا الفرصة المواتية للتدخل وكسب حقوق من الدولة العثمانية .

موقف محمد علي
من الامر

أغلب الظن أن محمدا عليا لم يرحب بهذا الطلب ، فسياق الحوادث يدل على أنه كان مكرها عليه ، بـود لو ينفذ يده منه في أقرب الأوقات ، ذلك أنه عرف أن تلك الحرب ستنزف قواه وتفسد عليه نظامه ، وتشغله عن شئون مصر ومرافقها . وكان مهتما بها أشد الاهتمام في ذلك الحين . ولم ينس الرجل بعد الخسائر التي أصابته من حرب العرب على قلة الجدوى وانعدام الجزاء . لهذا كان محمد علي لا يفتأ يشكو تكاليف هذه الحرب ومساوات رجال الدولة وكيدهم له خلالها ، وزاد زهدا فيها حين النفي انجائرا لا ترضى عنه من أجلها فبدأ يتلمس الفرصة للانسحاب منها .

اثر تدخل مصر

تغير الموقف تماما في بلاد اليونان بعد تدخل المصريين في أمرها ، فانقلبت انتصارات الثوار هزائم ، وتراجعت سفنهم ، وطلب قرصانهم عرض البحر فرارا ، واستطاع الجيش المصري الجديد أن يجتاح البلاد ويستولى على معاقلها ويشل حركة الثوار تماما ، واستولى المصريون على امنع معاقلهم «مسولنجي» بعد حصار خمسة عشر شهرا في ابريل سنة ١٨٢٦ ، وانحط مركز الثوار أدبيا وبدا أن الثورة مقضى عليها ولاشك بدون تدخل الدول .

تدخل روسيا والنمسا

ولكن ، أترضى روسيا عن ذلك ؟ أيرضيها أن يساكنها في اليونان شعب قتي جديد ، ويقف في وجهها رجل كابراهيم يأخذ عليها السبل . لقد أثارت هذه الحرب لنضعف مركز السلطان لا لتقوية ، فكيف ترضى عن ذلك ؟ ولمح مترنيخ الروسية التحرك للعمل فعمجل يشد على يد محمد علي ويستحثه على الاسراع في القضاء على ثورة اليونان ، فبعث مندوبه بروكش أوستن الى محمد علي في الاسكندرية لاقتناعه بالاسراع في العمل ، وأخذ هذا الرجل يشرح لمحمد علي حقيقة نوايا الانجليز ويؤكد له أنهم إن يطلبون الا أضعاف مصر والقضاء عليها ، ويؤكد

له الخير العميم الذى يعود عليه من التعجيل بالقضاء على ثورة اليونان والقضاء على مطامع الروس ، واسكن محمدا عليا لم يقتنع ، لا لأنه كان متحمسا للسلطان ولا راغبا في القضاء على ثورة اليونان ، وإنما لأنه كان يريد أن يفوز من الأمر بصفقة طيبة ، وهى كسب ود الانجليز وأخذ إقرار مبدئى منهم باستقلاله ، كان ينتظر أن يتقدم الانجليز اليه طالبين اليه الانسحاب لكي يساوم في الأمر ويطلب الثمن ، وكما كان ستراتفورد دى رد كاف بعيد النظر حين لمح من محمد علي هذه النية فخاطب سولت مندوب انجلترا في القاهرة يسأله عما اذا كان الباشا لا يرى أن الافضل له أن ينسحب من الحرب ويفوز بنصيب من الجزية التي ستفرض على اليونانيين ، وربما ضمن له الانجليز ولاية الشام أيضا ، لقد أنكر سولت ذلك وعده أمرا خياليا ، لأنه كان يعتقد أن محمدا عليا يحارب مع السلطان بيده وقلبه (١) ، ولكنه لم يتمالك نفسه من الدهشة حين وجد أن العرض لقي من الرجل قبولا طيبا ، ومن ثم بدأت مفاوضات طويلة أبدى محمد علي فيها مكرا بعيدا وحصافة طيبة ، فكان يقول متحايلا « سيظل كل شيء على ما هو عليه الآن حتى الربيع ، فاذا أبدت حكومتك خلال تلك الفترة ما يدل على رغبتها في فعل ما يرضيني اسكنت على استعداد لأن أقبل ما تعرض على ، ولا التمس السبل لأسحب جندي من اليونان » ثم يقول مهددا : « فاذا لم يكن ذلك فسأجمع قواي كلها وأستعين بمالى من النفوذ عند السلطان وأجمع في يدي قيادة البحرية العثمانية . . . ثم أجعل نفسي على قيادة الحرب وأختم ذلك الأمر » (٢) ولم يلبث سولت أن عرف غرض محمد علي ، فأقبل يسأله عما يطلب من الانجليز فأجابته الرجل في شيء من المسكر أنه لا يرجو أكثر من أن تعاونه انجلترا في زيادة

المساومة بين الانجليز
ومحمد علي

(1) Dodwell P. 38

(2) Ibid P. 48

اسطوله وإطلاق يده ليمتد كيفما شاء في بلاد العرب ، وعرف سولت أن الرجل يطوى في نفسه أمرا هو الرغبة في ضمان موافقة انجلترا على اعلان استقلاله اذا اضطرته الظروف الى الوثوب بالسلطان.

بهذا ينجلي الأمر على حقيقته ، فلم يشترك محمد علي في حرب اليونان حبا في السلطان ولا كراهة لليونان ، فقد كان لا يأبى على اليونان في مصر أن يسافروا لينتقموا لآخوانهم في الثورة .. وإنما أراد أن يجعلها صفقة يجبر الدول بها على الاعتراف به وبقوته ، وقد كاد يدرك هذه الغاية لولا أن روسيا فوتها عليه عامدة أو غير متعمدة . فقد كان من الممكن أن يظل ميزان الأمور على ما هو عليه فترة طويلة في البلقان : فجيش ابراهيم قابض على زمام الأحوال ولا يلبث إلا قليلا حتى تختنق بقايا الثورة باستمرار الضغط على عنقها ، وكان من الممكن أن تجرى المفاوضات بين محمد علي والدول أثناء ذلك ، ولكن روسيا لم تطق الصبر ، لقد زال عنها كابوس الاسكندر ومخاوفه ، ونفضت عبء مترنيخ واستوى على عرشها نيقولا الاول ، فلم ير وراء هذا التسوية خيرا يرجى ، فعجل بالعمل ، وفاجأ السلطان بانذار نهائي عرض عليه فيه شروطاً مهينة أولها الانسحاب من بلاد اليونان ، فأفاق الانجليز من غفوتهم ، وخشى كائنهم أن يحل الروس المسألة على هواهم ، فعجل بارسال الدوق ولينجتون ليؤكد له تعزيز انجلترا لأراء القيصر ، ويؤكد له أنها لا ترى مانعا من أن تمنح اليونان استقلالاً داخلياً وتظل في طاعة السلطان .

بهذا انقطع أمل محمد علي في تحقيق غايته الكبرى ، ولم يبق أمامه إلا المضى في معاونة السلطان ، فسمح أخيراً لاسطوله الذي كان قد ارتهنه في الاسكندرية - لينتظر جلية الأمر — بالمضى إلى بلاد اليونان ، فمضى ليلقى مصيره في نوارين في ٢٠ أكتوبر سنة ١٨٢٠ ، فزاد ذلك في نفور

سعى روسيا وانجلترا
لاستقلال اليونان

نوارين

محمد علي من اليونان ومسألتهما ، فهذه صفقة انقلبت عليه ، فبعد أن كان يرجو أن يفوز منها بتأييد إنجلترا ، إذا به يجد نفسه ضحية الانجليز ، ولو قد اقتصر الأمر على ذلك لتعزى الرجل بالفوز بالاياب ، ولكن ما حيلته والسلطان يأبى إلا الاستمرار ، فيجمع رجال دولته ويستثيرهم لحرب الروس ، مما انتهى بهؤلاء إلى اعلان الحرب على الروسيا صراحة سنة ١٨٢٨ ، فلم يعد محمد علي يفكر إلا في الانسحاب ، وبدا عليه الندم للاشتراك في تلك الصفقة المشئومة .

موقف إنجلترا بعد
نوارين

ويبدو أن إنجلترا كانت على وشك أن تجيب محمدا عليا إلى ما أراد ، لأنها أحسست أن كارثة نوارين كانت أشبه بالخيانة لهذا الرجل الذي لازال يطمع في ودها ، فأعلنت أسفها لما أصابه من هذا الحادث الذي لم يكن منه مفر *The untoward event* (١) وسارعت باخراجه من التبعات الجسام التي ستترتب على الاستمرار في الحرب ، ووعدته بالاعتراف باستقلال شخصيته عن الدولة إذا هولزم الحياد فيما يلي من أدوار الكفاح ، فقد جاء في نص الاتفاق بين محمد علي وكدرنجنين أمير البحر البريطاني « أن جلالة الملك - من غير تدخل منه في العلاقات بين الباشا والسلطان الذي يعترف له الباشا بحق السيادة - مستعد للاعتراف لسموه بالحييدة التامة ، متى تعهد هو أيضا بمراعاتها مراعاة تامة . إذا ما نشبت الحرب بين الحلفاء والدولة » (٢)

الاتفاق بين محمد علي
والانجليز

انسحاب محمد علي

بهذا أحس محمد علي أنه أدرك بعض غايته ، فقد اعترف الانجليز بكيان له مستقل عن كيان الدولة ، فليسرع بالانسحاب قبل أن تأتي الحوادث التالية بما يعكر عليه صفوه هذا الغم اليسير ، فلم ينتظر حتى

(١) الأستاذ محمد رفعت : تاريخ مصر السياسي ص ١٧٥ (الطبعة الرابعة)

(٢) نفي المصدر ص ١٧٦

يأذن له السلطان بالانسحاب، وانسحب متعللاً بقلعة جنده أو بقلعة سفينه أو بانتشار الوباء في اليونان .

موقف الاتراك بعد
انسحاب مصر

أما السلطان فلم يكن في استطاعته أن ينسحب بهذه السهولة ، فكيف يجيب الدول الى ما تطلب منه وهو الموت أو أشبه شيء به ؛ بل زاده اليأس قوة ، فأبدى في آخر أدوار حرب اليونان بعض القدرة ، وكسب جنوده بعض النصر في سلاستريا ؛ وكان في استطاعته أن يوقف تقدم الروس عند أدرنة حين تقدموا نحو القسطنطينية ، ولكن الخوف ملك عليه وعلى وزرائه كل سبيل ، فأسرع بتوقيع معاهدة أدرنة سنة ١٨٢٩ وفيها اعترف باستقلال اليونان وقد وصفها الاستاذ دريو بقوله « لقد كان انتصارا باهرا لسياسة نيغولا ، الأول ، وربما معد معتدلا إذا قيس ما وصل اليه باطماع كثرينة الثانية وأسلافه الآخرين ، ولكنه عوض ذلك بامتيازات أدبية عظيمة كان يستطيع كسبها من بعض مواد المعاهدة ، لقد تفتحت له أبواب الامبراطورية العثمانية كلها من ناحية القوقاز ومن ناحية الدانوب ، ولقد تغلغل فيها النفوذ التجارى الروسى ، وأصبحت أدرنة الآن تحت رحمته بفضل الحماية التى اعترفت له بها المعاهدة على ولايات الدانوب (١) . »

معاهدة ادرنة

بلى ... أصبحت تركيا بأسرها ، ومركز الخلافة تحت رحمة الروس وقد كانوا مستطيعين القضاء على دولة الاسلام القضاء المبرم في ذلك . الحين ، ولكنهم تريثوا ، فقد كان في بقائها ، ذليلة خاضعة مفتوحة الأبواب مهيضة الجناح ، كسبا تجاريا وسياسيا لا تحصل عليه إذا ووريت التراب ونمت مكانها دولات جديدة طامحة (٢)

تركيا تحت رحمة
الروسيا

(1) Driault : OP. Cit, P. 128

(٢) راجع تاريخ مصر السياسى : ص ١٧٧

« في القسطنطينية ميت مسجى ، كما قال أحد الوزراء ، أما هنا فيوجد الصراع بين مصر
والجسم الحى ، هنا الحياة ، وسوف تدب الحياة في كل شىء في تركيا
أوروبا وآسيا الصغرى في الخريف ، فهلا نجد أن صاحب مصر
والشام ومكة وبلاد العرب وصديق شاه الفرس ومعبود أمته وكل
أصحابه في الدين ، هلا تجد هذا أقوى يدا من هذا الذى يقوم بالامر في
القسطنطينية ؟ سوف يكون لى في الخريف القادم مائة ألف من الجند
وثلاثون سفينة حربية ، فاذا احترموا رأى ومالى وفضيلتى فلن أطلب بعد
دمشق شبرا من الأرض ، ولن يجد السلطان في كسنايته أخلص منى ، وأما إذا
أقلقلوا بالى ، ومالوا الى خيانتى ، لم أتردد في الاستيلاء على حلب ، وسأذهب في
حيثما وجدت أرضا عثمانية ، وبهذا ينحسم النزاع بين رجلين : محمود
ومحمد على » (١) هكذا قال محمد على لقنصل فرنسا المسيو ميمو في
معرض الحديث بينهما عن النزاع بينه وبين الدولة العثمانية ، وهى
قالة صادقة تكشف لنا عما كان يدور برأى هذا الرجل قبل حرب
الشام ، وقبل اشتعال الخصومة بين مصر وأوروبا ، فهذا الرجل يرى
في الدولة جسدا فانيا لا أثر فيه للحياة ، ويرى في مصر الناهضة جسدا
فتيا يتوفز بالقوة والحياة ، فكيف يحكم الميت الحى ، وكيف يحكم
الضعيف القوى . ثم هو يرقب الحياة بعين مفتحة ونفس لا تغفل ،
لذا كان يعلم أن مصير هذه الدولة بات قريبا ، فربما كان في الخريف المقبل ،
ولهذا انشأ يستعد ويعد العدة لكي يكون على الأبهة ساعة العمل ،
وهو لا يكره الدولة ولا يحقد عليها ، وإنما يرق لها ويشفق عليها ، ويرى
يده أحنى عليها من أولئك الذين يحكمون عليها بالموت بسوء السيرة
وعبث الألاعيب وضلال الجهل ، وهو يشعر أنها لا تسكره بل

حقيقة شعور محمد
على نحو الدولة

(١) Duault : L'Egypte et l'Europe P. XXVIII

تجبه لأنه صديق المسلمين كافة وأمل الاسلام في كل مكان ، ولكنه
يعرف أن هناك نفرا يكيدون له ويأبون الاعتراف بفضله وقدره ،
وهذا ما يغير نفسه ويقلق باله ، ولو قد قدر هؤلاء النفر مقامه واعترفوا
بفضله لما طلب الرجل غير دمشق يحكمها باسم السلطان ، ولكن
أخلص المخلصين لخليفته ، أما إذا أبى هؤلاء النفر الاعتراف بقدره
فدونه وأرض الدولة ليعرفوا قدره ويقروا بمكانته ، فلم يكن الرجل
جسعا ولا ناثرا ولا عنيدا يرضى شهوة خاصة في نفسه ، وإنما كان
يبغى خير الدولة الاسلامية كلها ، ويرى الخير لها بين يديه وفي رعايته ،
وهو رفيق بالسلطان مشفق عليه ، يرجو أن يعاونه فيما يبغى من
الاصلاح ، ويحب لو أطلق يده في الشام يصلح أمرها ويبعث فيها الحياة
التي بعثها على ضفاف النيل .

موقف الدولة
من محمد علي

أما في القسطنطينية فكان الأمر على خلاف ذلك ، كان السلطان
محمود رجلا واسع الذهن شديد الشعور بالمرحج الخطر الذي كانت تقع
الدولة فيه ، وكان لا ينفك مفكرا فيما ينقذ الدولة من هذا المموى
فأعدم جنده القديم « الانكشارية » سنة ١٨٢٦ ، وأخذ في إنشاء
جيش جديد ، ومضى يبعث الحياة في هذا الخراب الذي أحاط به
فكان خليقا به أن ينظر إلى محمد علي في كثير من عدم الرضى ،
فهو يرى نفسه سلطان الدولة المسئول عن أرضها كلها ، عليه أن يأخذ
ولاياته بالطاعة ، ويحافظ على بلاده كاملة غير منقوصة ، فطالب
محمد علي مرفوضة من أساسها لأنها ترمى إلى فصل جزء من الدولة
والاستقلال به ، ثم هو يريد أن يفرض أمره ، فعلى الخليفة أن يأبى
والإلّا لم يعد خليفة ولا سييدا ، وكان نصحاؤه ووزراؤه يعرفون منه
ذلك ، ولكنه لم يكونوا يحسون إحساسه ، فهم نفر من الخونة الانذال
يبيعون الدولة ، ويأخذون السياسة مجالا للعبث وارضاء النفوس في

هذا الوقت العصيب ، كان على رأسهم خسرو عدو محمد علي : لا يرى في النزاع بينه وبين السلطان إلا فرصة لاشفاء اللدد الذي يشعر به نحوه ، ولا يعرف لسيادة السلطان على ناحية من النواحي معنى إلا أنها تضيف مبلغا من المال يدخل خزائنه ، فسهل عليه بالطبع أن يستغل شعور السلطان نحو محمد علي ويوجهه الوجهة التي ترضاه لنفسه ، فساق الدولة بهذا العبث المزمري إلى هاوية سحيقة ، قضت على كل أمل لها في الحياة والنهوض .

وحول هذين وقفت الدول تؤجج النار وتثير الخلاف ، لأن موقف الدول أثناء النزاع كلا منها ترجى أملا من وراء قيام الخلاف أو سكونه ، ولا تبغى آخر الأمر إلا هلاك الاثنين معا ، ولا تكاد تشعر نحو أحد منهما بعاطفة ولا اشفاق ؛ تختلف فيما بينها اختلافا هينا أو يسيرا ، وتتصاحب أو تتخاصم ، ولكنها تتفق أخيرا على كراهية السلطان وواليه معا ، كراهية لا تمنعها كلها — وهي خمسة دول عظمى — من الاتحاد على حرب محمد علي وهو الضعيف المسكين ، ولو قد كانت هذه الدول تريد بأحد الخصمين خيرا ، لحل المشكل وانتهى الأمر كما انتهى في اليونان وفي باجيكيا وفي مستعمرات أسبانيا في أمريكا ، وما كانت مشكلة مصر أشد تعقدا من أى هذه المشكلات ؛ ولكنها كانت مشكلة الشرق والغرب ، مشكلة أجيال وخصومة أحقاد ، فأين منها الانصاف والعدل والسداد .

فقيصر روسيا - نيقولا - ووزيره نسلرود وإخوانه كلهم يرون أن الوقت قد حان لتحقيق حلم روسيا القديم والخلاص من الدولة العثمانية واحتلال ناصية البحر الأسود والنزول إلى البحر الأبيض ، ولو قد ترك الأمر لتصرفها لحلت المشكل في أيام ، فقضت على الدولة واحتلت القسطنطينية وتركت محمدا عليا يفعل بالشام وبلاد العرب

ما يريد ، ولكنها كانت ترى الدول الأخرى ترقبها بعين الحذر ، وترى إنجلترا على وجه الخصوص تتخوف نياتها وتخشى غدرها بطريق الهند ، فلا بد لها من مراعاة إنجلترا ومحاولة اقناعها بأنها لا تنوى بها شرا ، فهي تتقرب إليها وتبعث رسلا إلى لندن بين الحين والحين يعلمون هذا الحب والولاء ، ثم هي لا تنسى اثناء ذلك أن تزيد نفوذها السياسى والاقتصادى فى أنحاء الدولة ، فإذا لم تستطع القضاء على السلطان فلتبسط عليه حمايتها ، ولتأخذ عن الانجليز هذا الدرس للصالح ، ومادام قد عز عليها أن تنزل جندها أرض الدولة على عداء ، فلتنزلها على حب وحماية ، لتدفع الخوف على كيان تركيا من محمد على ولتسارع ببذل العون ما استطاعت الى ذلك سبيلا .

موقف إنجلترا

وفى طرف القارة تقف إنجلترا ، وقد مدت أساطيلها فاحتلت البحر الأبيض وراقبت الأحوال فيه خوفا على طريق الهند الذى كان يخترق أرض الدولة خلال مصر وخلال الشام ، وكانت تعلم أن سلامتها رهونة بسلامة هذين السبيلين أى بسلامة الدولة العثمانية ، فهي تأبى على الروس أن يعتدوا عليها ، وترد محمدا عليا إلى حدوده إذا أراد بها بغيا ، وهى تحارب السياسة الفرنسية التى تعمل على كسب ود محمد على والسيطرة الأدبية والدينية على المارونيين فى جبال لبنان ، وهى تعرف أن فرنسا تقول ولا تعمل ، فهي لا تخشاه ولا تقيم لغضبها أولرضاها وزنا كبيرا وإنما هى تخشى الروس ، أولئك الذين يندفعون بجموعهم الحاشدة فى غير روية ولا تفكير .

موقف لوى فيليب

وبين هاتين تقف فرنسا لا تكاد تنهض على أقدامها ، على رأسها ملك يحس فى أعماق نفسه أنه مدين بعرشه للانجليز ، فهو لا ينفك يرصد موضع رضاهم ولا يطيق لهم خلافا ولا شيئا يشبه الخلاف ، يعيش فيها شعب ثقلت عليه عقايل الثورات والحركات ، وحيرته الدنيا فى

أمره فهو لا يستطيع عملا ، ولكنه يحيا بذهنه ما يزال في الامبراطورية الماضية لم تفارقه بعد نشوة الانتصارات ، فهو لا يفتأ بين الحين والحين يشور لكي يظهر للعالم قوته ، ويرد الناس عن حياضه ، وربما ذهب مع الغضب مبلغا لا يكون بينه وبين الحرب فيه الا خطوة ، ولكنه لا يلبث أن يسترد صوابه ويعود الى نفسه ويعرف قوته وحاله ، وهنا يفارقه الحماس ويسكن الغليان كأن لم يغن بالأمس .

هذه العيون تنظر هذه الدول الثلاثة الى المسألة الشرقية ، تراقب كل منها الأخرى وتخشاها أشد الخشية ، وربما كره قيصر روسيا ملك فرنسا فاتجهت الدولتان بالعداء إحداهما نحو الأخرى ، وربما خافت النمسا اتساع سلطان روسيا في تركيا والبلقان فانضمت الى انجلترا ، وربما أملت بروسيا أن تقع حرب بين الانجليز والفرنسيين فتجد فرصة تشارفيها من هؤلاء الآخرين — الذين آذوها في السنوات الماضية أبلغ الأذى — فانضمت الى انجلترا ، ولم تبال أن تشترك بذلك في خنق أمة لاحول لها ولا طول .

كان السلطان والوالى يفهمان ذلك حق الفهم ، وكان كل منهما موقف مصر وتركيا من الدول يعرف من أمر هذه الدول ما تعلن وما تبطن ، فأما السلطان فقد ضمن السلامة فما عاد يخشى كثيرا ، فألقى الحبل على الغارب وترك الأمور تجري في أعنتها ، وهو واثق من أنه واجد العون من الروس أو الانجليز في أى زمان ، ومضى يشتط في معاملة الوالى ويفرض عليه طاعته فرض القوى المتجبر الذى يعتز بيمينه وسلطانه لا يمين غيره وسلطانه ، وحققت الدول ظنه فيها فطغى وتجبر ومضى في العناد إلى حد بعيد ، وأما الوالى فكان يعرف أنه في مسبعة لانجاة له فيها إلا بسلاحه وحيلته ، فاستنفذ هذين إلى حد أرهق البلد الذى يمهده بالسلاح ، وحطم الرأس التى ترسم له الحيلة ، فانهى بهذين إلى خمول وذهول .

مسئولية محمد علي

ولم يكن لمحمد علي كذلك محيصا عن عداء الدولة العثمانية والوثوب بها ، فقد كان خرج إلى حرب اليونان على أمل الفوز بولايات الشام . وقد كانت الدولة وعدته ذلك ، فكان من الحق أن يعطى ما وعد به بعد إذ قام بقباعته في حرب اليونان خير قيام ، فقَد فيها أسطوله ومعظم جيشه وأنفق من المال شيئا كثيرا ، فاذا أبى السلطان عليه ذلك لم يكن له بد من أن يستعين بالقوة على تحقيق ما عجز دون الحصول عليه بالرأى والاقتناع ، بل يبدو أنه لم يكن له مفر من عداء الدولة لأنها كانت على نية الالتجاء إليه كلما حزن بها أمر ، فقد استدعته لاختضاع الثاقرين في الرومى ولما يفرغ من عقايل حرب اليونان ، كأن هذا الرجل إنما كان يعمل لخدمة هذا النفر من المبطلين المفسدين في القسطنطينية ، يستنزف دماء شعبه ويرهق نفسه وابنه لكي يريحهم من العمل ويؤمنهم من الخوف ، وليس له بعد ذلك نصيب من مال أو شكران ؛ إنما كان على الدولة أن تسلم له بما طالب فقد كان الرجل خيرا مصلحا بل كان خير من في الدولة كلها ، وكانت ولايات الشام التي طلبها في حاجة إلى رأيه ويده ، « فقد كانت في حال سيئة ، وكان الأمن فيها مروعا إلى حد استحالة معه على الرسل أن ينفذوا خلالها دون توقع الأذى والعدوان ، وقد طال بها الزمن يحكمها باشوات يستنفذون وسع جهدهم في إرضاء جشعهم ، ولم يكن أحد يستطيع أن يظهر بأى مظاهر الغنى ، وكان الجميع فقراء أو تظاهروا بالفقر ، وكان أهلها كلهم — بأديانهم المختلفة — مختلفين متدابرين طرائق » (١) فاذا كانت الدولة تريد من بقائها على هذه الحال ، وما ضرها لو أطلقت فيها يد هذا القدير فأصلح من شأنها واستنقذها من مظالم آل الجزائر في عكا ، والشهابيين في بيروت ، وخلص بها من فوضى منازعات

حال الشام قبل
الفتح المصرى

الدين في كل مكان ، لو فعل السلطان هذا ل زاد سلطانه على الشام ولم يضعف ، فقد كانت هذه الفوضى فرصة طيبة للدول لتدخل في أمور هذه الولايات وتأتي فيها من الأمر ما تريد ، فاستطاع الانجليز أن ينشروا متاجرهم ويشرفوا بأنفسهم على طريق الهند ، وأمكن للفرنسيين أن يسيطروا سلطاناً أدبيا على لبنان وآله من الموارد ، فلم يكن للسلطان ظل من القوة هناك ، فماذا ضره من مطالب واليه ؟

النزاع بين محمد علي والدول

يبدو أن النزاع لم يكن بين الوالي والسلطان ، بل كان بين الوالي والدول ، فقد اصطاح السلطان والوالي مراراً أثناء الكفاح وبداء عليهما الميل إلى الهدوء ، فابت الدول ذلك وأخذت تثير أحدهما على الآخر وتغريه به ، بل أثبت انجارتا وحدها ذلك وأصرت على القضاء على محمد علي و « إلقائه في النيل » كما قال بلهرستون ، من هنا يصح أن ننظر لهذا النزاع على أنه مشكلة دولية ، لا مسألة داخلية ، وأن نعتبره دوراً من الكفاح بين الشرق الاسلامي والحضارة الأوروبية ، فالنزاع في الشام كان بين الانجليز ومحمد علي لا بين هذا الأخير والسلطان ، وهو نزاع يشهد التاريخ فيه للوالي بأنه لعب فيه دوره بمهارة واقتدار ، بحيث نستطيع أن ننظر إلى سياسة محمد علي حيال المسألة السورية كقطعة طريفة من السياسة الذكية الرشيدة .

ضرورة ولايات الشام لمحمد علي

وكانت ولايات الشام لازمة لمحمد علي في ذلك الحين ، فقد كان له أسطول لا يستغنى عن أخشاب لبنان ، وكانت له متاجر تصالح لها أسواق الشام ، ولم يكن في استطاعته أن يترك فلسطين — مفتاح بلاده — ليهده الأعداء منها ، وليقيم فيها ولاة لا يدخرون وسعاً في أيدائه والنكاية به كأنهم موكلون بهذا (١) ، وقد كان الانجليز على حق حين تخوفوا

مطالبه لأنه لم يكن يدعم أحرارا في الشام يأتون من الأمر ما يريدون كما هم الآن .

الروسيا تحول النزاع
من مسألة داخلية إلى
مسألة دولية

ولم يكن تقدم المصريين الأول في الشام بالأمر الجديد ولا بالحدث الخطير ، فقد كانت المازعات والحروب دأمة بين ولاية السلطان ، لا يفتأون يجربون فيما بينهم اسبب أو لغير سبب ، فربما أصلح السلطان بينهما أو تركهما على حالهما ما دام اختلافهما لا ينقص المال الذي يأتيه من أحدهما ، وقد كان من المعقول أن يظل الشام في يد محمد علي زماناً بعد انتصار ابراهيم الحاسم في قونيه في ٢١ ديسمبر سنة ١٨٣٢ ، لولا تدخل روسيا الذي أخاف الدول ودفعها إلى التدخل ، فقد كانت روسيا تعتبر الدولة العثمانية منطقة نفوذ لها ، وكانت مصالحها تقتضى بقاء الدولة على حالها من الضعف ؛ فلما رأت أجناد مصر يحتاجون الشام ويشرفون على جبال الاناضول ، تخوفت مسيرهم إلى القسطنطينية واستيلاهم عليها ، وأنهاضهم الدولة من جديد والقضاء على مطامعها فيها لهذا حرصوا على أن يثيروا مخاوف السلطان من ناحية واليه من بادية الأمر (١) ، فبالغوا في تصوير المسألة وجعلوا حرب محمد علي للجزار حرباً للسلطان ، وأخرجوه بذلك عن حله ، فتورط في عدا محمد علي ، ومن هنا يسهل علينا تصور السبب في توجيه السلطان قواته لحرب محمد علي من جهة وتحريره الولاية الآخرين عليه من جهة أخرى ، ثم حذفه اسمه واسم ابنه من سجل الباشاوات الذي نشر في عيد الأضحى الذي تلا ذلك أى سنة ١٨٣٢ ، وقد كانت الدلائل كلها تدل على أن محمداً علياً لم يكن يرجو شيئاً بعد الشام ، فلو قد كان السلطان فاضه قبل قونيه لأراح نفسه من عناء طويل ،

ولكن تخويف الروس أرمهه فوجه نحو الوالى قوته كلها ، فسار الصدر الأعظم رشيد محمد نفسه نحوه ، وبهذا لم يعد الأمر نزاعاً بين محمد على والجزار بل بينه وبين السلطان ، ولو قد أراد محمد على القضاء على السلطان إذ ذاك لكان عليه فى شغل من الدول ، ولما أرسل يستوقف ابنه عند كوتاهية بعد أن أصبحت القسطنطينية قاب قوسين أو أدنى فلم يكن الرجل يفكر فى الاستيلاء على بغداد فى ذلك الحين ولم يأمل فى الصدارة العظمى فى ذلك الحين كما زعم المسيو دريو (١) .

ولما كانت روسيا تذكره أن يتدخل غيرها فى منطقة نفوذها . فقد الروسيا تسرع بالتدخل حرصت على الاسراع بقفل الباب قبل أن تتنبه الدول الأخرى ، غير عالمة أن تدخلها هذا هو الذى سيثير مخاوف الدول ويدفعها إلى التدخل ولو قد اصطنع الروس الكياسة فستروا أغراضهم لسكان فى الصالح أمل ولما اضطربت الأمور هذا الاضطراب ، ولكنهم بالغوا فى سوء التصرف — لو استقام هذا التعبير — فارسلوا قائدهم مورافيف Muraviev إلى محمد على فى الاسكندرية لاليتفاهم معه ، بل ليأمره بالانسحاب من الشام جميعه وتسليم أسطوله إلى السلطان وإنقاص جيشه إلى عشرين ألفاً فقط ، وهذا بعد شهر واحد من انتصار قونيه ، أى والرجل فى غلواء النصر ونشوة الظفر ، ولو طلبوا إليه هذا وهو فى عقابيل الهزيمة وذل الانكسار ، لأباه وهو على حق فى الابهاء .

هذه الخطوة الروسية فتحت أبواب البلاء . لاعلى محمد على وحده بل على السلطان والروسيا ، فقد ثار ثائر الوالى حين وجد السلطان يستعدى عليه الروس النصارى « وتفشى الغضب على السلطان فى نفوس الرعية حتى لقد سبه درويش صغير على قارعة الطريق (٢) ، وأحس

غضب الرعية على السلطان

(١) Driault : Question d'Orient; P 141

(٢) Ibid

محمد على بذلك فدارت برأسه فكرة خلع السلطان بالمضى إلى القسطنطينية ، بهذا صارح باركر مندوب إنجلترا ، وأرسل لابنه ابراهيم يطلب اليه أن يحصل على فتوى تشرع له عزل السلطان قبل أن يعلن خلعها ويسقطه من الخطبة ، وقبل أن يمضى إلى القسطنطينية لينزل منها هذا الذى لا يأنف أن يستعدى خصوم المسلمين على المسلمين^(١)

تدخل الانجليز
والفرنسيين

أزاء هذا التقدم الروسى لم يسع الانجليز والفرنسيين إلا أن يتدخلوا ، فما كان بالمرستون ليترك الروس يسيطون حمايتهم على الدولة ويخاطبون الناس باسمها ، وما كان للوى فيليب أن يسمح لعدوه نيقولا - الذى كان لا يفتأ يعيره ويستثيره - بأن يستمرى هذه اللقمة السائغة ، ومن ثم أسرع الاثنان بالعمل ، فأما الفرنسيون قد كانوا لا يطلبون أكثر من كف يد الروس واعادة الدب إلى عقاله ، فاكثفوا بأن وجهوا لمحمد على النصيح بان يلزم القنوع فى مطالبه ، وأن يعجل بالصلح مع السلطان قبل أن يتسع الباب إذا استمرت الحرب والشجناء ، ولهذا عجلت بارسال مندوب خاص هو البارون بوايكومت^(٢) ليعجل بذلك .

أما الانجليز فلم يلبث بعد رد الروس مطالب أخرى ، فقد رأوا رأى العين أن هذا الرجل الناهض قوى ، وأنه ينهى عن قوة مقبلة وفتح عظيم . فهذا الشام له طال الحين أو قصر ، وطرق الهند فى يديه عن أى السبل فهو لا يقل عن الروس خطرا والقضاء عليه ضربه لازب ، وهنا بدأ بلمرستون يلعب دوره الخطير فى هذه المسألة ، وهو دور بالغ المؤرخون كل المبالغة فى تصويره والاعجاب بالرجل من أجله . وينسون أنه كان يغالب خصما ضعيفا هو محمد على ودولة صغيرة هى مصر ، وينسون انه لم يكن على شئ من السكياسة لامع مصر وحدها بل مع فرنسا أيضا ،

(1) Dodwell p, 114

(2) Douin : Mission du Baron de Boissecomte أظن

وأنه كان يلعب لعباً مكشوفاً صريحاً في أكثر الأحيان ، وأنه كان يغامر في غير حذر معتمداً على أسطوله في البحر الأبيض ، ينسى المؤرخون هذا ليعتجبوا بانتصاره في آخر الأمر ، مع أن الرجل لم يكن له مفر من من الانتصار — إذا استقام هذا التعبير — مادامت المسألة صراعاً بين أسد وحمل ، ومادام على ثقة من انتصار أوروبا له على خصمه الضعيف

كان قنصل إنجلترا في مصر في أوائل أيام الصراع الكولونيل باركر ، فاثاره انتصار محمد علي ولم يملك غضبه ، فلم يهتبه باستيلاء ابنه على عكا ، وانتهاز فرصة عزل السلطان له لكي يتحدث عنه بازدراء فكان ينعمته بالوالى السابق حيناً وبالثائر حيناً آخر ، فوجد بالمرستون أنه يوشك بذلك أن يفصح نيات الانجليز ، فسارع بعزله وأقام بدله الكولونيل باترك كامبل أقدر معتمدى بريطانيا في مصر ، وأوسعهم فهماً ابان حكم محمد علي (١) وأكثرهم عطفاً عليه وتقديراً لأعماله ، وإنما احتال بالمرستون بذلك ليعرف بواسطة كامبل نوايا محمد علي وأغراضه عن سبيل المودة والصداقة ، وفهم محمد علي ذلك فغير أسلوبه من المصارحة إلى الدهاء ، فبعد أن كان يصارح باركر برغبته في فتح فلسطين ، وبعد أن كان يعلن له رغبتة في عزل السلطان ، أسرى كامبل أنه لا ينبغي بالدولة شراء ولأنه يرجو انقاذها وإصلاح شأنها ، وأنه لازال العبد المخلص للدولة التركية وإن خاصم سلطانها ، ولم يستطع بالمرستون أن يفعل أكثر من ذلك إذ ذاك لاشتغال جيوش إنجلترا في هولندة والبرتغال وغيرهما ، فوقف يرقب الحوادث ، وألح عليه السلطان في التدخل فردسفير إنجلترا السير ستراد فورد دى ريدكليف قائلاً : « ان المسألة أصعب مما يتصور الباب العالي ، وإن الحكومة البريطانية ستحتاج إلى وقت تعجيب فيه ،

(١) Dodwell; Op. Cit. P. 112 - 113

ولكنها — في الوقت نفسه — سترسل الى محمد علي في أقرب فرصة ،
معبرة عن الاسف الذي سببته خطته وعن أملها في أن يعقد الصلح
مع السلطان مباشرة (١) »

فرنسا ومحمد علي أما فرنسا فلها في السياسة سبيل أخرى ، فهي لا تعتذر عن عجزها
عن التدخل الفعلي ، وإنما تريد أن يطيعها الناس طائعين مختارين ، وأن لا يعصى
محمد علي لها أمرا ، أليس هو صنيعتها وثمره جهدها ، فقيم يعصاها ولا يسمع
نصيحها ؟ وقيم حاجتها للجنود تقهره بهم وفي استطاعتها أن تأمر فيطيع
من غير مطاولة ولا مكابرة ؟ ولا يكلفها الأمر إلا أن يتحرك مندوبها
في القسطنطينية « دى فارن » فيأمر إبراهيم بان يقف عقب قونيه ،
فيقف إبراهيم ويمثل ، فإذا لم يمثل وتقدم ، استطاعت فرنسا أن تحل
الأمر من جهة أخرى ، فتأمر السلطان بأن يعيد الروس الذين أتوا لعونه ،
فإذا أبى ، كان عليه أن يجيب مطالب محمد علي دون تردد أو سؤال (٢) .

وليس أغرب من موقف فرنسا وتصرفها في هذه الأزمة الطويلة
إلا دعوى أورخيها أنها مشكورة على ما فعلت ، وأن مركزها في البحر
الأيض كان يستدعي ذلك التصرف ويبرره ، وليس أغرب من
دعواهم بأن الفرنسيين عاضدوا مصر وتولوا حمايتها في هذه الأزمة
التي كاثرها الأعداء فيها ، مع أن كل الأذى الذي أصاب محمدا عليا لم
يكن سببه إلا هذه الدعوى ، فقد استشارت عليه الانجليز والروس .
يزعم مؤرخو فرنسا أن البحر الأبيض كان في ذلك الحين بحيرة
فرنسية « كان سلطان فرنسا — إذ ذاك — عظيما في البحر الأبيض
المتوسط ، فكانت تبسط على الأحراز في إيطاليا شبه حماية منذ

مركز فرنسا في
الليمان وذلك الحين

(١) تاريخ مصر السياسي ، للاستاذ رفعت ص ١٩٠

(٢) تاريخ مصر السياسي ، للاستاذ رفعت ص ١٩١ — ١٩٢

احتلالها انكونا ، وكان لها في اليونان حزب قوى جدا لا يابث أن يصبح صاحب السلطان النافذ فيها ، وكانت فتوحها في الجزائر تسير سيرا موقفا على رغم كيد الانجليز . . وكان الفرنسيون أصحاب الرأى المسموع في مصر ، إذ كان نصحاؤهم أدنى الناس إلى ثقة الباشا ، ومن هناك امتد سلطان فرنسا حتى فلسطين والشام ، وطرق أبواب آسيا الصغرى والعراق ، فلم يكن الناس مخطئين حين زعموا أن البحر الأبيض كاد يصبح إذ ذاك بحيرة فرنسية» (١) كما يزعم المسيو دريو ، ولو قد قرأ هذه السطور سولت أو تيير أو جيزو لاستحيى وهو يرى أساطيل إنجلترا تذرع هذا البحر وتملك نواصيه فلا تجرؤ فرنسا أو غيرها على الخوض فيه إلا بعلم الانجليز ورضاهم ، وما كانوا بعاجزين عن أن يحرموا على الفرنسيين نزوله الآن ، وقد حرّمه عليهم في أوجههم أيام نابليون ، هذا وقد كان السلطان وواليه لا يحفلان لفرنسا نصف حقلهم للروسيا أو لانجلترا ، ولا حاجة بنا إلى القول بأن احتلالهم لانكونا أثار عليهم بغض الايطاليين لاجبهم ، وأن أهل اليونان كانوا يعرفون أن استقلالهم منسوب للروس والانجليز ، ولم يفعل الفرنسيون أكثر من مظاهرة في البحر أثناء نافرين ، ومظاهرة في البر قام بها الجنرال ميزون حين نزل اليونان في ختام ثورتها ببضعة آلاف من الفرنسيين لم يشتركوا في موقعة ولم يغيروا أمرا .

إنما الحقيقة أن محمدا علياً شقى بهذه الدعوى الفرنسية الباطلة . ادعاء الفرنسيين حمالة محمد علي تؤذيه شقى بها لأنها أثارَت مخاوف الانجليز من ناحية فاتهموه دائماً بأنه يعمل لحساب الفرنسيين ، بخاربه وهم على ثقة من أنهم يحاربون فرنسا . ولو قد سلم محمد علي من تهمة العمل لحساب فرنسا لما أصر الانجليز

على عناده هذا الاصرار ، فالانجليز أكيس من أن ينفقوا كل هذا الجهد في عدا دولة ضعيفة كمصر الناشئة . وشقى بها محمد على مرة أخرى ، لأنها غررت به ودفعته من حيث لا تنوى معاونته فعلا ، فركبته يصلي نار الهزيمة وحده ، وليتها اكتفت بذلك ، بل أهوت بيدها على رأسه في آخر الامر كالأعداء والخصوم .

وكان محمد على يرقب الحوادث إذ ذاك بعين القلق ، فقد أفرعه تقدم الروس وانزالهم الجند لعون السلطان ، وكان يرجو مخلصاً أن يتقدم اليه هذا الأخير في طلب الصلح قبل أن يستفحل الأمر ويقتتل الروس والمصريون على القسطنطينية ، فتستطير أوروبا كلها ناراً حامية ، وكان يرجو أن يعينه الله على الاتفاق كما نصحته انجلترا وفرنسا ، وبلغ منه الخوف مبلغاً عظيماً ، حتى ليذكر «سنت جون» — وهو شاهد عيان — أن الباشا تأثر وجمع ٥٠٠٠٠ مصري لحضور صلاة جامعة امام قصره سائلين الله النصر للباشا ورجوع جنوده ظافرين سالمين (١) .

قلق محمد على

فإذا هو في هذا إذ أتاه الفرج ، وإذا برسول السلطان يطرق بابَه عارضا عليه الصلح ، مقدماً له الشام كله علاوة على مصر ، فرضى جذلان طرباً ، وطاول فترة من الزمن حتى كسب لابنه درجة محصل لولاية اطنه ، فانتهى الأمر بذلك واستراحت النفوس بهذا الصلح الذي عرف بصلح كوتاهيه في ١٦ مايو سنة ١٨٣٣

انتصار محمد على
في الدور الاول من
الكفاح

صفيت المسألة بين الوالى والسلطان ، ولكنهما لم تصف بينهما وبين الدول ، فقد رضى السلطان بهذه الحال واطمأن إلى أن وجود محمد في الشام لن ينقص من ماله أو هيئته . واطمأن محمد على الى مركزه الجديد فاخذ يثبته ويقويه ، أما الدول فلم يرضها ذلك ، فكيف تقفل روسيا الباب وتترك الدولة مطمئنة البال ، وكيف تسمح لها بذلك الرخاء الذي قد

بين مصر والدول

(١) مصر في حكم محمد على — سنت جون ، ج ٢ ص ٥٢٤

يمكنها من اصلاح شأنها والوقوف في وجه روسيا ومطامعها . معاهدة هسكار سكلسى
فلتسرع إذن ولتؤكد حمايتها للدولة من أى اعتداء ، وذلك لتستثيرها
إلى عدااء محمد على من جهة ، ولتتغلب على أى نفوذ دول آخر في
القسطنطينية من جهة أخرى ، فأرسلت سفيرا فوق العادة هو الكونت
أرلوف Orlof وكلت إليه مهمة عقد معاهدة دفاعية مع الدولة العثمانية ،
ورحب السلطان بذلك لأنه عرف « من تجارييه الحديثة درسا جديدا ،
وهو أنه لما اشتدت الازمة وانهمزت جيوشه ولى وجهه نحو أصدقائه
يطالب المساعدة الفعلية ، فلم يسعفه أولئك الذين طالما أعلنوا إخلاصهم
له (إلا) بالكلام والقول الجميل ، أما روسيا فلما وجه إليها الطلب
أجابته على الفور بالجيوش والأساطيل ، من ذلك عرف السلطان
الناحية التي يجب أن يولى وجهه شطرها إذا ما اضطر لطلب
المساعدة (١) » ، ومن هنا عقدت معاهد سرية عرفت باسم « هنكار
اسكلسى » تعهد القيصصر فيها بالدفاع عن السلطان ، وأخذ السلطان على
نفسه ان يقلل المضايق في وجه السفن الحربية لأية دولة عدا روسيا

بهذا كادت الصفقة كلها أن تخرج من يد الانجليز ، ويبحث الدولة اثريا في السياسة العام
لمحمد على ونيقولا مناصفة ، وقعت طرق الهند في يد الأول وأصبح
شرق البحر الأبيض تحت رحمة الثانى ، فلودام الأمر على ذلك لانقطع
رجاء الانجليز في الصلة بالهند عن هذا السبيل ، ولأمكن الروس أن
يهاجموا آمنين وقد أحكموا رتاج الباب ، فلا يملك الانجليز لهم دفعا ،
ولهذا لم يلبث بالمرستون ان أحس أن هذه القسمة ثقيلة على نفسه ،
وما يطيق الرجل صبورا على هذا الحل الذى أصبحت الدولة به شطرا
للروس وشطرا للفرنسيين .

من ثم أنشأ بلهرستون يعمل مجد ونشاط ، وكان يرى أن محمدا عليا سبب هذه المصائب كلها ، أليس هو الخطر الوحيد الذي يدفع السلطان إلى الاحتماء بالروس ، وأليس هو الستار الذي يختفي خلفه الفرنسيون ، ففيم بقاؤه؟ ولم لا يقضى عليه ويستراح من شره ؟ ولم لا تسلك إنجلترا كل السبل للوصول إلى هذه الغاية ، وإن تشفع للرجل عند الانجليز إصلاحات ولا تقدم ولا عمران ، وإن يشفع له جهد بذل أو مال انفق أو شعب ضحى نفسه للوصول إلى هذه الغاية ، ليهدم العمران وليذهب الجهد هباء ولترم الضحية للكلاب ، ليسلم الانجليز ويعيشوا موفورين

انجلترا تنهم بمحمد علياً
أأره سد البلاكة

هذا هو الخطر الجديد الذى سيلقى الدولة الاسلامية الناشئة فى دورها الجديد ، خطر يعوقها عن التقدم ويأخذ عليها سبل الإصلاح ، لأن إنجلترا عرفت أن كل إصلاح من شأنه أن يقوى الدولة ويعز من جانبها ويجعلها قوة على طريق الهند انما هو خطر على إنجلترا ، وإذن فكل إصلاح على هذا الطريق خطر على إنجلترا ، وإذن فأنجلترا تعتبر القضاء على الإصلاحات والنهضات فى الشرق الاسلامى دفاعا عن نفسها ، تحاربها بداهة وبغير تردد ، ذلك مفتاح السياسة الانجليزية إلى يومنا هذا ، ومادامت عيون الشرقيين قد تفتحت للإصلاح وسعوا إليه ، فذلك يعتبر إعلانا للحرب على إنجلترا ، فمن اليوم الذى تستيقظ فيه الشعوب وتأخذ للإصلاح سبيلها ، يصبح الصراع بين المسلمين فى كل مكان وبين الانجليز

انجلترا وحرثات
الإصلاح فى الشرق

وليس أدل على ذلك من الحرب التى أعلنتها على محمد على جبراً وعلانية ، فى الشام وفى مصر وفى القسطنطينية ، وفى أوروبا كافة .

انجلترا تحارب
مصر حرباً سلمية

فأما فى الشام فقد شمر قنصل إنجلترا عن ساعده ونزل الميدان صراحة ، وأخذ يتصل بزعماء القبائل ويحرضهم على الثورة ويقدم اليهم السلاح ، وما كان هؤلاء الزعماء بحاجة إلى من يحرضهم على الثورة

بنسبى الداعى محمد على

أو يدفعهم إليها ، فقد كانت يد محمد قد ثقلت عليهم منذ حين ، وأبوا عليه أن يجندهم في جيوشه وينزع سلاحهم ويحتكر دونهم تجارة الحرير وما إليه ، وما كانوا يطيقون أنظمتهم ولا قوانينه ، فما إن همسُ نُسبتي بالثورة في آذانهم حتى هلّلوا ورحبوا ، فاشتعلت الثورة ، وحق للانجليز أن يؤكدوا للدول أن محمداً علياً يخرب الشام بحكمه ، وإن العدل يقضى بتخليصه من نيره ورده إلى السلطان العادل القادر !

وأما في القسطنطينية فلا ضير على ستراتفورد دى ردكلف أن هو الخ على السلطان في إعلان الحرب على الوالى وإخراج مركزه ، وإقناعه بأن الانجليز خدم له إذا هو فعل ذلك . وأما في أوروبا فلا أقل من إقناع النمسا بأن اتساع سلطان روسيا في تركيا خطر على كيانها ، فلا بد من القضاء على ذلك السلطان ، وهل من سبيل إلى ذلك إلا بالقضاء على محمد علي ؟ ولا تعجز إنجلترا عن أن تفهم بروسيا بأن القضاء عليه اضعاف لفرنسا وإحباط لمساعدتها ، فلا يلبث البروسيون أن يقبلوا . وبهذا تجتمع السياسة الدولية كلها لحرب مصر

وأما حربه في مصر فبمعاً كسسته في رزقه وماله ، فإذا كان الرجل يعول على التجارة فلتحرم عليه التجارة ، وليحصل الانجليز من الدولة على حق التجارة في بلاد محمد علي ، فيضربونه بذلك ضربة قاضية بالقضاء على الاحتكار الذى هو أساس نظامه المالى .

بديهي بذلك أن نعرف أن الحرب كانت مستطيرة بين الوالى والسلطان عاجلاً أو آجلاً ، لسبب معقول أو لسبب غير معقول ، من ناحية السلطان أو من ناحية محمد علي ؛ وكل كان هذا الأخير مسكيناً ، وكل تولى الحرب ، وكل احتمل الحرج والاعنات في صبر ولناة ، وكل رأى اليد ترتفع لتطعنه فلاها مالا وريحانا ، ولم يشفع له دفاع كامل عنه وحسن رأيه

ستراتفورد دى ردكلف
يسعى لزيادة الحالة
بحرته

عارية محمد علي في
مصر نفسها

محمد علي يترقى
الحرب بحافطة على كيانه

فيه ، ولم ينتجه دفاع بعض الوزراء الانجليز أنفسهم عنه حين أرسل إلى بلرستون يقول « لا يمكننى أن أرضى بترك ماشيدته بمصر من المنافع والمرافق الحيوية بها طوال هذه السنين — مما كلفنى أموالاً طائلة ، كدور الصناعة البحرية والاسطول والبواخر والمصانع وعددها وعملها . . — لا يمكننى ترك كل هذا للفناء في يد الباب العالي بعد موتى ، وإن قلبى لينفطر حزناً كلما ذكرت أن ثمرة اتعابى ضائعة ومصيرها للفناء ، وأن أولادى وأسرتى سيتركون بعد موتى تحت رحمة الباب العالي » (١)

ولعلنا لا نخطئ إذا قلنا أن انجلترا هي التي أثارت حرب الشام الثانية بعد أن استوثقت أن أوروبا كلها — عدا فرنسا — معها على محمد علي. فلم يكذب بنسبني Ponsonby يستوثق من ذلك حتى أنشأ يحرض السلطان على الحرب صراحة وعلانية، فأكد له أن انجلترا معه في هذه الحرب وأن أسطولها في خدمته ، فتشجع السلطان وأقدم على حرب هو السكاسب فيها على أى حال ، فإذا انتصر كان بها ، وإذا انهزم كانت حماية الروس والانجليز مأمناً له من عدوان محمد علي . وكان السلطان قد بدأ منذ حين يصلح جيشه وينظمه ، فظن أن العدة اكتملت له ، وأنه مقتدر هزيمة المصريين على أهون سبيل ، فأمر جنوده بالمسير ، وأحسنت فرنسا أن السلطان وقع في الفخ وأن انجلترا بالغت ما أرادت ، فأسرعت تطلب إلى الجيشين المتحاربين أن يتهادنا ؛ وكلفت مندوبين لها ببسط الأمر على حقيقته أمام بصريهما ؛ واسكن الرسولين تأخراً فلم

انجلترا هي التي
أثارت حرب الشام
الثانية

(١) سجلات وزارة الخارجية (مصر) كامبل إلى بلرستون ٢٥ مايو سنة ١٨٣٨ عن

تاريخ مصر السيامي لرومت بك ص ٢٠٨

يصل إلا بعد موقعة نصيدين ، أى بعد القضاء على جيوش السلطان وانفتاح طريق القسطنطينية أمام محمد على ، لا يعارضه معارض .

الصراع في الشرق
يصح صراعا بين فرنسا
وانجلترا

هنالك أصبح الصراع بين فرنسا وانجلترا صراحة ، وانتقل ميدانه من القسطنطينية والقاهرة إلى لندن وباريس ، وأصبح مدار النزاع كرامة كل من الدولتين وقدرهما في أوروبا ، ذلك أن الفرنسيين وجدوا في ذلك فرصة يعلنون فيها ما طال بهم الزمن وهم يضمرونه من كراهية انجلترا وسخطهم على عبتها بحكومتهم وتدخلها الدائم في شئونهم ، ولم تكن الوزارة الانجليزية تتوقع أن ثور فرنسا هذا المثار لخاطر محمد على ، وتأكد لديها «إجرام» محمد على بحب الفرنسيين له ، فأصرت الاصرار كله على موقفها ، وقررت لتهدمن كل أمل لمحمد على هذا .

العلاقة بين محمد على
وفرنسا في سنوات
الأزمة

والحق أن العلاقة بين محمد على وفرنسا تطورت تطورا سريعا خلال هذه الأزمة ، فلم يكن الفرنسيون الذين ثاروا من أجل محمد على يرون في تشجيعه نشرأ للحضارة وعملا للرقى بقدر ما رأوا فيه سبيلا للنكاية بالانجليز ، فقد بدا لهم بوضوح أن انجلترا تستهين بهم ولا تحفل لرضاهم ، وترجو أن تقودهم من آذانهم في كل حين ، ومن هنا تريت بلهرستون في العمل مع شعوره التام بأن الموقف يستدعى الاسراع في التنفيذ ، وكانت فرنسا تحيره من أمره فلا يكاد يعرف ما انتوت من أمر ، فبينما يتصافح سولت وملبورن كالأخوين في لندن وباريس إذا بالأسطول الفرنسى يكيد للأسطول الانجليزى في مياه البحر الأبيض ، ويعين الأسطول التركى على الانضمام لمحمد على .

يبد أن روسيا تطوعت لانقاذ بلهرستون من هذه الحيرة ، فأعلنت تنازلها عن الحقوق التى تتيحها إياها معاهدة هنكار اسكسى ، فتفس بلهرستون الصعداء ، وأيقن أنه يستطيع الاستغناء بجيوش روسيا عن جيوش فرنسا ، فبدأ يعمل على حل الأزمة بغير رأى فرنسا ،

ولعل روسيا لجأت إلى هذا الحل لكثرة ما أخرجها الفرنسيون وجابهوها بالعداء ، فكان من الطبيعي أن تنحاز إلى جانب أعداء فرنسا ، وذلك بعد أن تأكدت أن هذه المعاهدة لم تصبح ذات بال أمام انتباه الانجليز وحذرهم ، ومن هنا سارع نيسلرود وزير خارجية روسيا فأرسل مندوبه برنوف ليؤكد لانجلترا استعداد روسيا للعمل مع الدول جنباً إلى جنب

إزاء ذلك تشجع بلهرستون وبدأ العمل ، ولكنه أحب أن يستوثق لنفسه قبل ذلك ، فأعلن إلى سبستيانى سفير فرنسا في لندن أن الدول لا ترى مانعا من منح محمد على مصر وعكا وراثيتين ، وهنا أخطأت فرنسا الخطأ الذى جر علينا — نحن المصريين — الويل ، فقد استباححت الرد باسمنا ، وكان يجب أن نتركها تتكلم عن نفوسنا ، فرفضت ذلك رفضا قاسيا ، وأكدت أنها لاتوافق على استعمال القوة فى قهر محمد على

ورسا تكلم باسم محمد على

أما محمد على فكان يسعى عن سبيل أخرى ، كان يسعى ليحل المسألة باتفاق خاص بينه وبين السلطان ، ولمح بنسبى ذلك فرأى فيه محاولة لتضييع الفرصة التى طال بانجلترا الأمل وهى ترقبها ، فسارع إلى السلطان يحذره من الاتفاق ، فلم يجدرجال الدولة بدا من الوقوف وانتظار رأى الدول ، وبهذا حرم على محمد على أن يفتح فمه فى اللحظة التى أصبح مصيره فيها فى الميزان ، وحكم عليه بأن ينتظر نتيجة الموقعة ، وما كانت نتيجةها بخافية ، إنما كان الرجل موقنا أن فرنسا تسوقه لحثفه وتضعه فى فم المدفع ، وكان منذ حين يصرف أموره فى كثير من القدرة والسياسة .

محمد على يسعى للاتفاق مع السلطان

وبدأت المعركة ، فكانت أسلحة فرنسا خطبا رنانة فى البرلمان ومقالات طنانة فى الصحف ، وأسلحة انجلترا خطوات عملية حاسمة

المعركة فى دورها الأخير

فاية خسارة لمصر . . . بدأ النائب جوفرى فى يونيو سنة ١٨٣٩
فالقى فى البرلمان الفرنسى بياناً بليغاً أكد فيه عزم فرنسا على أن تقف
مع مصر جنباً إلى جنب ، وأعلن استعدادها للمعاونة على إنشاء امبراطورية
عربية توازن الامبراطورية العثمانية التى صارت إلى يد روسيا (١) ،
وبعد ذلك بقليل ألقى تيير خطاباً قوياً أيد به كلام جوفرى وأعلن أن
شرف فرنسا مرهون بعون مصر ، فاشتعلت فرنسا ناراً ، وتجاوبت
الصحف تنادى بالعداء ، فلم تملك وزارة سولت المعتدلة أن تقر فى
موضعها ، فاستقالت ليحل محلها تيير صاحب محمد على ونصيره ، وأيقن
الناس أن الحرب واقعة لا محالة ، ويجل تيير بالضغط على الباب العالى
الأسراع فى عقد الصلح مع محمد على مباشرة ، فلم يكذب يتصل بلهرستون
ذلك حتى فاجأ فرنسا بتوقيع المذكرة المشتركة بين روسيا وبروسيا
والنمسا وانجلترا ، تعلن فيها ضمانها لسلامة الدولة وحرية الملاحة فى
المضايق ، وتمنح محمد على مصر وراثية والشام مدى حياته

هناك توقدت فرنسا ناراً ، فاعلن « لامرتين » أن هذه المعاهدة
« ووترلو السياسة » ، وخشى تيير أن يجمع مجلس النواب مخافة أن يتورط
فى إعلان الحرب ، فترىث ، وملك الحماس أمة السككت فقالت « الطان »
« أن أوروبا لا تثبت لنا » فأجابت الديبا مؤكدة « أن المعاهدة إهانة
لا تقبلها فرنسا ، إن شرفها يمنعها من قبولها » حتى لوى فيليب نفسه على ما به
من كراهة الحرب وخوف التورط فيها حذراً من ضياع التاج ، لم يملك
أعصابه وعادت إليه ذكريات جيباب فقال . « انتى أجاهد لرد الثورة
إلى عقابها منذ عشر سنوات ، وفد عرّضت فى سبيل ذلك حب شعبى
وراحتى وحتى حياتى للضياع ، إنهم مدينون لى بالسلام فى أوروبا
وبثبات عروشهم ، وهذا جزائى منهم ، أيجبون لولبست شارة الثورة

علانية « وكأنا لم يكفه هذا العتب فعاد يقول مهددا مندوبى النمسا وبروسيا « إنكم لمنسكرون للجميل ، إنكم تطالبون الحرب ، فستصلون نارها ! فان كان ذلك ، فاني مطلق النمر من مقاله ، إنه يعرفنى وأعرف كيف أتفاهم معه ، وسنرى إن كان يعرف لكم قدرا (١) »

الحلاف في الوزار
البريطانية بسبب مسألة
مصر
ولم يكن الرجل يستطيع أكثر من التهديد ! كان يخشى على نفسه من نمر الثورة أن يأكله أول الما كولين ! وكان بلهرستون يعرف ذلك ، فلم يهز التهديد منه جنانا ، وثاربه زملاؤه في الوزارة ، واحتج عليه اللورد هولاند ، فهدد بالاستقالة ، فتركه ملبورن يفعل ما يريد .

اتساع نطاق الحلاف
دحول بروسيا
وهلل القيصر واستبشر ، فهذه عدوته فرنسا تنساق إلى الحرب راضية ، ورجا أن يرى بعينيه مصرع « ملك الماتريس » عن قريب ، واشتعل الحقد في قلب الألمان ، ورحبوا بالحرب ، واستطارت الخصومة بينهم وبين الفرنسيين ، وتناكر الشعبان ، وتحول الأمر بينهما من خصومة في محمد على إلى خصومة في الرين ، فنادى بكركه شاعر الألمان :

لن يكون لهم ، هذا الرين الحر الألمانى

فرد عليه لا مرتين : —

لقد كان لنا ، هذا الرين الألمانى الذى تدعيه

وسيمضى الطفل إلى حيث كان أبوه .

أى سيعود الرين إلى فرنسا . وليحمد محمد على الله على ذلك !

في ذلك الحين كان محمد على ينتظر ، فاني أن يجيب الدول إلى ما طلبت في المذكرة المشتركة ، ولبت يرقب ما تنجلى عنه المعركة بين فرنسا وانجلترا من أجله ، ولكن الدول لم تنتظر ، فنزل الكولونل نابيير عند بيروت ، وثار شمالى الشام بمساعى الانجليز وأصبح مركز الثورة في الشام

(1) Driault, La Question d'Orient P, 150

محمد علي في الشام حرجا جداً ، وخشى أن يقطع الأسطول الانجليزي على جيشه خط الرجعة إلى مصر فراجع ابراهيم مسرعاً .

ورنا تراجعا

وهنا فوجيء الناس بأمر جلل . لقد سقطت وزارة تيير وعاد سولت وقام جيزو المعتدل بشئون الخارجية . . . وإذا بنيران فرنسا تخمد ، وحاسها يسكن ، وإذا بها تستبدل الغلو بالتواضع وتقع بمصر لمحمد علي ، كأنما مصر من أملاك يمينها يصرف الأمر فيها لوى فيليب كما يشاء ويهوى ، وما هي الا أيام حتى هدأت ثائرة الفرنسيين وتركوا محمداً علياً تلعب به الأقدار ، وكان هذا جزاؤه على تعلقه بها وانتظاره رأيها ، ولو قد عرف أنها ستتصرف على هذا النحو لقبل ماعرضته الدول عليه من أول الأمر ، ولما تحداها هذا التحدي ، ولو فر على جنوده عناء حرب الشام الثالثة ، ولما وقف الرجل هذه اللحظات العصيبة يلتمس الرحمة من يد الأعداء ؛ أحس محمد علي أنه بين الحياة والموت فأنشأ يحصن مصر تحصيناً بالغاً ، وكون جيشاً جديداً من المصريين ، واستدعى جنوده كلهم ووجد أسطوله في يد واحدة ، واستعد للبركة الفاصلة في حدود مصر بعد أن فقد الأمل في الشام . ورأى الكولونيل شارلس نابيير ذلك ، وعرف استحالة أخذ مصر من محمد علي ، إذ استيقظت فيه عزة نفسه فاني شروط الدول مرتين . وأخيراً وبعد أن ناه ظهره تحت ضربات الحلفاء وخيانة فرنسا وعيب السلطان ، قبل مصر ورائية ، ورجا أن يعطيه السلطان مصر . . . وإذ ذاك تقدم نابيير ففاوضه رأساً على ذلك الأساس ، وأكد له أن الحكومة البريطانية لا تعارض في أن تترك له مصر ورائية ، فقبل الرجل . . . وتعلل السلطان تعلل القادر الذي يحتج بسلاحه يمينه ، فلم تمالك الدول — وهي أعداء محمد علي — من أن تعجب لهذا الاسراف في البطر ، واحتجت ، وانتهى الأمر بفرمان ٢٢ مايو سنة ١٨٤١ الذي أصبحت به مصر

محمد علي يستعد

للدفاع عن نفسه

نابيير يفاوض محمد علياً

فرمان ٢٢ مايو سنة ١٨٤١

وراثية في أكبر أبناء أسرة محمد علي ، وحددت الجزية باربعمئة ألف جنيه مصرى ، ومنح الباشا بعض حقوق بسيطة في منح الرتب وما إلى ذلك .

ذلك كان نصيب مصر من الدنيا على طول الجهد وطول العناء ، ولو قد انهمزمت في كل حروبها وقصرت في كل تضحياتها لما منحها اعداؤها غير هذا ، فلم يكن مقدراً لها إلا نصيب المهزوم في أى الحالات ، ومن ثم سئمت النصر وسئمت العمل ، والقت نفسها في احضان نوم طويل لن تفيق منه إلا بعد سنوات طوال ، فقيم يلومها الناس وماذا يأخذون عليها ، وماذا كان يطلب اليها أن تعمل فوق الذى فعلت في هذه السنوات القليلة : لقد أعلنت حقها في اختيار حاكمها ثم طهرت نفسها وأثبتت حقها في الحياة جنباً إلى جنب مع أعظم قوى الدنيا ، وأثبتت بالبرهان القاطع أن هناك فرقاً بين شعبها والشعوب الأخرى المستنمية للنوم ، ومدت يد الشرف للعالم فاباها لاسباب خاصة ، وانحط عداة الشرق والغرب كله مدى قرون على رموس جنود مصر ، فلم يكن لهم بد من أن يسلموا سلاحهم في ميدان الشرف . ولقد حاول اعداؤها أن يتخلصوا من وصمة خنقها ، فزعم بالمرستون انه حارب محمداً علياً لأنه كان يحارب لنفسه وليس من ورائه شعب يطلب الحرية ويستأهلها ، كأن عصابات اليونان — التى كانت تباع السفن لمحمد علي والتى كانت تعتدى على سفن الانجليز — فى اللحظة التى اشتعلت بحال الانجليز فيها حماساً من أجل اليونان — كأن هذه العصابات تستحق الاستقلال ومصر لا تستحقه ولو بحثت مصر عن سبب لهذا الفشل الذى حاق بها فى النهاية لما وجدت غير سببين اثنين : هما وقوعها على طريق الهند واتهامها بالعمل لحساب فرنسا فاما الوقوع على طريق الهند فذنب فى نظر السياسة البريطانية لا يغتفر ، ولو قد قاد مصر اللورد ملبورن نفسه لما كان فى نظر

أثر الصدمة فى

شعب مصر

لجنة الموقع الجغرافى

بلهرستون غير همجى يعمل الحساب نفسه ولا يستحق الا الاغراق في
 في النيل ، وذلك هو « ثمن » الموقع الجغرافي يدفعه شعب مصر من
 دمه وحرية بين الحين والحين ، ولو قد كانت مصر في طرف من
 أطراف الدنيا لكان لها تاريخ يختلف كل الاختلاف عما نراه اليوم .
 وأما الانتماء لفرنسا فقد عدته السياسة الأوروبية جريمة كبرى في ذلك
 الحين ، إذ كانت فرنسا عدوة الدول جميعا ، تصارعها بالأذى وتنطوي
 نحوها على اللدد ، ولو قد دعت إنجلترا الدول إلى حرب فرنسا في سنة
 ١٨٤١ لأجابت الدعاء في أغلب الظن ، فما بالك والدعوى إلى خنق
 مصر هيئة الاجابة يسيرة التحقيق ، فمن هنا سهل على إنجلترا أن
 تجمع الدول في يدها ، وتأتى من الأمر ما تشاء ، ولو قد كسبت فرنسا
 إلى صفها دولة واحدة كالروسيا أو النمسا لغير الانجليز موقفهم ولما لت
 قضيتنا الى جانب العدل والانصاف ، وكان على مصر أن تفهم ذلك ،
 وتعتبر بما أصابها في ذلك الحين ، ولكن مصر ان تعتبر . . . فبعد
 نصف قرن من هذه الخيبة الظاهرة لازال في مصر ناس يؤملون الخير
 في فرنسا ، فكان جزاؤهم على يدها أنكى من خيانتها لمحمد علي كاسنرى .
 وكانت محاولة مصر صريحة لا تقبل اللبس أو الشك ، محاولة
 لانهاض الدولة الاسلامية وتكوينها من جديد ، وتحضيرها
 والموافقة بينها وبين عصرها ، ومدافعة أوروبا بسلاحها والاندماج في
 المجموعة الأوروبية ، والسير مع الدنيا وأهلها ، وقد وفقت مصر توفيقا
 طيبا : فاعدت جيشها ونظمت مرافقها وعلمت من أبنائها من يستطيع
 المضى في ذلك الطريق ، ولكن المصائب أقبلت زرافات كما يقول
 شيكسبير ، واجتمعت الدنيا كلها على أن تردها إلى الوراء ، فما كان
 لها والحالة هذه إلا أن تسلم سلاحها في هزيمة أقرب ما تكون إلى
 النصر والظفر

حقيقة الحركة
 المصرية

محمد علي بعد الهزيمة لم يعمر محمد علي بعد ذلك غير سنوات قلائل ، قضاهما ضيق الصدر بادی الحزن ، وكانت الدنيا قد عرفت فضله بعد أن قصت جناحه ، فانها لم عليه التقدير من كل صوب ، تلقاه أعداؤه في الاستانة بالدموع والأسى ، وأحسوا هول جريمته في هذا الأمل الذي خنقوه ، وبعث اليه ملك الفرنسيين وسام فرقة الشرف ، ولم يستح الانجليز أن يبعثوا اليه سفينة كعلامة على التقدير والاعتراف بالفضل ، حتى بلهرستون نفسه أرسل يدعوه الى انجلترا ويرحب به أجمل ترحيب ، ولكنه أنى وفضل زيارة الاستانة ، فذهب اليها وعاد وقد ذهب عنه بعض ما كان يجد . وكان الرجل يمشى نحو الثمانين يحمل على ظهره هذه الخيبة الفاجعة فكان لا بد أن ينوء تحتها ، وخيم على مصر ذهول أصابه منه نصيب ، فاخصم مرة مع بعض عماله واحتد عليهم ، ونام ليلته نوما مضطربا ، ثم نهض في الصباح ليلقى بعض وزرائه ، فاعتذر عنهم ، وجلس على أريكته وبكى بكاء مرا ، ثم نزل ومضى إلى القاهرة عن طريق المحمودية لا يتكلم ولا ينبس ، بعد أن اتهم وزراءه ورجاله جميعا بالعدو والحيانة .

وارتدت عافيته اليه بعد حين ، ولكنه كان بين الحياة والموت وهنا أحس أعداؤه الانجليز بما أذوه فلم يسعهم الا الاعتراف بفضله ، وفي هذه السنوات كتب قنصل انجلترا الى بلهرستون يقول « . . وفي الحق ياسيدي ، لا جدال في أن محمدا عليا رجل عظيم ، فقد استطاع أن ينهض من وضاعة النسب وقلة المال ، ويشق طريقه نحو القوة والشهرة بشجاعته التي لا ترد ومثابرتة وحكمته » (١)

(١) من جرائ الى بلهرستون : ه أغسطس سنة ١٨٤٩

عن دودويل ص ٢٦٣

وكان هذا من أجمل ما قيل في الرجل الذي مات بعد ذلك بقليل

الاصلاح في تركيا

- ٤ -

أزاء هذه الأخطار كلها ، والهزائم التي أقبلت بعضها في أثر بعض أحس بنو عثمان أن نهاية أمرهم قد أوشكت أن تكون ، وترامى الى سمعهم ما تتفاهم عليه الدول من تقسيم بلادهم واحتلالها ، فبدأ لهم الخطر واضحا جليا ، وحفزهم ذلك الى التفكير في سبيل يخلص بيادهم من هذا الموت المحيط بها من كل جانب .

وإحساس الأتراك بخطر أوروبا قديم يرجع إلى أوائل القرن الثامن عشر ، حين أشد ساعد روسيا وعقدت النية على أن تزل تركيا من موضعها ، فقد هال الأتراك ما وجدوا من انكسار جيوشهم وانكماش دولتهم انكماشاً متتاليا بسبب الضغوط الأوروبية من الغرب على يد النمسا ومن الشمال على يد الروس ، وما كان للأتراك إلا أن يشعروا بالخطر بعد إمضائهم معاهدات مهينة للشرف العسكري العثماني كمعاهدة كارلوفت ١٦٩٩ التي سلمت بها المجر وطريق قلب أوروبا إلى النمسا ، ومعاهدة بيساروفت ١٧١٨ التي فقدت بها جزءا مهما من البلقان أو معاهدتي كيتشك كينارجى ١٧٧٤ وياسى ١٧٩١ اللتين أذلتا تركيا للروس .

حركة اصلاحية
سلفية

لم يكن الأتراك قد تبينوا قوة أوروبا وعرفوا أسباب نهضتها وتفوقها ، فوقع في ظنهم أن سبب هذا الاضمحلال العثماني هو تفريطهم في سنن أجدادهم الأولين ، ومن ثم اتجهت أفكار المصلحين منهم وجهة سلفية كالتى سنراها في غير تركيا من البلاد الاسلامية بعد حين . وهذا التفكير السلفي معقول جدا ، بل هو الخاطر الوحيد الذى يخطر فى أذهانهم إذا فكروا فى اصلاح أمورهم والعودة إلى التفوق الذى كان لهم فى سابق الأيام ، فقد كان أجدادهم ينتصرون حيث (١٦)

ينهمزون هم ، وكان آباؤهم يسوسون الدنيا وأهلها . . فما السبب في عجزهم اليوم وقصورهم ؟ وكان المسلمون قبل أن يتبينوا حقيقة الحضارة الغربية « يعيشون في الاسلام » ، ويرون أنه السبيل الوحيد للعز والعظمة ولرفعة . فلم تؤكد المصائب تنزل بهم حتى جرى إلى أذهانهم أن السبب الوحيد هو التفريط في شعائر الاسلام والانصراف إلى الدنيا والاسترسال مع الشهوات ؛ وهذا النمط من التفكير نجده في تركيا اليوم وفي مصر وجزيرة العرب بعد قليل ، وفي كل بلد اسلامي تنكسر جيوشه أمام أوروبا ويحس خطرها .

كنشى بك

بدأ كنشى بك فأهاب بالأتراك إلى الارتداد إلى النظم العثمانية القديمة والاعتصام بها ، وأكد لمواطنيه أنهم مفلحون أن عجلوا بهذه الرجعة إلى أنظمة محمد وسليمان ، فلم يلبث أن ظهر من السياسيين من آمن بهذا وأخذ به كوزراء أسرة كبريلى ، فانتعشت الدولة إلى حين ، ولكنها عادت فاسترسلت في نومها العميق .

هنا عرف الأتراك أن الأمر ليس مجرد اضمحلالهم ، وإنما سيديه أن أوروبا لم تعد ما كانت عليه أيام سليمان ، وإنما شملها تغير عظيم نهض بها من الضعف إلى القوة ، ومن الهزيمة إلى الظفر ، ولم يكن الأتراك بحاجة إلى كبير جهد ليتبينوا ذلك على وجهه ، فقد كانت روسيا إلى شياهم تعرض عليهم الأمر عرضا واضحا لا يحتاج إلى بيان ، فعرفوا أن بقاء الدولة الاسلامية على حالها لا يغنى عنها شيئا ، وإن القوة الأوروبية الحديثة لا تقاوم بالارتداد إلى الاسلام الأول أو بالاعتصام بالاساليب العثمانية الأولى ، بل بالسير في نفس الطريق التي انتهجتها أوروبا ، والتي أوصلتها إلى هذا الأوج من التفرق والانتصار .

فكر الأتراك في هذا منذ أواخر القرن الثامن عشر ومضوا في تنفيذه من ذلك الحين ، ولم يكونوا - كما يظن الكثيرون - جامدين ولا

التمكيز في ادخال
الأنظمة الأوروبية

مصرين على العناد، بل استطاعوا أن يقطعوا في هذا المجال خطوات واسعة جدا تعادل أضعاف مائة الكالليون بعد الحرب الكبرى ، وربما وجد القارى غرابة في مثل هذا القول ، لأن الرأى السائد بين الناس هو أن تركيا ظلت جامدة ساكنة محافظة على القديم حتى الحرب الكبرى وحتى قام الكالليون بحركتهم ، فنفضوا عنها القديم وأسرعوا بها في ميادين التجديد وتطرفوا في ذلك تطرفا ظاهرا . ولكن الحقيقة أن الكالليين لم يفعلوا أكثر من إتمام ما بدأ به السلاطين . ومقارنة بسيطة بين ما أدخله السلاطين من وجوه التجديد وما أدخله الكالليون تنطق بهذا . فقد استبدل الكالليون مثلا القبعة بلباس الرأس التركى القديم ، ولكن السلاطين هم الذين استبدلوا الزى الأوروبى بالأزياء التركية القديمة ، وقد استبدل الكالليون القانون السويسرى بالشريعة فى مسائل الأحوال الشخصية ، ولكن السلاطين هم الذين أدخلوا القوانين الأوروبية محل الشريعة فى غير المسائل الشخصية ، وهكذا ، لا نجد إصلاحا للكالليين إلا وهو فى حقيقته إتمام لما بدأ به السلاطين (١)

الوضع السياسى
لتركيا قبل حرب
القرم

ولعل دافع الناس إلى الأخذ بهذا الرأى هو ما يرونه من أن هذه الإصلاحات لم توف على الغرض المراد منها ، فلم ينتقل الأتراك من الهزيمة إلى الظفر ، أو من الاضمحلال إلى النهوض ؛ والذين يذهبون هذا المذهب ينسون أن الدولة العثمانية كانت إلى حرب القرم تعتبر نفسها - ويعتبرها الأوروبيون كذلك - خارج المجموعة الأوروبية ، وأن علاقاتها الطبيعية بها كانت - ولا بد أن تكون - علاقات حرب ، وهى العلاقة الطبيعية الوحيدة المعقولة بين الاسلام والنصرانية ، وينسون أن هذا الاعتبار حال بين الأتراك وبين أن يحققوا أحلامهم فى النهوض والأخذ بأساليب الحضارة الأوروبية ، إذ أن شعور العداء

(١) من مداركات غير مطبوعة للأستاذ شفيق غرمال

والنفور والاحتقار من الجانبين لم يبرح قائما بينهما . وهذا الاعتبار نفسه غل يد السلاطين عن الاصلاح الواسع الصحيح ، فالسلطان لا يستطيع - وهو حامى الاسلام من النصرانية - أن يقلد «النصارى» تقليداً ظاهراً ، أو يفرض على «المسلمين» أموراً «نصرانية» يكرهونها ويرون أنفسهم أرفع من الأخذ بها . فكان لابد له من أن يصطنع الأناة والحذر في كل ما يطلب من وجوه الاصلاح ، بل كان لا يملك التغيير إلا في حدود ضيقة جداً لا تتعدى جنده وحرسه وقصره ، ثم إنه سلطان دولة مترامية الأطراف والنواحي ، تضم اليوناني المذهب بعض التهذيب ، والمغربي الذي يعيش على القرصنة والمصري المتحضر الوداع والكردي المحارب الخشن والعربي الفطري البدوى والتركي العنيف الشديد ، فكيف يستطيع أن يفرض على هؤلاء نظاماً واحداً في طريقة عين ، كيف له أن يجمعهم كلهم في لواء واحد ويسوى بينهم ، ويجعل الدولة العثمانية وحدة متماثلة كفرنسا وانجلترا مثلاً ، وهب أن السلطان استطاع ذلك - على استحالة - فكيف يستطيعه والقتال تحيط به من كل جانب والأخطار تهدده كل يوم ، وما من قرش يدخل خزائنه إلا استنفدته الحروب لرد العدى أولئكبت الخارجين والواثين ، وكيف يستطيعه وأوروبا لا تعينه عليه العون المفيد المجدى ، فهذه روسيا لا تكاد تترك له فرصة العمل ، ولا نفقاً تثير عليه الحروب والفتن ، بل كيف يستطيعه وأوروبا تتدخل في شؤونه وتحول بينه وبين رعاياه فلا تبقى له على الهيبة اللازمة في هذه الأحوال ، فيدعى الروس لأنفسهم حق حماية المسيحيين في البلقان ، ويزعم الفرنسيون لأنفسهم حق رعاية الأراضى المقدسة ، ويرى الانجليز أن البحر الأحمر منطقة نفوذ لهم فيها ما للسلطان وزيادة ، كيف يستطيع السلطان والحالة هذه أن يعقد أمراً أو يصالح شأناً أو يقيم بناء ، بل كيف

العقبات التي تعوق
السلطان عن الاصلاح

يستطيع الاصلاح وهؤلاء رعاياه تتسرب إليهم المبادئ الحديثة فيؤمنون بها ويصارحون السلطان بأنهم أحرار أو لا بد أن يكونوا أحراراً ، فإذا أخذهم بأمر عصوا ، وإذا نصحهم بنصح عاندوا وأصروا ، ووجدوا من دول أوروبا معيناً ، فثاروا وخرجوا على الطاعة جملة ، فإذا أرادهم السلطان على الطاعة اعترفت أوروبا باستقلالهم فلم يكن له بد من احترام هذا الاستقلال :

تلك كلها أمور ينبغي أن نحسب حسابها قبل المضي في دراسة حركة الاصلاح في تركيا ، ولنذكر إلى ذلك أموراً أخرى كالتنافر وعدم الثقة بين السلطان ورعاياه ، وهو شعور طبيعي بين الحاكمين والمحكومين في البلاد الشرقية . فقد حال هذا الشعور — وما يصاحبه من التخوف والريبة — بين السلاطين وبين أن يقنعوا رعاياهم بحسن نواياهم أو بالخير الذي يرجي لهم من وراء اتباع السلطان فيما يريد . ولم يكن السلاطين يجدون المال اللازم للانفاق على وجوه الاصلاح . فقد كانت إيرادات الدولة قد هبطت هبوطاً مزمياً جعلها تعجز عن أن تهيء لنفسها العدة اللازمة لمقاومة الدول الأوروبية الأخرى . ولو قد وجد السلاطين الرجال المخلصين والأعوان الصالحين لهانت عليهم السبيل ، ولكن الأتراك لم يكونوا خيراً من المصريين في هذه الناحية .

هل كان السلاطين
مخلصين في طلب
الاصلاح

ويبدو أن أقوى أسباب فشل السلاطين في تحقيق وجوه الاصلاح والنهوض هو أنهم لم يكونوا مخلصين في طلبها ، ولم يعنوا بها عن ثقة بفضائلها وجدواها ، وإنما عن اضطراب وإكراه ، لجأ إليها السلاطين على رغمهم ليقاوموا بها هجوم أوروبا ، ومن هنا غابت عنهم محاسنها فلم يستطيعوا الاستفادة منها على وجهها الصحيح ، ولو قد وجه السلاطين الاصلاح لصالح الرعية لسكانت الفائدة أعم والبنيان أقوى ، لأن

الحضارة الغربية حضارة شعوب لا حضارة ملوك ، فهي إلى نفوس الجماهير أدنى ، وما من شعب يمين خيرها حتى يؤمن بها ويسعى هو لتحقيقها دون الحاجة إلى إحياء ملك أو توجيه سلطان

من هنا لالوم على الشعوب الاسلامية إذا هي نفرت من الحضارة الغربية ولم تتبين وجه الخير فيها ، فقد اعتبرت الدعوة إليها ضرباً من تحكم الملوك والسلطين ، واعتبرت اتباع مبادئها لونا من الخضوع لهم ، والبعد عنها فنا من فنون العناد والمقاومة تلجأ إليه كلما أرادت مقاومة أو عمادا ، ولنضف إلى ذلك أن هذه الحضارة أقبلت على أيدي النصارى فاعتناق مبادئها مناصرة للنصرانية على الاسلام ، واحتقارها ضرب من التعبد والتقوى خلاق بالمؤمن الصحيح .

نفور الشعب التركى
من الاصلاح

تلك كلها عوامل جعلت سبيل الاصلاح صعبا شائكا في وجه السلاطين ، كان عليهم أن يتغلبوا عليها قبل أن تثمر ثمرة واحدة من الثمار التي بذلوا الجهد في انباتها ، فلنحسب حسابها عند دراسة تاريخ الاصلاح في تركيا ، وعسانا لا نخطئ فذهب مع القائلين بأن محمدا عليا وفق في حين فثقل السلطان ، وأنه لهذا أقدر وأحجى ، إذ فرق بين من يعمل في دولة مترامية الأطراف وفي ميدان مليء بالصعوبات ، وبين من يعمل في بلد متحد آمن محدود قابل للتحضر عاجز عن المقاومة إذا طلبها .

فشلت الدعوة السلفية التي نادى بها كتشى بك لأنها جاءت متأخرة جداً — في الساعة الحادية عشرة كما يقولون — فبدأ السلاطين يفكرون في السير في السبل التي انتهجتها عدوتهم الكبرى — روسيا — التي استطاعت أن تنتقل من دولة مضمحلة متأخرة إلى دولة حديثة قوية بحسب لهاكل حساب في السياسة الأوروبية ، وهذا السبيل هو محاربة أوروبا بسلاحها ، أى بنقل مظاهر الحضارة الأوروبية

فشل الحركة السلفية

بدأ هذا العمل السلطان سليم الثالث الذى مر ذكره ، وكان طبيعياً
 أن يبدأ بالناحية الحربية ، لأن مظهر الضعف العثمانى كان حريماً ،
 ولأن روح العصر كلها كانت تهتم بالحروب وتحسب لها كل
 حساب ، ولأن الأخطار التى أحاطت بالدولة كانت تستدعى وجود
 جيش قوى يحفظ عليها كيائها وهيبتها . فبدأ بأعداد جيش على « نظام
 جديد » إلى جانب الجيش القديم ، فلم يكده يمضى فى ذلك حتى تبين له
 أنه لم يكن على الصواب فيما قصد إليه ، لأن الجيش القديم لن
 يدعه يمضى فيما طلب ، لأن قيام هذا الجيش الجديد قضاء على
 القديم ، ومن ثم بدأ الصراع بين السلطان والانكشارية هذا الصراع
 الذى انتهى بقتله والقضاء على حركته .

وحاول سليم كذلك أن يدخل على نظام الدولة الاجتماعى والسياسى
 تعديلاً مهماً ، وهو إلغاء الاقطاع ، والأقلاع عن السنة التى جرى عليها
 أسلافه من التشكيك والريبة فى العمال والولاة وقصر ولايتهم على
 سنة واحدة . فاما عن المسألة الأولى فقد كان زمان الاقطاع قد انقضى
 فى العالم كله ولم يعد يلائم الأحوال الدولية الجديدة ، وقد كان
 الاقطاع التركى قد فسد نظامه وانعدم وجه الفائدة منه ، إذ كان
 السلطان — فيما مضى — يقطع رجاله الاقطاعات على أن يقدموا له
 خدمات حربية لقاء ذلك ، ولكن المقطعين كفوا عن أن يقدموا الجند
 والعون الحربى ، وأعاتتهم فترات الاضمحلال فأصبحوا ملاكاً
 فاعلين لما بيدهم يتوارثونه ويتصرفون فيه . أراد سليم أن يقضى على
 هذه العلة فقرر ضم كل اقطاع يموت عنه صاحبه إلى أراضى الدولة ،
 وارصد دخل هذه الاقطاعات المستردة على الانفاق على الجيش الجديد
 وهنا كان بديهما أن يهب أمراء الاقطاع (أو الأمراء الاقوياء — دره
 بك — كما كانوا يسمون) لرد هذا الاعتداء على كيانهم . وأما عن

تعديل نظام ولاية الدرلة المسألة الثانية فقد وجد سليم أن قصر الولاية على سنة خليف بأن يكف يد الوالى عن الاصلاح ، وخليف أن يجعل الولاية سلعة تباع وتشترى بالمال والرشى ، فقرر أن تكون الولاية ثلاث سنوات قابلة للتجديد وهنا وجد السلطان أن هذا النظام عسير التطبيق على الحكام القدماء الذين كانوا يعتبرون أنفسهم ذئاب الدولة واعداها لا انصارها ، يترقبون غفلتها أو ضعفها ليثبوا بها ويقطعوا الصلة بينهم وبينها ، فلم يستطع المضى فى هذه السبيل طويلا (١) .

وأراد سليم أن يخطو بالدولة خطوة أخرى لا تقل أهمية عن كل ما بدأ به ، وهى المحاولة الأولى لا دخال تركيا فى الهيئة الأوروبية ؛ فقد سمقت الإشارة إلى أن العلاقة « الطبيعية » بين الدولة وغيرها من الدول الأوروبية كانت علاقة حرب وعداء ، فلا يجتمع الحيان على مائدة واحدة إلا لامضاء معاهدة أو لحل مسألة طارئة ، وفى غير ذلك لم يكن لوجود بين تركيا وغيرها غير الحرب والنضال . وكان هذا النوع من العلاقات علة تركيا وسبب تأخرها عن غيرها من الدول ، لأنه قطع الأسباب بينها وبين غيرها وعز لها سياسيا ، فتقدمت الدول ولزمت هى مكانها ، ولو قد كانت العلاقات غير ذلك لسارت تركيا جنبا إلى جنب مع غيرها من دول أوروبا ، ولما وجدت الهوة السحيقة التى فصلت كلا من الجانبين عن الآخر ، فأراد سليم أن يوجد بين الدولة وغيرها من الدول علاقات سياسية ، باقامة السفراء فى عواصم أوروبا . ليكونوا صلة بين الأتراك وعصرهم الذى يعيشون فيه . وربما بدا لنا هذا الأمر ميسور التنفيذ ، فما على السلطان إلا أن يندب السفراء الذين يريد أن يمثلوه لدى حكومات الغرب ليتم الأمر ، ولكن من أين للسلطان الرجال الذين

اشاء علاقات سياسية بين
تركيا ودول أوروبا

(١) الاستاد شفيق غربال : مذكرات غير منشورة

يحسنون القيام بمثل هذه المهمة ، فيندمجون في الأوساط السياسية في البلد الذي يقصدون اليه ، ويستطلعون أخباره وأحواله وينهونها إلى دولتهم؟ لقد فشل السلطان في ذلك فشلا ييبسا ، ولقى مندوبيه صعوبات كبرى في القيام بوظائف السفراء ، وهى صعوبات ناشئة عن نفورهم من أوروبا والحضارة الأوروبية وعدم فهمهم لطبائع هذه البلاد ، وضيقهم بالحياة في البلاد الأوروبية ، وغير ذلك من الصعوبات التى تجدها مفصلة فى الكتاب الذى وضعه «هربت» بعنوان «سفارة تركية لدى حكومة الديركتوار» يصف فيه الصعوبات التى لاقاها على افندى سفير تركيا فى باريس من سنة ١٧٩٧ إلى سنة ١٨٠١ وعجزه عن القيام بمهمته على الوجه المطلوب (١) ويبدو أن سليما لم يرد من هؤلاء السفراء أن يقوموا بمهام سياسية فى أول الأمر ، لأنه لم يكلفهم بشئ من ذلك ، ولم يعتمد عليهم فى حل مشاكله السياسية مع الدول ، وإنما أراد أن تكون السفارات مدارس فيخرج فيها شبان قادرين على الاضطلاع بمهام التمثيل الخارجى ، بدليل أنه الحق بكل سفارة نفرا من الطلاب الأتراك لهذا الغرض . بيد أن سليمان لم يطل به الصبر على التعليم والاعداد ، فلم يلبث أن كف ، واكتفى بأن يقيم فى العواصم الأوروبية قائمين بالأعمال من اليونان ، إذ لم تتمكن الدولة من إيجاد أترك قادرين على القيام بمهام السفارات الاخلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر .

وأراد سليم وجوها أخرى من الاصلاح ، فحاول انشاء مجلس انشاء مجلس وزراء مسئول وزراء مسئول بالتضامن عن شئون الحكومة ، وغير ذلك مسائل أخرى ، فلم يكن توفيقه فيها بأ كبر من توفيقه فيما مر ذكره من نواحي الاصلاح ، وعلة فشله فى ذلك كله هى أنه أراد أن ينشئ الجديد والقديم

(1) Herbert; Une Ambassade Turque sous le directoire

باق على حاله ، وكان عليه أن يفهم أنه لا بد من ازالة المنزل القديم
وأثاره حتى يمكن اقامة الجديد .

أن الرحلة الفرنسية على
مصر في نفوس الأتراك
فشل سليم في ادراك ما طلب ، وانتهى الأمر بقتله ، ولكن النية
في الاصلاح لم تبارح إذ هان السلاطين ، لأن الاخطار لم تبرح تهدد
تيجانهم ، فكابوا مجبرين على التماس سبيل أخرى للاصلاح ، وقد بداهم
بعد الحملة الفرنسية على مصر أن أوروبا لن تتركهم يستسلمون للنوم مرة
أخرى ، فبدأوا بمحاولة جديدة تختلف عن هذه الاولى بعض الاختلاف

محمود الثاني
بدأ هذه الحركة الجديدة السلطان محمود الثاني ، وقد تعلم من
سلفه سليم أن ازالة معالم القديم جزء من بناء الجديد ، فكانت تلك
خطته في كل وجه من وجوه التجديد التي طلبها ، فقبل أن يبدأ بإنشاء
جيش جديد أباد الانكشارية في مذبحه قريبة الشبه جدامن مذبحه المماليك
التي أباد فيها تابعه محمد علي المماليك قبل ذلك بخمس عشرة سنة .

هل كان محمود الثاني
يتأثر محمدا عليا
ويبدو أن محمودا الثاني كان يتأثر واليه محمدا عليا في كثير من الأعمال
التي قام بها ، وذلك لأن النهضة التي وفق اليها محمد علي كانت خليفة أن
تكون قدوة صالحة يتأثرها الحكام إذا طلبوا الاصلاح ، ولا نزاع في
أن أسلوبه صادف اعجابا من نفس محمود ، حين رآه يوفق هذا التوفيق
في حرب اليونان التي فشلت فيها جيوش السلطان ، وكانت تركيا ساعية
ولي أمورها أشبه « بسفينة يذبغى تجديد قاعدتها وصواريخها وأشرعتها
وبحاراتها » (١) أي كان يذبغى تغيير كل شيء فيها

تأمين الرعية
يبد أن محموداً لم يكن ليستطيع المضي في سبيله قبل أن يحسن مركز
تركيا في نظر الدول ، فقد كانت ثورة اليونان وحروب محمد علي
والأزمان التي نشأت عن ذلك قد هبطت بسمعة الدولة إلى الحضيض

(1) Engelhardt : La Turquie et Le Tanzimat
(Paris 1848) P. 5

ولم يعد لأية دولة ثقة فيها أو في نظام حكمها ، فوجد السلطان أن يبدأ
 باصلاح حال رعاياه ، وإيجاد وضع جديد للمسيحيين منهم في الدولة .
 وكان يحس كذلك أن رعاياه المسلمين يكرهون الحكومة ولا يثقون
 فيها ، فبادر وأعلن إلى الرئيس افندى بأنه يريد « أن يصبح العرش
 من الآن مأمّن الشعب لا مخافته ، انى أقرر إلغاء المصادرات ، وحتى
 أولاد التائرين لهم أن يتمتعوا بميراث آبائهم » (١) ولكن المصاعب
 الكثيرة التي أحاطت به حالت بينه وبين أن يتم ما بدأ ، فكانت
 ثورة اليونان وحروب محمد علي والروسيا شغله الشاغل طوال حكمه ،
 فلم يستطع أكثر من إصلاحات بسيطة بعضها لتحسين القسطنطينية
 وتنظيمها ، وبعضها تناول نواحي الادارة كتنظيم الدولة إلى أربع
 ولايات كبرى لتحل محل الثمانية عشر قسما القديمة التي كانت تعرف
 بالولايات ، وإدخال الزى الأوربى وفرضه على رجال البلاط والحكومة
 وغير ذلك عدة مسائل أخرى قليلة الخطر .

محمود الثانى والاصلاح

يبد أن الحوادث تنطق بأن محمودا لم يكن مخلصاً في هذه الوجوه
 التي طلبها ، وإنما كان ينبغي أن يصطنع أمام الدول مظهرا يخفى تحته
 ضعف الدولة وتأخرها ، بل لم يكن يؤمن بما يفعل أو يحرص على
 اتباعه ، فبعد أسبوعين فقط من إلغائه المصادرة صادر أموال رجل
 يهودى اسمه شبتشى . وعقب على ذلك بمصادرة أملاك الرئيس افندى
 الذى أعلن إليه قانون إلغاء المصادرة منذ أيام ١ وكان محمود إلى ذلك
 قليل التوقير للدين ورجاله ، كثير الاستهانة بالتقاليد والاضاع .
 فاثارت تصرفاته مخاوف الناس وسخطهم ، وبلغ غضب الناس أن سبه
 درويش على قارعة الطريق وأتهمه بممالأة النصارى على المسلمين ،
 وأنذره بسوء المصير ، وفي الواقع لم يكن محمود كفئاً للنهوض بالمهمة

التي تعرض لها فقد كان يحس الحاجة إلى الإصلاح ، وكان يشعر بتفوق أوروبا ، ولكن آراءه لم تكن لتظهر إلا في فترات قصيرة. ولم تكن له طاقة لهمهم المسائل الكبرى ، وظل تركياً في الوقت الذي أراد فيه أن لا يكون كذلك ، وقد بالغ المؤرخون كثيراً في تقدير الدور الذي قام به والإصلاح الذي أدخله .

قيمة أعمال محمود
الثاني

ولكننا نلاحظ أن أعمال محمود أفادت الدولة بعض الفائدة ، فأثارت في كيائها لونا من النشاط على الأقل . وعلى الرغم من كثرة الحروب التي اشترك فيها والهزائم التي منى بها ، والكوارث التي نزلت بالدولة على أيامه ، على الرغم من ذلك نجد الدولة عند موته أقوى منها في أول ولايته ، فقد زاد سلطان الدولة على ولاياتها وولاياتها ، فلم نجد نسمع بولاة خارجين عليها كالجزار باشا في الشام ، وسليمان باشا في بغداد . (١) ويبدو أن ذلك راجع إلى خوف الولاة من أوروبا بالامن السلطان ، فلم يعد أى حاكم يفكر في الوثوب بسلطانه مخافة أن تتدخل الدول وتقضى عليه ، وإلى هذا الخوف من أوروبا نستطيع أن نرد مابدا على الدولة من دلائل النشاط الأخرى كزيادة دخلها من ولاياتها لأن حكام الولايات باتوا يعتقدون أن الدولة أصبحت في حماية أوروبا وكنفها ، والنورة على السلطان ثورة عليها ، وليس العهد بعيداً بمحمد علي وقصته .

عبد المجيد

مات محمود الثاني سنة ١٨٣٩ وخلفه ابنه عبد المجيد في السادسة عشرة من عمره ، فكان صغره سنة هذا فرصة مكنت بعض النابيين من الاتراك من الظهور على مسرح السياسة التركية والعمل على اصلاح حالها ، وعلى رأس هؤلاء المصلحين رجالان قديران قدما للدولة خدمات جليلة هما رشيد باشا ورضا باشا .

(١) مذكرات غير مطبوعة للاستاذ شفيق غربال

كان رشيد باشا قبل ذلك سفيراً للدولة في لندره ، وكان رجلاً ذكياً مخلصاً ، فاستطاع أن يلمس نواحي ضعف بلاده ، وتفتط إلى الوسائل المجدية لانهاضها ، وقد رأى بعينه كيف كانت حماية الدول لتركيا منقذة لها من الموت حين أحرق بها ، وكان يعلم كذلك أن الدول لا تحسن الظن بالدولة العلية ولا تثق فيها ، فأحب أن يبدأ عمله بها ككتساب ثقة أوروبا ، فسعى حتى استصدر من السلطان الاعلان المعروف « بخط شريف جلخان » أى المرسوم المتوج بخط السلطان الذى صدر عن سراى الزهر .

أعلن الخط الشريف فى مظاهرة حافلة لا يخفى جانب الفكاهة فيها ، فقد اجتمع لسماعه رجال الدولة وعلمائها ورجال الدين فيها وطائفة من رجال السلك السياسى ، وأطلقت له مائة طلقة وواحدة ، وسبقته صلاة تخير وقتها منجم معروف ، ثم قرأ السلطان : « ان النظم الأهلية تضمن لرعاياها من الآن أمناً شاملاً على أرواحهم وشرفهم وأموالهم .. وهذه المنح حق للجميع من أية ملة أو مذهب .. يستمتع بها الكل على السواء » (١) ولم يمض على ذلك الاعلان كبير وقت حتى عززه السلطان بتصريح آخر ، إذ اجتمع نفر حافل من رجال الدين اليونانيين والأرمن واليهود فى جزيرة مثلين ، وهناك خطبهم رضا باشا باسم السلطان ، فقال أيها المسلمون والنصارى واليهود ، انكم رعية امبراطور واحد وأبناء أب واحد ، ان السلطان يسوى بينكم جميعاً (٢)

تصريح السلطان
بقلب التقاليد
الاسلامية

بهذا التصريح الخطير الذى أصدرته الدولة لتتقرب من دول أوروبا — فأكدت انها دولة متحضرة تقيم العدل بين رعاياها ولا

(1) Engelhardt : op. cit P. 39

(2) Driault : La Question d'Orient P: 153

تحتسب لمذاهب رعاياها الدينية حساباً ، ولا تتعصب للمسلمين على غير المسلمين - بهذا التصريح مس السلطان التقاليد العثمانية في الشغاف وتناول الشريعة الإسلامية بالتحريف ، فإن التقاليد والشريعة كلاهما لا يبيحان أن يتمتع المسلمون وغير المسلمين بنفس الحقوق في رعاية خليفة المسلمين ، لا بد أن يكون هناك تمييز بين المسلمين ومن في ذمة المسلمين ، فاما هذا التصريح الخطير فله دلالة ، فهو ينطق بأن رجال الدولة اعترفوا بأن التقاليد القديمة لم تعد ميزانا صالحا للحكم ، ولا بد من الأخذ بأساليب الغرب ولو تعارض مع الشرائع والسنة ، وهذا الاعلان وحده يكفي للدلالة على أن رجال الدولة في ذلك الحين لم يكونوا أقل رغبة في الإصلاح ولا جرأة عليه من الكمالين .

وكان رشيد يمتاز عن غيره من رجال الدولة بأنه كان يفعل في حين كانوا يقولون ولا يفعلون ، وهذا هو الفرق الجوهرى بينه وبينهم ، وهو الذى جعل له عليهم فضلا وجعل أعماله ثابتة ذات أثر ، ولهذا بادر بعقاب حاكم أدرة لأنه حكم على رجل بالموت بدون رأى السلطان .

رشيد باشا
رجل على

أيقن رشيد أن هذه السياسة الجديدة لا بد كاسبة عطف الدول ، فمضى في طريقه وأنشأ للدولة مجلسا يضم نوابا من مختلف النواحي ، يناقش النواب فيه المسائل ويقترعون عليها في حرية ، ويسرى رأى أغلييته على السلطان نفسه (١) ، وأعقب ذلك اصلاحات شاملة في أساليب الدولة ونظم حكمها ، فألغى نظام الملتزمين إلغاء فعليا ، ووضع للدولة نظاما ماليا دقيقا حديثا ، وعهد في جمع الضرائب إلى هيئات محلية من أهل الاقاليم حتى لا تثقل يد الحكومة على الناس في جمع الضرائب ، ثم وضع للدولة قانونا للعقوبات وفق الشرائع الحديثة ،

انشاء مجلس نواب

العالم نظام الالتزام

واستقدم رجلا فرنسيا ليضع قانونا مدنيا حديثا للدولة ، واشتد
في تطبيق قوانينه شدة حازمة ضمنمت احترام الناس لها ، فلم يعف خسرو
باشا الصدر الاعظم القديم فخا كره وعاقبه على الرشوة ، وأقام
من العلماء مفتشين يتفقدون الولايات ويمهون اليه أخبارها وأحوالها ،
ويوافونه بأخبار الحكماء الذين يقبلون رشوة أو يعسفون الناس أو
ينزلون بهم ظلما . وأعقب ذلك بإنشاء بنك جديد للدولة وأصدر
أوراقا مالية .

الرجعون يعارضون
رشيدا

على هذا النمط توالى جهود رشيد باشا ، ومضى في تنفيذها بحزم
لا يعرف التواني أو اللين ، فلم يلبث الناس كلهم أن أحسوا ثقل يده ،
ولم يلبث القدماء أن شعروا بالخوف منه فبدأوا يكيدون له ويأتمرون
للخلاص منه ، وأعانهم على ذلك أن أحسوا أن بالعامية شعور استياء
وتخوف من أعمال رشيد ، وهذا التخوف طبعى من جهة العامة ، فقد
وجدوا الدولة تساوى بهم النصارى واليهود ، وتستبدل بالسريرة
الحنيفة قوانين النصارى ، وتخلع الأزياء القديمة (الشريفة) لتستخذ
زى النصارى ، وأحسوا كذلك أن حكومة رشيد لا تكاد تأتى أمرا
إلا راعت فيه خاطر النصارى وحرصت أن لا تمسهم بأذى أو
تنالهم بضميم ، فلم لا يكون هذا الرجل آلة في يد النصرانية تستر
خلفه لتبغى على الاسلام ، ولم لا يكون بقاؤه خطرا ينبغى القضاء
عليه قبل أن يعم ويشمل ؟ . هكذا فكر العامة وعلى هذا الأسلوب
فهموا أعمال رشيد ، ولم يكادوا يرون الروس يحتضنون الدولة
ويتقدمون لحمايتها من محمد على حتى استحال شكوكهم يقينا . فرشيد
ستار يخفى خلفه الروس النصارى « وإن السلطان لأفرجى وإنما
المسلم محمد على » () ومادروا أن المصريين كانوا يقولون عن محمد على

عزل رشيد باشا

مثل ذلك ! وأحس أعداء رشيد ذلك فأخذوا يكيدون له ويعملون على إسقاطه . فلم يلبث أن عزل سنة ١٨٤١ : *

الارتداد الى الوراء

وكان عزله معناه الغاء نظامه والارتداد إلى النظام القديم بمساوئه ، ولم يكن ذلك عن رغبة من السلطان أو إيمان منه بصحة القديم وخطأ الجديد ، ولكنه خشى وثوب رعاياه به لما رأى من نفورهم وقلة ثقتهم فيه وفي مستشاريه ، حتى رعاياه من النصارى الذين رفع من مكانهم وأعلى من قدرهم لم يثقوا في حسن نيته ، ومضوا يطالبون بالاستقلال والانفصال ، وإزاء ذلك السخط العام وجد السلطان أن لا حاجة به إلى الأثقال على نفسه بالأنظمة الجديدة وتبعات الإصلاح ، فترك رفعت باشا الوزير الجديد يأتى ما يريد ويرد البلاد إلى سابق عهدها في نظام المال أو الحكومة .

ببقاء حركة الإصلاح

بيد أن الظروف كلها لم تكن تسمح بعودة النظام القديم بخذافيه ، لأن فكرة التقدم لم تعد ممكنا للسلطان يعلنها أو يخفيها كما يشاء ، وإنما استيقظ نفر من رعاياه وأخذوا يطالبون بها ويشعرون بأن الدولة صائرة إلى القضاء اذا لم تسارع في القيام به . والواقع أن كثرة المصائب والازمات كانت قد أوجدت بين الأتراك نفرا من ذوى الرى الصالح والتفكير الحديث ، وكان جل هؤلاء ممن بعثتهم الدولة للعمل في التمثيل السياسى الخارجى أو للدراسة العسكرية ، وكان من هؤلاء من يفهم السياسة الأوروبية ويحس الاستفادة من أحوالها وتقلباتها ، وعلى رأس هذا نفر رشيد باشا الذى مر ذكره ورضا باشا . وكان الرجلان متفقين فى الآراء والغايات ، متقاربين فى القدرة والذكاء والوطنية وإن اختلفا بعض الشيء فتطرف رشيد واعتدل رضا ، وقد تناوبا قيادة الدولة وتوجيها طوال عصر عبد المجيد وعبد العزيز واشتركا معا جنباً إلى جنب فى مناسبات عدة ،

رضا باشا ورشيد باشا

والى تضامنها وقدرتهما يعود الفضل فيما أدركته الدولة من تحسن وانتصار نسبي في حرب القرم ، هذا الانتصار الذى صان كيائها حتى الحرب الكبرى ؛ فالى هذين الرحلين يرجع الفضل فى ادخال تركيا فى حياة الدول الأوروبية ، والحيلولة بينها وبين الفناء فى الأزمات الخائفة التى أحاطت بها على أيامها أو بعدها .

تولى رضا باشا قيادة الأمور بعد عزل رشيد بقليل ، فضى على سياسة رشيد فى التقرب إلى الدول بالاحسان إلى الرعايا والرفق بهم رفقا ظاهراً لا يكاد يجاوز مدى البلاغات والتصريحات ، لأنه إذا كان السلطان وبعض مستشاريه يؤمنون بفائدة الدولة من المساواة بين رعاياها وإذاعة العدل بينهم جميعاً ، فإن عامة الشعب كانوا بعيدين كل البعد عن هذه الآراء ، ولم يكونوا مستعدين للعمل بما يصدر لهم من نصح وما يوجه لهم من تقارير ، بل كان قواد الدولة وحكامها أشد الناس إنكاراً لذلك ، وأثقلهم يدا على المسيحيين من رعيته فى نفس الوقت الذى كانت تذاع فيه القرارات . ولم يكن السلطان ليكره من رعاياه المسلمين هذا العناد ولم يكن ليغضب على أحد من ولاته إذا آذى ذمياً أو عسف يهودياً ، لأن السلطان ومستشاريه كانوا يعلمون أن النصارى الذين يعيشون فى الدولة قد هملوا لمصائبها وأسرفوا فى الانتصار للدول الأوروبية الكبرى كروسيا وفرنسا ، مما آذى شعور المسلمين ودفعهم إلى عسف هؤلاء النصارى عسفاً جاوز الحد . وكان القناصل قد دأبوا على موالاة الذميين بالمنصرة والتشجيع فأصبحوا يدا على الدولة يشلون يدها يأخذون عليها السبيل ، مما جعل الحكام ينظرون إلى المساواة بين الرعية كلون من الخضوع للدول ، ويعتبرون تحسن حال الذميين ضرباً من الهوان للإسلام ودولة الاسلام . لهذا ينبغى أن نعلم أن المبادئ النظرية التى أعلنها

رضا باشا

روح الشعب تيل
إلى الجود

محمود وعبد المجيد ، والأفكار الجديدة التي سعى إليها رضا ورشيد ، لم تكن أكثر من مظاهرات لا يتعدى أثرها جلاخانة وجزيرة متلين ، وأن دول أوروبا — التي كان يرجى خداعها عن هذا السبيل — كانت أعلم الناس بحقيقة الحال ، وأنشط العاملين في عرقلة هذا الإصلاح المزعوم .

رضا يصالح الجيش تناوب رشيد ورضا قيادة أمور الدولة زمنا طويلا ، وحققا لها من وجوه الإصلاح طائفة شتى ، فتناول رضا الجيش وأصلحه واعد له ليقوم بدوره الحاسم في حرب القرم ، بل أعطاه القوة التي مكنته من الثبات إلى الحرب الكبرى ، وشمل رشيد نواحي الإدارة كلها بنشاطه وكفاءته ، فأنشأ مدارس مدنية للتعليم الحديث ، وأسس جامعة وأنشأ للدولة مصرفا ماليا على النظام الحديث ، وأصدر باسمها أوراقا مالية ، وأعاد تقسيم الدولة الإداري ، ووزع وحدات الجيش الحديث على هذه الأقسام ، ووضع برنامجا حديثا للتعليم العام ، وأنشأ مستشفيات تعالج الناس بفنون الطب الحديث ، وألغى الرق بمشيئة السلطان ، وغير ذلك مسائل شتى ، فلم يغادر الرجلان وأعوانهما ناحية من نواحي الحكومة إلا تناولاها وبعثا فيها روحا جديدا ، ولكن أعمالهما لم توف على الغاية المطلوبة ولا بشرت ببلوغها في مقبل الأيام ، بل انتهى الأمر بعودة الرجعية ومحمود حركة الإصلاح ، فما أسباب ذلك ؟

أسباب فشل الإصلاح لعل أقوى أسباب ذلك هو ندرة المتعلمين النابهين في الدولة إذ ذاك ، فلم يكن هناك من يفهمون الإصلاح أو يؤمنون بفائدته إلا نفر قليل جدا ، ولم يكن المصلحون يجدون من يعتمدون عليه في التنفيذ الذي هو أساس هذا الإصلاح ، لهذا كان السلطان يقرر ثم لا يجد من ينفذ فتبقى القرارات قرارات فقط ، بل إن الشعب التركي لم يكتشف بهذا الموقف السلبى وإنما حرص على أن يأتي من الأمور ما يعارض

رضا يصالح الجيش

رشيد ينى بالإدارة

والتعليم
إشرا حامة

إصدار أوراق مالية

إلغاء الرق

أسباب فشل الإصلاح

أوامر الحكومة الجديدة ظنا منه أن هذه « التنظيمات الخيرية » رجس من عمل النصرانية فلا بد من اجتنابه ، ومن دلائل ذلك أن مسلمي الشام اشتدوا في إيذاء الذميين وتعصبوا عليهم حين بلغتهم أوامر السلطان باحترام هؤلاء الذميين ومساواتهم بأنفسهم . بل كان الحكام أنفسهم يخالفون هذه الأوامر ويذيعون ما يناقضها كما فعل درويش باشا حاكم دمشق الذي أذاع على المسلمين منشورا جاء فيه « فالبادي هو أن النصراني عندكم عمال يقلدوا الاسلام (كذا) في ملابسه وعمائمهم ونعالهم ، وتعدوا درجاتهم وخالفوها فهذا ضد رضانا ولا يعطى به رخصة ، فبناء على ذلك أرسلنا لكم مرسومنا هذا لأجل أن تحذروهم وتنذروهم من عواقب ذلك المراد حالا ، وتنهبوا عليهم أن لا يلبسوا ملبوس أزرق وعمامة سوداء ونعال سوداء وإن بلغنا أن واحدا تعدى الحدود المذكورة فما له لا يغنى عن حاله وخطيئته في عنقه ونطلع من حقكم وحقه » (١) وهذا بعد إذاعة الخط الشريف بقليل . من هنا نظر الأتراك إلى الإصلاح بعين السخط وكفوا عن متابعتها أو مناصرتها ، فظل محصورا في دائرة ضيقة ولم يظهر له أى أثر .

غرض الدولة من
الإصلاح

ولننصف إلى ذلك أن الدولة لم تكن تصدر في ذلك الإصلاح عن نية الخير للشعب والرعية ، وإنما الغالب أنها طلبت بذلك مرضاة الدول وكسب ودها « فكانت هذه التصريحات الجميلة التي أكدت وجددت مرات لا حصر لها ، معتبرة مظاهرات لخدايع أوروبا ، ولم يكن الناس ليرونها على أنها رغبة أكيدة صادقة من الحاكم » (٢) ولسنا نقطع بأن هذا كان الغرض الوحيد لعبد المجيد ورشيد ، لأنه يغلب كذلك أن المصلحين كانوا مدفوعين برغبة صادقة في انقاذ الدولة وإنما

(١) حشر اللثام عن نكبات الشام لمؤلف مجهول طبع مصر سنة ١٨٩٥ (ص ٤٤

(٢) Engelhardt Op. Cit ; : P. 81

لا نزاع في ان الناس - في تركيا وخارجها - أصروا على اعتبارها كذلك وحسب هذا سببا للفشل والخسران .

كذلك كانت الدولة فقيرة في المال وفي الكفاءات التي تنتج المال فلم ترزق خلال هذه السنوات كلها رجلا اقتصاديا يحسن الهيمنة على مواردها ويحسن التصرف فيها على نحو يهيئ لها المال للمشاريع الإصلاحية ، بل وقع المصلحون في اخطاء مالية كبرى كإصدار أوراق مالية لا يعادلها رصيد معدني ، فلا تلبث أن تفقد قيمتها « وعدم وجود ميزانية حقيقية للدولة ، وبمعنى آخر : عدم وجود خطة تتبع في تصريف أموالها ، وحاجتها إلى أساليب تمكنها من إيجاد توازن بين الدخل والخرج » (١) هذا إلى حيرة الدولة في أساليب جمع الضرائب ، واعطائها للملتزمين تارة ، وتكليف رؤساء العشائر والأقاليم بجمعها تارة أخرى ، والاعتماد على القادة العسكريين في جبايتها تارة ثالثة ، وعسف الناس وظلمهم في أدائها في مختلف التارات والحالات . وإزاء ذلك وجدت الدولة نفسها في أزمة مالية مستمرة . فلا هي واجدة المال ولا هي قادرة على تصريفه إذا وجدته ، حتى لقد توقفت عن دفع اعطيات جندها في كثير من الأحيان مما جعل الجنود والعمال يتخوفونها ولا يحفلون بما يصيبها من هزيمة أو اندحار ، بل كان الكثيرون لا يترددون في ترك صفوفها واللجوء للعدو في عنفوان المعركة وحومة القتال ، ولنصف إلى ذلك ما نعرف من فساد ذمة الموظفين الأتراك وقبولهم الرشى وميلهم إلى اختلاس أموال الدولة . (حتى رشيد نفسه لم يسلم من هذه التهمة فأدين وثبتت عليه تهمة السرقة والارتشاء في قضية خطيرة) . (٢) إذا ذكرنا ذلك استطعنا أن نعلم كيف كان توفيق الدولة ضئيلا ، وكيف كانت تجد نفسها عاجزة

فقر الدولة في المال
والكفايات

فساد الموظفين

(1) Engelhardt; Op. Cit. P, 101

(2) Ibid. P. 61

عن القيام باصطلاحات واسعة تنجو بها من الحرج الذى كان يزداد بها يوما بعد يوم

موقف الدول
من الاصلاح

ولم تكن الدول كذلك بخالصة النية فيما كانت تعلن من الحذب على مصالحة الدولة والاخذ بيدها ، وقد سبقت الاشارة إلى ما كان من فساد نظم الدولة المالية ، مما يدل على أن نصحاءها الاوروبيين لم يكونوا من ذوى الكفاية أو ذوى الاخلاص ، فسماحهم للدولة باصدار أوراق مالية غير مضمونة يدل على كلال الامرين ، وبخلهم على الدولة بالنصح فى مسائل النظام المالى والميزانية يؤكدها أنهم كانوا يخادعون ، لأن تلك الأمور من أوليات التنظيم الاوروبى المالى ، يعرفها رجل الشارع لا المستشار الذى يندب لتنظيم أموال دولة بأسرها . وكانت الحكومات لا تتأخر فى القيام بأى عمل من شأنه عرقلة الأتراك فى اصلاح أمورهم ، فلم يكف الروس عن اغلاق الدولة والتدخل فى شؤونها ، وكانت تحارب المصلحين صراحة وتعمل على إفساد ما بينهم وبين السلطان ، حتى لقد تمكنت من عزل رشيد باشا فى مرة من المرات ، وكان مترنيخ ينظر إلى اصلاحات الدولة فى شئ من القلق ، ولم يتردد فى اعلان استيائه منها ورغبته فى الغائها وعودة تركيا إلى ما كانت عليه ، وحتى انجلترا وفرنسا لم تكفيا عن التدخل بين السلطان ورعاياه وادعاء الحماية على طوائف منهم ، مما قلل هيبة الحكومة وشل يدها وجعلها بين نارين : نار الرقابة من الدول ونار الصلف من رعية تعجز على راعيها برعاة آخرين .

حيرة المصلحين

وماذا يبقى لرشيد أو لغير رشيد من الوسائل أو الآمال ، انه لمام إذا أصلح وملام إذا قصر ، مخطئ إذا أعلن المساواة مخطئ إذا أذاع الاستبداد ، مهان إذا تقرب من أوروبا مهان إذا ابتعد عنها ، لا يجد المال إذا طلب وإذا وجده لم يجد الوجه الذى ينفقه فيه ، فإذا وجد

وجه الاتفاق لم يجد شاكراً ولا عارفاً ، فإذا استطيع . . لعمله لو استطاع ما فعل ، فكيف وهو العاجز المغلول ؟ فليدع الإصلاح وليترك الأمور تجري في أعنتها فما هو مبدل من الأمر شيئاً ، وما زاد عليه الا قول مترنيخ — يحكم على عمله وجهاده — ان الدولة العثمانية كيان في دور الاضمحلال ، ومن أسباب هذا الاضمحلال « بل السبب الذي نشأت عنه كل بلاياها — هي فكرة الإصلاح على الطريقة الأوروبية التي وضع — أساسها السلطان سليم ، والتي اندفع فيها السلطان الأخير مسوقاً بجمل شديد وبطائفة من الخيالات » (١) ، ليدع الرجل العمل وليخل بين الناس والدعة فما كان الناس ليطلبون اليه الاثقال عليهم بالعمل واتباع النصرانية وأهلها ، ليدع الأمر هو وأصحابه وليتركوا عبد المجيد وحده فإنه لا يرضى عنهم بل يتهمهم بافساد الأمر عليه ، لينصرف رشيد بسلام في أواخر حكم عبد المجيد (أوائل يناير سنة ١٨٥٢) وليدع السلطان يجرب حيلته أمام الدول والناس وجهه الوجه ، ليجرّ الرجل على نفسه سحائب النسيان ، فما يكلف الله نفساً إلا وسعها وما هو ببالغ أمراً بعد الجهد والاعياء .

عزل عبد المجيد

وليبق عبد المجيد وحده في الميدان ، ليتلقى سخط الناس ويسمع بأذنيه اتهامهم إياه بمبايعة النصرانية على تاجه وشعبه ، وليتلقى وحده جوارح المهانة ومظاهر السخرية من عواهل أوروبا وساستها ، وليرى بعينيه جنده يشغبون عليه ولا يقيمون له وزناً . وليرحل عن هذه الدار محزوناً آسفاً ، مخلياً بين أخيه عبد العزيز ورجل الحكم ، معزياً نفسه بقوله : « لا أحد ينكر انه على الرغم من العناية التي بذلت لتنفيذ آرائي

لم يثمر شيء من هذه المشاريع الثمر الذى رجوته منه ، خلا الاصلاح الحربى ، وحتى هذا لم يقيم على أساس ممكن انى محزون بالغ الأسى « (١) ليتعز بهذا الأسلوب من التفكير ، وليتقبل عزل الناس له بنفس راضية ، وليسكن عزائه انه كان صادق النية وان قسا ، حريصا على خير الرعية وان تبدل الوزراء وأساء اليهم وصر فهم غير مقدر فضاهم أو حاسب لهم حسابا . . . ليحمل نصيبه من سخط الناس ولعنهم اياه ولتسكن له حسنة المؤمن الذى أخطأ التوفيق . وماله يجاهد سيل الرجعية ورغبة الارتداد الى الحال الأولى ؟ لقد طالما حال بين الحزب الرجعى فى القصر والحكومة وبين الاستبداد ؟ وقد طالما حارب جنوده وأتباعه على غير طائل ، ولقد طالما استمع إلى وشاياتهم وصانعهم على قلة الجدوى ، فليخل بينهم وبين ما يريدون ، وهذا عبد العزيز يشاركهم الرأى والفكر ، فليرفعوه على أنفسهم خليفة وسلطانا وليقبل عبد العزيز ليتجرب حظه ، فيعهد بالأمور الى رجل أمى السلطان عبد العزيز لا تعززه كفاية ولا خبرة ولا معرفة ، هو محمد على ، وليدعه يمضى فى الاصلاح والتنظيم حينما عساه يبلغ من الأمر مرادا . وليصدر فرمانا جديدا فى نوفمبر سنة ١٨٥٢ فينظم به أمور الدولة من جديد ويصلحها العردة الى القديم مما ابتلاها به رشيد وعبد المجيد ، وليعهد بالدولة إلى نظام قديم جدا يرضى عنه السلفيون ويرون فيه اعزازا للشرع والماضى وإن كان فيه مهانة للرعية ، فليسكن على رأس كل ولاية حاكم عسكري يقابل الوالى أيام الخلفاء ودفتردار يقابل صاحب الخراج وليخضع الوالى العسكرى للصدر الأعظم ، وليتبع الدفتردار لوزير المالية ، ولتجر الأحكام بهذا من غير تعاون بين رب الادارة ورب المال ، وليمض عبد العزيز فى هذا العلاج مستعيننا بنصحاء بعضهم مشفق فى مدارس فرنسية ، ولا عليه إذا تالت اليه انباء عجز ادارته وحكامه وشرطته عن ضبط الأمن

(1) Engelhardt. Op, Cit, vol I P. 49

— ٢٦٤ —

في مختلف النواحي . لا عليه إذا أصبحت أدرنه و طرايزون و أزمير
مسرحة للفوضى والاضطراب ، لا عليه من ذلك كله ، فاصلاحه يخرج
عن طاقة الناس ، ليدع هذا كله لينظر ما تأتبه الدول في الشام ، وما تأثيره
عليه من الحرب والقلق ، وليجد نفسه آخر الأمر مسوقا إلى حرب
لا يعرف لنفسه فيها مصيرا .

— ٦ —

الشام

في ذلك الحين كانت الشام تشقى وتئن تحت وابل حافل من الولايات
والآلام ، ولعلها كانت أحفل بلاد الاسلام إذ ذاك بالمصيرية وأعضائها
بالداء إصابة ، فقد كانت تحمل على عاتقها — فوق مصاعب العصر
الحديث — عقايل قرون ماضية ، بعضها ناشئة عن تكوين البلاد وبعضها
مرده إلى تاريخها وتاريخ الشرق الاسلامي كله .

مركز النصارى
في الشام

ذلك أن الحروب الصليبية كانت قد وضعت أهل الذمة في الشام في
موضع لا يخلو من حرج ، فلم يكن ينتظر بعد هذه الحروب الطويلة
التي اشتعلت نيرانها في بلاد الشام بين النصرانية والاسلام ان يتصافى
المسلمون ومن بقى في البلاد من النصارى ، فكما اشتد نصارى الاندلس
على المسلمين بعد حروب الاسترداد ، فقد اشتد مسلمو الشام على النصارى
بعد الحروب الصليبية ، والأمران قريب من قريب ، وقد استمر الأمر
على ذلك من نهاية الحروب الصليبية إلى أوائل القرن الثامن عشر ،
فظل الذميون يعاملون معاملة شعب مغلوب على أمره مستضعف مسكين
فكان النصراني لا يملك أن يساوى نفسه بالمسلمين فيما يلبسون أو
يركبون أو يفعلون ، ولم يكن ليحسر على المسير عن طريق المسلم ،
حتى لقد كان يقابله في الطريق فلا يلبث أن يتياسر في طريقه أدبا
واحتراما ، ولو لم يكن لنصارى الشام من تسامح المسلمين وقاية لحاق
هم في الشام ما حاق بالمسلمين في الاندلس ، إذ عفى القوم على آثارهم تماما

ولم يكن ذلك كل مافى الامر ، فقد كان تاريخ الشام قد فرض عليها أن تكون « متحفا » لسكل غريب طريف من الأديان والمذاهب ، فهذه البلاد — التى لا يزيد عدد سكانها على بضعة ملايين — تضم كل ألوان الأديان بمذاهبها المختلفة ، وتنفرد بطائفة لا تحصى من المذاهب الخاصة بها ، كطوائف الموارنة والدروز والسمرية والنصيرية التى لا توجد إلا فى بلاد الشام وحدها . وبديهي أن يكون هذا الخليط الدينى حائلا بين توحيد البلاد واجتماعها إلى لواء واحد ، مما جعل حكم الشام من أعقد الأمور وأصعبها ، فاذا أضفنا إلى ذلك ما نعلمه من اختلاف البيئات فى الشام بين السهولة والحزونة ، وبين الصحراء والمزارع ، وبين بلاد الساحل والداخل ، وبلاد المرتفعات ونواحي المنخفضات ، وما نعلمه كذلك من اختلاف المهاجرين إلى هذه الأرض العريقة فى القدم ، واتجاه الناس والفاحين اليها من كل حذب وصوب ، إذا عرفنا ذلك وأضفنا إليه أن حكماها فى العصر الحديث كانوا هم الأتراك العثمانيون الذين يصعب عليهم حكم بلد آمن وادع متحد متجانس كمصر ، هان علينا تصور الحال التى كانت الشام عليها فى مطالع العصر الحديث .

قسم الأتراك الشام إلى أربع ولايات تعرف بالولايات حلب وبيروت والشام والقدس ، يقوم على إدارة كل منها باشا خاضع بدوره لحاكم الشام الأعلى الذى يقيم فى دمشق ويلقب بمشير العرضى الهايوى وكانت البلاد تحكم حكما عسكريا وتجبى ضرائبها على طريق الالتزام المعروف . ولم يكن الحاكم ليغنى إلا بجمع المال والرشى وسرقة الدولة ، فكان يلزم الأهلىن بمضاعفة الأداء وإلا ضوعف العذاب ، وكان عماد الحاكم التركى على ما بيده من الجند ومعظمهم من الانكشارية وطائفة أخرى تسمى القيقول ، وكانت الطائفتان لا تفتآن تتنازعا وتحتربان

نظام الشام الإدارى
الانكشارية والقيقول

في المدن والمزارع حتى هبطت حالة البلاد هبوطاً تاماً . وشغل الجند بما بينهم من المنازعة فانصرفوا عن حماية الناس ورعاية مصالحهم ، فاختل الأمن واضطرب الحال ، واشتد هولاء الجنود على الناس وعسفوهم حتى أصاب أهل الشام على أيديهم أكثر مما أصاب أهل مصر على يد المماليك ، « إذ كان رجال كل قسم يتشتمون على أيديهم بشارة وجاقهم (فرقتهم) ، وأكثر اجتماعهم في القهاوى ، وجرت العادة أن يرسم فوق وجاق كل قهوه إشارة الوجاق الذي يجتمع رجاله فيها ، ولم يكن لهم نظام عسكري في ذلك الوقت إلا أن رجال كل حارة كانوا يخضعون لأغا (رئيس) الوجاق الحال فيها ، والجميع يخضعون لكبير الوجاق المنتخب من بين الأغوات لامتياز به بالjus صداقة والى أولغير هذا ، ولم يكن يمكن لحدث أو لامرأة شابة جميلة المرور أمام القهاوى التي يجتمع فيها العساكر خيفة أن يضحوا فريسة أولئك الجهال » (١) و « كان النزاع بين الأقسام قائماً على قدم وساق ، وقد نشأ عنه حروب كثيرة بين هذه الأقسام المتضاعفة فتسبب عن ذلك مخاوف كثيرة ولحق بالأهالي أضرار عظيمة ، حيث كانت تنهب الدكاكين وتقفل الأسواق وتعطل الأشغال ويتعذر على أبناء السبيل الخروج من بيوتهم ، وكمن مرة أضحت بعض المدن — وخصوصاً الشام وحلب — مطعماً للنار من جراء ذلك ، ولم ينصرف المشكل إلا بمداخلة الولاية أو بعض الأعيان ، ولكن ليعود الشر بعد وقت قصير عند ما يحدث له موجب صغير ولطالما نهض القوم على الولاية أنفسهم وقتلوهم وعساكرهم كما جرى في دمشق سنة ١٨٣١ لسليم باشا حيث قتل هو ومعظم عساكره لأجل ضريبة جزئية فرضها على

الدكاكين والمخازن والبساتين ، وقد كان الاعتداء على العرض والقتل
 بما يحدث كل يوم « (١)

فلما أقبل العصر الحديث ، وتسامع المسلمون بتفوق أوروبا ، وبدأ
 للرعية ضعف الدولة العثمانية وسوء حالها ، انضافت لمصاعب الشام
 مصاعب جديدة زادت الحال سوء على سوء ، ذلك ان طوائف النصارى
 لم تسكد تنسّم أخبار تفوق دول أوروبا حتى رفعوا رءوسهم وأخذوا
 يستعدون ليردوا المسلمين ما أسلفوا لهم في العصور الماضية ، وزاد
 الطين بلة ما جرى عليه الأتراك من التفريق بين الرعية وضرب طوائفها
 بعضهم ببعض مما أوجع النار وجعل الشام كلها كمخزن البارود
 لا يكاد يشم النار - عن بعد - حتى ينفجر انفجاراً مخرباً. وأخذ السائحون
 الأوروبيون يرتادون البلاد وينهون أحوالها الى دولهم . واتصل نفر
 منهم ببعض الطوائف المهيضة واستمع إلى شكائهم فلم تلبث الدول أن
 تنبّهت إلى هذا الحال السيئ ، وزادها رغبة في التدخل مارأوا من هوان
 الذميين في هذه البلاد وما لمسوا من اختلال الأمن الذى كان يهدد
 التجارة - وهى غرض الأوروبيين الأول - فلم تلبث عناية الدول
 أن اتجهت نحو هذا القطر ، ولم تكذب أن أرسلت قناصلها ومعتمديها
 وأخذت تتدخل فى الأمر وتزيد الأمر على الدولة العثمانية حرجاً .

اتجهت أنظار الأوروبيين الى ثلاث نواح من الشام : هى عكا
 ولبنان وبيت المقدس . فأما الأولى فقد كانت قد أخذت طريقها إلى
 إلى القوة والاستقلال خلال النصف الثانى من القرن الثامن عشر ،
 إذ تولى أمورها ضاهر العمر شيخ قبائل صفد ، وكان أميراً قوياً قادراً
 استطاع أن يمد سلطانه على ناحية الجليل وحصنها وخلصها إلى حين من
 مساهمات الحكم التركى ، فلم تلبث المدينة أن نهضت فى رعايته وبدأت

أهميتها السياسية والتجارية في الظهور ، وظل مستقلا عن الباب العالي مدى خمس وعشرين سنة من ١٧٥٠ إلى ١٧٧٥ ، واعانه على ذلك أمرا. مصريون كعلي بك وأبي الذهب ، وكان العداء إذ ذاك بين الروس والآتراك على أشده ، وكان أدير مصر على بك قد سعى للاستعانة بالروس على الآتراك . فجاراه في ذلك ضاهر ، فاستطاع أن يفيد من معاونة الروس أكثر مما أفاد صاحبه على بك ، لانهم استطاعوا أن يمدوه بأسطول وحامية ، واستمر يناضل الآتراك حتى مات وهم على حصار بلدته سنة ١٧٧٥ .

من ذلك الحين أخذت عكا سبيلها إلى القوة والرقى ، واتصلت الأسباب بين ولايتها وبين الأسطول الانجليزي الذي كان يربط في شرق البحر الأبيض منذ الحملة الفرنسية ، إذ وجد الانجليز أن الاعتماد على ولاية صيدا وميناء عكا يجعل للأسطول الانجليزي ملجأ وموردا للمؤونة وقت الحاجة ، ومن هنا كان هذا التعاون الموفق الذي اشترك فيه الأسطول الانجليزي مع الجزائر والى عكا وانتهى باحباط مساعي نابليون في الشام سنة ١٨٠٠

وحوالى سنة ١٨٢١ تولى إمارة صيدا أمير شاب سيكون له أثر بعيد في مستقبل الشام السياسى ، هو عبد الله الجزائر . وقصة هذا الفتى وأعماله وسياسته تدل على الروح التى سادت زعماء الشرق الاسلامى في ذلك الحين ، وتكشف لنا عن كثير من جوانب الضعف التى كانت الدولة تزح تحت عبئها ، والتى مهدت الطريق لانهايار الوحدة الاسلامية وأعانت الغرب على التمكن من بلاد الشرق .

بدأ عبد الله الجزائر حياته العملية في سن مبكرة جداً ، إذ أقبم في التاسعة عشرة من عمره حاكما لسواحل الشام ، فلم يلبث إلا قليلا

الاجلير بمحمون عكا

عبد الله الجزائر

حياء الجزائر

حتى استطاع أن يستولى على امارة دمشق وضمها إلى زمامه . وكان
الفتى طموحا تخامره نزعة الوثوب بالدولة والاستقلال عنها بالشام ،
بل كانت آماله البعيدة تنزاح إلى خلع الخليفة محمود الثاني وإعلان
نفسه خليفة على المسلمين ، ولهذا لم يلبث الخلاف أن دب بينه وبين
الباب العالي ، فأغرى السلطان به حكام دمشق وأطنة وحلب فمشوا إليه
يريدونه على الطاعة ، فاعتصم منهم خلف ميناؤه الحصين عكا ، وظل
يتأجرز ويقاوم تسعة أشهر . فاذا أشرف على الهلاك فقد أراد أن يستعين
بمحمد علي صاحب مصر على هذا البلاء الذي حل به ؛ وكان هذا
يرقب الأمر بعين النمر ويلتمس الفرصة الأستيلاء على الشام بعد أن
أثبت قدرته وكفاءته في حرب الوهابيين ؛ فأخذ يقلب الأمر على
وجوهه والرجل مرتقب العون ، تتفرق عنه بلاده ونواحيه يوما بعد
يوم ، فلما استيأس من نجدة مصر اتجه إلى أمير لبنان بشير الثاني ،
فجعل هذا بمعاونته معاونة عادت على لبنان بالخسار ، إذ ضيق أنصار
السلطان على بشير حتى اضطر إلى مغادرة بلاده والحرب إلى مصر ،
واشتد الأمر بعبد الله مرة أخرى فتوجه إلى محمد علي يستعطفه من جديد ،
فأخذ يبعث إليه برسائل تفيض ذلة واستعطافا وتمليقا ، مؤكدا له أنه
عبده الخاضع وعامله الأمين . ومضى في الرجاء إلى حد تقديم عكا إلى
محمد علي ثمنا لهذه المعاونة ، وهنالك تحرك محمد علي للعون ، وكان طوال
الوقت لا يغلط موانيه في وجه سفن عكا ولا يمنع إرسال الامداد من
البحر إليها ، وربما أرسل بعضها بنفسه ؛ تقدم محمد علي يرجو السلطان
أن يعفو عن عبد الله ويؤكد له حسن نيته وتوبته وندمه على ما أتى من الأمر
فلم يلبث السلطان أن عفا عن الجزار ورده إلى ولايته (١)

الجزار يحاول
الاستقلال

الجزار يستعين بمصر

الجزار يستعين بلبنان

تدخل محمد علي
والعفو عن الجزار

(١) Asad Rustom : The Royal Archives of Egypt and the
origins of the Egyptian expedition to Syria. P. 20.

مطامع محمد علي في عكا

أغلب الظن أن محمدا عليا لم يبذل هذا السعى خالصا لوجه عبد الله، وإنما رجا أن يدوم اعتراف هذا الفتى بفضله عليه وبتبعية عكا لصاحب مصر تبعية معنوية، ويذهب الأستاذ اسدرستم إلى أن الجزار لا بد قد وعد محمدا عليا بالمعاونة الحربية وقت الحاجة (١)، وليس هناك ما يمنع من قبول هذا الرأي، خصوصا وقد ظل الجزار يعترف بفضل محمد علي سنوات طويلة، بل استطاع هذا الأخير أن يفيد من ولاء صاحب عكا حتى نهاية حرب اليونان « ففي أثناء حرب المورة طلب محمد علي منه تهيئة عشرة آلاف مقاتل من لبنان لانجاء ولده إبراهيم فتلقى الطلب بالقبول، على أنه لم يطلب منه تنفيذه، ثم لما وقع النزاع بين الأمير بشير — صديق محمد علي — وبين الشيخ بشير جنبلاط، كتب إلى عبد الله باشا يستحثه على انجاء الأمير فلي عبد الله باشا هذا الطلب، فأرسل إلى لبنان شزيمة كشافة وأعد حملة لتأييد حزب الأمير بشير (٢) ولكن عبد الله هو الآخر لم يفعل ذلك كله عرفانا بالجميل ولا اعترافا منه بالتبعية لمصر، وإنما كان يخدع محمد علي ليستعين به وقت الحاجة، وليجد منه التعضيد حين تسنح الفرصة ليستقل بالشام.

أولئك كانوا ولاية الدولة و« أعمدتها » كما يقولون، فما أوهى البناء... يخاتل أحدهم الآخر ويخدعه عن نفسه، ويتعاونون معا على سلطان لا يتقى الله في نفسه ولا في رعيته، ولا يتخرج أن يخدع ولا ته ويغرر بهم في ساعة الخرج والازمات، وما كان يخفى على السلطان تدبير أحد الواليين، وكان الخوف لا يفتأ يدب في صدره كلما ذكر عكا وصاحبها ومصر وواليها، وما دام يحس من نفسه العجز أمامهما ويتخوف اثتلافهما عليه فلا أقل من إفساد ما بينهما وضرب أحدهما بالآخر، وأحس رجال الدولة « بغريزتهم » عسر

رجال الدولة يسعون بين محمد علي والجزار

محمد على عليهم وسهولة كسب عبد الله الجزار ، فلم تلبث سعاية رجال الدولة - وعلى رأسهم خسروباشا - أن فعلت أفاعيلها في نفس صاحب عكا ، حتى انعقد بينه وبين رجال الدولة شبه تحالف على الوقوف في وجه محمد على ساعة الحرج . وأحس محمد على بذلك فبات على الحذر من الجزار ، وأنشأ يتربقب الفرصة للقضاء عليه وإعادته إلى حدوده . وفي هذه اللحظات التي اطمأن خسرو فيها إلى أنه خدع صاحب عكا وعيى بصاحب مصر كان عبد الله لا يتحرج من المصارحة برغبته في الخلافة والعمل على خلع محمود الثاني ونقل مركز الخلافة من القسطنطينية إلى عكا (١) !

هذا اللون من العلاقات يعرض لنا مقدمات الحرب بين السلطان ومحمد على ، وهي حروب طبيعية جدا بين آمال متعارضة وسياسيات ملتوية ورغبات بعيدة ومؤامرات معقودة في ذلك الحين بين رجال الدولة الإسلامية ، أو بين الاستانة ودمشق والقاهرة . وللحرب مقدمات أخرى في نواحي أخرى من نواحي الشام وهي لبنان وهوران وجبل الدروز فلنمر بها مسرعين .

لبنان كانت أمانة لبنان وما يجاورها من جبال حوران تعيش في شبه استقلال عن الدولة ، فلم يكن للسلطان على سكانها من السلطان ما كان له على مصر وبقية بلاد الشام مثلا . لأن الجبال كانت معتصما لأهل هذا الأقليم يطلبون فيها الأمان من جيوش السلطان ، فادعز عليهم الأمان في لبنان لم يكن عليهم بأس إذا التمسوا النجاة في سفن البحر والهروب إلى الجزائر أو إلى اليونان . ولهذا تصالح أهل لبنان والدولة على أن تنزل لهم عن بلادهم يحكمونها على أن يؤدوا إلى الدولة مالها .

كانت أرض لبنان قسمة عادلة بين طائفتين دينيتين فريدتين في الدروز والموارنة

بابهما ، أولاها الدروز والثانية الموارنة ، والاولون أقرب إلى المسلمين والآخرين أقرب إلى النصارى ، وكلاهما خارج عن طاعة الخليفة وألبابا معاً . وكانت الفئتان ذواتى ماض مجيد فى الحرب الصليبية ، إذ أبلى الدروز فى جانب المسلمين ، وأبلى الموارنة فى جانب اللاتين ؛ ولما انقضت الحروب الصليبية ظلت أواصر الولاء معقودة بين الفرنسيين والموارنة من أهل لبنان ، حتى أن لويس الرابع عشر ادعى الحماية على المارونيين وأبدى عليهم عطفاً ظاهراً .

العلاقة بين الموارنة
وفرنسا

وكان حكم البلاد فى أول الأمر إلى الدروز ، إذ هم أهل بأس وسطورة ، واشتهرت منهم بيوت أثنت قدرتها على الحرب والنضال ، فتوالى على حكم لبنان وحواران وجبل الدروز أمراء من بيوت تنوخ ومعنى وارسلان وجنبلاط وعماد وشهاب . ولما كان الفريقان خارجين على الاسلام والنصرانية معاً ، فقد نجت بلادهما من العداء الدينى وتصافى الحليفان ، وجرت الأمور بينهم على ما يجرى الأمرين الحليف والحليف « فكان الدروز يخضعون لمشايخ النصارى ؛ والنصارى يخضعون لمشايخ الدروز عن نفس طيبة نادرة » (١) وأنتهت أماره لبنان فى نهاية القرن الثامن عشر إلى الأمير بشير شهاب الذى ظل على ولايتها إلى سنة ١٨٤٠ ، وكان فى أول أمره مسلماً ثم اعتنق النصرانية وصار مارونياً وظل الصفاء معقوداً بين الدروز والموارنة فى أغلب أيام حكمه

الأمير بشير شهاب

وكان طبيعياً أن تتصل الأسباب بين بشير ومحمد على . فكلاهما رجل قادر واسع الرأى يؤسس لنفسه ملكاً ، يتخوف الدولة ويأخذ نفسه بالتقية من تديرها وكيدها ، وتفطن يشير إلى قوة محمد والخير الذى يرجى للشام على يديه إذا هى صارت إليه ، وكان محمد على — كما سنرى — آخر من يقيم الاعتبارات الدينية وزناً فى مسائل السياسة والحكومة ، ومن ثم جرت مراسلات بين بشير ومحمد على ؛ وسواء

بين الأمير بشير
ومحمد على

(١) حصر الثام عن نكبات الشام ص ٦٦

أتواعد الرجلان على التعاون على الوثوب بالدولة ، أم كانا قد اتفقا على ذلك على يد رجل إيطالي اسمه بيانكي ، وسواء أصدق عبد الله الجرار فيما ادعى من أن هذه المراسلات وقعت في يده مصادفة فطير نبأها للقسطنطينية (١) أم لم يصدق ، فقد أصبحت الدولة توجس خيفة من بقاء لبنان على حاله ، ومن قوة أهله واستعدادهم للتفاهم مع رجل كمحمد علي ، تدل الدلائل كلها على فساد العلائق بينه وبين الدولة ، وعلى أنه لا ينوي بالدولة خيراً

الدولة تسعى بين
الدروز والموارنة

من ثم أخذت سعايات الدولة تنشط في التفريق بين الموارنة والدروز ، فبعد أن كان الود معقوداً بين أمير الدروز الشيخ بشير جنبلاط ، وأمير الموارنة بشير شهاب ، اختلفا في آخر عهدهما بدسائس الأتراك ، ولما قتل الشيخ بشير جنبلاط في عكا على يد الجزار المشهور بالظلم وظن أهل لبنان أن ذلك كان بطلب الأمير بشير قاموا عليه وشقوا عصي طاعته ، (٢) وبهذا وضعت الدولة هذه الطائفة المسيحية في حرج مخطر ، ومهدت السبيل لتدخل فرنسا في شؤون الشام تتدخلها فعليا خطيراً .

المذابح بين الدروز
والموارنة

فسدت العلائق بين الدروز والموارنة ، وعمت المذابح والمنازعات ذلك الجبل الآمن المطمئن ، وسامت الأسباب بين الجزار ومحمد علي وكان كلاهما يخدع صاحبه عن نفسه ويحاول السيطرة عليه ، فكانت العلائق بين الولاة والأمراء والصدور العظام علاقة خداع وتدمير . وكيد وكرهية ، ولم يكن هناك يد من أن تقع الواقعة بينهم جميعاً عاجلاً أو آجلاً ، فإذا كانت أسباب حرب الشام القريبة ترجع إلى

بعض أسباب حرب
العام الثانية

(١) Douin : La mission du Baron de Boislecomte, P. 65-66
Asad Rustom. Op. cit. P.P. 24-25 وانظر

(٢) انظر حصر الشام عن مكبات الشام : ص ٦٦

النزاع بين محمد علي وعبد الله الجزائر ، وإذا كانت أسبابه البعيدة نوعاً
ترجع إلى تغيير السلطان بمحمد علي وحنته بما وعدده من ولاية الشام ،
فإن أسبابها البعيدة ترجع إلى هذا العداء الباطني المتحكم بين رجال
الدولة كلهم حكماً كانوا أو رعية ، وخوف بعضهم من بعض وسدعهم
كلهم القضاء على بعض عن أى سبيل ، هذا الشعور السيء الذى انتهى
بهم جميعاً إلى خاتمة محزنة حقاً ، انتهى بالقضاء على آمال محمد علي ،
وزوال بيت الجزائر ، ونفى الأمبر بشير ، وبتسليم السلطان عاصمته
إلى الروسية فى معاهدة هنكيار سكلى .

بدأت حرب الشام فى صورة خلاف بين محمد علي وعبد الله
الجزائر ، ولكنها لم تلبث أن تكشفت عن حقيقتها ، فأصبحت حرباً
بين محمد علي والسلطان كما مر بيانه ، وقد لقي الجزائر فيها جزاءه على
ما تخون من عهد محمد علي وما أثم فى حقّه ، إذ اشتد عليه ضغط
ابراهيم باشا حتى سقطت المدينة فى يد المصريين والجزائر مرتقب
معوثة السلطان ، فسلم نفسه وهو يصف السلطان بأن شرفه كسرف
العاهرة ، وأصبحت الشام كلها بعد قونية فى يد المصريين .

حكم المصريون الشام مدى تسع سنوات تعد خير سنوات الشام
فى هذه الفترة العصيبة ، فقد بدأ ابراهيم فأخذ العصاه والثأرين
بالشدّة حتى قضى على كل مقاومه ، ودانت له البلاد وأسلمت له
قيادها ، ثم أعقب ذلك بفرض أنظمة محمد علي وأساليبه على الشام
فاعلن التجنيد الاجبارى واحتكر معظم المنتجات وجمع السلاح .

وتلك كلها أمور لم يعرفها أهل الشام فى أحواد أيام الحكم التركى ،
فلم يلبثوا أن نفروا من حكومة مصر نفوراً شديداً ، ولكن الذى زاد
نفورهم وملاً قلوب أهل الشام حفيظة وخمماً هو المساواة التى أعلنها
ابراهيم بين أهل الشام نصارى كانوا أو مسلمين أو يهوداً ، مساواة

محمد علي يفتح الشام

الحكم المصرى فى الشام

ابراهيم يسوى بين
الطوائف فى الشام

شاملة في المعاملة وأمام المحاكم والقضاء ، وهذا أمر لا يقبله مسلمو الشام ، ودونهم وقبوله خرط القتاد ، وقد حسبوا أول الأمر أن ابراهيم راجع إلى صوابه ومعيد النصارى إلى حدودهم من الذلة والضعف ، فذهب نفر من علماء الشام يشكون إليه انقلاب الأوضاع ، ويسيطون أمامهم من استعلاء الذميين وركوبهم الخيل كالمسلمين ، وتلك في نظرهم جريمة لا تغتفر ! وحرب على الدين لا تمسحها إلا توبة حوامة فلم يكن من ابراهيم إلا أن سخر منهم سخرية مرة وردهم كاسقى البال ، إذ نصحهم أن يركبوا الجمال من اليوم حتى يصيروا أعلى من النصارى كافة ! (١) ثم فجعهم وخيب آمالهم بأن حضر حفلا من حفلات النصارى ، وشهد طقوسهم بنفسه جذلان طربا بيد أن الأمن لم يلبث أن ساد ربوع الشام ، فعاد الناس إلى زراعة الأرض ، وأمن الناس على أموالهم فاخرجوا ما كان مخبأ منها أيام الأتراك وأخذوا يتاجرون به ، واستطاعت الجنود المصرية أن تعصم البلاد من غارات اليهود التي كانت تهدد المزارع الآمنة فاطمأن الزراع وعادت الأرض قيمتها وللمزارع نضرتها ، حتى لقد وصف أحد قناصل الدول حكومة محمد على في الشام بأنها كانت تضمن للناس الأمن من الأوامر الاستبدادية — إلا فيما يتصل بالتجنيد — وتؤمنهم على أموالهم ، وتترك لهم حرية جديدة في أمر دينهم وتهمي لهم أسباب الاستمتاع بالحياة ، وعدلت بين الناس في توزيع الضرائب ، وعلى الجملة هيأت لهم أسباب الحرية التي يستطيع الناس أن ينعموا بها في ظل حكومة حرة على قدر المستطاع ، بل قد لاحظ القنصل أن الإدارة تحسنت حتى تجاوزت الحد الذي كان منتظرا منها ؛ ولكنه يضيف إن الناس لا يحبونها (٢)

اطمئنان الناس في
الشام في أيام
الحكم المصرى

(1) Dodwell; Op. Cit. P. 251

(2) Ibid ; P 352

الانجليز والحكم
المصري في الشام

الواقع أن أهل الشام كانوا لا يحبون حكومة مصر للأسباب التي سبق بيانها ، ولكن شاركهم في هذا الشعور نحو الحكم المصري أناس آخرون . فقد كان الانجليز يرصدون محمداً علماً بقلق لا يخفى ؛ إذ أن وقوع الشام في يده من شأنه أن يجعله يسيطر على طريق الهند البرى الآخر ، ومن ثم ضاقت صدورهم به وودوا لو نفصوا عن الشام سلطانه ، ثم إن امتداد حكمه إلى هذا المدى الواسع من شأنه أن يجعل منه قوة خطيرة في شرق البحر الأبيض ، وهذا أمر لم تكن إنجلترا لتطبيقه أو ترصاه ، وما دام الرجل مصراً على أن يحتفظ بأسطول قوى ، فإن مياه « الليفانت » في خطر ، وإذن فلا بد من القضاء عليه . هذا إلى أن بقاءه في الشام واضطراد قوته في الزيادة من شأنه أن يغريه بالاستزادة من أرض الدولة ، وهذا بدوره يجعل للروس تعلقة يتدخلون بها في أعمال الدولة العلية ويدعون الحماية عليها ، ومن ثم كان لا بد من ابطال حجة الروس بالقضاء على الخطر الذي يهدد الدولة وهو محمد علي . لهذا لم يسترح الانجليز لما أدرك محمد علي من التوفيق في ادارته ببلاد الشام ، فبدأوا يعملون لاثارة البلاد عليه . وأظهره بمظهر العاجز عن حكم البلاد ، ولخلق مبرر للتدخل في أمور حكومته ، ومن ثم أوحى بمرستون إلى قنصله في الشام بنسبني بأن ينظم حركة الثورة في سوريا ، وكان هذا الأخير في غير حاجة إلى أن يغري بمحمد علي حتى يبدأ في الكيد له ، فقد كانت نفسه تفيض حسرة وحسدا لهذا الرجل الذي خيل إليه أنه يهدد إنجلترا بالشر المحقق . فنشط الرجل في العمل نشاطاً جاوز الحد المألوف حتى لقد بالغ في إيذاء محمد علي والاساءة إليه . وهل يصعب على إنسان ما — مهما قلت قدرته وحصافته — ان يثير ثورة في الشام في هذه الأيام ، أيام كان المسلمون يكتبون النفس على مضض من تسامح ابراهيم وما

الانجليز يدعون
للعمل لاثارة الشام
على محمد علي

تصوروه من اعتدائه على الدين ، وأيام كان النصارى يتنسمون المعاونة من أية دولة مسيحية ، فكيف ببريطانيا ذات الحول والطول ، من ثم أفلحت سعاية الانجليز فأخذت نيران الثورة تتلظى فى نواحي الشام كلها ، وأسرع رجال الدولة ينفخون فى النيران ، ويعدون أهل الشام باعقائهم من التبعات التى كان يفرضها عليهم بقاء المصريين فى الشام كالجنديّة الاجباريّة والاحتكار وجمع السلاح وما إلى ذلك ، وانضاف الى ذلك كله ما كان أهل الشام يجدون من الحرج فى نفوسهم من استعلاء الذميين ومناصرتهم ، فلم تلبث نيران الثورة أن اشتعلت سنة ١٨٣٤ . واضطر ابراهيم إلى الاستدعاء على الثائرين ليعيد الأمر إلى نصابه فانضافت شدته هذه إلى مساآاته الأخرى فى نظر أعدائه ، ولم يدخروا من الآن وسعا فى القضاء عليه وإخراجه من الشام . ولم يكن الانجليز يخفون أيديهم وهم يعقدون أطراف الفتنة فى نواحي البلاد ، بل عملوا جهارا على أن يقطعوا المواصلات بين مصر وسوريا بواسطة اسطولهم فى البحر الأبيض ، ونشط بنسبى فى إثارة الناس نشاطا بالغا ، حتى اضطربت البلاد كلها على ابراهيم ، وخلع الناس عن أنفسهم ما كان المصريون قد ألزموهم به من مظاهر الإصلاح ، والتوت السبل على المصريين وعاد السلطان يحدد الحرب فخرج الشام عن يد مصر جملة ، واحت منه معالم الإصلاح والنظام وعاد فوضى كما كان ، ثم نزلت جيوش الانجليز أرض الشام تحارب ابراهيم وتضيق عليه الحناق فسكان ذلك ايذا نا بانتهاء أيام السكينة فيه ، ونذيرا بعودته إلى نير الاتراك ينزلون به من المساءات أضعاف ما كانوا يأتون قبل غزو مصر ، وبهذا أدركت انجلترا ما أرادت على حساب الشام ومستقبله ، فابتعدت عنه المصلح وسلمته للمسىء ، ونفضت عنه السلام والاطمئنان واسلمته للفوضى والاضطراب ،

ثورة الشام

الاسطول الانجليزى
يشد ازر الثورة

الانجليز ينزلون
حودهم فى الشام

تقلص الحكم المصرى
من الشام

على الرغم من أنه « لم يكن من الشهامة في شيء أن تتولى سفارة بريطانيا في القسطنطينية تحريض قوم عرفوا بتمردهم ضد أي حكومة نظاميه ، وخاصة بعد اعتراف ممثلي احتلها نفسها بكفاءة ومقدرة الحكومة المصرية » ولقد حق لتثير أن يستفهم من الحكومة الانجليزية : « هل كان التحريض على الثورة من الأعمال التي تفيد الدولة العلية التي هي في حاجة إلى الراحة والطمأنينة ، وهل الثورة في الشام تولد حب الطاعة والمظام في قلوب رعايا السلطان ، وهل ينبجح السلطان في حكم هؤلاء القوم بعد أن أثارهم الباب العالي في وجهه الوالى (١) .

يبد أن وجود ابراهيم في الشام أوحى اليه الفكرة التي سبقت
الحكم المصرى في الشام
وفكرة الدولة العربية

الاشارة اليها قبل ذلك ، وهى فكرة « الدولة العربية » وسليخ الناطقين بالعربية عن جسد الدولة . فقد كان ابراهيم وأبوه يحكمان الآن معظم الناطقين بالضاد ، ولم يعد خارجا عن سلطانهما إلا أهل الجزيرة وبغداد ، وكان صوت محمد على قد طار كل مطار ، واتجهت اليه الأنظار في لحظة يؤس المسلمون فيها من الدولة العلية وسلطانها ، ومن ثم أخذ ابراهيم يبسط لآييه هذه الفكرة ويعرض عليه الآراء الموصول إلى الانفصال وإعلان الدولة الجديدة ، ومضى محمد على يستمهل ابنه وينصحه بالاناة ويسأله أن يتحسس موقع الأمر من نفوس العلماء والسراة وذوى الرأى في الشام ، ولو قد ترك ابراهيم وحده لإعلانها ولما حفل لثورة الدول ، فقد كان الرجل لا يؤمن بغير سيفه ، ويكاد يكون عربيا خالصا لا يفتأ يذكر العرب ومجدهم الذاهب القديم ، وقد تكون هذه الآراء والنيات بعض ما أثار الدول على ابراهيم وحفزها إلى العمل على طرده من الشام . وعلى أى الأحوال فقد كانت جهود الانجليز ومساعى الأتراك قاضية على كل هذه الآمال الزاهرة التي كانت ترجى للشام

والعروبة على يد محمد علي وابنه لو ظل الشام في أيديهما ، سواء من ناحية اصلاح أحوال البلاد وإعادة الأمن اليها وبعث الحياة والرخاء فيها من جديد ، أو من ناحية انقراض الدولة الاسلامية بانشاء دولة عربية حاصلة تضم مصر والشام والعراق وتبدأ للدولة الاسلامية والاسلام حياة مجيدة زاهرة .

أخلى المصريون الشام خلال سنة ١٨٤٠ دون قتال طويل، فعادت المصريون يحلون الشام البلاد إلى « أصحابها » الترك ، عادت اليهم ليعيدوا اليها مبادئهم ومساخرهم وليهبطوا بها مرة أخرى إلى الدرك الذي كاد محمد علي يستنقذها منه « وكأن الأتراك لما عادوا إلى امتلاك الشام رأوا أن يعوضوا ما فاتهم في السنوات التسع التي حكم فيها رجال الدولة المصرية ، فبالغوا في تحقير المسيحيين وإنماء أسباب البغضاء بينهم وبين المسلمين ، وكانت الحزازات في الصدور من أيام ابراهيم باشا لأنهم ظنوا أن النصارى تجاوزوا حد الأدب في طاب المساواة بالمسلمين وحسدوهم على تقدمهم في المراكز الأميرية وفي صناعاتهم وتجارتهم ، وأضرموا لهم السوء وساعدوهم على ذلك تحريض الأتراك لهم سرّاً وعلناً ، واضطر المسيحيون في المدن إلى العود لملا بسهم وحالتهم القديمة وكثر التعدي عليهم من الرعية والحكومة » (١) .

مسارات الحكم
التركي تعود

ولو قد اقتصرت مشاكل الشام على ذلك لكان ذلك حجة كافية تررر بها الدول تدخلها في البلاد ، فقد عاد الأمن فاختل وتهددت المتاجر والأرزاق بالآخطار ، وتوالت مسمات الأتراك حتى ضج القناصل بالشكوى وأخذوا يبعثون إلى دولهم بالتقارير يصفون الحال ويصورون لها الهاوية التي تنساق اليها البلاد من جديد في حكم

الأتراك ، لواقصر الأمر على ذلك لكان فيه الكفاية لتبرير تدخل الدول
الفعلى وسلخ الشام عن الدولة ، فكيف وذلك كله لا يعدو أن يكون
جانبا يسيرا من أسباب الاضطراب ، ولو قد كانت إحدى هذه الدول
حرة تفعل ما تريد لآتمت الأمر على أهون سبيل ، أما وهى ترى
الأخريات رقيبات عليها وليس لها إلا أن تسعى للتدخل فى شئون
الدولة تدخلا سلميا تحت ستار المحافظة على كيانهما وصيانتها من الاعداء .
وكان الانحليز أسرع الدول تطفنا إلى هذه الناحية فدوا متاجرهم فى
نواحي الشام ، وحصلوا من الدولة على احتكارات وتسهيلات شتى حتى
أصبحت الشام منطقة نفوذ تجارى لهم لا يكاد ينافس منسوجاتهم
ومستجاتهم الأخرى منافس فيه .

احتلوا تحصل على
امتيازات اقتصادية
فى الشام

أما فرنسا فقد سلكت للتدخل سبيلا أخرى ، إذ مدت سلطانها
عن طريق الدين ورعاية المسيحية فى الشام . سبقت الإشارة إلى ما كان
من رعاية فرنسا للوارثة واعتبارها إياهم تحت حمايتها واتصال الأمر
بينها وبينهم ، وكان الفرنسيون قد حصلوا من الدولة فى أوائل القرن
السابع عشر على حق رعاية الأماكن المقدسة والعناية بها وترميمها ،
ولا زالت فرنسا تنمى فى هذا الحق البسيط حتى أصبحت تملك الكنائس
المقدسة عرفا وحصلت من الدولة سنة ١٧٤٠ على تعهد بأن يباح للحجاج
زيارة الأماكن المقدسة فى أيام الحرب والسلام على السواء (١) . ومضى
الأمر على ذلك والدولة لا تحس له خطرا ولا تعلم أن بقاء طائفة من
رعاياها فى حماية دولة أخرى يمس شرفها ، وأن امتلاك الفرنسيين
للبنانى المقدسة فى بيت المقدس من شأنه أن ينقص من سلطتها كدولة
محترمة لها كيانه واعتبار بين الدول . ولم تكن تحسب أن النهور
سيصل بها إلى حد تصبح معه هذه المنح حقوقا الزامية تجبر الدولة على

فرنسا ومطامها
الدينية

(1) Engelhardt : Op. Cit, P. 96,

طاعتها ، وسيلا لنفوذ سياسى يحاوله الفرنسيون فيما بعد .

بيد أن هذه الحال لم تثر من الأتراك ماثارا ولم تروع منهم سربا ،
ولكنها روعت قوما آخرين كانوا ينظرون إلى هذا السلطان الفرنسى
النامى فى كثير من القلق . ولم يكن هؤلاء الآخرون هم الانجليز — فهؤلاء
لا يزعجهم كثيرا ازدياد النفوذ الدينى لأية دولة غربية فى تركيا — وإنما
كانوا الروس الذين رأيناهم يبسطون رعايتهم على المسيحيين من رعايا
الدولة فى البلقان وعلى الدانوب ، وكان الروس يتقبلون حسدا من
الفرنسيين ، ويتشوقون للفرصة التى تسمح لهم بالتدخل لمنافسة
الفرنسيين فى ذلك الحظ العظيم . وزادهم رغبة فى ذلك أن قيصرا روسيا
فى السنوات الأولى من القرن التاسع عشر كان رجلا شديد التعلق
بالدين وأسبابه ، وهو اسكندر الأول ، ولم يكن يرضيه أن تظل
الأمم كن المقدسة فى رعايا الكاثوليك ، فلم يزل يحد ويسعى حتى
سنت له الفرصة سنة ١٨٠٨ ، إذ استطاع مساعدوه أن يقنعوا السلطان
محمودا بالخطر الذى يهدد الدولة وشرفها من احتكار الفرنسيين لرعاية
الأمم كن المقدسة ، ومن ثم أصدر السلطان فرمانا أباح به للروس
الارتوذكس اصلاح الكنيسة الكبرى فى القدس .

بدأ الصراع بين
الروس والفرنسيين
فى الشام

بذلك بدأ هذا النزاع العنيف بين الروس والفرنسيين على الأمم كن
المقدسة فى الشام ، بدأ فى صورة مصخرة جداً : فى هيئة نزاع على شرف
رعاية الكنائس ، وانتهى فى صورة مكبرة فى حرب القرم سنة ١٨٥٦
وليس من الخطأ أن نقول إن الأمر كله لم يكن — من أول الأمر —
نزاعا على شرف معنوى صرف كـ رعاية المباني المقدسة ، وإنما هو فى
حقيقته نزاع على السلطان والنفوذ فى أراضى الدولة وبلادها .

الفرنسيون يحتجوا

أحتج الفرنسيون على السلطان واعتبروا منحه هذا الحق للروس
اعتداء منه على حق مسلم لهم به فى معاهدة محترمة . ورد الروس بأنهم

أصحاب حق هم الآخرون : حق تدعمه معاهدة محترمة لا تقل عن معاهدة الفرنسيين قوة ولا احتراماً ، وهو الذي فازت به في روسيا معاهدة كيتشك كينارجى سنة ١٧٧٤ ، فكسبت به حق رعاية الروم الأرثوذكس في الدولة . وما دام الروم مسيحيين كالكاثوليك ، فللروس ما للفرنسيين من الحق في رعاية الأماكن المقدسة التي هي حق مباح لكل مسيحي كاثوليكي كما كان أم روميا أرثوذكسيا .

تطور الحقوق الدينية
الى حقوق سياسية

في أثناء ذلك كان هذا الحق الديني المعنوي يتطور بمساعي الدول إلى حق سياسى خطير يهدد الدولة باخطار شتى . وقد أعان سوء حال الدولة وكثرة مساوئها واضطراب أحوالها على هذا التطور ، فـ ما دام الرعايا غير آمنين على أنفسهم وأموالهم في رعاية السلطان فلم يلبثتمسون الأمان في رعاية دولة أجنبية ، حتى يحموا بالقنصل والسفراء ويفروا من المظالم والمخارم ويعيشوا آمنين مطمئنين ، ومن ثم أخذ الرعايا يتجنسون بجنسيات أجنبية فرنسية أو إنجليزية أو روسية ، وفتح الروس الباب على مصراعيه فتدفق الرعية يطلبون الجنسية الروسية من غير حساب ، حتى أصبحت اشارة القنصل الروسى على جواز السفر كافية لاعتبار الرجل روسيا خارجا عن رعاية السلطان داخلها في رعاية القيصر ، فلم يلبث السلطان أن وجد الدول تغزوه هذا الغزو السلمى الخطير ، يخرجون رعاياه عن سلطانه ، فلهذا الخوف من استفحال الأمر ولبت يتحين الفرصة ليقف هذا السيل . ولم يكن بعسير عليه أن يجد فرصة مواتية ، فقد كانت الأمور إذ ذاك تسير من سيئ إلى أسوأ في جبل لبنان الذى استطارت الخصومة بين أهله ودبت الفتنة فيه بسعايات الترك بين الدروز والموارنة فانقلب شعلة من نار يترامى أهله بالعداوة والثارات ، فلم يلبث السلطان أن أعلن أن كل تصريحات التجنس لا بد أن تراجع بمعرفة السلطات التركية بالشام وأعقب ذلك

بإعلان قرر فيه أن سفر أحد الرعايا إلى أى بلد أجنبي لا يلزم السلطان باحترام أية جنسية أجنبية لهذا العائد فما دام أصله تركيا ، وما دام يعيش في أراضي السلطان فهو تركي يخضع لحكومة الأتراك ولا سلطان لراع آخر عليه .

وأدرك الانجليز ببصرهم الثاقب أن المسألة ليست صراعا معنويا ، وأن فرنسا وروسيا لا تحتربان على شرف أدبي تكسبانه من وراء رعاية المسيحيين ، وأن الأمر في حقيقة صراع سياسي صرف كالحرب سواء بسواء ، وقد هالهم أن يجدوا للروس والفرنسيين مذاهب دينية لها اتناح في الشام يسترون خلفها ، فبدأوا يعملون على غرس بذور البروتستانتية في البلاد المقدسة حتى يكتسبوا لأنفسهم رعايا يبسطون عليهم سلطانهم ، ويمدون سلطانهم السياسي عن سبلهم ، فتقدموا إلى السلطان حوالى سنة ١٨٤٠ يطلبون إليه أن يسمح لهم ببناء كنيسة بروتستانتية في القدس ، وعززهم الألمان في ذلك (١) ، وأحس الفرنسيون بمسعى الانجليز فنشطوا لاحتباطه وأثاروا كنائس الشام وبطارقته على البروتستانتية وخوفوهم من مساعي الانجليز ، فلم تلبث الرجى والشكايات أن انتهت على الباب العالى تستحلفه أن يرفض هذا الطلب ، فالكاثوليكية هي المذهب المسيحي السائد في بلاد الدولة ، وليس للبروتستانتية ذبوع في أى مكان ، فالانجليز لا رغبة لهم في الشام فما عساهم يريدون الا سلطانا سياسيا . .

وبهذا امتنع السلطان فرفض طلب الانجليز ، ولكنه هؤلاء لم يثنوا عن غرضهم فما زالوا يلحون في الطلب ويشاربون عليه حتى أقاموا كنيسة انجليكانية صغيرة في القدس حوالى سنة ١٨٤٢ . وتسامح الأمير يكون بذلك وبث الانجليز فيهم دعاياتهم فمروا بأموالهم ، وبعوئهم التبشيرية فلم تلبث الكنيسة الصغيرة الناشئة أن كسبت لنفسها

طائفة من الأتباع ، ونشطت القنصليات في معاونة الكنيسة حتى صار هؤلاء الأتباع نفرا يعتد به ويحسب حسابه ؛ وأعانها على ذلك ما كان الناس ينتظرونه من الانتساب للبروتستنتية من التمتع بحماية الانجليز

بهذا أخذت الدول باليمين مامنته باليسار ، حافظت على كيان الدولة العثمانية في الظاهر ومضت تنخر كيان هذه الدولة وتمتص رعاياها في الباطن ، وطردت محمدا عليا من الشام وقسمته بينها هذه القسمة الباغية التي لا تفرق عن الاحتلال الحقيقي في شيء ، ردت الشام إلى السلطان وأخرجت عن طاعته أهل الشام وتجارة الشام ، وعسكرت حول موانيه وأخذت عليه السبيل ، فماذا بقي للدولة فيه غير تبعية اسمية تكاد لا تغني شيئا ؟

الدول تحتل الشام
معموريا واقتصاديا

ولو ترك الأمر للروس لما أقروا هذه الحال ، ولجمعوا جمعهم منذ حين ونزلوا أرض الدولة وقضوا عليها منذ بعيد ، فهؤلاء هم يحكمون من رعية السلطان عددا طيبا ، ويملون على السلطان إرادتهم ويتصرفون في سياسة الدولة كما يشاءون ، وليس لهم صبر الانجليز ولا يشغلهم عن الأمر متاعب الفرنسيين ، إذ ليست لهم هند يحرصون على طريقها ولا متاعب سياسية داخلية تستولى على ألبابهم ؛ وقد عجب القيصريون لا من بقاء هذه الحال على ما هي عليه ، كحسب أنه يبدى جديدا إذا عرض على الانجليز فكرة تقسيم الدولة ، وكانت بينه وبين فرنسا خصومة فظان نه يغري انجلترا بالعمل إذا هو أخرج فرنسا من الحساب ، إذ قد ضاق ذرعه بكفاح الفرنسيين ورد نظامهم في الشام ، وليست لهم فيه إلا بضع كنائس وبضع حقوق أو ما يشبه الحقوق ، ومن ثم رأى أن يفتح هاملتون سيمور سفير انجلترا لدى البلاط في الأمر - وكان له صاحبا - وشجعه على ذلك أنه كان على ود موصول مع اللورد ابردين رئيس الوزارة الانجليزية إذ ذاك ، ومن ثم دار بين القيصر والسفير حديث

ذاع أمره وطار صيته في يناير سنة ١٨٥٣ ، وفي هذه المحادثة — التي
تلفت للندن لساعتها والتي نشرت ساعة أعلنت حرب القرم —
الرجل المريض تحدث القيصر عن تركيا فوصفها بأنها دولة يكاد ينهار بنيانها ، وقال
ان التركي رجل مريض جداً ينتظر له الموت بين أيديهم بين
الحيين والحيين ، ومن ثم كان خليقا بهم أن يعملوا رأيهم ليرواما يفعلون
بأراضيهم لوحم فيه القضاء ووقعت الواقعة ، وأكد للسفير أن نصاب
الامر بيد إنجلترا وروسيا ، إذ أنهما تستطيعان أن تريا فيه رأيهما دون
حرب ، ثم أشار إشارة خفيفة صريحة إلى الحل الذي يرى ، فولايات
البلقان تمنح استقلالاً في حماية الروس ، وتحتل روسيا القسطنطينية
من غير أن تضمها إلى أرضها ، وأما الانجليز فخصتهم من هذه القسمة
مصر . (١) ولم يكن الانجليز يجهلون هذه النوايا التي يبيتها الروس ،
ولكن حديث القيصر أكد مخاوفهم وأعلمهم بأن روسيا على الأبهة
وأنها لن تستريح إلا إذا فازت بحصتها من تركة الرجل المريض ،
ومن ثم أخذ الانجليز يستعدون لدفع مطامع الروس بالحرب إذا
استلزم الحال .

وكأنما حسب القيصر أن الانجليز عون له على ما يريد ، فأراد أن يبدأ
في التنفيذ ، فأرسل أحد رجال بلاطه المقربين وهو الأمير منشيكوف
برسالة خاصة الى السلطان يطلب اليه أمرين بسيطين : أولهما تسليم
الروس مفاتيح الأراضي المقدسة وثانيهما حماية الروس لجميع الرعايا
المسيحيين في الدولة ، وكان سفير الانجليز إذ ذاك في القسطنطينية
هو اللورد ستراتفورد دي رذكلف السياسي الانجليزى الذائع الصيت
ستراتفورد دي رذكلف يسمى لائارة
حرب القرم

(1) Grant and Temperley: Europe in the Nineteenth Century, (ed. 1929) P. 269

وخاف الرجل أن تطول مدة المخابرات والامر على حرج ، فتحمل
تبعة الامر ومضى الى السلطان فأشار عليه بأن يرفض طلب الروس
الثانى ولا بأس عليه أن يقبل الاول ويسلم مهابيح الاماكن المقدسة
لهم فهذه مظاهر لاغنا. فيها ، فلم يكذب منشيكوف يسمع هذا الرد من
السلطان حتى اعتبره إهانة له ولدولته ، فطوى ذيله فى مايو سنة ١٨٥٣
وهو ينوى فى نفسه ليشيرنها على الترك عوانا. ولم يكذب ينقضى على
حرب للقرم ننتدى. أوبته شهر حتى سير القيصر جنده فعبروا البروث واحتلوا ملدافيا
وولاشيا ، وبذلت الدول وسعها لتحسم الحرب على غير جدوى ، فقد
كان الروس قد أجمعوا رأيهم فلا بد لهم من المضى فيما بدأوا . وقد
أحس الأتراك بأن انجلترا من ورائهم تشد أزهم فتشجعوا وأصروا
على رفض مطالب الروس ، وتخرج الأمر بين الحين فلم يلبث الترك أن
أعلنوا الحرب على الروس فى ١٤ أكتوبر سنة ١٨٥٣

حرب القرم فى تركيا. أثبتت حرب القرم والنتائج السياسية التى خلفتها أن تركيا ليست
ضعيفة محسب ، بل لأمل فى شفاؤها واستنهاضها كذلك ، فقد جاءت
بعد جهود طويلة لاصلاح الجيش والاداره ، فكان لا بد أن يرى
الناس فيها تركيا جديدة تحالف القديمة وتمتاز عليها ، ولكن الحرب طالت
ولم تبد تركيا أمراً جديدا ، قام الخلفاء - الانجليز والفرنسيون - بالامر
كله ، فاضطروا الروس إلى الانسحاب من ولاشيا وملدافيا ثم توجهوا
لانقاذ البحر الاسود من الروس بالقضاء على قاعدتهم الحربية فيه وهى.
سباسبول. وكانت الحرب فرصة طيبة يظهر فيها الأتراك كفاءتهم
ولكنهم عجزوا دون ذلك ، وكانت الحرب حرب حصون والأتراك
معروفون بالمهارة فى هذا الباب ، ولكنهم لم يستطيعوا فعل شئ. ، ولم
يكن فى جيوش الانجليز والفرنسيين ضابط ماهر يقود الحرب بنجاح

مستقبل

لا للرد راجلان ولا الجنرال سمبسون ولا كانروبرت Canrobert ولا بلسميه تكن من أن يستولى على سباستبول ، واستمر قائدها الروسى - الألمانى الأصل - تودلين Todleben يدافع عنها بمهارة استحققت إعجاب الأعداء . كان على الأتراك أن يفيدوا من هذه الحرب التى اشتركوا فيها مع الانجليز والفرنسيين ، ولكنهم لم يفيدوا شيئاً ، ظل الجيش التركى على ما عرفناه قبل ذلك بسنوات : جنود بواسل يمسكهم الصبر فى ظلال الموت ، وقادة فاسدون يشغلهم الفساد عن الظفر ، وإليك ما قاله أحد كبار ضباط الانجليز يصف الجيش التركى فى ذلك الحين : « إننى لمعجب بالصبر الذى يتحمل به هذا الجنس الصبور الشديد الاسيوى متاعب حمة كانت تكفى فى أى مكان آخر لتدفع بالجند إلى الاعتصاب . . . وطعام الجندى يستمطر الرحمة ، وقد أهمل القوم أبسط قواعد الوقاية الصحية ، فهناك الحميات وهناك التيفوس ، ورواتب الجند متأخرة ما بين ثمانية عشر وعشرين واثنين وعشرين شهراً . . . أما الضباط فتتقصصهم الخبرة والنظام والثقافة نقصاً فاضحاً ، معظمهم أهلون سمو إلى مراتب القيادة ، ودأبهم فى الحياة الشراب ولا يحفلون إلا لسرقة الجنود ، وفى هذا الباب نجد المشير يضرب لضباطه أسوأ المثل فى الفساد ؛ إذ كان الاتفاق بين القادة والضباط وتعاونهم على اقتسام الغنيمة عوناً له على أن يبلغ الدولة أمورا مشيئة غير حقيقية ، فكان يبلغ الدولة أن جنوده يبلغون ٣٣٠٠٠ فى حين لم يبق منهم فى الميدان إلا ١٧٠٠٠ . . . ولا يتأنى المشير عن أبسط السرقات : فقد باع مخلفات اثنى عشر ألف جندى ماتوا فى المستشفى فى الشتاء الماضى ، ولما كانت الدولة تعطيها بعض اعطيات الجند ورقاً وبعضها الآخر من فضة فقد كان يعطى الجند الورق فقط ليكسب الفرق وهو حوالى ٢٠ ٪ » (١)

1 Engelhardt. Op. cit. P. 120,

المشير هو القائد الأعلى للجيش التركى

وهذا كله بعد الاصلاح وبعد التهذيب وبعد سنوات طويلة من الدعوى
للتقدم . . لازال اللب على حاله وان تغيرت القشور . . فما جدوى الجهد
وما وراء العمل ! .

شقي المشترك كون في حرب القرم شقاء بالغاء ، وأبلى الجانبان فيها
بلاء محمودا ، فاستمرت هجمات الانجليز والفرنسيين ، والأتراك نحو
عام ترمى عن مدافعها لتدرك حصون سياستبول على غير جدوى ،
وانسابت عليهم في موضعهم غمرات ثقيلة بعضها السكوليرا وبعضها
القوازيق وبعضها شتاء روسيا القاسى ، واصطلى الانجليز بنيرانها في
بلا كلافان وانكرمان حتى كاد رجاى الجند والقادة أن ينقطع في الحياة ،
ولم تخفف من بلواهم جهود البطلة الانجليزية الذائعة الصيت مس
فلورنس نايتنجيل ، فهبطت قواهم إلى أحد عشر ألفا فقط ، وأخيرا ،
بعد صراع هائل في حصون ريديان وملاكوت استطاع القائد الفرنسى
مكماهون أن يستولى على الحصن الأخير فأشرف على المدينة ، ولكن
ذلك لم يهزم الحرب إذ عوض الروس ذلك بالاستيلاء على حصن كارز
في آسيا الصغرى .

ثلاث نظير والفرنسيون
في حرب القرم

وأخيرا ، فهم الحيان حقيقة الحال ، عرف الروس أن الانجليز
يبدلون أنفسهم دون البحر الأسود ومضايقه ، وأيقن الانجليز أن
الروس عرفوا تماما بهذا الدرس أن لا يحاولوا الاستيلاء على البحر
الأسود مرة أخرى ، وما دام الروس قد عرفوا ذلك فقد أدرك الانجليز
من الحرب وطهرهم ولا حاجة لهم سياستبول ولا موسكو أنفسهم ، وانتهى
الأمر أخيرا بمؤتمر باريس في أوائل سنة ١٨٥٦ ، حيث قررت حيدة
البحر الأسود ، وحرمت مياهه على السفن الحربية من أى لون ،
وتقرر كذلك اقفال المضائق في وجه أية سفينة حربية ، بذلك اطمأن

مؤتمر باريس
سنة ١٨٥٦

الانجليز إلى أنهم أغلقوا الباب في وجه الروس ، واشهدوا الدول على ذلك ، واكلهم أرادوا أن يطمئنوا إلى أن الروس لن يعودوا فيدخلون في شئون الدولة ويسيطون عليها حماية دينية أو غير دينية ، فقرروا أن لا تتدخل دولة بين السلطان ورعاياه ، وأخذوا على السلطان الموائيق أن ينفذ ما وعد من المساواة بين رعاياه لافرق بين دين ودين وجنس وجنس ، فوعدهم السلطان بذلك ، وأرادوا أن يشبوا ذلك فرفعوا تركيا إلى مصاف الدول الكبرى وأدخلوها ضمن الحياة الأوروبية لكي لا يعتدى عليها الروس أو يستهينوا بها

تركيا تدخل حياة
الدول الأوروبية

بهذا أتاحت الأتراك فرصة من ذهب ، منحتها الدول سلامتها وأمنتها من اقتراس الدب الرابض شمالها ، فكان عليها أن تتنهر هذه الفرصة وتعمل جادة في إصلاح شئونها ، وقدمت لها الدول المعاونة اللازمة ، فلندعها تحاول من جديد بعد أن انجلت عنها الغمرات وزايلتها الازمات ، ولنعود إليها بعد حين لنرى ما يكون من أمرها بعد سنوات

صلح باريس - فرصة
طية للترك

يعرض علينا غرب البحر الأبيض المتوسط لونا آخر من الصراع بين الشرق والغرب في العصر الحديث ، ويكشف لنا هذا الصراع عن نواح أخرى من العلاقات بين الجانبين تختلف الاختلاف كله عما رأيناه في المشرق .

المغرب

ذلك أن ميدان الحروب الصليبية لم يكن مقصورا على الشرق وحده وإنما شمل غرب البحر الأبيض كذلك ، فتأثرت بين المسلمين في الأندلس والنصارى في الشمال حروب طويلة تعرف بحروب الاسترداد Reconquista ، وكانت هذه الحروب شديدة حامية لا تقل شدة أو أهمية

الحروب الصليبية
في الغرب

عما دار في الشرق بين الاسلام والنصرانية ، بل كانت الروح الدينية فيها أغلب وأظهر ، وكانت نتائجها على مستقبل الحيين أحسم وأبعد ، بل كان سكون ريح الصليبيات في الشرق مؤذنا باشتداد ريحها في المغرب واجتماع القوى كلها على الصراع في ميدانه. وأتينا نستطيع أن نلاحظ انتقال ميدان الحروب الصليبية من المشرق للمغرب خطوة خطوة ، فقد كانت نيرانها مستعرة أول الأمر في الشام ، ثم تحول ميدانها إلى مصر ؛ ثم إلى تونس ثم إلى الجزائر بعد ذلك ، وهناك أقامت حتى أوائل القرن التاسع عشر حين انتهت بانتصار الغرب واحتلال الجزائر وبداية استعمار شمال افريقية .

الحرب الصليبية في
شمال افريقية

من هنا ليس بغريب أن نجد المغرب طوال العصر الوسيط وإلى أوائل القرن التاسع عشر ميدانا حافلا بالحروب لا يكاد يسكن فيه ريح الصراع الشديد أو العداوة المتأججة ، وليس بغريب كذلك أن نجد الفريقيين يلتصقان السبل كلها للغلبة والظفر لافرق في ذلك بين مباح وغير مباح ، وليس من الصواب في شيء أن نحكم على ما يحدث في المغرب بالمقاييس التي نحكم بها في أوقات السلام ، إذ كانت الأيام كلها حربا هنالك ، وكان الميدان مفتوحا على مصراعيه للجيش والاساطيل ؛ فأولى بنا أن نعتبر المغرب ميدان حرب لا ميدان سلام ، وأن نعتبر أهله مقاتلين ومدائنه معسكرات ؛ ولم يكن أهل المغرب أنفسهم — في افريقية وأوروبا — لينظرون الأمر إلا بهذه العين فلم يتركوا السيف أبدا واستمر الكفاح بينهما دائرا متصلا .

المغرب في حرب دائمة

بيد أن ظروف المغرب الجغرافية لم تكن تساعد على الاستمرار في الكفاح أمام الحاح الأوربيين واستمرارهم ، فقد كان على دويلات المغرب الفقيرة أن تناجز الأسباب المستعمرين والبرتغاليين الذين امتلأت

فقر المغرب بعوقه عن
الاستمرار في الحرب

نفوسهم بالرغبة في الاستعمار وقويت أساطيلهم ، والفرنسيين الذين اتجهت همهم منذ حملة لويس التاسع على تونس للاستيلاء على المغرب واخضاعه ؛ فكيف يستطيع الحفصيون في تونس وبنو عبد الواد في وسط المغرب وشرقه أن يناجزوا هذه القوات كلها ؟ كان طبعياً أن تهن قواتهم وتخلد إلى الطاعة بعد طول الصراع ، لأن بلاد المغرب فقيرة قليلة الخيرات والأرزاق لاتعين على تكاليف الحروب وأعبائها ولأن نظامها الجغرافي يحول دون اتحاد جهاتها واتلافها وتكوينها جهة واحدة ، فظلت متنافرة متدبرة تحترب فيما بينها فتفسح للعدو فرصة النصر والظفر . لهذا تمكن البرتغاليون من احتلال جزء من ساحل افريقية الغربى وأقاموا فيه محارس سميت باسم fronteiras ، واستطاع الأسبانيون أن يحتلوا جزءاً عظيماً من ساحل الجزائر وحصنوه بحصون عرفت باسم presidios . ولم يكن بنو عبد الواد ولا الحفصيون هم وحدهم أصحاب السلطان في المغرب إذ ذاك بل نازعهم فيه بدو العرب الذين كانوا قد أخذوا يتقاطرون على المغرب بجموعهم ابتداء من القرن العاشر . وكانت بقية الأراضي الداخلية نهياً متنازعا بين القبائل البربرية المستقلة التي كانت تأبى الخضوع والطاعة ، فلم يخطئ جوليان اذن حين وصف المغرب في ذلك الحين بأنه كان « قاشانيا سياسيا » (١)

قبائل العرب باحم
الساحل

أثر سقوط الاسلام
في المغرب

وكان المصير الذى انتهى اليه أمر المسلمين في الأندلس قد أضاف إلى متاعب أهله نصيباً كبيراً وحملهم تبعات كبرى ، فقد انتهى أمر مسلمى الأندلس إلى الهزيمة ، وأصبح أمر البلاد بيد الأسبان والبرتغاليين النصارى ، فأقفلوا الثغور على من بقى من المسلمين وأخذوا يذيقونهم من العذاب ألواناً ، إما ليفتنوهم عن دينهم أو ليسترقوهم ويستخدموهم في أعمال العبيد . واشتد الأسبان في ذلك شدة ذاع أمرها بين الناس فلا

Un mosaïque politique

(١)

Julien; Hist. d'Afrique du Nord, P. 511

حاجة إلى تصويرها ، وتطارت الأخبار بما يلقاه المسلمون من الذل في هذه البلاد . ولم يقتصر الأسبان على ذلك بل أخذوا يجوبون البحار ويخطون على سواحل بلاد المسلمين فيخطفون من يظهرون بهم منهم وينهبون سفنهم ويخربون مدنها ، فلم يكن إلى السلم سبيل بين الحيين على هذه الحال ؛ وأصبح النهوض لاستنقاذ المسلمين في أسبانيا واجباً شرعياً يتحتم على كل مسلم أن يقوم به ، وأصبح لزاماً على الدول الإسلامية أن تقابل عداوة أساطيل الأسبان بالمثل ، وأن تقف في البحر رصداً لما يقع لها من سفن النصارى لتوقع بها وتؤذيها وترد إليها ما تساف من أذى وكيد .

مساوا المغرب يهضون
لأنقاد مسلمي
الاندلس

ذلك هو الوصف الصحيح الذي ينبغي أن نصف به أعمال الغزو والحرب البحرية غير النظامية التي كان أهل المغرب يقومون بها ، وقد أخطأ الكثيرون فسموها قرصنة أو اصوصية ، وليست في الواقع إلا لونا من الحرب الدينية من جهة ودفاعاً عن الأوطان من جهة أخرى ، وربما تطرف المغريون في أعمال العداة واشتدوا في مطاردة السفن ، وربما أنزلوا بالموانئ كثيراً من الأذى ، ولكن أعمالهم لا توصف إلا بأنها جهاد ، فالعرف الإسلامي يعتبر بلاد النصرانية كلها دار حرب يباح الغزو فيها ويستحل السبي في أرضها ؛ ولم يكن المغاربة يفعلون أكثر مما كان البرتغاليون يفعلونه في ذلك الحين في كل البحار والبلاد .

القرصة في المغرب
جهاد ديني

بل كانت هناك عوامل شتى تدفع بأهل المغرب إلى السدور في هذا الطريق وتضطرمهم إلى الاستمرار فيها ؛ حتى لو جنحو إلى السلم والاستقرار . أول هذه العوامل أن غرب البحر الأبيض كله كان مسكوناً بشعوب من القراصين التي تمارس الغزو والقرصة وتعتمد عليها في معاشها ؛ فكانت مدائن إيطاليا وفرنسا وأسبانيا أعشاشاً

غرب بحر الاندلس
ميدان قديم للقرصة

للقراصين يقيمون فيها ويهيمون منها للغزو والسلب في البحار ، فلم يكن المسلمون وحدثهم هم الذين يهاجمون سفن الأسبان والانجليز والهولنديين ، بل كان الأوربيون يهاجمون بعضهم بعضاً لا تفرقة في ذلك بين دين أو نسب ، وسرى أن كثيراً من الأمم النصرانية كانت تحالف القوى الإسلامية على أخواتها . وقد كان الانجليز أنفسهم في هذه العصور قراصين أو ما يشبه القراصين ، ولو قد قرأت توار يخ كبار الملاحين الانجليز كما رواها « فرود » لعرفت أن القرصنة أصل البحرية الانجليزية (١) كما كانت أساس البحرية الإسلامية في البحر الأبيض المتوسط ، وثاني هذه العوامل فقر بلاد المغرب واضطرار أهلها الطلب الرزق فيما جاورهم من البلاد والأراضي ، وكان ربر المغرب لا يستقرون على حال ولا يخضعون لنظام فلم يكن للدولة موارد من أرضها أو أهلها . ولم تكن تستطيع أن تقيم بديان إدارتها إلا عن سبيل أخرى كالتجارة مثلاً ، ومادامت القرصنة هي وسيلة التجارة المعروفة في ذلك الزمان فقد كان طبيعياً أن يلجأ إليها أهل المغرب خصوصاً وهم قوم بحريون يحسنون الملاحة وشئون البحار ، ومصدق ذلك أن الحرب والغزو والكفاح كان مستمراً طوال العصر الوسيط بين دويلات المغرب في الداخل والساحل على السواد ، وهي حالة من القلق والاضراب لا تعلل إلا بفقر النواحي مما يضطرها إلى التجارب والتنافس على مواضع الخصب والخير . وثالث هذه العوامل أن بلاد الأندلس كانت تاتي بين الحين والحين بطوائف وجماعات من المسلمين هاربين من أسبانيا أو صرح لهم بالخروج منها ، وهؤلاء كانوا يخرجون من بلادهم آلافا مؤلفة لا تملك من حطام الدنيا شروى نقيير ، فإذا تعمل إلا أن تنضم لسفن المسلمين الغازية لتدرك ثأرها من الأسبان

القرصنة أصل
البحريات الكبرى

أصل المغرب أمه
بحرية

مهاجرو المغرب
يسرون الحرب

الذين استذلوا وآذوها ، ولتجد عن طريق ذلك سبيلا للرزق والعيش ، فكانت هذه الجماعات لا تجد غير هذا السبيل تقبل عليه بحماس وحمية وتبذل فيه قصارى جهدها ، ومصدق ذلك أن معظم المحاربين على سفن المغرب كانوا من هؤلاء الهاربين من الشغور الإسبانية . ورابع هذه العوامل هو اتصال الأمر بين دويلات المغرب والدولة العثمانية في أوائل القرن السادس عشر ، وكانت الدولة العثمانية في حالة حرب دائمة مع القوى الأوروبية ، فلم يكن لبلاد المغرب بد من أن تفعل فعل الدولة فتستمر على الغزو في البحار ، لأنها أصبحت من ذلك الحين مرتبطة بالدولة العثمانية تجري على سياستها وتقف موقفا ، وخامس هذه العوامل خلو البلاد من قوة واحدة مركزية تستطيع أن تضبط الأمن وتنفذ سلطاتها على الرعية وتنوب عنهم في المعاملات السياسية ، فكان كل فريق يوجه سياسته على النحو الذي يريد ، ولم تحد دول أوروبا هيئة تخاطبها لا يقف أعمال القرصان والاتفاق معهم ، ففشلت كل الجهود التي بذلت لتحويل الموانئ المغربية عن أن تكون أعشاشا للقراصين فاستمرت في سبيلها حتى أوائل القرن التاسع عشر بل أن ادمان النظر في تاريخ المغرب في هذه الأيام يدل على أن أهل المغرب كانوا مسوقين إلى اتخاذ هذه الوجهة وإن مالوا إلى الاستقرار والانتظام ، فقد كان أهل الجزائر مثلاً قد هدأ أمرهم وازدهرت مدينتهم ودولتهم في أواخر القرن الخامس عشر ، وزاد في إزدهار أمرها توافد الهاربين من إسبانيا في أواخر القرن الخامس عشر بعد سقوط غرناطة سنة ١٤٩٢ ، وكان معظم هؤلاء الهاربين من الصناعات المهرة أو المدنيين الذين درجوا في مهاد الحضارة والاستقرار ، فأخذوا يمارسون صناعاتهم القديمة في وطنهم الجديد ولكنهم لم يستطيعوا أن يأمنوا على نفوسهم وإسبان يهددون مدينتهم الجزائر بالغزو والنهب وقراصنتهم رصد لمتاجرهم في البحر تتخطف أموالهم وأرزاقهم

اتصال المغرب
والدولة العثمانية يزيد
الحرب

عدم توحيد البلاد

أوروبا لا تدع للمغرب
فرصة للاستقرار

مدرو نافار
هكان أمراؤها من الثعالبية بين أمر من ثلاثة : إما توجيه قواهم كلها نحو البحر لمحاربة القرصنة ، وإما التسليم للأسبان الذين اقبلوا يغزون بلدهم بقيادة مدرو نافارو الذي كان لا يفتأ يهدد البلد وجزارها بمدافعه ، وإما الدخول في حماية أحد كبار الملاحين المسلمين الذين دانت لهم البحار والشغور الاسلامية كلها في ذلك الحين ، ولم يكن لها بد في كل من هذه الحالات من أن تطوى حضارتها وتهدم ما بنته من صرح دولتها . وتلقت لهذه الحرب البحرية الشديدة

المغرب يدخل
المجموعة الاسلامية

وتلك هي الظروف التي التقت بالمغرب في احضان الدولة العثمانية ووصلت أسبابه بأسباب المجموعة الاسلامية الكبرى في شرق البحر الأبيض وما يليه ، وهي ظروف يستوى في روايتها فن القصاص وذقة المؤرخ ، لأنها تجمع بين طرافة القصة وصدق العبرة ، وقد تعاونت هذه الظروف على أن تسلم للدولة العثمانية نصيبا فسيحا من الأرض والساحل بلا عناء أو جهد ، ولو قد أرادت لغيرت وجه الحياة فيه وحلولته من ميدان للكشف والنزاع إلى بلاد مستقرة هادئة وافرة الخير كما فعل العرب قبلهم ببضعة قرون ، ولكن كثرة مشاغلم وقلة حفلهم باصلاح أمر رعائهم ، وعدم اهتمام السياسة الاسلامية بالمستقبل عادة جعلت الحكم العثماني نكبة على المغرب لارحمة له

بربروسا

استنجد الثعالبية بعروج بن يعقوب الملقب ببربروسا الأول (١)

(١) نشأ عروج في جزيرة المدلى (متلين) في بحر الأرخيل ، وكان في أول أمره ملاحا فلما اشتد ساعده انفصل عن بحارة السلطان ومال الى القرصنة ، ولما لم يكن في ميسوره أن يقوم بأعماله في شرق البحر الأبيض لأن سواحله كلها بلاد اسلامية داخلية في طاعة الأتراك فقد تد راحاله إلى المغرب وأرسى هناك واخذ يمارس صناعته بمهارة أذاعت ذكره ولعنته ، نحوه نظر السلطان بايزيد الذي اعتبره مجاهدا في أرض الصراية ، ثم وقعت له حوادث أس فيها تم أفلت وعاد بعدها إلى بلاده الأتولى فدخل حدة الدولة من حديد ، وأعجب به قبطان الدولة نور خدا وهو ابن السلطان بايزيد نفسه وشجعه ، ولكنه لم يلبث أن عاد إلى المغرب بعد موت بايزيد وأخذ يغير على ثور أوربا وسفنها حتى اجتمعت له ثروة عظيمة ، ثم أراد أن يوحد لنفسه مركزا باستأذن سلطان تونس في ذلك الحين أبا عبدالله محمد بن الحسن الحفصي في ان يحيط ببعض ثغوره

الذى كان قد استولى على جيغل في ذلك الحين وجعلها مركزاً لأعماله وطلبوا
عونه على الاسبان فعجل هذا بالمعاونة التي طلبوا وفي نفسه أن يدخل
بلادهم في حوزته ، فتم له ذلك بعد حروب طويلة سنة ١٥١٦ ، ثم أخذ
يستولى على بلاد المغرب واحدة فواحدة ، فاستولى على معظم بلاد الدولة
الزيبانية في المغرب الأقصى حتى أصبحت سواحل بلادها كلها في يده
وخلفه في أعماله أخوه المعروف بخير الدين فكان أوفى منه حظاً
وأبعد منه خطراً ، ويبدو أن خير الدين لم يكن يعمل لمجرد الكسب
والغنيمة وإنما كانت تسيره عاطفة دينية صادقة . فقد عجل هذا الرجل
في ساعة نظره وظفره فوضع نفسه في خدمة السلطان وقدم إلى الخلافة
بلاد في الوقت الذي كان عمال الدولة ينتهزون فيه فرصة استقوائهم
لينفصلو عنها ، وقد كان الرجل موفقاً فيما رأى ، إذ وقع تصرفه من
نفس السلطان سليم موقعا طيبا ، فخلع عليه لقب باشا ولقبه بامير الأمراء
(بيجلرباجي) وامده بالفين من الجنود ومدفعية قوية وأربعة آلاف
من المتطوعة والانكشارية ، وبهذه المعونة الطيبة استطاع الرجل أن
أن يستولى على الجزائر في مايو سنة ١٥٢٩ وتونس في أغسطس
سنة ١٥٣٤ وبذلك دخل المغرب جميعه في زمام الدولة العثمانية

خير الدين بروسا

نظم الأتراك المغرب على نفس الأسس التي نظموا بمقتضاها غيره
من البلاد الاسلامية ، فكان يمثلهم فيه باشا يعتمد في قوته على جنود
من الانكشارية مقسمين إلى وجاقات يرأس كل وجاق أغا ، وقسم
المغرب إلى أربع ايالات هي الجزائر وتيطرى وقسطنطينية ووهران

نظام المغرب في
الحكم التركي

فأذن له ، وأعطاه عروج كل ما يیده من الغنائم والاموال فرضى منه السلطان ورحب به ترحيبا
طيبا . ولحق به بعد قليل أخوه خير الدين الذي سيشتهر فيما بعد ببروسا الثاني ، وفي ذلك الحين
كان فرد يند الثاني قد أذن للمسلمين في مغادرة اسبانيا فاسرع خير الدين وأخذ يعمل بهمة مدى
ثلاثة أشهر لينقل مهاجرة المسلمين واسراهم ، مما أطار صيت خير الدين واطلق اللسنة بحمده
ودكره ، ومن هنا أخذ يتدخل في شئون تونس هذا التدخل الذي انتهى بضمها الى الدولة العثمانية

يحكم كل منها باى يرجع فى شئونه إلى كبير البكوات فى الجزائر نفسها ،
وكان لأهل البلاد مجلس يسمى مجلس الشورى أو الديوان ، يجتمعون
فيه لانتخاب البايات والتشاور فى شئون الادارة العامة ، ويتولى الغزو
والأسر من ثغور أوروبا . ويتوالى ورود مهاجرة المسلمين من اسبانيا
تكونت فى البلاد قوة بحرية حربية أخرى معظمها من الأفارقة
والاندلسيين ، فقسمت هذه القوة إلى طوائف يرأس كلا منها قائد
يسمى « الرئيس »

بهذا التكوين الجديد تغير موقف المغرب حيال أوروبا ، فاستطاع
أن يرد عدوانها بل أن يقوى عليها ويرد كيدها ، فاحتلت الحصون
الاسبانية والبرتغالية من على السواحل وتراجعت أطماعها فى البلاد .
وأعان على ذلك اشتغال اسبانيا بحرب فرنسا فى ذلك الحين ، ومن ثم
انقلب الأمر فاخذ المسلمون يغيرون على سواحل اسبانيا وفرنسا
ويأسرون من أهلها ويعودون بالغنم الوفير ، وكلما زاد الأسر كلما
تضخم الجيش الاسلامى والبحرية الاسلامية وقوى أمرهما ، وزاد عدد
السفن السريعة واشتهر أمر المسلمين بالنظام والدقة والاخلاص والنظافة
والشجاعة حتى استأثروا إعجاب خصومهم من الاسبان ، وارتفع
شأن الجزائر وتونس ، وجرى العدل فى ربوعهما حتى أدرك المغرب
شأوا من الرفعة عظيما .

بيد أن الدولة الاسلامية هى فى كل مكان لا تتغير ولا تتبدل ، تعلو
إلى أى شأ تريد ، ويسموا بها أهلها إلى اى أوج تقتدر عليه همهم
ولكن مصيرهم إلى ضعف وإلى اضمحلال عاجل سريع ، فهذه الدولة
المغربية كانت تحمل فى أطوائها عوامل الضعف التى لازمت أخوانها
من دول الاسلام فى الشرق والغرب ، واختصت من بينها بعلى أخرى
شديدة الحظر على كيائها ، أهمها وأقواها أن الدولة لم تكن معتمدة فى
جندها أو مالها على مورد ثابت يضمن ثبات القوة واستمرارها ، وأنها

ضعف الدولة المغرب

المسلمون يغيرون
على سواحل أوروبا

وقفت في مكانها فلم تتطور مع خصومها وجاراتها فتقدمن دليها
وسبقنها في التنظيم الاجتماعي والحربي والرقى الفكرى .

بدأ اضمحلال الدولة الجزائرية في صورة عداا وتحاسدين القوى
التي وكل اليها حمايتها والقيام على شئونها ، بين وجاقات الانكشارية
وطوائف المقاتلة والبحارة الأندلسية والمغربية ، وبين الباشا المعين من
قبل السلطان وبين الديوان المكون من الأهالى لمعاونته في إدارة
البلاد ؛ فأما الباشا المعين من قبل السلطان — والذي كانت
مدة ولايته لا تزيد على سنة — فقد اشتهل بشئون نفسه وأنصرف عن
الإدارة ، واجتهد في أن يملأ نفسه بالمال من الرشى والسرقات ، فلم تلبث
هيئته أن سقطت واجترأ عليه جنوده من الانكشاريين ، وإلى هؤلاء
الباشاوات ترجع مسؤولية الاسراف في التعدي على السفن والشعور ،
فقد كان الباشاوات يدفعون أهل البلاد اليه دفعا بل يكلفون بعض
القرصان بأن يقوموا به لحسابهم ، ومن ثم لم يعن الباشا بأن يحسن تمثيل
السلطان أو يقوم بالمهمة الملقاة على عاتقه ؛ فلم يكن الجند أو الأهلون
ليحسون بوجوده إلا في الاحتفال العظيم الذي يقام لاستقباله يوم يصل
من القسطنطينية ، وإلا في هذه الاجتماعات التي كان مجلس الشورى
يعقدها للنظر في شئون البلاد بين حين وحين ، وربما حاول الباشا أن
يخضع شوكة الانكشارية بالاستعانة عليهم بقبائل من أهل البلاد
فنشأت عن ذلك حروب وويلات شتى ؛ وقد حاول أحدهم أن يستولى
على المنحة التي كان السلطان يبعثها كل عام لاعانة الأسطول الجزائري
وكانت النتيجة أن قرر الديوان (وكانت السلطة فيه للانكشارية)
أن يسحب من الباشا آخر ما بقي له من مظاهر السلطان ، وهو القيام
على الأموال والاحتفاظ (بالخزنة) فتزلاها الأغايعاونه الديوان ؛ ومن
ذلك الحين (سنة ١٦٥٩ م) أصبحت السلطة الفعلية في يد الأغوات .
ولم يمض الا قليل حتى تبين الناس أن التغيير الجديد قد زاد الحالة سوما

العدا، والانكشارية
راحيل الملاح

الغالى التركى

الأغوات

إذ أن الأغوات اقتتلوا فيما بينهم للوصول إلى مركز الرئاسة حتى
لقد مات بحد السيف أربعة الأغوات الذين تولوا هذا الأمر من ١٦٥٩ إلى
١٦٧١. وإزاء هذا الصراع بين الأغوات والوجاقات لم يجد جنود
البحرية وطوائفهم إلا أن يتخلصوا من سلطة الأغوات وإن استأثروا
هم بالسلطة ، فقتلوا آخرهم وهو الأغا على وانتدبوا مكانه أحد
« الريساء » وتلقب « بالداى » أى « الخال » ومن ذلك الحين
أصبحت السلطة فى الدايات ، وفى سنة ١٦٨٩ رفض أحدهم وهو
الداى على شاويش أن يستقبل الباشا المعين من قبل السلطان وطلب أن
يمنح هو اللقب وأن يمارس السلطة رسمياً .

فى أثناء ذلك كانت تونس هى الأخرى مسرحاً لتطورات شتى من
هذا القبيل وإن اختلفت معها فى التفاصيل ، فقد كان أصحاب الأمر فى
إدارتهم أول الأمر هم الدايات المعينون فى مجلس الشورى . وكان البايات
(أى البسكوات) يمارسون سلطة اسمية نائبين عن الباشا فى الجزائر ،
فانتهزوا فرصة ضعف الدايات واستولوا على السلطة ، واستطاع
أحدهم وهو الباي مراد (١٦١٢ — ١٦١٣) أن يحصل على لقب
باشا وأن يحصر السلطة فى ابنه حموده وأولاده من بعده واستمر ذلك
إلى سنة ١٧٠٢ حين استطاع أحد القواد أن يقتل آخر أبناء حموده
ويتولى مكانه ويحصل على لقب باشا ويصبح ذا سلطة فعلية فى البلاد
ويحصر السلطة فى أولاده سنة ١٧١٠ .

بهذه الأمور اشتغل أهل المغرب وقواده ورجاله واتراكه
تاركين المهم من الشؤون ، وقد دفعهم نظام الحكم التركى إلى أن
ينصرفوا إلى مقاتلة بعضهم البعض والاجتهاد فى الكيد والتدبير بما
أخذ يمتص حيوية البلاد شيئاً فشيئاً ، وفى هذه الأحوال استشرى
خطر القرصان ، ومضوا فى أعمالهم دون أن يكون عليهم رقيب ،

ازدياد خطر القرصان

إذ تحولوا مع الزمن من طلاب جهاد إلى طلاب غنم ، واتصلت
الأسباب بينهم وبين دول البحر الأبيض وقراصننه فمضوا يخبطون خبط
عشواء لا يميزون بين ما يضر بلادهم وما ينفعها ، فأثاروا الدول كلها على
أنفسهم وعلى بلادهم من غير حساب ولا رعاية ، فجئوا بذلك على بلادهم .
وانضمت اليهم العصابات من كل جنس وناحية ومضى الجميع يداً
واحدة يسرقون ويسلبون والتبعة أخيراً على المغرب وأهله والدولة
الاسلامية ، وأسرفوا في ذلك اسرافاً نفّر منهم الرأى العام كله والدول
جميعها ، فلم تعد دول المغرب في نظر أوروبا إلا جماعات من القرصان
لا فرق بين حاكم فيهم ولا جندي ولا صاحب صناعة ولا صاحب
أهل المغرب الاصليين دين . ولم يكن الأمر على ذلك في الحقيقة اذ ان أهل المغرب الاصلاء
مضوا في سبيلهم لا يكادون يشتركون في النزاع بين الجند والحكام
ولا يد لهم في سرقة ولا قرصنة « فتولت نقاباتهم شؤون الصناعات
المحلية ، وتناولوا الزراعة . . . فاحتكر أهل الزاب القيام على الحمامات
العامة وتجارة اللحوم والمطاحن في المدن ، وساهموا كذلك في تجارة
القوافل والرقيق الأسود ، واختص البسكريون بالسقاية وأعمال
بسيطة أخرى وبعض أعمال الشرط » (١) وهكذا ؛ وضمت المدينة كذلك
كثيرين من اليهود تناولوا شؤون المال وبعض أعمال أخرى ولكنهم
كانوا محقرين من الأهالي لا ينظر اليهم برعاية أو احترام ، وانصرف
أهل البلاد إلى اقامة المنشآت العمرانية كالطرق والأبنية والمساجد وغير
ذلك بما لا زال باقياً إلى اليوم : فاذا ساهم أحدهم في القرصنة اشترك
فيها اشترك تجارة : فاكترى بعض السفن وأجرها للملاحين لقاء مال
أو جزء من الغنيمة . بيد أن اتساع أعمال القرصنة لم يلبث أن زاد ثروة
أهل المغرب من الغنائم والاتساع ، فعم البلاد الرخاء وأصبحت كل
من تونس والجزائر خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر من مراكز

ازدهار تونس
والجزائر

العمران والحضارة في البحر الأبيض ، فبلغ سكان الجزائر مائة ألف وكثرت فيها الأبنية والمتاجر ، وبلغ عدد سكان تونس ٨٠٠٠٠ وأصبحت حصونهما ملجأ للهاربين من أسبانيا وجزائر البليار ، وتقدمت البلاد تقدما ظاهرا ، وكانت تونس أكثر ازدهارا لخصب تربتها وكثرة مجارى المياه الصالحة فيها ، وجريان نهر مجرد في أرضها فلم تعول كثيرا على ما يرد عليها من اسلاب القرصان ، ولم تبلغ القرصنة فيها الأهمية الكبرى التي صارت لها في ولاية الجزائر ، ثم كانت ضرورات التجارة والعلاقات التجارية سببا في أن تهتم الحكومة بالحد من طغيان القرصان « (١)

وازدحمت مدائن تونس والجزائر بطوائف شتى من الأسرى نجاة الرقيق في المغرب أخذ عددهم يزداد عاما معاما ، وكان جل هؤلاء الأسرى من الاسبان والانجليز والفرنسيين والايطاليين وشعوب أوروبا الأخرى ، فاصبحت تجارة الرقيق نافقة في نواحي المغرب وأصبح الاعتماد على الرقيق عظيما في شتى الأعمال . ولكنهم لم يكونوا في الحال السيئة التي يتصورها الناس فقد كان مالكوهم يحسنون معاملتهم ، ويشفقون عليهم ، ولا يشتدون عليهم ، بل كانوا يتركونهم يمارسون شعائرهم الدينية ، وقد روى هاندو المؤرخ الاسباني أنه لم يكن على القساوسة منهم حرج في أن يرتلوا صلواتهم ترتيلا مسموعا على وقع الموسيقى (٢) فأين هذا من معاملة أهل باریس في ذلك الحين لمن كان يقع في يدهم من البروتستانت : لقد كانوا يلقونهم تحت العجلات في الطرقات ، ويجتمع الناس للتفرج عليهم . . . ، وعلى الجملة كان وضع الرقيق في المغرب كوضعهم في كل بلاد المسلمين ، إخوان لسادتهم يساهمون معهم في الحياة العامة داخل

(١) Julien, Hist. d'Afrique du Nord P. 546

(2) » » » » » P. 546

المزول وخارجه . ولم يكن الرجل ايطيل استرقاق ملك يمينه بل كان يحمره ويعتق رقبته ابتغاء مرضاة الله . وكانت الرقيقات يتزوجن سادتهن ويرتقين إلى مقام الامهات المكرمات

وكان الموقف السياسى يتطور فى غرب البحر الابيض المتوسط تطورا خطيرا خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر ، فقد أخذت أسبانيا تهوى من الأوج الذى كانت فيه ، بعد ثورة مستعمراتها عليها وهزيمة أساطيلها أمام الانجليز ، وأخذت قوة فرنسا البرية والبحرية فى الظهور ، ومن ثم استراح أهل المغرب من منافسة الأسبان وعدوانهم وأخذوا يستقبلون عدوا ناشئا جديدا فى شخص فرنسا ، وبدأ ثغر مرسليا يأخذ طريقه إلى النهوض ، واهتم أهله بحماية الأساطيل الفرنسية ؛ فكانوا يقومون بمعارات وأعمال تجارية ، وكان الانجليز قد تفوقوا عليهم فى أمريكا والهند وأخذوا عليهم هذه السبيل ، ومن ثم لم يجد تجار فرنسا وملاحوها ميدانا خاليا غير ميدان المغرب فاتجهوا اليه ، ومن هنا تلاحظ أن الضغط الفرنسى على المغرب أخذ يزداد بنسبة ما كانت تفقد من مستعمرات وأسواق فى البحار الآسيوية والأمريكية . ففى أوائل القرن السابع عشر استطاع رجل فرنسى - قرصيق الأصل اسمه سانسون نابلون أن يحصل من دولة تونس على تصريح بأقامة محرس تجارى حصين عرف باسم البستيون Bastion (٢٩ سبتمبر سنة ١٦٢٨) على الساحل الأفريقى ، وبذل للحصول على ذلك أموالا شتى بعضها رشى لأصحاب الأمر وبعضها الآخر قروضا وأموالا تدفع للدولة ، واحتكر صيد المرجان على السواحل الأفريقية نظير دفع ستة عشر ألف جنيه سنوية . ولم يكن مصر حاله بأن يقيم حصونا أو يتدخل فى شئون البلاد ، ولكنه استعمل البستيون

باضلال قوة اسبانيا
البحرية وبدء ظهور
قوة فرنسا

سانسون نابولون

مركزا للاستطلاع والتجسس على أهل البلاد ، ثم تناول تصدير القمح وامتدت يده إلى متاجر شتى في بلاد المغرب .

الاطالون

وكان الايطاليون قبل ذلك قد حصلوا من خير الدين على تصريح باختلال جزيرة طبرقة وجعلوها مركزا لمتاجرهم ، وكانوا يتولون صيد المرجان وكثيرا من المتاجر ، وكان معظمهم من جنوا فأثارهم ما وصل اليه الفرنسيون على يد سانسون ، فدبروا له مؤامرة انتهت بمقتله والتمثيل بجثته في مايو سنة ١٦٣٣ .

أهل خوى في الميدان

بهذا تغير ميدان الصراع ، فلم يعد بين الفرنسيين والاسبانيين وإنما بين الفرنسيين والجنوبيين ، وأخذ الفرنسيون يبذلون وسعهم للتخلص من هذه المنافسة الجديدة ليخلو لهم غرب البحر الأبيض ، واشتد النزاع بين تجار جنوة وأصحاب شركة سانسون حتى أقلق النزاع بالحكام الجزائر فصادروا منشآت الأوروبيين جميعا في ديسمبر سنة ١٦٣٧ . ولكنهم لم يلبثوا أن منحوا امتيازات Concessions جديدة لشركة فرنسية مرسيلية أخرى صرح فيها للشركة بأن تقيم منشآت لحماية أموالها وأرواح أصحابها ، ولم يكد أهل ليون يرون ماوفق إليه أهل مرسيليا حتى خفوا هم الآخرون يطلبون امتيازات واستطارت منازعات طويلة بينهم وبين المرسيليين على ذلك ، وانتهى الأمر بأن حصل أهل ليون على نفس الحقوق التي كانت مقررة لشركة سانسون وأمضى اتفاق بالامتياز الجديد في أول يناير سنة ١٦٩٤ ، واستمر هذا الاتفاق أساس المعاملات بين الجزائريين والفرنسيين حتى سنة ١٧٥٤ (١) ، وقد تقرر في هذه المعاهدات كلها أن يقتصر الأجانب على التجارة فقط ولا دخل لهم في شؤون البلاد السياسية .

أهل ليون في الميدان

بيد أن هذه الحال لم يكن مقدرًا لها أن تستمر طويلا، فهددة المعقودة لم ترض أحدا من الجانبين . لم يرض عنها أهل المغرب لأنها حرمت عليهم مهاجمة السفن وسلب ما فيها، وكانت الدولة تفيد كثيرا من الأموال التي تجلبها من القراصين ، أو التي تربحها إذا كلفت بعضهم بالقيام ببعض غارات وسرايا لحسابها ، فكان الملاحون المغربيون يفضلون حالة الحرب مع أخطارها على حال السلام لقلة رزقه وجدواه ، وأما الأوروبيون فقد كان الكثيرون منهم يطالبون بمحاربة الدول الأفريقية لاستنقاذ من بيد أهلها من الرقيق ، وأخذ الرأي العام في مختلف بلاد أوروبا يهاجم سياسة الاتفاق التجاري مع بلاد المغرب وأخذت الحكومات — تخف ضغط الكنيسة والرأي العام — تتحين الفرصة للتخلص من هذه الاتفاقات ومحاربة دول المغرب ، هذا إلى أن هذه الاتفاقات لم تكن تعقد مع دول أوروبا كلها ، بل « كانت الجزائر لا تتفق إلا مع دولة واحدة وتشتد على غيرها — (في أعمال السلب والقرصنة) ، فخيما عقدت الجزائر صلحا مع ريتير Ruyter الهولندي ، كان معنى ذلك نقض الاتفاق مع فرنسا وتوجيه أعمال القرصان نحو السفن الفرنسية (سنة ١٦٦٣) وكان معنى التحالف مع لويس الرابع عشر ، إعلان الحرب على الانجليز والهولنديين سنة (١٦٧٠) ، وكان معنى الاتفاق مع الانجليز سنة (١٦٨١) إعلان الحرب على السفن الفرنسية «^(١) ، وبهذا استمرت القرصنة في طريقها تؤذي الجزائر أكثر مما تؤذي الدول ، بسبب ما تقيمه نحو بلادها من العداء الشديد .

الرأي العام في أوروبا
يتورع الغرب

حاولت الدول أن توقف سيل القرصنة فلم تستطع ، وكلما تقدم الزمن بالدويلات المغربية كلما ضعف أمرها وأصبح الاعتماد عليها

في القضاء على القرصنة أقل نفعا . وكانت سواحل المغرب على طولها تستعمل كلها مراكز لهؤلاء القراصين الذين تخلصوا من كل رقابة وعضوا يأتون من الأمر ما يريدون رضى حكام المغرب وأهله الاصلاح أم لم يرضوا ، فلما أعيت دول أوروبا الحيلة لجأت إلى القوة ، فضربت انجلترا الجزائر بالمدافع ثلاث مرات (١٦٢٢ ، ١٦٥٥ ، ١٦٧٢) وكان الانجليز والهولنديون إذ ذاك في عنفوان نهضتهم الملاحية ، وكانت سفنهم تضرب في عروض البحار في الأطلسي والبحر الأبيض ، فاشتد القراصين في تصيد ما تيسر لهم منها حتى اعيا الصبر ملاحين مهمة من أمثال بليك ومربلبره وآلن . وانتهى الأمر بهم أخيراً إلى قبول دفع حزية لدای الجزائر حتى يأمنوا على سفنهم ومتاجرهم من أذى القراصين : « فكانت دولة انكلترا تؤدي لها سنمئة ليرة انكليزية في كل سنة ، ودولة فرنسا هدايا ثمينة تؤديها عند تغير قناصلها ، ودولة الدانيمرك آلات ومهمات حربية قيمتها أربعة آلاف ريال شنكو وهدايا نفيسة ، ودولة هولندا سنمئة ليرة فرنساوية ومملكة سيانيزيا أربعة وعشرين ألف ريال شنكو ، ومملكة سردينيا ستة آلاف ليرة فرنساوية ، والولايات المتحدة بامريكا آلات ومهمات حربية قيمتها أربعة آلاف ريال شينكو ، وعشرة آلاف ريال نقدية تحضرها قناصلها معها والبرتغال هدايا بهيمة ، وأسوج ونروج آلات حربية وذخائر بحرية تساوي قيمة وافرة ، وهنوفر وبرام من المانيا سنمئة ليرة انجليزية وأسبانيا هدايا نفيسة ، وربما حاول بعضهم في بعض الأحيان مقاومتها وتحرك للانتقام منها فلا يصادف بجاحا فيضطر إلى مسالمتها » (١)

وكانت فرنسا أحفل دول أوروبا بالأذى ، فكان خليفاتها أن تكون أكثرها اهتماما بهذا الأمر ، ومن ثم اتصل العداء بين الفرنسيين والجزائريين طوال القرن السابع عشر ، وتكررت حوادث الاعتداء

الانجليز يضربون
الجزائر بالمدافع

لانجليز يدفعون
حزية لدای الجزائر

بقية الدول الأوروبية
تدفع حزي

العلاقة بين فرنسا
والجزائر من
عصر النهضة

(١) تحفة الجزائر في مآثر الأمير عبد القادر : ص ٨١

من الفريقين، وتوالت مذابح الجزائريين في مرسليليا ومذابح الفرنسيين في الجزائر . ونهب البستيون مرارا عديدة ، وأهين قناصل فرنسا كثيرا ، وضربت المدافع الفرنسية الجزائر مرات عديدة بغير جدوى ، بل حاول الفرنسيون غزو الجزائر سنة ١٦٦٤ فلم يوفقوا في ذلك وعادوا بعد خسائر فادحة ومقتلة عظيمة . وحاولوا مرة أخرى احتلال جيجل فلم يكتونوا أسعد حظا . ثم حاول الفرنسيون التدخل في شؤون المغرب عن سبيل الدين فاتجعت همة الجمعيات التبشيرية الفرنسية والاسبانية إلى اقامة مراكز وكنائس على الأرض المغربية ، وحاولوا بذلك أن يثيروا أوروبا المسيحية على المغاربة المسلمين إذا أصاب الكنائس ضرر ، وقد وفق القساوسة بعض التوفيق فيما نذبوا من أنجله ، واخذ الاعتماد عليهم يزداد بفضل عناية الوزير الفرنسي كليبر ، فأصبح رجال الدين هم المتنادون بتخليص أسرى الاوروبيين في الجزائر ، ثم عهد اليهم اخيرا في القيام بوظائف القناصل ، حتى اجتمعت مصالحة المسيحية إلى مصالحة فرنسا ، وحتى أصبح ممثل فرنسا هو ممثل المسيحية في أرض المسلمين ، واستمر العداء بين الفرنسيين المغاربة متصلا طوال القرنين السابع عشر والثامن عشر .

بعوث تبشيرية الى المغرب

كثير يعتمد على القساوسة في المغرب

وكانت الجزائر طوال هذين القرنين على حال طيبة من الرخاء والقوة ، واتسعت رقعتها وشملت نواحي كثيرة ، وغزت تيرنس نفسها سنة ١٦٨١ ، وأعانها على القوة والرفاهية انقطاع الصلة السياسية بينها وبين الدولة العلية تقريبا ، فكان داي الجزائر أشبه بالأمير المستقل يأتي من الأمر ما يريد دون أن يكون عليه في ذلك حرج ، فلو قد تظن اوائك البدايات في هذه الفرصة الطيبة فأجادوا تنظيم بلدهم وأعدوها لمقاومة كل عدوان يراد بها ، لأغنى ذلك عنها كثيرا ، ولا فلتت البلاد من المصير السيئ الذي ستلقاه في أوائل القرن التاسع عشر ، ولقد كانت

ازدهار الجزائر

نواجه العداوة تتبدى لها ، وكانت أيادي الغزو تنوشها ، ومع هذا لم يتفطن أحد من هؤلاء الحكام إلى أن يحسب للمستقبل حسابا ، ويأخذ نفسه وبلاده بالتفية من شر يكون ، وقد منحهم الله أرضا يسهل الدفاع عنها ، وقدرة على ركوب البحر لها خطرها في الصراع المقبل ، ومع هذا لم يغن عنهم ذلك شيئا . وقد كانوا على صلة بأوروبا يستطيعون أن يروا بعيونهم ما يفعل حكامها ليحفظوا بلادهم وعروشهم ، وقد كان الإصلاح عليهم سهلا ميسورا . . ولكنهم أبوا إلا الرجوع إلى الوراء في لحظة اشتد فيها سباق الناس إلى الامام .

ففي أوائل القرن الثامن عشر أخذت بوادر الانهيار تلمع في أفق المغرب ، وبدأت غواشي المحن تزورها وتثقل عليها ، أخذ إيراد الدولة من القرصنة يقل بتقدم الملاحة الأوروبية واحتياط السفن المارة بسواحل أفريقية ، فلم يزد دخل الدولة من هذا الباب على مائة ألف من الفرنسكات ، وفي الوقت الذي كان ينبغي عليها فيه أن تزيد قوتها البحرية نجدها تنهون في شأنها فينزل عدد السفن إلى النصف ، وقد كانت البحريات الأوروبية قد بلغت من التقدم والرقى في ذلك الحين مبلغا طيبا ومع هذا لم يجد دايات الجزائر ما يدعوهن إلى تحسين سفنهم وتقوية جبهتهم ، وأفبلت الاوبئة في أواخر القرن الثامن عشر واجتاحت الأهاليين حتى إن كان ليموت في الجزائر ألف كل يومين ، وكان في الجزائر أطباء فرنسيون يعرفون أساليب طبية لمقاومة هذه الآدواء ومع هذا لم ير الحكام داعيا لحماية أرواح الرعية ، فتركوا الداء يستشري والعلّة تستعز حتى هبطت الأمراض بالناس والبلاد إلى درك سحيق ، وانقطع مدد المتطوعين إلى جيوشهم لأن المحصورين في اسبانيا من المسلمين قد انتهوا ، ومع هذا لم يفكر الدايات في أسلوب يعوضون به ما تهاوى من جيوشهم ، حتى أصبح الجيش المغربي كله

بدء اضمحلال المغرب

مستولية حكام المغرب
في ذلك الاضمحلال

سته آلاف جندي فقط ١٠ بل كان أولى بأولى الأمر أن ينظروا ،
 فهذه دتاجر الفرنسيين في البلاد يشتد ساعدها وتزايد ارباحها ، وهذه
 انتشار المتاجر الفرنسية في المغرب
 حكومة فرنسا تأخذ الشركات الفرنسية العاملة في المغرب في حمايتها
 ويبسط الملك عليها رعايته ، وهؤلاء هم الفرنسيون يحتكرون تجارة القمح
 وتصديره ويحتفلون بتوفيقهم في تجارة المغرب ، فيضربون مديريات
 من الذهب احتفالاً بالصر والكسب ، ويوزعونها في ساعة ثقل الفقر
 بكلكاه على المنريين جميعاً . كان أولى بهم أن يمتدوا بهذا كله ، ويكون
 لهم منه عظة ونذير ، ولكنهم أرسلوا أنفسهم مع التهاون ، وألقوا
 حبلهم على غارب الأيام ، فدهمهم الأمر وهم ايقاظ كنيان
 واقضى عصر الدايين الأقوياء . وأخذ يتولى الأمر منهم رجال
 ضعاف ، واقترب ذلك بصعود نجم الجندي واجتماع القوة كلها في
 يد الأجناد وقوادهم ، وأدرك الأمامه كلها ففور ، فلم بعد الدايون حول ولا
 طول ، ورك الناس إدارة البلاد لم يشاء يصرفها كيف شاء ، ومال الوزراء
 إلى الراحة ، وحدا حذرهم الموظفون فلم يعن « أغا المحلة » بأن يناقش
 الداي في شؤون البلد الحربية ، وانصرف « وكيل الخراج » عن العناية
 بشأن الأسطول ، ولم يهتم « الخازن دار » بشؤون المال ، ترك هؤلاء العمال
 الشؤون كلها في يد الداي يصرفها كما يهوى ، وثقلت عليه الأمانة فسلمها
 للجنود واستراح . . وهذا في آواخر القرن الثامن عشر . . أي في عصر
 النهوض والقوة . . عصر الاضطراب والاهوال . . بل لقد أتعبه البقاء
 في المدينة وأحب أن يبلغ نفسه من الراحة مباحاً طيباً ، وخاف عليها
 فتك الجنود ، فأثر العافية ، وانتقل من قصره المعروف بالجنينة ، وأوى
 إلى قلعة الجزائر المعروفة بالقصبة ، وهناك جمع متاعه وماله وعتاده
 وحرمه ، وترك الأمر لمن بيده الأمر . فلم يخطئ المؤرخ الأسباني جوان

اصحلال الدايات
 ومصاد الموظفين

كانوا حين وصفه بقوله « رجل غني ليس له على أمه الله سلطان ، أب بلا ولد ، وزوج بلا زوجة ، ومستبد بلا حرية ، ملك عبيد وعبد رعاياه » فليس هناك أصدق من هذا الوصف اللاذع للحاكم الذي سيظل على سكونه هذا حتى إذا تحرك فتشع على بلاده تنور الطوفان . وليس على قبائل المغرب حرج في هذه الحال إذا هي ثارت على الحكومة وخاصمتها وخلعت سلطانها ، وليس على قبائل وادي سبو من حرج إذا أعلنت استقلالها وخلعت طاعة الأتراك في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، وليس على غيرهم من القبائل من بأس إذا تواتبوا بالدولة في كل مكان ورفعوا راية العصيان ، وليس على الأسبان من حرج أبضا إذا هم حاولوا فتح المغرب من جديد ، فهاجموا مدائن الساحل مرارا عديدة وخربوا وهران ، وليس على الفرنسيين من حرج كذلك إذا فكروا في غزو المغرب من جديد ، فإذا تعذر عليهم ذلك لكثرة الشواغل ومسائل الثورة فلا بأس من انتهاب أموال المغرب ، واستيراد القمح منه وتأجيل الدفع حتى تتراكم ديون الجزائر عند فرنسا ، لاضير على الحكومة الفرنسية أن تفعل هذا فهي تعرف أنها إن ترد شيئا من ديونها وأن الجزائر أنجز من أن تسترد مالها . . وإن الداي أقل عناية بشئون بلاده من أن يتعب الفرنسيين بالمطالبة والالحاح . لاضير عليها أن تفعل ذلك ، بل لاضرورة تلح عليها في غزو المغرب مادامت تفوز منه بملايين الجنيهات قححا . بل لعل مصلحتها تستدعي أن ترفض التعاون مع الدول في القضاء على القرصان . مادام بقاء الجزائر والقرصان يفيدها ويؤذى عدوتها إنجلترا .

قائل المغرب تنور
بالحكومة القائمة

الاسبان يهاجمون
المغرب من جديد

الفرنسيون يفكرون
في غزو المغرب

مؤتمر اكس لاشابل
للنظر في شئون
القرصة

ربما كان ذلك كله معقولا يتفق مع طبائع الأشياء ، ولكن الغريب الذي يستوقف النظر أن الأيام ما كانت تزيد الجزائريين ألا عتوا في القرصنة وشدة في ترصد السفن وانتهاها ، فهذه أوروبا تتأذى من أعمالهم وتعقد مؤتمر في اكس لاشابل للتفاهم فيما يتخذ حيال الجزائر ، ثم تؤثر الحسن وتندب أميرالين - انجليزي وفرنسي - لمفاوضة الداي في كف

يدر عيته عن الآذى . فيلقاهم الداي صلفا را كبا رأسه . ويحدثهم حديث
الامر الناهى متهددا متوعدا ، وهو لا هم الانجليز يبلغ بهم اليأس مداه
فيرسلون أسطولا بقيادة اكسموث الانجليزى وكابلان الهولندى
لتأديب العصاة فيصيب الجزائر بشىء من العطب ثم ينصرف فى أغسطس
سنة ١٨١٦ . (١)

و فيم الخوف ومم الحذر ، وماذا تكون أوروبا هذه أمام بضعة
آلاف من الجند الجزائرى . . وماذا تكون أساليبها وحضارتها إلا
هباء فى هباء . . ليمض الداي فى طريقه مستتبدا غشوما . . يسخر من
قناصل الدول فى اللحظة التى يصانعهم فيها محمد على ويرجو حسن ظنهم —
وهو أقوى من الداي أضعافا مضاعفة — وليشتد باى تونس فى طلب
المال من القناصل والدول غير عارف أن ذلك يجعل دولته فى وضع
دولى غير لائق بها ولا بمقامها بين الدول ، وليعجب الداي من محمد
على كيف يسأله أن يصانع الفرنسيين ويخشى شرهم ، وليسخر منه
لهذا سخريه بالغه . . ويرفض وساطته وليرد عليه ردا خشنا (٢) . .

(١) ويدو أن جند المغرب كانوا على حال من العرور والجهل بقوة أوروبا تشبه ما كان
عليه أصحابهم المماليك فى مصر قبل الحملة الفرنسية ، فقد حاول عمر باشا الوالى التركى أن يصالح
اكسموث وينتهى معه الى رأى ، ثار الجند به ، ونقموا عليه الشروط الانجليزية ، فقبضوا عليه
وقتلوه خنقا وولوا مكانه على حوجه . . وقد اتسنا العذر للماليك مصر فى حلهم قوة الفرنسيين
لانقطاع أسباب الصلة بين الجانبين . . - ولكننا لا نستطيع أن نلتبس عذرا لحمد الجزائر ، فقد
كان الباب مفتوحا بينهم وبين أوربا ، وكان القتال بين الجانبين متصلا فى السر والحرى فكيف جهل
المعاربة قوة الأوربيين واساليبهم ؟

راجع : تحفة الزائر فى أخبار الجزائر > ١ ص ٨٠
(٢) > واتصل الخبر بملك فرنسا ففاوض أهل دولته فوسطوا محمد على باشا حيدوى مصر
أن ينصحه ، فإرسل له كتابا يصححه ويحذره ويعلمه به بأن العاقبة حجيمة ، فلما قرأه حسين باشا قال
لرسول > بله سلاى وقل له يا كل العول « ورماعا كانت نصيحة محمد على هذه سابقة لمفاوضته
مع فرنسا على فتح الجزائر لحسابها ، ولا يستعد أن يكون الداي حسين قد علم بهذه المفاوضات
فتتد أن يسخر من محمد على هذه السخريه

تحفة الزائر فى أخبار الجزائر > ١ ص ٨٣

(1) Dodwell : Op. Cit, P 97. 98

فمحمد على هذا رجل مسكين لا يفهم الأمور ولا يقدرها قدرها ،
ليذهب الغرور بالدأى مذهباً بعيداً وليملك الصلاف ، وليغمض عينيه
وليطمئن فلا خوف عليه ولا هو يحزن !

بذلك كانت سياسة الدأى حسين باشا سيدي في انعدام الرجاء في الصلح بين الدأى حسين باشا وسياسة
فرنسا والجزائر ، وبين الدول الأوروبية كلها بصفة عامة والجزائر ، فقد كانت
الدول كلها مستطبعة احتمال هذا الموقف من الدأى ، ولكن فرنسا لم تكن
لتستطيع لأنها كانت أكثرها شجى به لقرب ثغور هامان ثغور هو كثرة تعدى
سفننه على سفنها ، ولم يكن يخفى على أحد من يتأملون حوادث هذه الأيام أن
الفرنسيين كانوا يفكرون جدياً في التخلص من دأى الجزائر والقضاء على سلطانه ،
ولو قد كانت فرنسا في ظروف غير التي وجدت فيها بين سنتي ١٨٢٥ ، ١٨٣٣
لتقدمت حملتها على الجزائر بضع سنوات ، ولكن حكومة شارل العاشر
كانت في شغل بمصائبها فانظرت الجزائر على مضض ، بل رغبت إلى محمد
على أن يقوم هو بهذا الأمر ، فيقوم حملة يخضع بها طرابلس وتونس
والجزائر ويقر الأمور في سواحل المغرب ، على أن تقدم له الحكومة
الفرنسية معونة من مال وسفن ، وتلك هي « المسألة الجزائرية »
المعروفة في تاريخ محمد على ، ولكن الرجل أظهر في الأمر حكمة موفورة
ورأياً حزمياً ، فقد رأى من بادى الأمر عبث المشروع وقلة جدواه
عليه وكثرة نفقاته « ولكنه لم يحب — في نفس الوقت — أن يدع
الفرصة تغتلب من بين يديه ، لأنه لو قدر لهذه المفاوضات الفرنسية
أن تنتهي إلى شيء لأفاد منها فائدتين : فهي فرصة يعيد فيها بناء أسطوله
وسبيل للمحاربة مع الفرنسيين أو مع الانجليز إذا أقلقهم الأمر
وأخافهم (١) » ومن ثم اشتط في طلب الثمن الذي يدفع له للقيام بهذه
المهمة ، فطلب مبلغاً جسيماً من المال وأربع سفن كبرى من ذوات

مرسلاً تعاوض محمداً
عليها الفتح الجزائر

الثمانين مدفعا ، وعبثا حاول الميسوميمو — المندوب الفرنسي فوق العادة الذى ندبه بولنيك لمفاوضة محمد على — أن يقنع محمدا عليا بالتعجيل فى العمل ، لأن الرجل كان يخشى الانجليز ويخشى الدولة العلية ، وقد حذر الساسة الفرنسيين من ذلك ونصحهم بالكتمان ، ولكن هؤلاء لم يرزقوا حصافته ولا دقة فهمه ، فمضى دروفى قنصل فرنسا يتحدث باركر قنصل انجلترا فى الأمر ! وتعجل جليبيو Guillemiot سفير فرنسا فى تركيا فحدث الرئيس افندى فى المشروع راجيا الحصول على موافقته ، فعجل الانجليز بمقاومته ، وعارض الباب العالى مؤكدا أنه يستطيع إرسال مندوب خاص - طاهر باشا - لمفاوضة الداي بغير حاجة إلى حرب أو فتح ، وانتهى المشروع كله إلى فشل تام لمعارضة الانجليز والأتراك ، واعتراض الوزراء الفرنسيين على تسليم سفن فرنسية لمحمد على ، واضطراب الحكومة فى يد بولنيك وملكه شارل العاشر.

بولنيك يكره فتح
الجزائر حديا

بيد ان ظروفًا جديدة ما لبثت ان أيقظت فى اذهان الوزارة الفرنسية فكرة فتح الجزائر ، فقد زاد احساس شارل العاشر ووزيره بولنيك بانصراف الفرنسيين عنهما وسأهمهم حكمهما وتحديثهم بالثورة على الملكية الضعيفة ، وكان شارل العاشر يحتل ذلك مادام مشروع تقسيم أوربا مذخورا رهن التنفيذ بيد وزيره ، لأن تنفيذ هذا المشروع كان جديرا بان يرضى قلوب الفرنسيين ويحبب الملك اليهم ، فلما فشل هذا المشروع وتحطمت آمال شارل فيه ، رأى وزيره ضرورة عمل شئ يرفع من قدر حكومته فى نظر الفرنسيين من جهة وليسغلمهم به عن تقديم اياه من جهة أخرى ، وانتهى به الأمر الى التفكير فى فتح خارجى ، فالشعب الفرنسى مفتون بالحروب والغزوات تملكه اخبارها ويأسر قلبه مجدها وفخارها ، ومن ثم تخير الجزائر ميدانا لهذا الفتح ، ففقه كذلك انتقام

لما أصاب الفرنسيين من أذى على يد اهل الجزائر ، وفيه كذلك شفاء لغريزة دينية مطوية في قلوب الغالين ، واعانه على ذلك ان وزير حريته مارمون كان يتحرق شوقا لقيادة هذا الفتح ، ومن ثم اخذ شارل ووزيره بولنيك بتحنيان الفرصة المناسبة للقيام به

الفتح الفرنسي بالجزائر
في رأى جوليان

ولكن سوء الطالع أثنى إلا أن يلزم شارل العاشر في كل مانوى فكان سىء الاختيار المناسبة التى بدأ فيها بفتح المغرب ، وكان سىء الاختيار للقادة الذين نذبهم للقيام به ، وكان سىء التقدير حين رجا ان يقيم امر ملكيته بهذا الفتح ، فلم يخطئ جوليان حين وصف الفتح الفرنسى بالمغرب بقوله انه « كان عملا مضطربا دبره تجار جزائريون يهود بالاشتراك مع سياسيين مفسدين فى باريس وكان - اى الفتح - حادثا أثاره سياسى متهم فى ضميره ، وكان حملة قادها قائد سىء السمعة قيادة خاطئة ، ونصرا تلقاه رأى العام بعدم اكتراث ، واعقبه سقوط الاسرة التى طلبت فخره ، تلك كانت المقدمات الفريدة التى مهدت لفتح المغرب على يد فرنسا » (١)

مقدمات الفتح
ديون البكرى

ترجع المقدمات القرية للفتح الفرنسى الى القضية المعروفة « بديون البكرى وأبى زناك » اليهوديين ، وهى قضية لا يقال عنها الا انها كانت مؤامرة سيئة دبرها هذان اليهوديان بالاشتراك مع نفر من كبار الساسة الفرنسيين لسرقة دأى الجزائر وحكومة فرنسا على السواء ، دراسة تفصيلها تدل على ان السياسيين الفرنسيين كانوا يريدون ان يغضبوا حاكما شرقيا بضعة ملايين من الفرنكات فاذا طالب بها كان مسيئا خارجا عن حدوده فى معاملة دولة محترمة مثل فرنسا ؛ بل يبدو كذلك ان الاستخفاف بلغ بالوزراء الفرنسيين مداه ، فلم يكفهم المماطلة والاحتتيال ، بل قصدوا إلى احراج الدأى بتعيين رجل متهم فى خلقه وأماته للسفارة

ديهال فصل مرسا
والجزائر قبل الفتح
لديه ، وعبثا حاول الداي أن يحتج على بقاء هذا الرجل ، وعبثا حذر
الحكومة الفرنسية من جرائم بقائه عنده على ما بينهما من سوء الظن
والتخوف والازدراء ، فلم تستمع إليه حكومة فرنسا ، وانتهى الأمر
بينهما إلى مشادة عنيفة ملك الداي الغضب فيها فلطم القنصل الفرنسي
ديهال بمروحة كانت بيده ، فكانت تلك اللطمة هي الشرارة التي أشعلت
الحرب بين الجانبين .

ديون الداي لدى
حكومة مرسا
أما ديون الداي لدى حكومة فرنسا فقديمه ترجع إلى السنوات
الآخيرة من القرن التاسع عشر ، إذ احتاجت الحكومة الفرنسية إلى
القمح اللازم للحملى إيطاليا ومصر ، فتعهد بتقديمه إليها تاجران يهوديان
من تجار الجزائر ، يرجعان إلى أصل إيطالي - إذ نشأ في ليفورنيا -
هما يعقوب كوهين بكري وميخائيل ابوزناك ، وكان الداي حسين
(منذ سنة ١٨١٨) قد فوض لهم أمر تجارته الخارجية ، ففضيا يوردان
القمح سنوات طويلة ولا يعطيانه شيئا ، وكان لهما شبه اتفاق مع
تاليران - وزير الخارجية الفرنسية إذ ذاك - على أن يقتسموا
ما يأخذونه من الحكومة الفرنسية ثمنا لهذا القمح من غير أن يكون
للداي - وهو صاحب الحق الأول فيه - نصيب ، ومضت السنوات
واليهوديان يضيفان على المبلغ أرباحا وهمية ويتراخيان في مطالبة
الحكومة الفرنسية حتى تزداد المسألة تعقدا ، وتعهد تاليران بالدفاع
عنهما ، فكان لا يفتأ يوصى وزير المالية « بأن لا يعتبر هذه المسألة
مسألة شخصية ، وإنما مسألة حكومية » (١) ، ولما تكررت مطالبة
الداي نصح تاليران له بأن يطالب نابليون في مصر بهذا المبلغ ،
وبهذا غرر الثلاثة به في اللحظة التي تناولوا فيها أربعة ملايين من
الفرنكات من الحكومة الفرنسية لتسليمها لصاحب الحق . وبعد

الداي حسب يفوض
للكري وأبنائه شقون
تجارته الخارجية

تاليران يشترك مع
اليهوديين في سرقة الداي

سنوات قليلة تقدم اليهوديان إلى حكومة فرنسا يطالبانها بأربعة وعشرين مليوناً من الفرنكات هي مبلغ ماوصل إليه الدين وأرباحه المركبة ، فلم يسع الحكومة الفرنسية إلا أن تحقق هذه المبالغ وانتهى الأمر بتقديرها إياه بمبلغ سبعة ملايين فقط .

سور العلاقة بين
ديفال والداى

وفي هذه السنوات أقامت الحكومة الفرنسية ديفال قنصلاً لها لدى حكومة الداى وهو رجل متهم في ذمته ، وكان الداى يكرهه ولا يطبق معاملته ، فلم يلبث حسين أن أيقن أن ماله ضاع بين تسويق الحكومة الفرنسية وممالة تاليران وتأثير البكرى وحظوة مندوبه في باريس نيقولا بليفيل Nicolas Pleville وتحدى ديفال ، وتحققت مخاوفه حين اعترفت الحكومة الفرنسية بحقوق البكرى ولم تشر إلى حقوقه هو بكلمة واحدة — وهو أولى الناس بالمال — وأحست « غرفة التجارة في مرسيليا » بأن شيئاً من الاتفاق قد تم بين بكرى

غرفة التجارة في مرسيليا

رفض التعامل مع ديفال

لداى حسين

يشكو ديفال

وديفال على العبث بمصالح فرنسا والجزائر معاً ، فأعلنت رفضها التعامل مع القنصل ، ومضى الداى يشكو سوء معاملة ديفال فكتب إلى حكومة فرنسا سنة ١٨٢٦ يبلغها بأنه لم يعد يحتمل بقاء هذا « الدساس » لديه ورجا الحكومة الفرنسية أن تستبدل به رجلاً « شهياً » ، بل رأى الرجل المكيدة تكاد بين يديه فابلق الحكومة الفرنسية أن بكرى وعد بليفيل وديفال بأن يمنحهما مليونين من والفرنكات إذا حصل له على الملايين السبعة المتجمدة لدى الحكومة الفرنسية .

الحكومة الفرنسية تافى

دع ديون تجار الجزائر

لاخرج على حسين إذن إذا خرج به الغضب على ديفال عن طوره ، وقد وجد الحكومة الفرنسية تصر على سرقة وانتهاب أمواله وإيذائه ، وزاد في غضبه أنه « كان لتجار فرنسا من أهل مرسيليا على تجار الجزائر مليونان وخمسمائة ألف فرنك فرفعوا أمرهم إلى دولتهم وطلبوا منها أن تنفذ لهم أموالهم من أصل السبعة الملايين المحكوم بها لحكومة الجزائر ، فادت دولة فرنسا للحكومة الجزائرية أربعة ملايين ونصف

مليون وابتقت ما ادعى به تجارها في صندوق الامانة وامرت ان تجرى دعوى تجارها مع غرمائهم من اهل الجزائر في مجلس التجارة في باريز ، فغضب الباشا لذلك وطلب اداء الاموال المحكوم له بها كلها وان تكون مراعاة التجار والغرماء في مجلس الجزائر « (١) وكان على حق فيما فعل ، اذ لا ينبغي ان يكون الفرنسيون حكاما على انفسهم ، بل ان كرامة الجزائر كانت تستدعى عرض الامر في محاكم الجزائر نفسها .

حادث المروحة
٢٩ ابريل سنة ١٨٣٧

في مثل هذا الظرف معقول جدا ان تشتد المناقشة بين الداي وبين القنصل ، وليس بالامر ذى البال اذا تناول الداي مروحته وضرب بها وجهه ديقال ، ليس ذلك بالامر الخطير الذى تستحق من اجله الجزائر ان يزال استقلالها ، خصوصا وقد استيقن الناس ان ديقال استفز الداي بوقاحة غير لائقة ، وقد لبث الداي اياما يؤكد ان المسألة شخصية لادخل لها بحكومة فرنسا ، ولكن هذه الاخيرة اعتبرت حادث ٢٩ ابريل سنة ١٨٣٧ كافيا لتبرير غزو الجزائر واحتلالها .

فرنسا تحاصر الجزائر

بدأت حكومة مارتيناك فقررت محاصرة الجزائر ، فحاصرتها حصارا طويلا كلفها مالا كثيرا ولم يعد بفائده ، فرفع الحصار وعادت فرنسا تطلب ترضيه ، فأبى الداي حاسبا أن رفع الحصار معناه عجز فرنسا عن فتح بلادها . بل زادت جرأته فلم يتردد حين أرسل إليه مندوب فرنسي جديد هو لابرنتييه La Bretonniere ليعرض عليه الترضيات التى تطلبها حكومة فرنسا ، فى أن يطلق مدافعه على السفينة بروفانس التى كانت تحمل المندوب ساعة مبارحتها ميناء الجزائر .

رمون وزير الحرية
الفرنسية يسعى لانقاذ
المشروع

هنالك استقر رأى بولنيك على أن يقوم بالامر ، وكان إلى جانبه بورمون وزير الحرية Bourmont يرجو أن تكون إليه قيادة هذا الفتح ، ولم تكن فرنسا تخشى كثيرا من اعتراض الدول على فتح كهذا ،

حتى انجلترا بداعليها أنها تفضل قيام الفرنسيين في ساطىء افريقية على بقاء داي الجزائر ورجاله فيها . أما المقاومة الفعلية فقد لقيتها الحكومة من الفرنسيين أنفسهم ، فقد كانوا تلقوا وزارة بولنيك بالتشكك والريبة وقلة الاكتراث ، وأستخطهم منه اعتماده على رجال لا يكاد الفرنسيون يحملون لهم حيا مثل بورمون هذا ، فقد كانت العامة تحمله مسؤولية هزيمة واترلو وتتهمه بتخون نابليون والجيوش الفرنسية فيها . ويبدو أن حامية الجزائر كانت على حال شديدة من الضعف والعجز لأن الفرنسيين استطاعوا أن يعضوا عليها في زمن قصير جدا ، على رغم سوء قبادتهم وتخير نفوس الجسد على قائدهم وانتشار التمرد بين صفوفهم ، وبكفى للدلالة على ضعف القوه الفرنسية أنها تمجرت عن الاستيلاء على « البايمة » بعد ذلك لأنها لقيت فيها بعض المقاومة . غادرت الحملة الفرنسية ثغر طولون في ٢٥ مايو سنة ١٨٣٠ وتم استبلاؤها على الجزائر وسلم الداي حسين نفسه لها في ٥ يولييه ، أى أن ولاية الجزائر سقطت في أقل من أربعين يوما مما يدل على أنها كانت ضعيفة جدا ، وأن جنود الأتراك في البلد لم يكونوا خيرا من زملائهم في البلاد الإسلامية الأخرى .

ضعف الحامية
الفرنسية

الاستيلاء على الخرائر
٢٥ مايو سنة ١٨٣٠

وليس هنا موضع التفصيل في أحداث الفتح الفرنسي ، (١) وليس هنا كذلك موضع القول في ثورة عبد القادر التي بدأت بعد ذلك

(١) في الخامس والعشرين من مايو سنة ١٨٣٠ نارج الخنرال Bourmont ثرطولون على رأس جيش عدته سبعة وثلاثون ألف جدي ، وفي العاشر من يونيو ألقت الحملة مراسيها عند حليج سيدى فرج ، وأخذت تتقدم نحو الجزائر على عجل ، وتهاون الداي في المسير اليهم فلم يلقهم إلا بعد تسعة أيام في سهل استولى ، وتقهقر أمامهم سريعا ، ثم تقدم الفرنسيون بطء وتردد . وبعد احتلاف بين القادة - حتى أشرفوا على حصون المدييه وطولوا بطلقود عليها المدافع حتى سلمت حاميتها التركية في ٤ يوليو سنة ١٨٣٠ ، وفي الخامس من سلم الداي نفسه على شروط . منها سلامته وصيانة أمواله ورعاية الحرية الدينية لأهل البلاد ، وفي نفس اليوم دخلت القوات الفرنسية الجزائر ، وقد وجد الفرنسيون أموالا طائلة في خزائن الداي قد رها بعض المؤرخين

بسنوات ثلاث، واستمرت أربعة عشر عاما متوالية، فلهذه الثورة مكانها فيما يقبل من أجزاء هذا الكتاب . وإنما تهمنا فقط دراسة أسباب سقوط هذه البلاد وتأثير سقوطها في المجموعة الاسلامية كلها .

أسباب سقوط المغرب
١ - عدم وحو
حكومة صحيحة له

واضح جدا أن أقوى أسباب سقوط المغرب هو أنه لم تكن به حكومة بالمعنى الذى يفهم من هذا اللفظ ، كان به حاكم يستعين في تصريف الأمور بطائفة من الأعوان والوزراء ويشرف على نفر من الجند في البر والبحر ، ولكنه لم يكن ذا سلطة فعلية معترف بها ، فقد رأينا أنه على الرغم من معاهداته مع الدول لم تسلم السفن المتعاهدة من الاعتداء والأذى ، اذ كانت السلطة موزعة توزيعاً غريباً بينه وبين رؤساء الجند، فلم يكن يستطيع أن يقضى أمراً أو يعقد رأياً، بل كان في معظم أحيائه موزعاً بين آراء هؤلاء الأجناد ، وبمثل هذا اللون من الحكومة لم يكن في مقدور المغرب أن يثبت تحت الضغط الأوروبي ، فقد قلل ذلك من احترام الدول له ، وهون عليها أمره وجعل استيلائها عليه ضرورة تقتضيها مصلحة البلاد نفسها ، وجعل الدول نرضى عن

بثانية وأربعين مليوناً من الفريكات ، فنهب القادة والجند من أشيائهم كثيراً ، وانحصرت الشهرة في القائد العام وهيئة أركان حربه ومحل سيرة Seillière — الذى كان يتولى تموير الحملة — ونفر آخر من أصحاب الكلمة في الجيش والجند .

ومن غريب الأمر أن رأى العام الفرنسي تلقى أخبار النصر بمزيج من الازدراء والسخرية وقلة الاكتراث ، حتى أن القادة الذين نسب اليهم نصر الفتح سقطوا في ميدان الانتخاب في نفس الوقت الذى أعلنت فيه مدافع الانفاليد دخول الجزائر في طاعة فرنسا ، ومر ذلك إلى كراهية الناس للملكية شارل العاشر ووريثه بولياك وكل ما يتصل بهما ،

عجل بوربون بعد ذلك فاحتل وهران وبونيه ، ولكنه عجز عن الاستيلاء على البليدة . وبعد ذلك بقليل تسامح قواد الحملة بثورة يوليو سنة ١٨٣٠ التى أسقطت حكومة شارل العاشر ، فووقت الحملة إلى حين ومكر بعض ضباطها في الزحف بمن معهم من الجند على فرنسا نفسها ، ولكنهم عدلوا . ولم تلت الحكومة الجديدة أن عزلت بوربون وولت مكانه كلوزل Clauzel في ٢ سبتمبر سنة ١٨٣٠ ، وقد لقي ورون اهانة كبرى حين عزل عن القيادة إذ أبى قائد الاسطول

عمل فرنسا وتقف ساكنة حياله ، وكان في استطاعتها أن تفعل شيئاً لحماية المغرب لو أرادت .

وكانت بلاد المغرب على الاطلاق فقيرة فقراً إلا يعين على قيام دولة قوية حديثة ، تستطيع أن تنهض باعباء التنظيم والدفاع . ومرد ذلك إلى قلة موارد الرزق في البلاد ثم إلى سوء التصرف فيما كان يرد من المال ، فايراد المغرب كله في تلك الأعوام لا يكاد يكفي لإنشاء جيش قوى صحيح ، ولم يكن لِيُمْكِنَ الحاكمين من مباشرة نواحي الإصلاح لو طلبوا ذلك ، ولا يعلل الهبوط الذي أصاب موارد البلاد إلا بأن أهلها أنصرفوا عن استثمار موارد الخير الحقيقية في بلادهم واهتموا بكسب الرزق من وجوه أخرى كالقرصنة ، فنضبت موارد البلاد مع الإهمال يوما بعد يوم ، وأخطأت حكومة الجزائر نفس الخطأ الاقتصادي الذي وقعت فيه كل دولة إسلامية غيرها ، وهو إهمال عيون الثروة في البلاد والاعتماد في ملأ الخزانة على ما يرد من الاسلاب والغنائم وارباح الحروب ، فاجتمع إهمال الحكومة إلى إهمال الشعب ، وتدهورت مرافق البلاد تدهوراً سريعاً خطيراً جعلها في حال أقرب إلى الأفلاس والاملاق ، وعلى الرغم من أن استثمار هذه الموارد لم يكن

Duperé أن يسمح له بالسفر على إحدى سفينه ، فاضطر المسكين إلى استئجار سفينه مساوية نقلته إلى اسبانيا لا إلى فرنسا . ولم يوفق كلوزل كثيراً في عمله فلم يلبث أن استبدل بالجنرال Berthezéne (فبراير سنة ١٨٣١) فلم يكن خيراً من سابقه إلا أن صرف عنايته إلى بعوث صغيرة وسرايا قليلة الفائدة ، وكان الرجل مسناً قليل الفهم فلم تلبث الثورات أن شبت في كل مكان وخرج كثير من النواحي — التي كانت قد خضعت للفرنسيين — عن طاعتهم فلم يلبث الرجل أن طلب العزل فاجيب إليه وأعقبه Savary Duc de Ravigo . فاشتد على الأمازيغ شدة بلغت به إلى إبادة قائل بأسرها ، مما أحاف كثيراً من النواحي ، ولكنه لم يلبث أن خلفه Voirol فاستطاع بحسن حيلته ومهارته أن يخضع الساحل حتى مستغانم وأنتم الفتح تقريباً . وفي ٢٧ يوليو سنة ١٧٣٤ أرسلت حكومة فرنسا أول حاكم عام فرنسي للجزائر وهو Drouet d'Erlon . وفي تلك الاثناء كانت حركة الأمير عبد القادر في طريقها إلى الظهور والقوة

بالأمر العسير فإن الحكومة أهملته وانصرفت عنه، فمنحت صيد المرجان
إلى شركة فرنسية احتكاراً، وكان في إمكانها صيده والكسب من ورائه
وقس على ذلك ما أصاب موارد الخير الأخرى كالزراعة وتنظيم جمارك
البلاد وما إلى ذلك، وقد كان هذا الفقر سبباً في طائفة شتى مما أصاب
البلاد من الشرور: فهو الذي دفع بها إلى الاستمرار في محاربة الكسب عن
طريق القرصنة وجعل أقالعها عن ذلك أمراً خطراً على مالياتها. فلم
يستطع الحكام الإقلاع عنها على الرغم مما بدا من أخطارها وما تهددت
به سلامة البلاد من التلف والضائع، وكان الفقر أيضاً السبب في إفساد
العلاق بين الجزائر وبين دول أوروبا، فقد كانت هذه الأخيرة تأني
الاعتراف بحكومة الجزائر بصفة الدولة المحترمة، مادام حاكم الجزائر
معتبراً في نظرهم رئيس عصابة من اللصوص لا بدأن تدفع له أتاوة
مالية حتى يكف أداه ويمنع أفراد عصاباته من الدوان والأذى،
فيكانت العلاقات بين الجزائر والدول شاذة لا تشرفها بحال ولا تعطى
فكرة طيبة عنها، وهذا هو السبب الذي جعل الدول ترضى عن عمل
فرنسا وتتركها تفعل بالمغرب ما تريد

أوروبا لا تعترف
بحكومة الجزائر

ثم إن أسلوب الحكم العثماني، في المغرب كان قد انتهى فيه إلى مثل
ما انتهى إليه في عامة البلاد الإسلامية الأخرى: فقد عمل من أول
الأمر على إبعاد أهل البلاد الأصليين عن نواحي الحكم والإدارة
والدفاع، وجعل ذلك قصراً على طوائف الاستكشافية ووجقاتهم،
فانصرف أمل البلاد عن الدولة وبادؤوها وانحطت البلاد وضعف
أمرها تبعاً لذلك كما حدث في مصر حين أبعد المصريون عن الحكومة
وقُـرِرت على الأتراك والمماليك، فانتهى ذلك بضعف البلاد تماماً،
لأن هؤلاء الأتراك لا يقتدرون على الدفاع عن البلاد بنفس القوة
والاخلاص الذي يستطيعه أهلها.

٣ - الحكم العثماني
يعد أمور المغرب

وقد كانت الباب مفتوحاً بين المغرب وأوروبا ، وكانت الصلات بين الجانبين معقودة في ميادين الحرب والسلم على السواء ، فكان في مقدور أهل المغرب أن يسايروا أوروبا ويتفطنوا إلى أسرار تقدمها ويعملوا على الضرب على نهجها والتشبه بها ، وكانت الدول تدفع بعض الاتاة أسلحة وذخائر حديثة الطراز ، فكان في مقدور أهل المغرب الاستفادة من ذلك الاتصال والتعاون . ولكنهم قصرُوا في ذلك وأهملوه وأجهلوه ؛ فلو كان للممالك مصر عذر في قصورهم عن الفرنسيين بسبب انقطاع الصلات بين الجانبين لما كان لأهل المغرب مفر من اللوم على ما جهلوا من تقدم أوروبا واستيلائها في ميادين الأسلحة والحروب .

ولنقل كذلك أن أصحاب الشأن في المغرب لم يكونوا من ذوي - فساد أولى الامر في المغرب -
الرأى أو السكياسة ، على الرغم مما يتفق عليه الكثيرون من وصفهم بالدهاء وحسن الحيلة ، فقد كان خليقاً بالداى حسين أن يجعل علاقته مع الفرنسيين خالصة مباشرة دون الحاجة إلى وساطة البكرى أو غيره ، وكان يستطيع أن يتخذ لنفسه وكيلا في باريس يشرف على تجارة القمح ويحصل له المال ، لأن اطلاق يد هذين اليهوديين كان جديراً أن يدفع بهما إلى الافساد والتضييع . وكان في استطاعة الداى مرة أخرى أن يكون أحسن تصرفاً في علاقته مع فرنسا ، فقد أطلق نفسه مع الغضب إطلافاً خرج به عن مذاهب الرأى والحجى ، فأمعن في الزرارة بها ، ظناً منه أن ذلك جدير بان يرغمها على احترامه وتقديره والنزول على رأيه .

هنا تبدأ قصة الفرنسيين في المغرب ، وهى قصة طويلة مخزنة لا تخلو من وجوه الخير للبلاد وأهلها ، وقد كان هذا مصير المغرب على أى حال مادامت أوروبا تجاوره ويثور في نفسها شعور الصليبيين نحوه بين الحين

والحين ، وما دامت العلاقات بين الجانبين قد ظلت قرونا طويلة لا تتغير ولا تبدل : جهاد دائم وغزو لا ينتهى وحرب لا يخمد اوارها . وقد رأينا كفة المغرب خفيفة حتى في أيام قوته وعلو شأنه ، ورأينا كيانه مهدداً وادارته محتلة وشؤونه فوضى لأمل للخير فيها ، ورأينا السياسة التركية تزيد ضعف البلاد وتثير عليها عدا العالم الاوربي . فكلما عدا الأتراك على المسيحيين في شرق أوروبا تطلعت الدول إلى أخذ الثأر من المغرب ، وبهذا شق المغرب بالاتصال بالمجموعة الاسلامية شقاء عظيماً . وعرفنا أن فرنسا كانت تبنت له هذا المصير منذ حين ، وانها كانت تتربص به الدوائر وترقب الفرصة المواتية ، فلم يكن سقوط الجزائر بالأمر البعيد الاحتمال أو المستغرب ، بل كان نتيجة طبيعية جداً : لها أسبابها القريبة والبعيدة ولها نتائجها البعيدة القريبة كذلك ..

— ٧ —

العراق

قلنا في الصفحة الثالثة من هذا الكتاب « وأصبحت مواقع الخصب فيه — أى في الشرق الأدنى — مقصد سكانه ومتجه آمالهم من فجر التاريخ ، تهب عليها بين الحين والحين زوابع الرياح المهلكة تدفعها الرياح ، وعواصف البدو المخربة يدفعها الفقر » وليس كتاريخ العراق دليلاً على صدق هذه القالة : فتاريخه كله من قديم الزمان حتى نهاية القرن التاسع عشر صراع بين الدول القوية على امتلاك أراضيه ، ومحاولات من القبائل المتبدية للأغارة عليه والاستئثار بخيريه وأرزاقه ، مما جعل ماضيه كله سلسلة طويلة من الحروب والوقائع والغارات ، لا يكاد يخمد أوارها أو يسكن تيارها ، وجعل أراضيه ميداناً سهلاً يتوافد عليه الغزاة من كل ناحية ويقصدونه من كل صوب .

ذلك أن العراق واحة موفورة الأرزاق والثروات في وسط بواد وهضاب يغشاها الفقر وتشح فيها الخيرات ، فأصبحت أراضيها - من فجر التاريخ - متوجه الفرس في الشرق وفريسة بدو العرب في الغرب وقبيلة الأكراد والجر كس والآتراك والأرمن من الشمال ، وقراصنة البحر الهندي وخليج فارس من الجنوب ، ومن هنا كان من الطبيعي أن تتوالى الغارات والغزوات على هذه البلاد بسبب وبغير سبب. وأن نجد أهلها مشغولين في غالب أيامهم بمداغمة الأعداء ومغالبة الفاتحين، حتى لا يكادون يجدون فسحة من الهدوء يعنون فيها بشئون أنفسهم ومراقب بلادهم. فإذا ذكرنا أن العراق بلد زراعي يحتاج إلى الهدوء والاستقرار حتى تزكو ثماره وتورف زروعه وتؤتي خيرها المأمول ، أدركنا أثر ذلك الحال في تاريخه ، وعرفنا السبب في أن الرخاء لم يشمل هذه البلاد إلا في فترات وجيزة جداً ، ولو قد كان كل جيرانه وغزاته قوما متحضرين على شيء من المعرفة بقمة ما يلقون في نواحيه من مظاهر العمران ومعالم الحضارة عند أقبالهم منا أصاب البلاد على أيديهم شر كبير ، فأما وهم في الغالب طغاة جفافة لا يطلبون في العراق غير الغنيمة الوافرة والنهب الشديد فقد كانت نتيجة ذلك حرمان أهل العراق من خيرات بلادهم ؛ وزاد في أثر هذا الوضع الجغرافي على تاريخ العراق أن العناصر التي تجاوره - من كل الجهات - عناصر حرية شديدة لا تكف عن الحرب والغزو والنزاع على أرضه فيما بينها بما لم يدع له فرصة للراحة أبداً .

العراق من الوجهة
الجغرافية

وليس العراق - بمعناه الحديث - وحدة جغرافية متسقة تسودها ظروف جغرافية واحدة ، بل إنه ينقسم بوضوح إلى ثلاثة أقاليم متميزة : إقليم جبلي شمالي في أعالي دجلة والفرات وهضبة كردستان . ثم

اقليم خصيب زراعى فى الوسط ، ثم اقليم جنوبى يختلط فيه الجذب بالخصب وتسوده روح بحرية ، ويتأثر تأثراً ظاهراً ببلاد العرب الواقعة إلى غربه. وهذا التقسيم واضح الاثر فى كل أدوار تاريخ العراق ، فهو الذى قسمه فى القديم الى بابل وأشور وكلدنيا وفى الحديث إلى الموصل والعراق والبصرة ، وهو الذى حال بين أهله وبين تسكوين وحدة متميزة من الناحية السياسية أو الاجتماعية ، وأضعف سكاكه عن مقاومة الفاتحين وجعله فريسة سهلة لمن طلت نواحيه منهم .

تأثر العراق بجوار
إيران

وقد كان تاريخ العراق من قديم الزمان متأثراً بحجراته لا إيران ، لأن شعب إيران دائم النشاط متجدد الجهود لا يسكن له جهد ولا ينقطع له توفز ونهوض ، تتوالى على حكومته الاسرات المجيدة ويأتى تاريخه بالملوك ذوى البأس والاعلام من ذوى العمق والنبوغ . فلم يكن للعراق بد من أن يكون دائم التأثير بما يقوم فى هضاب إيران من مظاهر القوة ومعالم الحضارة ، فلا يكاد يعتلى عرش إيران شاه قادر حتى نجده فى العراق بعد حين ، ولا يكاد يجده فى إيران لون من الحضارة حتى نجده له ظلاً ملحوظاً فى العراق . وأعان على ذلك أن الطبيعة لم ترزق العراق حدوداً حاجزة تحميه شر العزاة والمهاجمين بل جعلته قريب المنال سهل المدرك ، فلا يكاد الإنسان يخلص من هضاب إيران حتى ينحدر انحداراً هيناً سريعاً إلى سهل العراق الخصيب ، ومن هنا ليس بغريب أن نجد العراق نفسه مركزاً للكثير من الدول الفارسية العظيمة ، وأن نجد كثيراً من عواصم إيران القديمة على دجلة مثل كتزون وأسوس وما إليهما ، وأن نجد أراىرايين كانوا يعتبرون العراق جزء من بلادهم فى فترات كثيرة من التاريخ ، وظلوا يرون ذلك حتى غلبهم الأتراك العثمانيون عليه ووضعوا حداً فاصلاً بين العراق وإيران .

يبدأ تأثر العراق بما يليه شرقا من البلاد لا يقل عن تأثره بأيران التي تقع إلى غربه ، فالصلات بين الجزيرة العراقية والشام قديمة ترجع إلى دخولهما معا في دولة السلوقيين التي سبقت الاسلام بقليل . ثم جاء الاسلام فطوى العراق في المجموعة الاسلامية وأضفى عليه لونا ظاهرا من العروبة والاسلام ، إذ أخذت قبائل العرب تهاجر إلى سهول العراق وتعيش فيها البلاد . حتى أصبح العراق بعد قليل من الزمن بلادا عربية صرفة بل مركزا رئيسيا من مراكز السياسة والحضارة الاسلامية ، ومن ذلك الحين بدأ العراق تاريخه المجيد وظل على ذلك ظل الاسلام ، وأخذ في الظهور على مسرح السياسة الاسلامية ليكون قطبا ومركزا في الحضارة والسياسة طوال العصر الوسيط وظل على ذلك حتى انتقلت منه الزعامة إلى مصر في أوائل أيام الحروب الصليبية أي حين انتقل مركز الجبهة الاسلامية من الموصل بشمال العراق إلى مصر بانتقال زعامة السكينة الاسلامية من نور الدين محمود صاحب الموصل إلى صلاح الدين الأيوبي صاحب مصر حوالى منتصف القرن الثاني عشر الميلادي . (أواخر السادس الهجري) .

لهذا نجد العراق حدا فاصلا بين الفرس الآريين في المشرق والعرب الساميين في المغرب : على بساطه يجتمع الجنسان أصحابا حينما وأعداء حينما ، يتعاونان تارة ويحتربان تارة أخرى ، فكان العراق ميدان النزاع بين الفرس والعرب على السيادة والسلطان في الدولة الاسلامية وكانت نواحيه مجال الصراع بين شيعة الفرس وسنية العرب والآتراك ، وقد استمر هذا الصراع بشقيه السياسي والمذهبي زمانا طويلا ، وانتهى باضعاف الفريقين معا ، وظهور عنصر جديد على مسرح السياسة العراقية ، استبد بالامر من دون العرب والفرس معا ، وهو العنصر التركي الذي بدأ يسود العراق . يصرف أموره من أوائل القرن الثالث

العراق حد فاصل
بين الفرس والعرب

الهجرى ، ومن هنا شهد العراق معركة حامية بين العرب والفرس والأتراك ، كان من أولى نتائجها خروج العرب من الميدان في زمن مبكر جدا . وارتدادهم إلى جزيرتهم وعودتهم إلى حال البداوة الأولى والخول الذى أخرجهم الاسلام منه ؛ وظل العنصران الآخران يتنازعا النصر والغلب زمانا طويلا . وقد أيقظ الصراع في فارس روحها وبعث في نفسها الحياة ، فطاولت مطاولة لم يستطعها الأتراك ، فبدأ الفرس يظهر عليهم ويسودونهم — معنويا أولا ثم ماديا — وأعان على ذلك أن الحروب الصليبية شغلت الأتراك من أوائل القرن العاشر الميلادى ، فاستنفذت ميادين الشام وآسيا الصغرى التفاتتهم كله بل انتهت أيامهم في العراق بانتقال زعامة السكتلة الاسلامية من نورالدين آخر ملوك الدولة السلجوقية في الموصل إلى صلاح الدين أول سلاطين الأيوبيين في مصر ، ومن ثم أخذ الفرس يستعيدون قوتهم في العراق شيئا فشيئا ، فمن أوائل القرن العاشر الهجرى كان اسماعيل الصفوى يعمل جادا في انشاء قيصرية إيرانية جديدة تستنقدها من نير المغول الذين أثقلوا عليها زمانا طويلا ، فلم يزل يناجز حتى استطاع أن يتغلب على بابر ملك المغول حوالى سنة ٩١٨ هـ (١٥١٢ م) ، ومن ذلك الحين بدأ تاريخ الدولة الصفوية المجيد ، الذى كان من أول نتائجه عود العراق إلى احضان فارس .

مرارت الشيعة في
العراق

وقد استمر العراق في ظل الفرس بعد ذلك زمانا طويلا ، وأغلب الظن أن هذه الصحبة الطويلة خلفت في نفوس الفرس شعورا خاصا نحو الجزيرة العراقية ، فأصبحوا يحسون أنها جزء من وطنهم الايراني ، وأعان على ذلك أن العراق كان يضم كثيرا من الأماكن الشيعة المقدسة ، ففيه النجف التي تضم قبر على كرم الله وجهه وفيه كربلاء مزار الشيعيين من كل صوب ، وفيه كذلك قبور الكثير من أولياء الشيعة رصالحهم من

أمثال موسى الخادم ومحمد تقي ، وبهذا تطور الاحساس المذهبي شيئاً فشيئاً إلى أن أصبح رأياً سياسياً ، وزاد ذلك الشعور حدة عدااء السنة والشيعة أو عدااء ماغرب العراق لما شرقه ، فأصبح الفرس يرون في السيادة على العراق لونا من التدين والوطنية معا ، وأصبح الاستيلاء عليه قطباً من أقطاب السياسة الفارسية في مختلف الأوقات والأزمان .

الفتح العثماني يبدأ
عصراً حديداً في
العراق

وفي أوائل القرن السادس عشر الميلادي دخل العراق في حوزة الأتراك العثمانيين ، فكان ذلك إيذاناً ببدء عهد جديد في تاريخه ، لأن سلطان الأتراك السنيين في العراق كان كفيلاً بأن يبعد عنه التأثير الفارسي الشيعي إلى حين ، وأن يقيم فيه منار السنة من جديد . بل إن سليمان القانوني كان يشعر بأن فتحه العراق فيه شيء من الجهاد الديني لأن فيه انصافاً للسنة ، ولهذا عنى أشد العناية بأن يجدد قبر أبي حنيفة النعمان — وإن لم ييخل بالعناية على مراكر الشيعة في النجف وكر بلاه وغيرهما — وكذلك كان السنيون من عرب العراق يشعرون بهذا ، ويعتبرون الفاتح التركي مخلصاً لهم من فساد شيخ القبائل العربية — الذي كان يحكم البصرة خاضعاً خضوعاً ظاهرياً للشاه — فأرسل ابنه راشد بمفاتيح البلد وبعث معه رسائل فياضة بالولاء إلى السلطان^(١) وبهذا بدأت السفينة تتنفس من جديد بعد أن طال سكونها ونحوها طوال الحقب التي كانت السيادة فيها للفرس الشيعيين .

العراق في حكم
الأتراك

بيد أن العراق في ظل الأتراك العثمانيين لم يكن أسعد حظاً مما كان في ظل الفرس الصفويين ، إذ لم يلبث أهلها أن نظروا بعين السخط إلى هؤلاء الأتراك الذين كانوا يرسلون اليهم كل عام خصياً أو عبداً ويأخذونهم

(1) Stephen Hemsley Longrigg; « Four centuries of Modern Iraq (oxford, 1925) P. 25 »

بطاعته على الحق والباطل معا ، ولم يكد الاتراك يبدون الحكم بنظامهم المعروف حتى بدأت النفوس تتغير » وأظهرت العلاقات المتبادلة الفرق العظيم بين عقلية الجنسيتين أى - العرب والترك - : لأن العرب - بماضيهم الطويل في حياة الصحراء وقلة صبرهم وكثرة تحولاتهم - أصعب الشعوب حكما ، ولم تكن العقلية التركية - التي لا تتخيل وتعوزها المرونة - لتطيق منهم هذا العنف ، بل كان مجرد ظهور الأغا التركي في العراق - بطبيعته ولغته التركيتين - أمرا غريبا غير مألوف في نظر العرب وسميهم^(١) ولا حاجة بنا إلا الإشارة إلى مساوىء الحكم التركي التي سبق بيانها والتي لازمتها في كل زمان ومكان . لأن أحوال العراق الخاصة كانت كفيلة وحدها بأن تجعل الحاكم والمحكوم على طرفي نقيض ، وأن توجب الخلاف بين الفريقين وتملأ النفوس بأسباب الخصومة والكراهية من الجانبين ، ذلك أن العراق يضم عددا عظيما من غلاة الشيعة فاسخطهم تشجيع القبائل العربية السنية وإقبالها إلى أطراف البلاد وبدؤها الاستقرار فيها ، وعرفوا أن هذه القبائل لا تقبل إلا في رعاية السلطان التركي السني فزاد سخطهم عليه وانطوت نفوسهم على اللدد والام ، وكذلك كان الاتراك لا يشعرون نحو هذه البلاد بمودة ولا بحب ، لأن الذين كانوا يرسلون منهم للحكم في العراق كانوا يعتبرون ذلك نفيًا وعقوبة ، لبعد العراق عن مركز الخلافة من ناحية ولبرودة شماله وحر جنوبه ووعورة مسالكه وانتشار الاوبئة فيه من ناحية أخرى ، ثم لصعوبة حكمه بعد ذلك ، إذ كان جل سكانه قبائل يصعب قيادها ويصعب ردها إلى الطاعة لسكثرة تنقلها ومحافظتها على النظم القبلية التي تغل يد الحاكم عن السيطرة على البلاد .

وزاد الحكم العثماني بلاء أن الفرس والترك كلاهما جعللا الاستيلاء على العراق رمزا لسيادتهما وتفوقهما ، فجعللا يحتربان عليه

تنامس الفرس
والأتراك على
العراق

ويتنافسان على أرضه بشتى الأساليب حتى « كانت الظاهرة السائدة لهذا القرن (السادس عشر) هي العداوة - التي كادت أن لا تهدأ - بين الامبراطورية العثمانية وفارس ، وهي حالة أثرت في أهل العراق وحامياته تأثيراً يصعب تقديره ، فإذا كانت قد أثرت في زيادة تيار الحجاج إلى المزارات وفي تنشيط التجارة المتبادلة مع أصفهان وتبريز من جهة فقد استدعت كذلك تدفق الانكشارية ورجال الاقطاع ليشتركوا في الحروب في الشمال من جهة أخرى ، فكان الطلب يشتد على الحبوب وسواتم الحمل ، وأصبح الرعب من هجمة تكون على أسوار المدينة ، ومن وثوب أمراء الاكراد الضعاف ، واستقبال سفير فارسي في طريقه إلى البوسفور أصبحت هذه كلها من الاحداث العادية في العراق في تلك الأيام » (١) وأصبحت البلاد معرضة بين الحين والحين للقتال بين الفرس والترک وما يسببه ذلك من الخسائر في المدن والمزارع وموارد الرزق . لأن الفرس لم يكفوا عن أن يروعوا البلاد وأهلها بغزواتهم وغاراتهم السريعة ، ينهبون فيها ويأسرون في غير رحمة ولا هوادة ، فإذا اضفنا إلى ذلك إهمال الحكم العثماني لإصلاح ما عسى أن يتلف من مرافق البلاد وعيون خيرها بهذه الخصومة الثائرة ولتصورنا كيف أصبح العراق ضحية لمطامع السلاطين واهواء الشاهات ، وكيف اضمحل أمره ، وتحولت هذه البلاد - التي كانت درة القيصريّة الاسلاميّة في أوجها - إلى قفار يباب يعشش الفقر في أنحائها ويسودها الجوع وتفتك بها الأمراض والأوبئة من كل صنف ولون .

طهور البرتغاليون
في الخليج الفارسي

وشهد القرن السادس عشر قوة جديدة تستأذن لتظهر على مسرح السياسة العراقية ، قوة ليست إسلامية ولا شرقية ، وإنما هي طليعة أوروبا الناهضة التي بدأت تسير أشرعتها في بحار الهند وتنشر أعلامها في مياهها تمهيداً للسيادة على أراضيها بعد ذلك . كان البرتغاليون قد

وصلوا الهند في أوائل القرن السادس عشر، ثم جذبتهم مصائد اللؤلؤ ومتاجر العراق وفارس فتقدموا في الخليج الفارسي صعوداً حتى أدركوا جزائر البحرين وأسسوا قلعة حصينه عند هرمز سنة ١٥٠٧ ، ثم أخذ تجار البندقية وجنوه يخترقون العراق إلى الشمال ، ومن ثم يعرجون إلى الشام ، فكانوا بذلك أول من رسم هذا الطريق الجديد إلى الهند ، الذي سيصبح مدار السياسة الدولية في العراق بعد قليل من الزمان .

الصراع بين العرب
والبرتغاليين

وكان تجار العرب يسودون بحار الهند وخليج فارس حتى ذلك الحين ، وكانت مياه هذا الخليج في طاعة السلطان العثماني اسماً ، ولهذا لم يلبث الترك أن أنكروا على البرتغاليين هذا التدخل ونهضوا لرد عاديتهم لأن البرتغاليين لم يكتفوا بقلعة هرمز بل أخذ رائدهم البوكر ك Albuquerque ينشئ سلسلة من المراكز التجارية على شاطئ خليج فارس . ولكن الصراع لم يبدأ بين الجانبين إلا بعد أن استولى الأتراك على مصر ونزلت سفنهم البحر الأحمر واتجهت إلى الخليج الفارسي ، فروعها ما وجدت من مؤسسات البرتغاليين ودأبهم على نشر سلطانهم في هذه النواحي ، ولم تلبث الحرب أن نشبت بين الفريقين على أثر اعتداء بعض البرتغاليين على بعض قرى العراق الواقعة على جانبي شط العرب واستنجدوا حاكم القطيف بالأتراك ، فعجل القبطان التركي مراد بك بانجاده ، ولكنه لم يلبث أن ارتد إلى البصرة منهزماً ، واستمر العداء بين الجانبين متصلاً ، وكان بديهياً أن يكتسب النصر في هذه المعركة للبرتغاليين لتفوقهم على الترك والمسلمين عامة في شؤون البحار ، فانهزم قباطنة الترك واحداً بعد واحد : ارتد بيرى بك ومراد بك وعلى شلبي بالهزيمة تباعاً ، وحاول الأتراك أن يقضوا على مراكز البرتغاليين في البر فلم يوفقوا كذلك ، لأن أمراء الولايات المحيطة بخليج فارس كانوا يجنون من تجارة البرتغال ربحاً طيباً ، وكان لا يرضيهم أن

الأتراك يظهرون
العرب

الامارات العربية
تظاهر البرتغاليين

انتصار البرتغاليين

ينقطع عنهم هذا الرزق فظاهروا البرتغاليين على الأتراك ، بما انتهى بانسحاب هؤلاء من مياه خليج فارس وتركهم البرتغاليين يسودونه وينشرون ألويتهم فيه . وتلك خطوة عظيمة الخطر والأهمية على بساطة ظاهرها ويسر حدوثها فانها اليوم انتصار بسيط ، وفوز بتجارة قليلة من الحرير واللؤلؤ في خليج فارس ، ولكنها في الغد حصر لأمم الشرق واقفال لسبيل البحر في وجهها ، فهي على بساطتها نذير بسيادة الغرب على بحار الشرق وايدان بما سيكون لهذه السيادة البحرية من الأثر الحاسم في مستقبل الشعوب الشرقية ، وهو أثر يفوق التفوق البري بكثير .

نظام الحكم العثماني
في العراق

لم يبذل الأتراك جهداً خاصاً في تنظيم أمور العراق تنظيمًا يتفق وأحواله الخاصة ، ولم يلتفتوا إلى أحواله الزراعية ويتعهدوها بالرعاية والاصلاح ، بل انصرفوا إلى إرهاب البلاد بالمغارم والجبايات ، وشغلهم كيد الفرس عن كيد البرتغاليين ، فضضت حكومة البلاد على عواهنها . وكانت الحالة المعنوية والفكرية قد انحطت في هذه البلاد منذ أمد بعيد ، فلم يعد للفن أو الأدب فيها ذكر — وهي من قبل منار العلوم والفنون والحضارة بل زهرة الحضارة المشرقية — فلم يعد العلم تحفيظ القرآن ، وندر الكتاتيب أو انعموا ، وتهدمت عمائر بغداد واجتاحتها الغارات والفيضانات والأوبئة حتى أصبحت مرا كز العلم والفن والثقافة اطلالا عافية ورسوما جافية .

ولاية الترك

لم يكن الباشا مطلق السلطان في شئون البلاد ، بل كان عليه رقباء من قبل السلطان — كما هي العادة — ورقباء من أهل البلاد ، فكانت يده مغلوطة في رقابة هذين ، إذ كان قاضى القضاة الملعين من قبل السلطان يراقبه ولا يعفيه من اللوم إذا جنح للعصيان ، وكان الدفتردار وأعوانه

يشرفون على أموال البلاد ويقدمون حسابهم في القسطنطينية ، وكان للرعية أن تشكو للسلطان رأساً ما يسيئها من حاكمها ، وكان على الباشا أن يجمع مجلس أعيان البلاد بين الحين والحين ، وكان للسلطان إلى ذلك مندوبون من لدنه يشرفون على راحه التجار وأمنهم في البصرة وحلب وغيرهما من العواصم ، وازاء هذا كله أخذ سلطان الولاية الرسميين في الضعف شيئاً فشيئاً وانتقلت من أيديهم القوة إلى الانكشارية مع الأيام . لأن هؤلاء الآخرين كانوا أداة التنفيذ التي لا يستغنى عنها صاحب السلطان سواء أكان الوالي أم سواء ، فكانوا يد صاحب السلطة في مختلف الحالات والتارات ، ومن هنا كان شعورهم بقوتهم وسعيهم للاستئثار بالسلطة وتصريف الأمور على ما يهوى ، وأعانهم على ذلك ميل الدولة إلى تبديل الحكام واستعدادها لقبول وشايات (صغار الجند والموظفين . وبهذا سادت البلاد شرذمة من المتبطلين الجاهلين وساء أمر العراق بين جشع الباشا إلى الغنى وجنوح الانكشارية للاستبداد والطغيان .

وكان نظام الاقطاع العثماني سارياً في العراق ، أى ان السلطان كان يمنح أجزاء من أرضه أقطاعات خاصة لأصفيائه على أن يؤدوا له نظير ذلك خدمات حربية وقت الازوم . وقد كان في هذا النظام فائدة نسبية للسلطان وان لم يكن فيها شئ من الخير للبلاد المقطعة ، لأنها كانت تجعل من الحاكم العثماني العام مشرفاً على أصحاب الاقطاعات أى على موردى الجند ، فكان معظم اجتهاده إلى الاكثار من الجند الذين يرسلون من ولايته إلى الميادين التي يحارب فيها السلطان ، في هذه الناحية كان الحاكم يوجه جهده ويبدل فيه وسعه وينسى كل ماعداه من مصالح

طام الاقطاع
في العراق

الولاية . ولم يكن السلطان يطلب اليه أكثر من ذلك أول الأمر لحاجته المستمرة للجند لكثرة الحروب والفتوح . ولكن الحال لم يدم على ذلك طويلا إذ أخذ أصحاب الاقطاعات يقصرون في تقديم الجنود لأن السلطان لم يعد يهب الاقطاعات للقادرين من رجاله بل للمحبين اليه وأصحاب لهوه ويجونه وشرا به منهم ، وأزاء هذا أخذ الوالي يهمل هذا الواجب ، واكتفى بالاهتمام بجمع المال للسلطان . وكلما ضعفت السلطة المركزية كلما حنح الولاة إلى الوثوب والاستقلال وأعانهم على ذلك بعد العراق عن الدولة وتفاعس السلاطين عن الحروب ، ايثارهم العافية ، وبهذا تحول الباشا العثماني بعد قليل إلى حاكم مستقل في الواقع لا تربطه بسلطانه إلا أوهى الصلات والأسباب

وكان وجود إيران إلى جانب العراق مغريا للباشاوات على الثورة فارس تفسد ولاه الترك والخروج على السلطان . لأن صدر الشاه كان مفتوحا دائما يرحب بكل خارج على السلطان ، ومن هنا كثر خروج الباشاوات في العراق ، وجنوحهم للخصيان : فليح هذا بوضوح في وثوب بكر الصوباشي واستدعائه الفرس لعونه على السلطان في أوائل القرن السابع عشر ، ولو لم يكن السلطان مراد الرابع قد خف للفضاء على بكر وثورته لخرج العراق عن يد السلاطين جملة من ذلك الحين . بيد أننا نلاحظ أن أحوال البلاد مالت إلى الهدوء والاستقرار بعض الشيء بعد أن استعادها مراد في الأشهر الأخيرة من سنة ١٦٣٨ والشهرين الأولين من سنة ١٦٣٩ م ، فقد كانت حملة مراد بعيدة الأثر في نفوس الفرس لما أبداه السلطان وجنوده فيها من الاخلاص والقدرة والقوة ، فكيف الشاهات عن مساعدتهم في العراق وأخذ الباشاوات يتعاقبون عليه يتلو بعضهم بعضا ، يحرون على « روتين » لا يمود على البلاد أو أهلها منه خير قليل أو كثير .

في ظل هذا الهدوء النسبي أخذ سكان البلاد ينتظمون ويستقرون، وجعلت القبائل تتحرك إلى مواضعها التي ستمتد عليها إلى القرن التاسع عشر، فظهرت قبائل جديدة في بعض المواضع وغلبت قبائل أخرى غيرها على مواضع جديدة، وأخذ كل يستقر في مركزه الجديد ويستمسك به، وبهذا بدأ استقرار الناس وتركزهم في مواضعهم بعد طول ترحل، وهذا الاستقرار هو الأساس الذي كان لابد منه حتى تبدأ البلاد في النهوض الصحيح، لأن تقلب الناس على المواضع وعدم استقرارهم في مكان بعينه كفيلا بأن يمنعهم من العمل الثابت المنتج وخلق بأن يحرم البلاد الجهد الصالح. بل أخذت القبائل الصغيرة تتقارب لتتحد وتكون وحدات كبيرة في أواخر هذا القرن استقرت قبيلة شعب في عربستان بعد أن بارحت منازلها الأولى في قبان، وأخذت في مستقرها الجديد تزاوّل زراعة الأرز وتستصلح ما أمكنها من الأرض. واستقر بنو مالك والأجواد وبنو سعيد وأخذت صروف الأيام تعصف بهم نحو الحرب تارة والأمان تارة أخرى حتى ائتلفوا آخر الأمر بعد حوادث طويلة تحت راية آل شبيب، وسادوا أقاليم العراق الأدنى وأهله باسم المنتفق، وفي هذا القرن أيضا أقبل بنو شمر من نجد يقودهم شيخهم فارس، وما زالوا في مدافعة أعدائهم حتى استقر لهم الأمر في النهاية على غرب العراق من أعلاه إلى حدود الجزيرة، وفي هذه السنوات تم استقرار بنو لام في أواسط دجلة فأصبحوا من ذلك الحين حاجزا بين العراق وبين آل لورستان واستقروا في تلك النواحي زمانا طويلا. ولم يحدث ذلك في الشرق والغرب فقط بل إلى تلك الفترة ترجع أوليات أسرة البابان المعروفة في شمال العراق، وكان أصلهم أكرادا وأخذوا يمتدون رويدا من كويسنجق إلى إقليم شهربازار حتى غزوا إقليم أردلان في أواخر القرن السابع عشر،

بدء استقرار القبائل
في العراق

آل شبيب المنتفق
شمر

بنو لام

البابان

وشجعهم السلطان على ذلك وأقر أميرهم سليمان بك في ولاية كركوك
فجعل عاصمته من ذلك الحين في قره جولان

الولاية

أخذ الباشاوات يتلو بعضهم بعضاً دون أن يكون لذلك أثر ظاهر
في شئون البلاد أو رأى في اصلاحها، وإن غلب على أكثرهم التقى
والميل للخير، ولكننا نلاحظ انهم كانوا يقلون في الاقتدار والفضيلة
شيئاً فشيئاً بحيث نجد كل باشا جديد أقل من القديم قدرة وخلقا، فبعد
حسن باشا الصغير وقرة مصطفى ومرضى وغيرهم بدأت دلائل
الضعف تظهر في حكم محمد باشا الأبيض وعمر باشا الذي لم يفعل أكثر
من تعمير بعض الأضرحة، وهكذا حتى نصل إلى المجاعة في عهد حسن
باشا، فلا غرو أن أخذت أحوال البلاد تسوء ونواحيها تتفرق من جديد
فاستقل شمال العراق أوكد، وخرجت البصرة عن طاعة الباشاوات
ونشطت الدعاية الفارسية، فأخذ خلاف الشيعة والسنة يظهر من جديد
وبدا بوضوح أن الصراع بين فارس وتركيا على أرض العراق عائد
بغير ريب ليقضى على الآثار القليلة التي نتجت عن فترة الاستقرار
القصيرة الماضية

طلّاع الأوروبيين
تدخل العراق

في تلك الأثناء كانت طلائع الأوروبيين قد تشجعت وأخذت
ترتاد العراق بعد أن انفتح بابه على مصراعيه من خليج فارس ومن
ناحية الشام، فأخذ السائحون يرتادون نواحيه ويردون على البصرة
وبغداد، وتحدثنا النصوص عن سائحين فرنسيين أقبلوا على العراق
من سنة ١٦٤٩ م، بل تشجع البرتغاليون فدخل بغداد راهب من
رهبانهم اليسوعيين سنة ١٦٦٦، وأنشأ الفرنسيون كنيسة فيها في
سنة ١٦٤٨، واستقر تجار بنادقة وجنويون في بغداد والبصرة لتنظيم
التجارة، وبذلك بدأت بغداد تتصل بالعالم من جديد فعرفها العالم
الحديث، ووصفها السائح الفرنسي تافرينيه بقوله: «حامية المدينة مكونة

بغداد كما يصفها
تافرينيه

من ثلاثمائة انكشارى يقودهم أغا، ويحكم المدينة باشامن طبقة الوزراء عادة ، وداره على شاطئ النهر ذات مظهر جميل . وتحت تصرفه على الدوام ستمائة أو سبعمائة فارس ولهم - أى للباشوات - علاوة على ذلك طائفة أخرى من الفرسان يسمون الجنجوا ليلي أى الشجيمان يقودهم أغوان . ويوجد منهم عادة حوالى الآلاف الثلاثة فى المدينة ومايحيط بها ، ومفاتيح أبواب البلد ومفتاح القنطرة فى عهدة أغا آحر تحت يده نحو مائتى انكشارى ، وهناك أيضا ستمائة من المشاة يقودهم أعا آخر وحوالى ستون مدفعا كان يقودهم إذ ذاك (سنة ١٦١٢) رجل مختص يسمونه السنيور ميخائيل ، أصله من مواليد كندى ثم أصبح تركيا، وكان قد وضع نفسه فى خدمة السلطان حين حاصر بغداد سنة ١٦٣٨ ...، أما حكومة بغداد المدينة فلا يقوم بها غير قاض يقوم بكل شئ ، وربما قام بمهمة المفتى يساعده شيخ الاسلام أو الدفتردار الذى يجمع أموال السلطان ، وفى المدينة مساجد خمسة منها اثنان حسنا البناء تزينهما قباب مغطاة بالقاشانى المدهون بمختلف الألوان . والمدينة كذلك عشرة فنادق سيئة البناء على الجملة ، عدا اثنين يجد النازل فيهما بعض الراحة ، والمدينة على العموم سيئة البناء ، وليس من جميل بها خلا الاسواق وجميعها مسقوف ، وبغير ذلك ما كان التجار ليتحملوا الحرارة — ولا بد كذلك من أن ترطب شوارع هذه الاسواق بالغسل بالماء ثلاث أو أربع مرات فى اليوم — وقد خصص لهذا نفر من الفقراء تدفع الخزانة العامة أجورهم . والمدينة مלאى بالتجارة ، والسكنى ليست كما كانت فى يد ملك فارس ، لأن التركي حين استولى عليها قتل معظم سراة التجار ، ثم ان المدينة ملئت من الناس من شتى الجهات ، ولست أدري إن كان ذلك للتجارة أو لشئون العبادة . . . وعلى هذا فلا مفر لكل من يريد الذهاب إلى مكة بطريق البر من

أن يمر ببغداد حيث يضطر كل حاج إلى دفع قروش أربعة للبasha (١) وهو وصف لعل الخطيب البغدادي كان ينكره أشد الإنكار لو شأت الأيام أن تريه بغداده العزيزة بعد أن مال بها الزمان واتبها غواشي الحدثان ، وليلاحظ القارئ انتباه السائح الفرنسي إلى قوة المدينة الحربية ، وتدقيقه في تقدير جندها وأسوارها وحاميتها ، مما يدل على أنه لم يكن مجرد سائح تسيل به الأباطح وتلقى به النوى في حيث تريد ، وإنما كان يسبر قوة البلاد ودرجة مقاومتها ، وقد لاحظ القارئ كذلك اهتمامه بتجارة البلد ومواردها وأسواقها ، مما يدل على أنه كان مهتماً بذلك بل ربما كانت التجارة همه الأول .

وكان شمال العراق وجنوبه قد استقلا عن بغداد أوكادا ، فأما الشمال الموصل - فقد أخذت العلاقات بينه وبين بغداد تضعف من أوائل القرن السابع عشر حتى انتهت إلى الانقطاع في أواخره ، فكان والى الموصل في كركوك لا يتصل بالوالى في بغداد إلا فيما ندر ، وأخذت قبائل الشمال تنتقل إلى المواضع التي ستستقر فيها آخر الأمر . وكانت ولاية الموصل فقيرة لقلة الخير واضطراب الأحوال فيها ، لكثرة نزاع الأجناس في نواحيها ، فأخذت متاجرها وصادراتها إلى ديار بكر وحلب تقل شيئاً فشيئاً حتى انعدم تصدير الحرير الموصلى المعروف (الموسلين) ، وتهددت الولاية غارات اليزيدية من سنجار وغارات الأكراد من التلال ، وغارات الجراد ونوازل البدو من كل صوب ، وأعان على ذلك ضعف الباشاوات الذين ولوا شئونهم خلال القرن السابع عشر وجلهم من رتبة الميرمران ، بيد أن أهل الولاية كانوا على جانب من القدرة مكنهم من شغل مركز الباشوية في مناسبات عدة ، فشغلها منهم محمد

(1) J, B, Tavernier; The six voyages of Tavernier
(الترجمة الانجليزية : لندن ١٦٧٨) ص ٨٦ . وقد قام تافرنير بحملاته الست في العراق بين
سنى ١٦٦٨ ، ١٦٦٣

أمين والزيني باشا سنة ١٩٧٤ وقادون على سنة ١٦٨٣ ، وكانت النواحي التي تلى الموصل شمالا وغربا نهبا لنزاع الشيعيين والسنيين ولغارات القبائل المتبدية . وإلى شمال ذلك تقوم عمادية وهي مدينة متوسطة البناء . مستقلة بعض الاستقلال ، وقد مكن لها وقوعها على طريق التجارة من بعض الجاه ، ومثلها في ذلك كويستجق وغيرهما من مدن الشمال ، التي كانت تقوم شبه حاجز بين العراق وفارس وبينه وبين كردستان وما يليها من القبائل المتبدية في الشمال .

وأما الجنوب — البصرة — فقد كانت الأحوال جديرة فيه بأن تتجه اتجاهها فريدا ، لأن قرب البصرة من بلاد العرب وكثرة إقبال هؤلاء اليها جعل الميول فيها تتجه وجهة عدائية للأتراك . وكان موقع الایلة على البحر جديراً بأن يجعل أهلها أرفه حالا وأبعد عن الحضيض الذي هو ي اليه شمال العراق ووسطه ، وكان بعدها عن الدولة كفيلا كذلك بأن يزهّد الأتراك في الإصرار على امتلاكها ، ومن ثم أخذت المدينة طريقها الى حال قريبة من الاستقلال بزعامه أمير من سرة البلاد هو إفراسياب الذي اشترى حرية ولايته بالمال ، وأصبح مطلق اليد يفعل ما يريد . ولولم يفعل إفراسياب ذلك لخرجت الولاية عن سلطة الأتراك عن سبيل أخرى ، لأن العداء كان مستحكما بين أهل البلاد من العرب والحامية التركية ، إذ أن أحدهما ما كان يطبق للآخر صعبة ولا طاعة (١) وكان إفراسياب من أصل عربي ، وله عند أهل البلاد مقام ، فاستطاع أن يجمع جندا يعز بهم ، ولكنه ظل بعد استقلاله يحفظ للسلطان خضوعا ظاهرياً ، فأبقى له الخطبة وبعث اليه بالطاعة ، وأخذ يمد لواءه شيئا فشيئا حتى أصبحت نواحي شط العرب كلها داخلة في زمامه .

وكانت الأحوال قد تغيرت تغيراً ظاهراً في خليج فارس خلال

انفصال البصرة

إفراسياب

بدم اضمحلال
وود البر تعالي في
حاجج فارس

القرن السادس عشر : إذ كان سلطان البرتغال الذى تتبعنا نموه قد أخذ فى الاضمحلال ، لأن البرتغال نفسها دخلت فى طاعة الأسبان حوالى ستين عاما ابتداء من أواخر القرن السادس عشر ، وكانت قسوة رجالها على أهل خليج فارس وجزائره قد أثارت عليهم سخط الأهاليين وجعلتهم يتربصون بهم الدوائر ، فلم يكادوا يلحون اضطراب قواهم وقلة ما يصلهم من الامدادات من بلادهم حتى صار حوا سفن البرتغال بالعداء ، وأغلق كثير منهم موانيه فى وجوها ، وأخذوا يمنعون عن البرتغاليين متاجرهم مما أثر فى تجارتهم تأثيراً ظاهراً .

وكانت أنظار الدول الأوروبية الأخرى قد اتجهت نحو الخليج ، فأرسل الانجليز بعض بحارتهم من أمثال الدردرد Eldred ونيوبرى Newbrry وفتش Nitch ليستطلعوا أحوال الخليج والجزيرة العراقية ، ولم تلبث شركة الهند أن أرسلت رسلها يجوسون الشواطىء ويسبرون أغوار المياه ، وكذلك فعل الهولنديون بعد حين ؛ ولنصف إلى ذلك أن ملوك فارس كانوا ساخطين على البرتغاليين ، فمسا زالوا يناجزونهم حتى أخرجوهم من جزائر البحرين فى أول القرن السابع عشر ، ثم أخذوا يعدون العدة لاختراجهم من هرمز ، فعجّل البرتغاليون باحتلال الميناء الجديد الذى كان الفرس قد أنشأوه بعد خروج هرمز من يدهم وهو بندر عباس ، ولكن سلطانهم على بندر عباس لم يدم طويلاً ، إذ استطاع الفرس سنة ١٦١٤ أن يحلوا البرتغاليين عنه ويستردوه . (١)

هنالك عجل الانجليز ليهتزو الفرصة والبرتغاليون فى ضعفهم من أمرهم لا يملكون لهم دعماً ، فأرسلت شركة الهند الشرقية سفينتها المسماة « جيمس » فألقت مراسيها فى يَشْكُ وأخذت تحاول الدخول فى سوق الحرير ، وبدأ مندوبوها يراسون الشاه للحصول منه على احتكار هذه التجارة ، وانتهى الأمر بينهما فى حدود سنة ١٦٧٠ إلى اتفاق

الانجليز يدخلون الخليج

الهولنديون

الحرب بين الانجليز والبرتغاليين

جعل تجارة الحرير بيد الانجليز وغصبها من البرتغال ، ومن ذلك الحين بدأت أهمية يشك في الظهور حتى كادت تأخذ مكانة هرمز . ثم أخذ الانجليز يعدون العدة لمهاجموا معاقل التجارة البرتغالية ، فهاجموا القشيم ثم أخذوا يستعدون لمهاجمة هرمز نفسها من أوائل سنة ١٦٢٢ ، وهاجمت البلد حامية فارسية فاحتلتها ، وأخذت تهاجم حصنها فامتنع عليها . وكان الهولنديون قد أقبلوا إذذاك وأنشأوا لأنفسهم مصنعا في هرمز ، وجعلوا مركز أعمالهم في مسقط ، فما كادوا يجدون الانجليز والفرس يهاجمون البرتغاليين حتى سارعوا يدلون دلوهم ، فاشتركوا مع الحليفيين في مهاجمة البرتغال واستمر القتال حول هذا المعقل زمنا طويلا خسر المتحاربون خسارة جمة بسبب ذلك .

فارس تحاول الاستيلاء
على البصرة

يبدأ أن زوال سلطان البرتغاليين وعودة سلطان فارس على الخليج لم يكن خيرا للبصرة ، إذ تطلعت أنظار الشاه إلى هذا البلد الذي يؤثر في تجارة بندر عباس تأثيرا ظاهرا ، وكان إفراسياب إلى ذلك يصادق البرتغاليين ويأويهم ويعلن الطاعة لسلطان الاستانة ، فكان ذلك سببا كافيا يبرر القضاء عليه في نظر الشاه ، ومن ثم أصدر هذا أوامره إلى والي شيراز بمهاجمة البصرة وإرغام أميرها على خلع طاعة الخليفة والدخول في طاعة الشاه ، وأن يجعل الخطبة باسمه ويسك عملته برسمه ، فأبى إفراسياب أن يجيب الشاه إلى شيء من ذلك ، ومن ثم أرسلت حملة لتأديبه . فاستنجد إفراسياب بالبرتغاليين فأنجدوه بسفنهم ، وبهذا تمكن من أن يرد الفرس عن قبان بعد أن سقطت في يدهم ششتر ، وفي تلك الأثناء توفي إفراسياب الكبير وخلفه على البصرة ابنه علي باشا . فبدأ يستعد لمقاومة الهجوم الفارسي المنتظر ، ويبدو أن طول عهد آل إفراسياب بحكم البلاد كان قد أنشأ بينهم وبين الأهالي صلة ووداء ، فأسرع أهل البصرة وأحاديثها لنجدة علي باشا ، ومد البرتغاليون يد العون ، وتقدم علي باشا بقواته إلى القصورنه وعسكر فيها ، وجعل يترقب أعداءه لينعهم من العبور ،

ولكن الانتظار لم يطل به حتى فوجيء بأمر غريب وهو ارتداد الفرس على أعقابهم وانسحابهم من الميدان قبل أن تطلق رصاصة واحدة . وبهذا تنفست البصرة وأميرها الصعداء ، أن كتبت لها النجاة من هذه الغزوة التي تهددتها بكل أذى . وقد كان لهذا الانتصار الهين أجمل الوقع عند الدولة العثمانية ورجالها ، ففسار عوا إلى منح على باشا رتبة الباشوية وخلع عليه السلطان الخلع في سنة ١٦٢٥ ، ومن ذلك الحين أخذت البصرة طريقها إلى القوة والازدهار حتى أصبح بلاط أميرها يضارع بلاط الرشيد في سالف الأزمان (١) . ولم تبخل الأيام بشاعر يتغنى هذا العز الوارف الطارىء ، فأرسلت الشيخ عبد العلى الرحمة يرسل الشعر فيما يبصر ويسمع ، ويضيف إلى عقد الأدب العربي بضعة حبات من الخرز الرخيص .

الانجليز والهولنديون
يرثون البرتغاليين

أما في الخليج فقد تقاسم الهولنديون والانجليز تراث البرتغاليين ، وشاطرهم في ذلك تجار عمان ، ولم يشترك الفرس والترك معهم لأنهم لم يسهموا في تجارة البحر بنصيب . وحاول البرتغاليون أن يتحصنوا في مسقط عاصمة عمان ، وأن يعدوا هناك عدة صالحة لاستعادة هرمز ، ولكن الفرس عجلوا بالاستئجاد بالانجليز للقضاء عليهم وإخراجهم من مسقط ، ومن ثم تضعضعت قوتهم من جديد فسقط معقلهم صحرار في يد حامية عمانية حوالى سنة ١٦٤٣ ، وسلمت مسقط نفسها بعد ذلك بقليل ، واستمر البرتغاليون يقاومون بعد ذلك زمنا طويلا ولكن الفرس والانجليز والعثمانيين لم يكفوا عن مهاجمتهم للقضاء عليهم ، مما انتهى بهم إلى الانسحاب من خليج فارس تماما في ختام القرن السابع عشر .

شركة الهند

وكان طبيعياً أن يشتد ساعد شركة الهند في خليج فارس بعد انسحاب البرتغال ، فأنشأت مصنعا في بندر عباس وفرعين له في شيراز

وأصفهان وسيطرت على تجارة الحرير ، وقاسمهما الهولنديون هذا
الربح ، وكانوا أمهر من البرتغاليين وأكيس ، فسهل عليهم كسب ود
الشاه ، وبهذا حصلوا منه على امتيازات جديدة ، فأثار ذلك مخاوف
الانجليز وحسد ، وبدأت العلاقات تفتر بينهما إن لم تنتج وجهه
عدائية ، واستمر نجم الهولنديين في صعود طوال القرن السابع عشر .

الصره حلال القرن
الساح عشر

لهذه الأسباب كلها لم تتأثر البصرة بما حدث في بغداد أثناء ذلك ،
فلم يدخلها الفرس كما دخلوا بغداد ولم تتأثر بتجديد قانون الامتيازات
الذي منحه السلطان سنة ١٦٦١ ، واستمرت تحكم أقاليمها بسلطان ظاهر ،
وتصدر من متاجرها ، وتتخذ من السياسات ما يكفل لها السلامة من أذى
الفرس أو البرتغاليين أو الانجليز أو الهولنديين . ولكن طول الحكم بطر علياً
باشا فيما يظهر فمال إلى شئ من العسف في معاملة رعاياه ؛ على هذا يدل استنجد
نفر من تجار البصرة بحكومة بغداد حوالى منتصف ذلك القرن ، وكانت أسرة
افراسياب لا تستند إلى سند قوى من اعراب الايالة ، وكان شيوخ القبائل
يرون فيها وليدة الظروف ، ويحسدونها لما أدركت من الثروة والسلطان ،
فجعلت نفوسهم تحذهم بخلع طاعتها ، ومن ثم اتجهت همة الباشاوات
في بغداد إلى استردادها ، فوجه اليها موسى باشا حملة صغيرة حوالى
منتصف القرن السابع عشر ؛ ولكن المدينة استمرت مزدهرة رغم
ذلك إلى أواخر ذلك القرن ، وانتعشت أحوالها وسادها الرخاء ،
ووصفها الرحالة الفرنسي تافرنيه — الذى قدمنا وصفه لبغداد —

بقوله : « وقد وصل أمير البصرة أسبابه بكثير من الشعوب الغريبة ،
ولهذا تجد ترحيباً إلى أتيتها ، وتسود المدينة الحرية ويشيع فيها نظام
يمكنك من السرى طول الليل في شوارعها دون أن ينالك أذى ؛ ويأخذ
الهولنديون التوابل منها كل عام ، وكذلك يأخذ الانجليز الفلفل وبعض
البهار ، وأما البرتغاليون فلا تجارة لهم هناك على الاطلاق . ويحضر
الهنود اليها النسيج والقليقوط وشتى صنوف البضائع ، وعلى الجملة ففي
المدينة تجار من كل حدب وصوب : من القسطنطينية وأزمير وحلب

الصره كآهاتافرنيه

ودمشق والقاهرة وسائر أنحاء تركيا، يقبلون اليها ليشتروا التجارة الواردة من الهند . ومن هناك يحملونها على ظهور صغار الجمال التي يشترونها من هناك أيضا — إذ يجلبها العرب إلى هناك ليبيعوها — أما أولئك الذين يأتون من ديار بكر والموصل وبغداد والجزيرة وآشور فينقلون متاجرهم في مياه دجلة فيكلفهم ذلك عناء ونفقة . والضرائب في البصرة تبلغ حوالى الخمسة فى المائة من قيمة البضاعة ، ولكنك غالبا ما تلقى من عطف الأمير أو رجال الجرك ما يعفيك من بعض النفقة فلا تدفع إلا نحو أربعة فى المائة . وأمير البصرة من القدرة بحيث يربح فى العام نحو ثلاثة الملايين من الجنيهات ، وموارد دخله الهامة أربعة : المال والخيول والجمال والتمور ، ولكن معظم ثروته من هذه الأخيرة (١) »

ولاه الترك يحاولون
استعادة البصرة

بيد أن هذه الحال من الاستقلال لم تدم غير قليل . لأن أمراء بغداد ما كانوا ليطيعوا السكوت على خروج البصرة من أيديهم مع ما هي عليه من الثراء واتساع الجاه ووفرة العلة . فبدأت نفوسهم تهوى اليها ، ولم يلبث النزاع أن دب بين أميرها حسين باشا ووالى بغداد ، فاستطارت الحرب وطال أمدها حتى مل الجانبان ، فبدأت مفاوضات طال أمرها ، واستقر الراى أخيرا على أن تبقى حكومة البلدى أسرة افراسياب على أن لا يقوم بالأمير حسين باشا بل افراسياب ابنه ، وأن تصبح البلد خاضعة اسميا للسلطان فيخطب باسمه على منابرها وتدفع الجزية له من خزانتها .

الفضاء على استقلال

وتلك حال لا تدوم . فلا بد أن تصطدم مصالح الأسرة الحاكمة بمصلحة السلطان الأعلى ، أو لابد أن يخلق باشاوات بغداد تصادما من هذا النوع حتى يخلصوا من آل افراسياب جملة . وقد وقع هذا بالفعل بعد ذلك بقليل ، ودخل جنود السلطان البلد بخيانة أحد أقارب افراسياب المسمى يحيى ، وبهذا انمحق من الوجود استقلال البصرة وعادت ولاية خاملة تكمل نواحي الدولة سواء بسواء فى أواخر النصف الثانى من القرن السابع عشر ، ومن ذلك الحين انفتح بابها لمساءات الأتراك وعسف الولاة ومنافسة الشاهات .

(1) Tavernier ; Op, Cit P, 89 Longrigg P, 110

اضمحلال فارس

جدت على تاريخ العراق عوامل جديدة خلال القرن الثامن عشر ، عوامل أخذت تخرج به عن هذا الخمول وتكيف تاريخه تكييفاً جديداً يختلف اختلافاً يسيراً جداً عما شهدنا منه خلال القرنين المنقضىين ، فلا زال الخلاف بين تركيا وفارس محورا من محاور تاريخ العراق ولكنه لم يعد الآن نزاعاً خالصاً بين الشاهات والسلاطين ، وإنما دخلت فيه عناصر جديدة كالأفغان والروس ، ولم يعد الصفويون هم أصحاب الشأن في فارس وإنما حل محلهم حكام جدد بعضهم أفغان وبعضهم فرس افشار ، لأن فارس تضعضعت وهاجمها الأعداء من كل ناحية ، فلم يعد العراق وآله يخشون من ناحيتها شراً ولا تأثيراً ، ولهذا أخذ الرخاء يسود شئون العراق فبدأت أحواله تتحسن من نواح شتى ، فلم يعد جهد حكامه منصرفاً إلى مناجزة الفرس واتقاء شرهم ، وإنما أصبح في إمكانهم أن ينصرفوا لشئون ولايتهم وأن يعنوا بها بعض العناية . كذلك هدأت الأحوال في خليج فارس حينما فأمنت البصرة طول الكفاح والصراع ، وأخذت تستدرك بعض مافاتهما في سنوات النزاع العنيف بين الترك والفرس والهولنديين والبرتغال والابجليز . وعلى الجملة اطمانت أحوال العراق بعض الشيء خلال السنوات الأولى من القرن التاسع عشر . وانفتح باب الإصلاح والعمل لخير البلاد .

بيد أن شيئاً من ذلك الإصلاح لم يتم ، فلا الباشاوات التفتوا لإصلاح شئون ولايتهم ، ولا أهل البلاد انتهزوا الفرصة للأخذ بيد قاطرهم ، وإنما شغل الأولون بتثبيت أقدامهم في البلاد ، حتى استطاع أحدهم - حسن باشا - أن يجعل مقاليد البلاد في أيديته وأسرت به بحيث لم تخرج الولاية عنهم من أوائل القرن الثامن عشر إلى منتصف القرن التاسع عشر أي من ولاية حسن باشا إلى ولاية داود باشا (١) إذ ظل

حسن باشا ينشئ
حكومة وراثية
بالعراق

الحكم في أقارب حسن ثم انتقل إلى المقرين من خدم الأسرة واتباعها . وأما الآخرون - الأهلون - فقد أخذت قبائلهم تحترب وتتصارع للاستيلاء على أحسن المواقع في البلاد ، فدخل بنو لام في صراع طويل مع أمانة حويزة المجاورة لهم ، وأخذ بنو جف ولباس يتنقلون بين فارس والعراق لا يستقرون على أمر ، وروعت قبائل وسط الجزيرة غزوات وغارات من إخوانهم في الصحراء ، وثار القبائل الكبرى من أمثال شمر والمنتفق وبهذا لم تسكن الأمور داخل العراق أو على حدوده السكون الذي يمكن من العمل لإصلاح نواحيه ، فظل الإهمال يشمل مرافقه . غير أننا نلاحظ أن القبائل كانت في طريقها إلى الاستقرار في نواحي البلاد : هذا الاستقرار الذي يمكنها من العناية بشؤون الري والزراعة ، فتورة المنتفق إنما كانت في أساسها نزاعاً على حق الزراعة في جزائر الفرات ، مما يدل على أن هذه القبائل بدأت تحرص على الزراعة وترى لنفسها الحق في ملكية ما يبدها من أرض ، ولم تعد تعتبر نفسها غزوية لاعتلاها بالبلاد وأهلها .

ونلاحظ كذلك أن عامل البلاد في هذه السنوات الأولى - حسن باشا - كان رجلاً على كثير من الاقتدار ، وأنه عمل كثيراً لما فيه خير البلاد ، فقد أعان القبائل على الاستقرار بحفر بعض الترع ، وحرص على أن لا يمس الشعور الديني لأحد من السنة أو الشيعة ، ولم يحاول كذلك أن يخرج على السلطان ، فظلت أمور العراق تسير في رعايته سيراً طبيعياً عاد على البلاد وأهلها بالخير .

غير أن هذا السكون لم يطل أمده . إذ لم تلبث حوادث فارس أن ألقت على العراق ظلاً ثقيلاً ، وأخذت تستلقت اهتمام حكام العراق حتى شغلتهن عن شؤون البلاد جملة ، ثم لم تلبث الحرب أن ثارت فعادت

الأمور سيرتها القديمة وغرق العراق في شؤون فارس وحروبها ، وبهذا قطعت على العراق هذه الفرصة القصيرة من الهدوء والاستقرار .

ففي خلال العشرة الثالثة من القرن الثامن عشر قام في جبال أفغانستان القاتح المعروف محمود خان وهاجم فارس واستطاع أن يمزق جيوش الصفويين ويحكم البلاد ويشتت البيت الصفوي في كل ناحية ، وبهذا زالت من الوجود هذه الأسرة التي ظلت تحكم فارس وما حولها ثلاثة قرون ونصف ، وانفتح باب فارس للغزوات من كل ناحية فأخذ جيرانها يتقدمون في أرضها ويتقسمونها : وبدأ الصراع بين الروس والأتراك والأفغان والفرس أنفسهم على ولايات الشمال في جورجيا وداغستان ، وولايات الغرب المتاخمة للعراق ، واستولى الأتراك على الولايات المجاورة للعراق مثل كرمان شاه واردلان ولورستان وهمدان ، وظهر جلياً أن الحرب واقعة بين الأفغان والأتراك . على هذه الولايات

نمعة أفغانستان
محمود خان

استمر الصراع بين القوى الأفغانية والتركية على أرض فارس زماناً طويلاً ، استعمل الجانبان فيه كل ماملها من فنون الدعاية السياسية والدينية ، وأظهر فيه أشرف خان الأفغانى قدرة طيبة في شؤون السياسة ، فجعل يثبت بين قبائل الأكراد التابعين للدولة دعاية واسعة النطاق ، قام بها نفر من العلماء السنيين مما انتهى بانحياز الجانب الأكبر منهم إلى جانبه في ساعة الحرج ، وكانت نتيجة ذلك انتصاره على الأتراك انتصاراً أعقبه العفوع كل من وقع في يده من أسرارهم ، مما مكن له من نفوس أهل السنة في العراق نفسه . وانتهى الأمر بين الجانبين بمعاودة جعلت فارس قسمة بين الترك والأفغان فأصبحت همدان وكرمان شاه واردلان ولورستان حصّة السلطان ، وأصبح أشرف خان أميراً على ما بقى من بلاد فارس على أن يختص السلطان بالولاة .

الحرب بين لاهمان
والترك

نادر قولى

بيد أن الفرس لم يطبقوا الإقامة على هذه الحال ، وبدأت نواحي فارس تعج بالربة في التخلص من ربة الأجانب وطرده الغاصبين من الشرق والغرب على السواء ، فلم يكذب ينقضى على تحالف الأتراك والأفغان زمان طويل حتى أقبل من أقصى البلد رجل يسعى بالجند والجاء ، وتسامع الغاصبان بظهور نادر قولى في خراسان ومسيره نحو الجنوب ليلقى أعداء بلاده . تقدم نادر بجموعه فشقت قوى الأفغان ، وأعاد سلطان الصفويين ، ثم اتجه إلى الغرب ليستخلص الولايات التي بيد الأتراك ، فلم يزل يغالبهم حتى تمكن آخر الأمر من ارغامهم على الانسحاب ، فردوا كل ما كانوا غصبوه من أرض فارس وعادوا إلى الحدود التي كانت بينهم وبينها سنة ١٧٣١ .

العراق أثناء الحرب

نادر يهدد العراق

هذا الصراع العنيف بين الترك والأفغان يصور لنا حال العراق خلال سنوات الفتنة أى في النصف الأول من القرن الثامن عشر ، ويؤكد لنا أن مصالحه وشؤونهم أهملت كل الإهمال من جانب الولاة وقد كان يرجى أن تعود الأمور إلى مجاريها في العراق بعد أن انتهى الصراع على أرض فارس وعادت البلاد إلى أصحابها ، ولكن صروف الأيام أثبت على العراق ذلك ، إذ أن نهوض فارس من جديد وعودتها إلى القوة على يد نادر شاه كان معناه عودة النزاع بين الفرس والترك على أرض العراق ، كما نكتب على هذه البلاد أن تكون قربانا مضحى على أى الحالات في هذه الأزمان . إذ أين للبلاد الهدوء والاطمئنان الذى يمكن أهلها من العناية بمراقب بلادهم مادام نادر قولى يصير الإصرار كله على أن تفتح له أبواب العراق يلجها كما شاء لزيارة قبور الأولياء والصالحين في النجف وكر بلاه ، أنهم مضطرون أن ينفقوا ماملهم عن وجهه ومال في الاستعداد للقاء هذا الفارسى العنيد وردة عن ولايتهم ، بل إن حاكم البلاد كان خليقا أن يجتهد في العدة حتى يجاوز بها طاقة العراق نفسه ليدفع الغزاة التي قيل إن نادرا كان يتأهب لاجتياح البلاد

فيها على رأس مائة ألف مقاتل . وماذا يبقى من الخير في هذا القطر المسكين بعد هذه الغزوات المتكررة وطول الاستعداد للحرب والقتال ، لا بد أن تنحط حاله الاقتصادية ويفسد الكثير من نواحيه وتزداد الاحوال فيه سوء : لقد استمر نادر يهدد البلاد بالغزو المخرب سنوات طويلة ، وتقدم بالفعل وحاصر بغداد حصارا شديدا أصابها منه بلاء بالغ ، ولبت على الاسوار يجمع أهلها ويستخر منهم بارسال البطيخ اليهم وهم في غمرات الجهد والعطش حتى كادت البلد تسقط في يده ، لو لا أن كتبت لها السلامة على يدى القائد التركي المعروف بعثمان طبل أى - الأعرج - بعد صراع طويل مع نادر ، تخلله ما يكون عادة بين المتحاربين المسلمين من تناكر فكك وتعاث مضحك يطرب له القادة في حين يموت الجند وأهل البلاد ، وانصرف نادر عن العراق آخر الأمر بعد معركة حامية دامت تسع ساعات سويا ابل فيها الانكشاريون بلاء طيبا ، انصرف عن بغداد ليحل ضيفا ثقيلا على مدائن الشمال كتفليس واريقان وجنجاه وما اليها ، وليهزم الأتراك فيها هزيمة ساحقة يموت فيها قائدهم عبد الله كبريلي

نادر يغزو العراق

حصار بغداد

وهكذا غرق العراق كله - شماله وجنوبه - في الحروب والمنازعات والاضطرابات زما ناطويلا ، ولم يحسم النزاع الا في السابع عشر من اكتوبر سنة ١٧٣٦ بمعاهدة حلت فيها مشا كل العقيدة واعادت كلاما من الجانبين إلى حدوده الأولى بعد ثلاثة عشر عاما من الحرب والصراع ، ففسد فيها كل شئ في العراق وشمل الاضطراب القبائل فأخذت تنقل مسرعة من ناحية لأخرى ، وعاشت في شبه استقلال لا يكاد الوالى يجسد متسعا من الوقت ليردها إلى الطاعة . وكانت تلك الحروب والقتال فرصة طيبة للقوى الأوروبية ، فأخذت مصالحها وأعمالها تنمو في البصرة نموا خطرا والباشا في شغل عنها بحرب الأفغان تارة والفرس تارة أخرى ، فأخذت اقدام شركة الهند الشرقية تثبت في أرض البصرة

معاهدة سنة ١٧٣٦ بين الفرس والأتراك

الأوروبيون ينتهزون فرصة الحرب

وترددت عمالها في نواحي البلاد، وأصبح مصنعها في البصرة مؤسسة دائمة على رغم، ما كان رجالها يقاسون من رداءة الجو ومساءات الحكام، ففي هذه السنوات يذكر تاريخ الشركة نسبة عالية من الوفيات من موظفيها في العراق؛ ولكنه يؤكد كذلك أن قدم الشركة أثبتت نتيجة لذلك الصبر والجلد، وأخذ عمالها يتدخلون في شؤون البلاد السياسية ويناصرون فريقاً على فريق كما حدث في سنوات ١٧٢٧ و ١٧٢٨، وكذلك انتعش مصنع الهولنديين انتعاشاً مكنهم من الاستمرار إلى سنة ١٧٥٢.

وكان طبعياً أن تؤدي هذه الحالة إلى تفكك وحدة البلاد وانفصال أجزائها، وقد كان الساعون لذلك نفر من ذوى البأس في الأقاليم والنواحي وطائفة من رؤساء القبائل، وقد رأينا كيف استقل آل أفراسياب بالبصرة، وبقي أن نعرف أن هذه الفترة شهدت ظهور أسرة الجليلي في الموصل واستبدادها بأمورها وتمكنها من الاستقلال به بجهود منشئها حسن باشا (١٧٣٠)، الذي استطاع أن يورث ولايته أبنائه، ومضى أفراد الأسرة يتوارثون ولاية الموصل حتى منتصف القرن التاسع عشر. كذلك انقطعت الصلة بين بغداد وولاية بابان في الشمال الشرقي، إذ استطاع والياها القويان خاتة باشا وبكر باشا أن يستقلا بشؤونها ويقطعا الأسباب التي كانت تصلها بالحكومة المركزية.

وفي أواخر هذا القرن بدأ سلطان المماليك يظهر في العراق؛ وتاريخهم في هذا القطر وسموهم إلى القوة والسلطان فيه شديد الشبه بسيلهم إلى القوة والظهور في مصر، فقد بدأ أمرهم في العراق خدماً وحرساً وعمالاً في القصر؛ كان يؤتى بهم صغاراً من تفلّيس وجورجيا، ويربون في البلاط أو المعسكرات بعناية ظاهرة، ثم توكل إليهم بعض وظائف

بده ظهور المماليك
الحركس

القصر والحكومة ، ومن ثم يأخذون طريقهم إلى الوظائف الكبرى بفضل ما كان لهم من اقتدار ومواهب وما كانوا يبذلون من الاخلاص لسادتهم وحسن الاستعداد للعمل ، وعلى مر الأيام كثير عددهم ، ولم يقتصر استخدامهم على الباشا نفسه بل أقبل عليهم كبار العمال والحكام حتى صارت بغداد تضم منهم عدداً طيباً ، وأخذ الباشوات والحكام يشقون فيهم ويعهدون إليهم بالوظائف الهامة في بيوتهم ونواحي الادارة ، بل كان بعضهم يزوج مملوكه ابنته ، وبذلك أصبحوا ساعد الولاة الآمين في إدارة البلاد وحكمها ، وتطلعت نفوسهم إلى الاستئثار بالسلطة كلما زاد مركز الولاة ضعفاً . ومن هنا يسهل علينا تصور السبيل التي وصل بها هؤلاء الكرج (أو الجركس أو كولة من كانوا يسمون بالتركية) إلى منصب الولاية نفسه . ففي أواخر أيام أحمد باشا بدأ أحد هؤلاء المماليك يظهر ويبدى تفوقاً ملحوظاً في شئون الحكم والادارة ، فتولى منصب الكمية الذي يلي الباشا نفسه ، واشتد على البدو والخارجين على السلطان حتى أحبه الناس ووضعوا فيه ثقتهم ، ولما اشتد ساعده زوجه أحمد باشا ابنته عديله هانم ، ومن ثم خطا إلى منصب الولاية بعد موت أحمد باشا حوالي سنة ١٧٤٥ ، وعلى الرغم من أن السلطان لم يقر هذا التعيين — وسارع بنقل سليمان إلى ولاية أضنه بعد قليل — ظل أهل البلاد ومن فيها من جند الأتراك ينظرون اليه نظرهم إلى الرجل الوحيد الذي كان يستطيع أن يقر العدل والأمن بينهم ، فبدوا يشيرون بحاكمهم الجديد ويشغبون عليه حتى وجد نفسه مضطراً آخر الأمر إلى التسليم لسليمان باشا الذي عاد من أضنه ودخل بغداد دخول الظافر دون اذن السلطان ، ولم يلبث السلطان أن أقر تعيينه فأصبح أول حكام العراق من المماليك .

سليمان باشا اول
مماليك العراق

أظهر سليمان باشا حزمًا وقدرة ، وأنفق وقته كله في شئون ولايته وأكثر من العسس بالليل في نواحيها حتى أطلق عليه لقب «أبوليلي» ،

أبوليلي

واستقامت شئون البلاد في ولايته حتى أننا «انرى الحكومة التركية في العراق في أوجها على أيامه ، فقد كان رجلا ماهرا قويا نهازا للفرص خبيرا بشؤون البلاد (١)» ، واستمر يحكم البلاد ويصرف شئونها باقتدار مدى اثني عشر عاما . وكان لزوجته عديله هانم من السلطان شىء عظيم ، فقد كانت تتدخل في شئون الإدارة وتكيد للحكام وتأتى من الأمر ما تريد بجرأة ظاهرة أثارت عجب الناس في بغداد وغيرها ، وكانت لها طرائف لا تخلو من غرابة كسكوينها هيئة منتظمة من تابعاتها والباسن شارات معينة من الحرير . وكان الرجل من المهارة بحيث لم تثر أعماله هذه السخط والحقد في القسطنطينية ، فظل يصرف الأمر على حسن الظن والولاء من الباب العالى ، بل قد استحق تقدير السلطان في أخريات أيامه أى سنة ١٧٥٢ ، إذ أرسلت إليه خالعة سنية من الفروع ، هذا على الرغم من أنه لم يكن يرسل الى مركز الخلافة مالا ، إذ أنه كان دائم الادعاء بأن حملاته ونفقاته تضى على ماتغله ولايته .

وفي حكومة أبى لىلى ازداد استخدام السكرج المماليك في وظائف الحكومة ببغداد ، واتجهت العناية الى تعليمهم واعدادهم لسكربار الوظائف والأعمال ، أنشأ سليمان هيئة من فتيان السكرج دربت تدريبا منتظما على شئون الحرب والإدارة ، فكانوا يعلمون القراءة والكتابة وركوب الخيل والسباحة ، ومن ثم يرقون الى مرتبة الجريكلى التى تؤهلهم لمناصب قيادة فرق الجند ، وبهذا استطاع أبو لىلى أن يشغل بالآ كراج كل وظائف الجيش والإدارة ، مما شمل نشاط الأتراك والبغداديين أنفسهم ؛ وبدأ التحاسد والعداء يشتد بين الجانبين ، لأن أبى لىلى قصر كبريات المناصب على هؤلاء المماليك ، وبهذه الهيئة الجديدة استطاع الرجل أن يخضع البلاد كلها من جزائر البحرين الى ولايات الشمال ، وترك البلاد عند موته في الرابع عشر من مايو سنة ١٧٦٢ على حال طيبة من الهدوء

الاستكثار من
الجرىس المماليك في
العراق

والتوحد والرخاء ، بل أن جيرانه من الفرس كانوا يخشونه ويرهبون جانبه ويتقربون اليه بالهدايا الطيبة مخافة أن يهزمهم أو يسير جحافلهم نحوهم بيد أن الدولة ما كانت لتطبق هذه الحال من الاستقلال الذى

يتمتع به المماليك فى حكم العراق ، لأن رجالها كانوا يتخوفون الحكام الأقوياء وإن أقاموا على الطاعة وأحسنوا فى ولاياتهم ، لا يشفع لهم الاجتهاد ولا الاقتدار ولا بذل المال ، لأن انفرادهم بالأمر يعد جريمة وحده ، ثم إن حكم المماليك فى العراق لم يكن خيرا خالصا ؛ لأنه حرم الدولة مما كان يرسل اليها من أمواله ، وحرم أهل البلاد والأتراك كذلك من الوظائف وجعل الحكومة وفقا على هذه الطائفة الغربية التى كانت تشتد على الناس بالأيذاء يوما فيوم ، هذا الى أن حكام العراق من المماليك أنفقوا جهدهم كله فى الحروب والغارات ، ولم تكن كل ضرباتهم توجه الى أجنب أو غزاة وإنما الى قبائل من أهل البلاد ، ففى حكم أبى ليلى وعمر باشا قاست قبائل المنتفق والاكرد والبابان ويلات شتى من حروبهما وحملاتهما ، وإذا بقى من اهتمام المماليك شئ بعد ذلك فقد انصرف فى مناورات لا فائدة للبلاد منها بين أبى ليلى ومماليكه أو بين خلفائه وزوجه عديله هانم ، فجعلت نواحي البلاد تتحرك بالسخط عليهم وتتوجه الرجاء الى القسطنطينية للقضاء عليهم ، لأن استمرارهم فى الحكم كان معناه أذلال طوائف البلاد وكلها والاستئثار بخيرها ، فكان هذا دافعا لرجال الدولة الى التعجيل بالعمل للقضاء عليهم .

الدولة العلية توحس
حيفة من سلطان المماليك

وإذا كان الأتراك قد شغلوا عن شئون العراق أيام أبى ليلى لما حزمهم من حرب الروس أو النمساويين ، فقد فرغوا من هذه المشاغل بعد معاهدة كيتشك كينارجى سنة ١٧٧٤ وأصبح فى استطاعتهم أن يشروعوا فى العمل للقضاء على استقلال المماليك فى العراق ، فعملوا

الأتراك يدعون العمل
للقضاء على المماليك

مصطفى باشا

بمسير حملة الى العراق يقودها مصطفى باشا والى المرنه ووالى شهرزور
وسليمان الجليلى صاحب الموصل لينتقم من أبى ليلى لما نزل به من
الأذى على يديه ، وصحبهم كذلك عبد الله باشا الطويل والى ديار
بكر ، وكان معهم أمر بنقل عمر باشا إلى ديار بكر واحلال مصطفى باشا
محله . وإنما أخذوا معهم هذه القوات كلها لأنهم توقعوا ألا يمثل
عمر لأمير السلطان فاستعدوا ليأخذوه بالقوة إذا مال إلى العصيان ،
والغالب أن الرجل ما كان ينوى عصيانا ، لأنه عجل بالامثال
للأمر وخرج من المدينة فى طريقه إلى ديار بكر مزوداً بما استطاع
حمله من الأموال . ولكن مصطفى باشا لم يرضه هذا التسليم الهين
الذى لا يكسبه ثغراً ولا ذكراً ، فهاجم معسكر عمر على غرة واضطره
إلى الإسراع بالهرب ، وهو لا يدرك السبب فى هذا العدوان السى . ،
ويبدو أن المفاجأة أذهلته عن نفسه فوقع من على حصانه فدقت عنقه
ومات . ومن غريب الأمر أن مصطفى نفسه لم يكده يدخل بغداد حتى
شغل عما أتى من أجله ، وانصرف إلى اللهو والعبث فى هذه الأسابيع
التي كان أولو الأمر فى القسطنطينية ينتظرون فيها نتيجة مسعاه بشوق
شديد ، فلم تكده تنتهى إليهم أخبار عبثه وتضييعه حتى عجلوا بعزله
وتولية عبدى باشا والى كوتاهية شئون العراق ، فتقدم نحو بغداد ، ولم
يكده يقاربها حتى فر أمامه مصطفى باشا مسرعاً حيث لقي حتفه على يد
رجال السلطان فى ديار بكر ، وماهى إلا أسابيع حتى كانت رأسه فى طريقها
إلى القسطنطينية . وقد حاول عبدى باشا أن يستخلص الأمور من
بقايا الممالك فلم يستطع ، إذ كان أحد هؤلاء الممالك — عبد الله باشا —
قد استطاع فى سنوات الاضطراب أن يجمع زمام السلطة بين يديه ،
بما اضطر السلطان إلى تعيينه فى ولاية العراق ، وبهذا أرغم
السلطان مرة أخرى على اقرار الممالك فى حكومة هذه البلاد ، ولكن

عبدى باشا

رجاله لم يكفوا بعد ذلك عن السكيد لولاية العراق بشتى الأساليب مما أغرق البلاد كلها في الحروب والمنازعات، وصرف جهدها إلى مناورات لاخير وراءها ولا غناء فيها ، فساءت أحوالها وجعلت تخطو نحو القرن التاسع عشر في حال من السوء والاضطراب والتفرق لم تعهد عليها في أحلك أيام الفوضى في العصور الوسطى .

استقلال العراق
عن الدولة

هذا ، ولم يكن حال العراق بدعا بين ولايات الدولة إذ ذاك ، ففي هذا الحين كانت منازعات الدروز والموارنة في الشام على أشدها ، ولم يكن للدولة أى سلطان على جبال لبنان وحران ، ونواحي البلقان ، وكانت سلطتها قد انعدمت أو كادت في الأيروس وولاشيا وولدافيا وكانت بذور الثورة قد أخذت تنمو وتشتد في الجبل الأسود وكذلك كان الحال مع ممالك مصر وأسرة الجزائر في عكا والوهابيين في بلاد العرب ، أى أن العراق كان — كغيره من ولايات الدولة — في شبه استقلال عنها ، يصرف أموره مماليكه الجركس على مايهوون ويريدون . وقد كانت هذه الحال ملائمة كل الملائمة لنمو المصالح الأجنبية في العراق فاشتد ساعد وكالة شركة الهند واتسعت تجارتها في الصوف والمعادن ، وتحولت وكالة ايجلتر في البصرة إلى قنصلية رسمية ، وأخذ تجار ايطاليون يحطون رحالهم ويستولون على أسواق البلاد . وقد كان ضعف الحكومة المركزية ، وخروجها عن طاعة السلطان مؤديا الى تفرق النواحي عنها وخلعها الطاعة فعلا ، فتحديث رجال الأقاليم وشيوخ القبائل بالثورة عليها ، وكان هذا حافزا للأوروبيين على التدخل في نواحي البلاد وممكناً لهم من شئونهم التجارية : فن ذلك الحين بدأت السياسات الأوروبية تلتفت نحو العراق وتحاول الاستفادة من ظروفه ، ووربما نشأت في ذلك الحين فكرة سيطرة الانجليز عليه ، لأن نهريه العظيمين كانا يكوّنان طريقاً مائياً صالحاً للهند عن سبيل البحر الأبيض والشام ، وإنما يصح هذا الفرض لأن الأسطول الانجليزى كان قد بدأ

يتبين أهمية عكا في ذلك الحين ، وكانت العلاقات بين الانجائز والجزار
أخذة في الصعود في السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر .

تقدير ممالك العراق بيد أننا لا ينبغي أن نغمط ممالك العراق حقهم ، فليس من العدل
في شيء أن نقرنهم إلى ممالك مصر مثلاً ، لأنهم — أي ممالك العراق —
كانوا على كثير من الخلق الطيب وحسن التبصر والقدرة على سياسة
الأمور والاخلاص في الالتفات إلى شئون الحكم ، فعلى الرغم من
أن كل الظروف كانت مواتية لهؤلاء الممالك للخروج عن طاعة
الدولة صراحة ، فقد ظل الكثيرون منهم على الطاعة ولم يقطعوا
الخطبة أو يطردوا عمال الباشا إلا في مناسبات قليلة جداً . ولم يخلع
باشوات الممالك طاعة السلطان في وقت من الأوقات ، بل استمرت
طاعة السلطان معترفاً بها في ولاياتهم في الخطبة والسكة والمراسلات
الدائمة والهدايا القليلة والأتاوة غير المنتظمة ، في هذه الأشياء كان إعلان
الطاعة تاماً ، وكذلك كان هذا الولاء يظهر فيما كان يحدث من مسير جند
السلطان جنبا إلى جنب مع حرس الباشا الكرجي ؛ وفي هذه الناحية
لا يقل باشوات الممالك اخلاصاً عن أي حاكم آخر من الذين اخضعوا
البلاد للاستانة (١) كذلك اجتهد هؤلاء الباشوات في حماية البلاد من
الفرس والوهابيين ، واقتدروا على الدفاع عنها من هذين العدوين ،
ولولا جهد باشوات الممالك لضاعت البلاد بينهما . وكان ممالك العراق
يدا واحدة ينظمون الأمور فيما بينهم ، ولم يكونوا يتصارعون أو يكيد
بعضهم لبعض الكيد الذي أخذ الأمور على ممالك مصر ، واستطاعوا
أن يسوسوا الأمور بحكمة أرغمت السلطان على احترامهم والتسليم
لهم ، حتى لقد كان السلطان لا ينظر للعراق في أيام ولاية الممالك من
أمثال سليمان الكبير أو داود باشا إلا على أنه جار محترم لا ولاية
خاضعة ، وكذلك كان أهل الاستانة أنفسهم ينظرون (٢) . ولم يكن

(1) Longrigg, Op. Cit P. 199

(2) Ibid P.100

هؤلاء الممالك بجامدين ولا مشغولين بالغرور كما كان الحال مع ممالك مصر ، وانما سنجد أنهم كانوا يحاولون أن يعيشوا في عصرهم كلما استبانوا من قوة الغرب وصلاحيه أساليبه أشياء جديدة ، فلم يجمدوا جمود ممالك مصر ، ولم يقفوا من الحضارة الاوروبية موقف العدو الجاهل الذي يعاديا لانه لا يفهمها ولا يقبل عليها لانه يخاف مجرد تجربتها . وكلما تقدمت بهم الايام ازدادت قدرتهم على الحكم وازداد سلطانهم على البلاد ، ومن هنا بلغت قوتهم أوجها في عهد آخر اثنين منهم وهما سليمان الكبير وداود باشا اللذان حكما العراق بنجاح من أواخر القرن الثامن عشر إلى منتصف القرن التاسع عشر ، فلنقف عند حكمهما وقفة قصيرة لتتعرف أحوال العراق في شيء من الدقة والتفصيل خلال هذه السنوات الحاسمة التي اشتد الصراع فيها بين الشرق والغرب .

سليمان وداود

كان سليمان مملوكا ممتازا ، يشهد بذلك معاصروه من المسلمين والاوروبيين على السواء . فيشهد هاورد جونز بأنه « كان نموذجا لطيفاً للباشا التركي » . وكان في مظهره معاني كثيرة من التعقل والانسانية . وكان ممتازا في كل فنون الحرب والالعب حتى ليضارع محترفيها ، وكان مخلصاً وذا حمية في ممارسة شئون دينه وعقيدته ، وكان رحيماً بالقدر الذي يُسمح به لتركى أن يكونه مع قوم تعتبرهم آية من آيات دينه كفارا ، وكان دقيقاً مقتصدًا في نفقاته حتى لقد رمى بالبخل ، ولكنه لم يكن يتأخر — عند ما يرى بلده في خطر — عن أن يخرج شيئاً فشيئاً عما كان قد جمعه وعنده ، وكان بلاطه فاخرا وقصره شديد الشبه بقصور كبار الحكام ، وقد لقي في أول أيامه عوناً وعطفاً من الانجليز

سليمان بيوت

فلا زال يذكّر ذلك إلى أواخر أيامه» (١) ويصفه الإيطالي سستيني بأنه كان رجلاً جميلاً ، ذا طبيعة مرحة صريحة ، وهو شجاع جداً (٢) ويؤكد أوليفييه الفرنسي انه « كان مهتماً بمراعاة الطبقات المنكودة ، وكان يمنع كبار ضباطه من أن يرتكبوا المظالم ، ولم يكن ليدسح أعمال الاستبداد ، ولم يسمح للعرب بأن يروعوا الملاحه في النهرين ، وعاون التجارة وحماها بما ملكته يمينه ، وكسب تقدير رجال الحرب بما كان له من شجاعة ، وقد حبيبه إلى الناس ما أذاع في بغداد من الأمن وما بسط في ربوعها من الطمأنينة مما ألجج الألسن بالدعاء لحكومته (٣) وهكذا استطاع هذا الرجل القادر أن يقر الأمور في جانب العدل والرخاء مدى ثلاثين سنة في العراق . وقد أعانه على ذلك أن المماليك استطاعوا أن يحوزوا الولاية والباشوية معا ، فلم يكن بينهم وبين الدولة عدا . في الظاهر على الأقل - كما كانت الحال مع ممالك مصر الذين شغلهم نزاع ولاية الدولة عن كل خير ، ودفعهم إلى الأذى والاستبداد دفعا ، وكان سبباً - آخر الأمر - في القضاء عليهم قبل أن يضعف أندايم في العراق بنحو أربعين سنة .

على رغم هذه القدرة كلها كان سليمان لا يكاد يقتدر على ضبط
عائلات أقرار العدل
الأمور إلا بالجهد والنصب ، فقد كانت سعايات الفرس لا تكف تثير
عليه ولايات المشرق وتبعث عليه الفتنة في شتى النواحي ، وكانت
مناورات الوهابيين تفاق البلاد وتروعها ولا تسكاد تترك للرجل فرصة
الهدوء والسلام ، وكانت مساومات الأحكام الماضية ثقيلة الوطأة على

(١) دواء Brydges عن Harfard jones

A Brief History of the Wahauby P. P. 190-1

Sestini, voyage de Constantinople à Bassora en (٢)
1781 P. 163

G. A. Olivier, Voyage dans l'Empire Ottoman (٣)

l'Egypte et la Perse. IV P.P. 350-2

الولاية بما عاقه عن النهوض بها إلى الحد الذي كان يستطيع، ولم تكن البلاد مهتمة من أثر الاضطرابات والأمراض الماضية . كذلك كان أهل العراق ينظرون في شيء من الحسد لهذه الحكومة التي استبدت بالأمركلهم دونهم ولم تنكد تدع لهم منه شيئاً ، ولو لم يكن سليمان قد اشتد في الرقابة عليهم لاستطاعوا أن يخلصوا منه ومن أتباعه . ولعل الضعف لم يباحق سليمان إلا من ناحية عوزه الدائم لجند مخلصين ، فقد كان جند الجر كس آخذين في القفلة مع الأيام ، وكان الباشا مضطراً إلى الاعتماد على الانكشارية ، فكان على دوام الخوف والحذر منهم ، واشتد سليمان كذلك مع قبائل العرب مما اضطر قبائل عُبَيْد وشمر إلى الأذعان بالطاعة له ، وملاً نفوس رجالهما منه حفيظة وضغنا ، ولم يقصر الوالي في مضايقة ارسال الجنود إلى وسط العراق لرد الخزائل إلى الطاعة حتى تمكن من ذلك بعد جهد جهيد . وزاد الأمر عليه حرجاً هجوم الوهابيين الذي روعه خلال السنوات العشر الأخيرة من القرن الثامن عشر: أي أن الرجل قضى أيامه في الحرب وما يتصل بها ، ما بين حرب العابثين من أهل البلاد وكفاح المعتدين من جيرانها في الشرق والغرب .

الوهابيون

بدأ الوهابيون غاراتهم الشديدة على غرب العراق قبيل سنة ١٧٩٠م أي أن العراق كان وجهتهم الأولى بعد أن استقر لهم الأمر في نجد وشرعوا في الامتداد الخارجي ونشر دعوتهم خارج نطاق الجزيرة ، فتلفت قبائل العرب العراقية في المنتفق وظافر وغيرهما هجوم الوهابيين الأول ، وما هو إلا قليل حتى أخذ يتسرب إلى مدائن العراق وعواصمه دعاة وهايون يخطبون على المنابر لنشر دعوتهم واجتذاب الناس إلى مبدئهم ، ولم يكن هؤلاء الدعاة ليقصروا في انتقاد الخليفة وولايته ورجال الدينين ، فلقيت دعوتهم القبول من الكثيرين في قلب العراق نفسه ، وانهاه على سراياهم الغازية سبل المتطوعين ما بين مقتنع بآراء الوهابية ،

ومنتهز فرصة الانضمام الى جيوشها للفوز بالغنيمة والاسلاب ، ومن هنا نفر أهل العراق المستقرون — سنة وشيعة — من هذا الغزو المفاجيء ولم يرجوا به . استمرت نواحي العراق الغربية تقاسى من حملات الوهابيين المروعة دون أن تخف قوات الوالى لردّها أو تخايصها من شرها ، وزاد الامر خطورة أن الوهابيين جعلوا يرصدون قوافل الحج ويهاجمونها في غير رحمة أو هوادة ، وعبثاً حاول شريف مكة أن يلفت السلطان إلى الخطر ، فلم يزد هذا الا حير على ان استحث واليه في بغداد على النهوض للجزيرة للقضاء عليهم ، وكلما تقدمت السنون كلما اشتد هجوم الوهابيين ، واصرارهم على أذى من يقع تحت يدهم من أهل البلاد ، وأخيراً أنهر سليمان باشا — بعد أن أعيته الحيلة في الوهابيين — وأخذ يستعد لارسال حملة قوية لتقر الأمور في الغرب ، وسارت الحملة المنتظرة في حدود سنة ١٨٠٠ ، فلم تقم بأمر ولم تلق قتالا ذا خطر بل اتفق الجانبان على أن يؤمن الحج وتخلي الحسا

غزو الوهابيين للعراق

تحرير كربلاء

بيد أن الأمور عادت إلى ما كانت عليه بعد قليل ، اذ قامت جيوش الوهابيين في ربيع سنة ١٨٠١ بأخطر ما قامت به نحو العراق من غزوات ، فهاجمت كربلاء مركز الشيعة ونهبتها نهياً ذريعاً « ففي مساء ٢ ابريل انتشر بين أهل كربلاء الخوف من اقتراب قوات الوهابيين من المدينة ، وكان معظم أهلها يحججون إلى النجف إذ ذاك ، فتسارع من بقي منهم إلى أبواب المدينة يطلبون الفرار . وكان عدد الوهابيين نحو ستة آلاف راكب وأربعمائة فارس ، فترجلوا على مقربة من المدينة وضربوا خيامهم بظاهرها وقسموا قواهم إلى فرق ثلاثة ، واجتمعوا في خان قريب ، ثم أخذوا يهاجمون البلد من أقرب أبوابها اليهم ، واستطاعوا أن ينفذوا إلى داخلها فأخذ ، أهلها — الذين ملكهم الرعب — يتفرقون في كل ناحية دون أن يقودهم أحد — واتجه المطهرون (أى

الوهايون) الأشداء إلى الأضرحة نفسها، وبدءوا عملهم عند قبر الحسين ،
فنزعوا قضبانها وأكسيتها ومراياها الكبرى ، ثم أخذوا ينتزعون — في
عنف بالغ — كل ما وجدوا في المسكن من هدايا الباشوات والأمراء
وملوك فارس : من الحوائط والسقوف الموشاة بالذهب وحوامل
المصاييح وغالى الطنافس والمعلقات وقوالب النحاس والأبواب المرصعة
بالجواهر النفيس ، وقتلوا في حرم القبر نفسه حوالى الخمسين شخصاً
وخمسائة آخرين في صحن الضريح، ومضى المهاجمون يقتلون في شوارع
البلدة بغير حساب ، واستباحوا حرمة الدور، ولم يبقوا حدثاً أو امرأة
من الأذى الشديد أو الأسر المحزن بحيث بلغ عدد الموتى على تقدير
البعض نحو الألف والخمسة آلاف على تقدير البعض الآخر (١)

آثار سليمان باشا

وكان هذا آخر ما حدث في عهد سليمان باشا ، إذ كانت قدمه
تقارب القبر في صيف سنة ١٨٠٢ ، وكان آخر ما فعله ان سعى سعياً
حيثاً لكي يسلم الأمور من بعده لأحد أنبائه — أحمد باشا — وكان
من المماليك أيضاً ، وقد نفس آخرون على أحمد ذلك الاختيار وبدأ
صراع على الولاية في آخر أيام سليمان ، فشهد طلائعه وجفناه يهبطان رويداً
رويداً ليحجبا عن عينيه نور الحياة في أغسطس سنة ١٨٠٢ ؛ وهكذا
أغمض الرجل عينيه على مثل ما فتحهما عليه قبل ذلك بثمانين سنة مليئة
بالحرب والنشاط والعمل الصالح ؛ إذ يذكر له المؤرخون إلى جانب
حروبه بناء مدرسة في مدينة السلمانية وإنشاء فروع لها وإصلاح مساجد
القبائية وفاضل والخلفاء، وتعيينه المدرسين فيها كلها ، وقد كسا قبة مسجد
أبي حنيفة بالذهب وابتنى سوقاً وخاناً بسرّاجين وبنى دالى عباس
وشارمان ورسم أسوار من دالى والحلة والبصرة وأعاد تأسيس دار
الصناعة في كوت والبصرة وجصّان وأصلح جسر نارين وحصّن الزبير
وماردين واسكى بالموصل وابتنى منازل للناس في الاسكندرية وكر بلاه

(١) Longrigg, Op, Cit, P. 212

وسعى في حفر قناة الهندية التي تسقى النجف ، وغير ذلك من الاعمال التي أفادت البلاد وبقي أثرها فيها زماناً طويلاً .

خوف أهل البلاد
من الوهابيين

استمر خطر الوهابيين ماثلاً يهدد أهل العراق وينذرهم كل عام بالغزو الشديد ؛ فأخذ أهل البلاد يتحصنون منهم ويتخذون الأسوار والحاميات لردهم حتى استطاعوا أن يأمنوا شرهم بعد جهد ، وعلى رغم هذا فقد أقاموا على الخوف منهم ؛ حتى لقد روى سائح فرنسي أن الناس لا يتحدثون في بغداد إلا عن الوهابيين (١) مما يدل على انتشار الرعب من جانبهم وحاجة أهل العراق في السنوات الأولى من القرن التاسع عشر إلى من يؤمنهم في بلادهم ، وكانوا على الحق فيما تخوفوا إذ كان الزمان زمان منازعات لا نهاية لها بين الفرس والمماليك مما أضاع على البلاد كل ما كسبته من الخير في لحظات الأمان في حكم سليمان بويوق (الكبير) وزاد الأمر بلاء عودة الخطر الفارسي إلى الظهور حوالي سنة ١٨٠٦ واضطرار الباشوات إلى الالتفاف نحو الغرب من جديد مما استنفد جهدهم وصرفهم عن خطر الوهابيين ، إذ اضطر أحمد باشا إلى المسير إلى كرمان شاه للقاء الفرس الذين كانوا يتأهبون للوثوب . ولو قد وجدت البلاد إذ ذاك حاكماً قديراً لكان الخطب ولا حس الناس بعض الأمان ، ولكن أمورها وقعت حوالي سنة ١٨١٤ إلى صبي صغير سيطرت عليه أمه ومستشاروها ، وهم الدفتردار داود أفندي وصديق لا قيمة له ومضحك (٢) فأخذت الأحوال تسوء والاضطراب يعم والخطر يزداد اقتراباً وشدة ، إذ أخذ المقربون إلى أم ذلك الصبي يجتهدون في الوصول إلى مسند الولاية في بغداد

(1) Longrigg; Op. Cit P. 302

(2) Ibid. P. 234

حتى تمكن الدفتردار داوود افندي من ذلك بعد منازعات طويلة بينه وبين
الفرس وأولى الشأن في القسطنطينية ومنافسيه الذي لا عددهم ولا حصر
في العراق نفسه

داود باشا

لانزاع في أن داود باشا يعد أعظم من حكم العراق من المماليك — بل
هو أعظم حكماءه على الإطلاق إلى ما قبل أيام مدحت باشا — وهو كرجي
من أهل تفليس دخل بغداد حوالي سنة ١٧٨٠ ودخل خدمة سليمان
باشا فأحبه وقربه ؛ فمزال يتقلب في خدمته حتى وصل في أواخر أيامه
إلى منصب الدفتردار — أي صاحب خراج البلاد — واشترك في المعركة
التي دارت بعد وفاة سليمان على الولاية حتى فاز بها على ماروينا.
ولم يمتز حكمه بقدره ظاهرة ولا بنبوغ يستلفت النظر — ولكنه أقر
الأمن في البلاد واستطاع أن يخلص بها من كثير مما كان قد ألم بها في
في سنوات الاضطراب الماضية ، وهو الذي أشرف على أمورها في
السنوات الحاسمة المليئة بالأحداث والتطورات التي مرت بها خلال
النصف الأول من القرن التاسع عشر ؛ ففي أيامه بدأت مظالم الانجليز
والروس تظهر في العراق ، فكان عليه أن يفسد تدبيرهم ليخلص ببلاده
من شباكههم

مظالم الروس
في العراق

وكانت أنظار الروس قد بدأت تتجه نحو العراق لما رأوا من توفيق
الانجليز فيه واستحوادهم على أسواقه وتهيئتهم السبيل لاستعماله طريقا
للهند ، فتقدموا — لاليفوزوا من خير العراق — بل ليكيدوا للانجليز
فيه . فبدؤا بتشجيع رجال الحكومة المتنافسين للوصول إلى الولاية
وانتزاعها من ذلك الصبي ، فكان ذلك التنازع والتحاسد والكيد
من جملة ما أصاب البلاد من نكبات وهي تتقلب فوق نيران القلق
والرعب من الغزو الخارجي والنهب الذريع ، واشتدت سعايات
الفرس بين ولاية الأقاليم في العراق فكان من نتائجها خروج

والى أرضروم على داود والانضمام لفارس ومعاونة عباس
مرزا على غزو إقليم البابان فى شمال غرب العراق ، وهى
مناورة كادت تنتهى بوقوع العراق كله فى يد الفرس ، إذ
استطاعوا أن يتقدموا حتى بلغوا حجب على مسيرة يوم واحد
من بغداد ، ولولا أن سئم الفرس أنفسهم استمرار الحصار وطلبوا
الصلح لوقعت بغداد فى يدهم ، وكانت نتيجة ذلك أن أصبحت منطقة
السليمانية شبه خاضعة لهم وأعطيت لتابع من اتباعهم

بلاط داود

استقرت الأمور بعد ذلك لداود وهذأت . فأخذت البلاد تنتعش ويعود
إليها رخاؤها ، وكان الرجل على كثير من المواهب والاقتدار ، وكان
بلاط زاهر أيضا راع بلاط الخليفة نفسه ، يقوم على خدمته خدم من الجركس
فى أجل الحلل والثياب ، ويحضر مجلسه العلماء وصفوة رجال الدين
فيناقشهم فى أمور العقيدة مناقشة تنتهى بهم إلى الاقتناع برأيه فى كثير
من الأحيان ، وكان ولاية العراق التابعون له فى البصرة وكركوك
وماردين يرهبونه ويخافونه ، وكذلك كان موظفوه واتباعه يسوسون
الأمور بأمانة خوفا منه . وكان السكينة (منصب يعادل رئيس الوزراء)
والحاسيون (يشبهون المستشارين ومن بينهم باب العرب مثل القبائل
العربية) وأعضاء الديوان والدقتردار وأمين سر المجلس ورئيس
الوصفاء وكبار المديرين ورؤساء المصالح وكبار الأغوات يقومون
على خدمته الشخصية : كل موكل بعمل خاص على مثل ما كان كبار
الملوك يعملون ، إذ كان الاشراف يقومون على خدمة مليكهم
ويتنافسون فى الحصول على شرف حمل الدواة أو المروحة أو تقديم
الماء أو المعاونة على اللباس ، فكان رجال الحكومة وسروات العراق
يتقاسمون خدمة أميرهم داود ويتنافسون فى ذلك ، فكان منهم
حارس الثياب وعامل القهوة ومقدم الحلوى والمشرف على ركوب

الأمير وصاحب البُسْط وحارس ماء الاغتسال وعامل ماء الشرب وحامل الشوبك وحامل الراية وغير هؤلاء من أصحاب الوظائف التي لا توجد إلا في قصور العواهل والخلفاء، هذا وكان للرجل حرس جر كسي كبير ازداد قوة ونظاما بعناية سليمان وداود ، وقد جلب له هذا الأخير المعلمين الأوربيين فأصبح حياة حربية لها خطرهما ، وكذلك كانت للبasha قوة عظيمة من الانكشارية والطبجية واللاوند من أهل البلاد ، بحيث لا نخطئ إذا قلنا إن داوداً كان يحيا حياة قريية جدا من حياة الخليفة نفسه .

نظم الضرائب

وكانت أموال البasha تجمع من انحاء البلاد على يد محصلين يرسلون من قبله إلى مختلف النواحي : بعضهم يلتزم ضرائب ناحيته وبعضهم يجمع لحساب البasha ، وكانت الضرائب مقدرة على النواحي جملة وعلى بعض الموارد فرادى : فكان الأهليون يدفعون مالا إذا سقوا زرعهم أو عبروا جسراً أو مروا ببضاعة أو نزلوا سوقاً أو أكتروا مراكباً ، مما كان يرهق الناس ويثقل عليهم في أحيان كثيرة ، فكانوا يتوجهون بالشكوى إلى حكومة الاستانة نفسها للاعتصام بها من أذى الجباة الذين كانوا لا يحملون إلى خزانة بغداد كل ما يجمعون إلا في النادر .

جمود داود
في أول ايامه

ويبدو أن الرجل لم يكن يفهم مهمة الحاكم على الوجه الذي كان ينبغي أن تفهم عليه في عصره — في أوائل القرن التاسع عشر — فقد انقضت الأيام التي كان قصارى جهد الحاكم منصباً فيها إلى الشاكية والصائفة ومناقشة العلماء والتندر مع الندماء وإنفاق الوقت بين المجان والجواري ، تاركاً أمور الناس إلى الخدم والاتباع والملتزمين ، ولم يعد الحاكم ليشكر على « هبات اللجين وعق العبيد » كما يقولون ، وإنما كانت الأيام تتطلب من الرجل — على أقل تقدير — لوناً آخر من الحكم ، يُمكن البلاد من أن تظن إلى ما كان يحاك حولها من كيد

وتدبير من جانب الروس والانجليز والقوى الأوروبية الأخرى على وجه العموم .

المطالع الأدريه
في العراق

كانت الأعين الأوروبية قد أخذت تتركز نحو العراق وتتضح غاياتها فيه منذ مطلع القرن التاسع عشر ، فلدنا مذكرات ثلاثين سائحاً زاروا البلاد في ذلك الحين ، وهؤلاء ليسوا إلا جزءاً يسيراً من زاروا العراق في هذه الأيام مقبلين من أوروبا والهند ، فن سنة ١٨٠٠ كان نفر من الرهبان الكرمليين الفرنسيين قد حطوا في بغداد ، ونزلوا كذلك رجل مالى يوناني ، وأقام بعض تجار البنادقة في الموصل وجعلوا يستقبلون ضباطاً من شركة الهند في مرورهم بالبلاد من ناحية إلى ناحية . وكان فرسان التتار لا يقطع لهم سيربين القسطنطينية وبغداد يحملون تقارير القناصل والباشا نفسه ، وكان يريد شركة الهند يمضى بانتظام من بغداد إلى حلب عن طريق الصحراء . وكان ملاحو الهند يحملون الى البصرة الأقمشة الحريرية والخمالات من فرنسا والأقمشة الانجليزية ، ومعادن ألمانيا وبضائعها وزجاج فينا وبوهيميا والسكر من أمريكا ،^(١) ونشط رجال الدين الفرنسيون والايطاليون ، وأخذوا يتناولون بعض أعمال السياسة التي تهم بلادهم : كما قام راهب فرنسي بأعمال القنصلية لدولته ، وهكذا أخذت المصالح الأوروبية تشتد في العراق ، لا يعوقها إلا بعض العدوان عليها من البدو أو من أهل البلاد بين الحين والحين . وكانت للفرنسيين الكفة الراجحة من حسن ظن الباشا ، فأولاهم ثقته كما أولاهم إياها كل حكام الشرق في تلك الأيام ، فكان منهم مدبرو جيشه وأطبائه .

شركة الهند الشرقية

أما شركة الهند فقد أفادت من هذه الظروف كلها ، وعاونت

المماليك على الاستقلال بتقديم السلاح لهم ، لأن هذا الاستقلال يمكن
لها من تثبيت أقدامها في البلاد وتصريف متاجرها في نواحيها ، واستعمال
أنهارها للبوادر من غير أن تلقى اعتراضاً من الأتراك بل أخذ القنصل
الانجليزي يتوسط للحكام لدى الباب العالي إذا وقع بين أحدهم وبين
الدولة جفاء ، مما جعل للقنصل مركزاً ممتازاً ، وكذلك كان قنصل البصرة
يؤدي خدمات سياسية ذات خطر لحكامها ، فربما توسط لقرار الأمور
بين واليها وبين حاكم مسقط أو الكويت أو غيرهما من صغار أمراء المسلمين
الخاضعين لأشراف الانجليز البحري ، وهكذا أخذت قدم الانجليز
تثبت في البلاد وسلطانهم يقوى ، فتحولت وكالة الشركة في بغداد إلى
مركز ثابت يقيم فيه مندوب دائم ، ثم تحولت الوظيفة بعد ذلك إلى
قنصلية دائمة سنة ١٨٠٢ . ومن هنا بدأ العراق وحكامه يحسون خطر
الانجليز ، وأثر قرب العراق من الهند ، وكان قناصل الانجليز
وسفراءهم إلى بلاط العجم يرون ببغداد بأبهة ظاهرة تثير الخوف
في نفوس العراقيين ، وزاد الأمر خطراً أن قنصلي البصرة وبغداد
لم يكتفيا بمجرد الإقامة ، بل أصبح لهما حرس كبير من أهل البلاد
ومن الهنود ، وبهذا أصبح جانب «الآلشي» الانجليزي مهابة يحترمه
الباشا ويقيم له قدره ، وكان استقلال داود عن حكومة القسطنطينية
ممنوعاً للانجليز في العراق ممكننا للانجليز من الانفراد بحكومة العراق وزيادة سلطانهم فيها ، ففي
السنوات التي اشتبك فيها الانجليز مع الأتراك في الحرب في أوروبا
من سنة ١٨٠٧ إلى ١٨٠٩ كانت العلاقة كأصفي ماتكون بين الباشا في
بغداد والانجليز في الهند ، كأن عامل العراق أمير مستقل له سياسة مختلفة عن
سياسة الدولة المركزية ، ولم يفتن داود إلى مطامع الانجليز في بلاده ولا
إلى ما كانوا ينتوونه نحوها ، فمضى ياتمنهم ويثق فيهم ولا يكاد يوجس من
جانهم خيفة ولا شراً

وحوالي سنة ١٧٠٨ تولى وكالة الانجليز في العراق كلوديوس جيمس رتش Claudius James Ritch وكان على جانب عظيم من المهارة والاعتدال، فجعل يعمل على تقوية النفوذ الانجليزي في العراق حتى وفق إلى أن يجعل دار القنصلية مركز السياسة في العراق ، فكان يتوافد إليها كبار القوم وسروات البلاد، ويجمعون فيها الدراسة أحوالها أو للتشاور فيما يهمهم من الشؤون، ولهذا أصبحت بغداد مركزاً للسياسة الانجليزية في العراق وبلاد العرب وكل البلاد التركية الآسيوية، وأخذت تحمل محل البصرة . ومضى رتش يقوى النفوذ الانجليزي حتى أوجس داود ومن معه خيفة من مراميه، وبدءوا يتحدثون بالشكوى منه ويتساءلون عما يريد بالعراق بعد هذه الجهود كلها ، ومن هنا أخذت العلاقات تتوتر بين داود ورتش يوماً فيوماً حتى أصبحت عداً مكشوفاً ، فسارع الباشا سنة ١٨٣٠ بالغاء كل الامتيازات الأجنبية في العراق وبغداد ، وأعقب ذلك بمضاعفة الضرائب على المتاجر الانجليزية وتهديد القنصلية نفسها وعمالها بالأذى ، وهكذا أخذت الأمور تتحرج بين الانجليز والباشا حتى صمم رتش على أن ينقل القنصلية من بغداد إلى بمباي مؤقتاً ، فمنعه الباشا من ذلك وحاول القبض عليه ، وبلغ العداً بين الجانبين مبلغاً جعل رتش يستعبد بخدمه من الهنود لمقاومة كل اعتداء ، وأحاط دار القنصلية بالجند والهجانة ، واستمر الحرج قائماً زمناً طويلاً ورتش شبه سجين في دار القنصلية في بغداد، حتى تدخلت حكومة الهند وسفير الأستانة في الأمر فاخلى سبيله سنة ١٨٢١ ، ولم تلبث علائق الود ان عادت بين الباشا والقنصل

لماذا كان الانجليز يبذلون هذا الجهد كله لتثبيت أقدامهم في العراق ؟
 واضح جداً أنهم لم يصيبوا إذ ذاك من أرباح التجارة فيه ما يبرر هذا السعى الخثيث ، وواضح كذلك أن أحوال البلاد لم تكن تنبئ عن

أسباب اهتمام الانجليز
 بالعراق

وخاء مقبل يساوى جهد التدخل فى شؤونها وتكاليف حماة قنصلياتها بالهند والاتباع او يسد نفقات الكاشفين والباحثين الانجليز الذين كانوا يتوافدون الى العراق زرافات ووحدانا فى هذه الايام ويقومون بابحاث مائية أو علمية تكلف الحكومة أو الشركات أو الهيئات العلمية الانجليزية جهدا كثيرا وأموالا جسيمة . فلم يبق إلا أن الانجليز كانوا يهتمون بأمر العراق لأنه طريق ميسور إلى الهند ، إذ تستطيع السفن الكبرى أن تنتقل بين الهند وشط العرب ، وتستطيع السفن الصغرى أن تنقل المتاجر إلى أعلى دجلة والفرات ، ومن ثم تحمل المتاجر على الجبال إلى حلب ومن حلب إلى البحر الأبيض - إلى عكا مثلاً ، هكذا رسم الانجليز طريقاً جديداً إلى الهند ، وأنشأوا يبذلون الجهد من ذلك الحين للاستيلاء عليه وتأمينه ، ولهذا شرعوا يبعثون بعوئهم الاستكشافية الرسمية لدراسة مياه دجلة والفرات وتقدير مدى صلاحيتهما للسفن والملاحة التجارية . ويرجع هذا الاهتمام بالعراق إلى زمان الحملة الفرنسية على مصر ، إذ أقفل الفرنسيون طريق الشام والعراق فاضطر الانجليز إلى استعمال طريق الشام والعراق ، وظل هذا طريقهم إلى الهند بالفعل طوال إقامة الفرنسيين بمصر ، ثم انصرفوا عنه حيناً بعد خروج الفرنسيين من هذا البلد ، ولكنهم عادوا إلى الاهتمام به حين نهض محمد على وأشرف على طريق مصر وأخذ يستغله لحسابه ويرقب الانجليز فيه ، ففي خلال العشرة الثالثة من القرن التاسع عشر بدأ للانجليز أن نهضة مصر خطر على طريق السويس ، فبدأوا يحاربون نهضتها من ناحية ويبحثون لأنفسهم عن طريق جديدة من ناحية أخرى ، ولهذا نشطوا نشاطاً بالغاً فى حرب محمد على على ما سبق بيانه ، ثم أخذوا يرسلون بعوئهم الاستكشافية بقيادة السكولونيل كسنى Chesney وأرمز بى Ormsby واليوت Elliot وبلوس لينش Blos Lynch وغيرهم من المغامرين

الاستعماريين الذين عرفوا العلاقة بين الهند والعراق فخفوا اليه
يغامرون بجهودهم وأرواحهم محاولين كشف طرقه وامواه
وسبر غورها .

حكومة الهند توجه
نظرا لتخليها الى العراق

وكانت حكومات الهند هي صاحبة فكرة طريق العراق وصاحبة
الفضل الأول فيما بذل الانجليز من جهد في ذلك الصدد ، وأعاتها
شركة الهند بمالها وضباطها وسفنها ، فضى الانجليز في ذلك بجهد
متصل وعزم يبعث على الاعجاب . وكان أول دعاة هذا الطريق
وأكثر الانجليز اهماما به هو الكولونيل فرانسس . ر . كسني الذي
تشجع في العمل حين مد له اللورد بلرستون يده وحين ثارت في البرلمان
الانجليزي ثورة تحمذ طريق العراق وتدعو اليه . بدء كسني عمله بأن
قدم نفسه لخدمة الامبراطورية في استكشاف طريق العراق بدون
مقابل ، وذلك لانه وجد شركة الهند والحكومة الانجليزية تختلفان
في تعيين من يتحمل نفقات الاستكشاف ، وشرع الرجل في بعثته
الاستكشافية مع خمسين من صغار الضباط بحماس بالغ في أواخر
سنة ١٨٣٦ . وحصل على تصريح بالعمل في وادي دجلة والفرات . بواسطة
اللورد بلنسبي الذي كان لا يحمذ له جهد في هذه الأيام للقضاء على
محمد علي - ومن هنا شرع محمد علي هو الآخر يكيد لكسني وبعثته
ويضع العرافيل في سبيله ، وكان للبعثة سفينتان بخاريتان إحداهما دجلة
Tigris والآخرى الفرات Euphrates فضا في العمل حتى غرقت
إحداهما أثر عاصفة رملية في حوض الفرات . ومضت البعثة في
عملها فلم تسلم كذلك من كيد الفرنسيين ، إذ كان الرحالة الفرنسي
فونتانييه إذ ذاك يجوس خلال العراق ويخيف أهله من مطامع الانجليز
ومساعيهم (١) مما جعل مهمة البعثة صعبة لا يكاد يبدو من وراءها فلاح

(١) وكان الفرنسيون أيضا يواصلون الجهد لتثبيت انذارهم في العراق وغيره من البلاد الاسلامية
(٢٤)

مما انتهى بالرجل وبعثته إلى العودة إلى إنجلترا في حال أشبه ما تكون
بالخيبة الكاملة سنة ١٨٣٧

الانجليز يعادون
المماليك

وقد كان الانجليز يرضون عن ممالك العراق طالما كان هؤلاء
لهم معوانا على ما يطلبون في البلاد من وفرة السلطان وتأمين السيل ،
فاما وقد بداهم أن لا أمان هؤلاء المماليك ، وأن بقاءهم في البلاد خليق
أن يوجد لهم الصعوبات ، فقد بدءوا يتغيرون عليهم ويرون أن
نجاح مشاريعهم يقتضى القضاء على داود وحزبه ، ومن ثم بدءوا
ينقلبون عليهم ويلتمسون السبل لمعاونة السلطان عليهم وإخراج العراق
من أيديهم ، وقد زاد الانجليز اصرارا على هذا الرأي حين وجدوا
أن قيام المماليك في العراق لايسهل لهم الكشف ولا يمكن لهم من
القيام باختباراتهم الخاصة بطريق الهند .

اضمحلال المماليك

وكان ممالك العراق أنفسهم في طريق الضعف والانحلال ،
لأن ورود الجركس الصغار كان قد انقطع أو كاد من مواردهم
الأصلية في جورجيا ، وكانت الدولة قد نشطت إذ ذاك في
القضاء على الانكشارية ، فقل عددهم في الجيش العراقي قلة
أضعفت جانبه ، وبهذا حرم المماليك من القوتين اللتين كانوا

ومن هنا كان نزاعهم مع الانجليز في هذه النواحي بعد أن انتصر عليهم هؤلاء في الهند الانتصار الحاسم
المعروف، أنظر

Victor Fontanier (1) Voyages en Orient, Fntpris
par ordre du gouvernement Francais de l'année 1829
(2 vols, Paris, 1829)

(2) Voyage dans l'Inde et le Golfe Persique,
par l'Egypte et la Mer Rouge 2 parts en 3, vols;
(Paris 1844—1846)

يعتمدون عليها وذلك في اللحظة التي ظهر جلياً أنهم - أي المماليك - مقدمون فيها على صراع أخير مع الدولة نفسها . وكان المماليك إلى ذلك يعيشون في غير عصرهم ولا يكادون يبذلون جهداً في التمشي مع الأيام فيما تمشي بأهلها إليه ، فقد كان داود وأتباعه على جهل تام بشؤون العالم الخارجي لا يعلمون عنه إلا ما ينبئهم به بعض السائحين ورجال السالك السياسي ، وكان معظمهم لا يعرف مكان العراق على الخريطة ولا موضعه من الدولة المركزية ، فكيف يعيش هؤلاء بين قوم كانوا قد انتهوا في ذلك الحين إلى رسم كل شبر في أرض العراق وقياس كل ذراع من مياه النهرين وتقدير كل ملمح يمكن أن ينتج من التجارة فيه ، نعم لم يبد داود وأصحابه جهوداً نحو الإصلاح والتقدم ، ولكنهم كانوا لا يفهمون عصرهم حق فهمه ولا يبذلون الجهد اللازم لفهم ذلك العصر والتمشي مع أبنائه ، فقد جلب داود المدربين الفرنسيين لجيشه والأطباء الانجليز لجنده ، ولكن ذلك كان للظهر لا للحقيقة ، أي لا قناع الاوروبيين والسلطان بأنه يسعى للتقدم ، ولو قد ترك له الخيار لارتد مسرعاً ؛ وحالٌ مثل هذه لا بد لها أن تزول ، خصوصاً وقد بدأ سلاطين آل عثمان جهادهم للإصلاح ، وأرادوا أن يطبقوا إصلاحاتهم على نواحي الدولة كلها ومنها العراق .

لهذا أرسل السلطان في أواخر صيف سنة ١٨٢٦ أوامر مشددة للقضاء على الانكشارية في العراق على نفس الأسلوب الذي قضى عليهم به في تركيا ، فوقف الباشا حيال ذلك الامر في حيرة كبرى ، لأن هؤلاء الانكشاريين كانوا مخلصين له على أي حال ، ينفعونه في شؤون الحرب ولا يكاد يجد عنهم عوضاً إذا هو أجهز عليهم دفعة واحدة ، ومن هنا خطرت له فكرة غريبة تدل دلالة واضحة على مدى فهمه للإصلاح والأساليب الحديثة ، فاستقدم فرق حيشه من مرا كزها على

أسوار بغداد إلى قصره . وأوقف فرقين منها بالمدافع في مكان مرتفع مشرف على الساحة التي اصطف الانكشاريون فيها والمدافع مصلته عليهم . « ثم قرى المرسوم الملكي بصوت مرتفع ، فتلقوه باستغراب وتكذيب ، ثم نهض الباشا ، والدهوع في عينيه — حسرة على مصير الانكشارية سند الاسلام القديم الحصين — فأمر بأن ينضموا جميعهم إلى الفرق الجديدة التي ستحل محلهم ، وهنا — ومن غير عنف أو ضجيج ، ومن غير تغيير القائد — قلب كل حندي من جنود النقابات قلبته إلى لباس رأس من الطراز الحديث ، وسجل اسمه في الفرق النظامية (الجديدة) . ثم سمع الجميع طلقات الفرع تجاغل من المدافع التي كانت قد وضعت لغرض آخر — إذا استدعى الأمر — وهكذا تم الإصلاح وتم الانقلاب الحديث ! . . . تغيير في المظهر وتحايل على الحقيقة وفرار مضحك منها ، هكذا فهم داود الأمر واطمأن إلى أنه نفذ أوامر السلطان . حين غير اسم الانكشارية إلى النظامية واستبدل القلب بلباس رأس جديد؛ إن هذا وحده ليدلنا أصدق الدلالة على عقلية داود وأصحابه وفهمهم لمسائل عصرهم وإدراكهم لمرامي سلطتهم محمود الثاني .

ثم أعقب داود ذلك بأمر مظهرى آخر ، فاستدعى المسيو ديفو Deveau الفرنسي لتدريب الجيش العراقي تدريباً حديثاً ، واستشار المقيم الانجليزى الماجور تايلور في أمور شتى ، وطلب كذلك طبيباً انجليزياً من بمباى لعلاج وعلاج جنده ، واشترى سلاحاً جديداً لآلاف من الجند ، وطلب ثلاث سفن كبرى ومقادير عظيمة من الذخائر ، فأبى الانجليز عليه ذلك حذراً من أن يشتد به ساعده . ويبدو أن داودا فهم بعد زمن معنى الإصلاح وفائدته وأحس خطر الجرد الذي

دارد يعمل
على الإصلاح

كان يصبر عليه فبدأ يتجه وجهة جديدة ؛ ومصادق هذا ما ذكره السائح الانجليزى المستر A. N. Groves من ان « كل شىء فى بغداد دينجوتحو التأثير بأوروبا ، وهذه الرغبة فى اتخاذ الأساليب والاصلاحات الأوروبية لا تقتصر على الناحية الحربية بل تتناول نواح أخرى أكثر أهمية ، فللباشا رغبة فى أن يدخل الملاحة البخارية فى هدين الهرين الجميلين . وفى الحقيقة أنى أحس أن الله يقدر لهذا الشعب تغيرات عظيمة ^(١) ، ونشط داود فى الأمر نشاطا يدعو إلى الاعجاب ، فبذل همه بعيدة فى افتتاح المصانع وجلب الآلات من جنيف ؛ واستقدم بسنايا من اليونان ، وأخذ يتحدث عن طريق الهند ويتسأل عن مرامى المستكشفين من ضباط الانجليز ، وأخذ الرجل ينهى بأنه صائر إلى القوة والتحضر حتما ، لأنه إذا كان يهتم للمظهر وحده اليوم ولا يصل بفكره إلى اعماق معانى الاصلاح ، فلا بد أن يعرف ذلك غداً . لأن نصحاء من الفرنسيين واليونان لم يقصروا فى بسط كل شىء أمام ناظره بسطاً واضحاً جلياً .

وذلك ما كان الانجليز يحاذرون أن يكون . . فهذا داود يوشك أن يشتد ساعده ويقفل أبوابه فى وجه المصالح الأوروبية ، وهم فى أشد الحاجة إلى اضعاف العراق . حتى يخلو لهم الجو فيه ، وحتى تصبح سكة الهند عن طريقه آمنة لارقيب عليهم فيها ؛ ومن ثم بدأت مخاوفهم من داود تنشأ وتقوى ، وشاركهم الأتراك فى هذا القلق — وربما أعانوا عليه — ومن هنا أخذت الدولة تنظر لاستقلال العراق نظر الخائف غير المطمئن ، وبدأت تفكر فى القضاء عليه ، حتى استقر عزمها على الشروع فيه ، وندبت لذلك صادق افندى — أحد رجالها السياسيين — للذهاب إلى العراق وإعلان داود باشا بالخلع .

لخوف الانجليز
من داود

(1) Rev. A. N. Groves; Journal of a residence in Baghdad

وصل صادق أفندي حدود العراق وخطا في أرضه فكانما خطت معه الرزايا والولايات من كل جانب ، فقد كان مقدمه نذيرا للعراق وأهله بسنوات عجاف من المرض والمجاعة والحرب الأهلية والفيضان لم يسبق لها مثيل الا في مصر الفاطمية أيام خليفتهما المستنصر المشكود ، ذلك ان داودا لم يكذب يعرف ما انطوى عليه صادق من خلعه وحل جنوده ، حتى ثارت ثائرتة ودبر مع اتباعه الخلاص من أمره ، فتم لهم ذلك وخنقوه ولما يتم في بغداد أياما عشرة ، وخطرت اسطمبول بانه مات بالسكرور ، فلم تجز الحيلة على رجال الدولة وبيدوا الدواد في انفسهم أشد الجزاء ، ولكنهم لم يستطيعوا فعل شي في الحال ، لاشتغالهم بالنزاع مع صاحب مصر محمد علي إذ ذاك ، وكذلك ابى رجال الدولة ان ينهضوا للملاقاة داود - حذرا من قوته وخوفا من بطشه ، فنهضوا يشترطون على السلطان ما يقبلون من ثمن للقيام بهذه المهمة ، حتى رست « المناقصة » آخر الأمر على الحاج محمد علي رضا باشا الذي قبل أن يقوم بالأمر لقاء ستة آلاف كيس .

نزل علي رضا حابا في مستهل سنة ١٨٣١ ، وهناك أقام وأرسل احد رسله — قاسم أفندي — الى داود يأمره بالتسليم طواعية ، كما تخاف ان يمضى اليه بنفسه . ثم تحرك من حلب على مهل فلم يكذب يمضى غير قليل حتى ترامت اليه أنباء روعته وأوقفته في مكانه ، ذلك أن طاعونا حادا كان يطرق أبواب العراق اذ ذاك ، ويتسلل الى بلدانه من الشمال مسابقا للجند في شدة وعنف لم يسمع بهما احد قبل ذلك ، فلم يكذب يحل ابريل من العام حتى كان الوباء قد نزل ببغداد ، وأخذ يغتال أهلها ويتناقم بينهم بدرجة بعثت الرعب في النفوس ، فكان يموت منه في الايام الاولى مائة وخمسون في اليوم ، ثم اشتدت وطأة الوباء في الايام الاخيرة من الشهر حتى مات في نصفه الثاني سبعة آلاف ، وضاعف المرض

الشروع في القصاص
على الممالك

علي رضا

بكتات العراق

١ - الوباء

قوته بعد قليل حتى ارتفع عدد الوفيات في اليوم الواحد إلى خمسة آلاف ، وهنا خيم على دار السلام سكون الموت وشملت أهبة الرعب وانتابها فزع شامل ، ومضى الناس لاهمّ لهم إلا تجهيز موتاهم المدفن وتجهيز أنفسهم المرض ، ووقفت الأعمال فلم يبق سقاء ولا عامل في متجر ولا في طريق ، حتى لقد طلب داود قارباً فلم يجد نوبياً يقوده ، وغصت الشوارع بالأطفال الذين شردهم الوباء وأنى على آلهم فأصبحوا لا يجدون مأوى ولا طعاماً ، وبعد قليل كف الناس عن دفن الموتى فأصبحت جثثهم ملقاة في الطرق تعيث فيها الكلاب بمرأى من البقية الباقية من السكان الذين انهمك المرض قواهم ؛ ومضت الحال على ذلك حيناً ، ثم أقبلت النذر تنذر أهل العراق بفسر جديد ، كأن الولايات لم يكن فيها عدو مهاجم ووباء متفاقم ، فأقبلت مياه دجلة تراحم ! بلى !

فقد شهدت العشرة الأخيرة من إبريل سنة ١٨٣١ مياه دجلة ترتفع كما بما ضاق صدره بآلام قومه ، ففاض منه الماء واندفغ فأغرق بغداد وطغى في شوارعها وحصر أهلها حصراً شديداً ، كما بما أقبل عوناً للبرص عليهم ، وأخذت أسوار المدينة تنهار أمام الماء ، وتداعى بنيان القلعة ثم اندفعت الأمواه في المدينة تكتسح المساكن بالآلاف ، وتحمل معها جثث المرضى الذين أمسكهم المرض عن الفرار ، وتهدمت أسوار زرائب الباشا فخرجت خيله بالمئات شاردة ، ومضت تضرب في الشوارع وقد روعها الأمر والماء يغمرها إلى بطونها ، وانهارت دعائم مخازن القمح فانفتحت على أبوابها وهكذا أشرفت الولايات في ختام إبريل سنة ١٨٣١ على مدينة الرشيد وهي تعاني سكرات الموت ، وقد أكل الوباء أهلها وأكل الماء بنيانها ، ولم يبق فيها إلا وحشة الخراب وسكون اليباب ، واستحال ما فيها إلى تراب يغطيه عباب !

٢ - البصائر

وماذا بقي لداود في العراق يحرص عليه ، لقد تهدم كل شيء ولم

داود بسل

تبقى له المصائب شيئاً يستحق عناء مقاومة على رضا ، فليدخل قاسم المدينة من أى ناحية أراد ، فما هو بواجب مقاومة ولا ضيراً وليحمل البضاعة كلها ان وجد أنها تستحق عناء حملها ؛ ولكن آل داود وأصحابه لم يستطيعوا أن يسلموا أنفسهم بعد أن بدا لهم ما بدا من شدة قاسم وجنده ومن معه من اعراب شمر وعجيل ، ففضوا إلى قاسم وحاصروه حصاراً شديداً حتى سلم لهم ؛ ثم لم يكد الماء ينحسر قليلاً حتى اندلعت النيران في قصر داود بجدة لا تجد من يخدمها ، ومضى لحيها يضى ، المدينة المظمورة ، وتنعكس أضواؤها المفزعة في مياه الفيضان فتزيد الأمر هولاً ؛ وهكذا احترق قصر داود العظيم ، وأنت النيران على ما فيه من طرائف وغوالي ، وجند قاسم يعيشون في البلد فساداً كأن الأمر لا يعينهم إقار الناس بهم وهموا للدفاع عن داود ؛ ووصل على رضا بجيشه في هذه الاثناء ، فهم أهل بغداد وجند داود يردونه عن البلد ويمسكونه على أسوارها ، وهكذا قام الناس يكملون ما فات الوباء أن يصنعه ، وابتدأ صراع عنيف بين الجانبين ، صراع طال مداه عشرة أسابيع حتى ثلست حكومة الاستانة من توفيق على رضا فبعثت إليه تستقدمه وتصرفه عن بغداد ، ووجد الرجل أن الارتداد عن المدينة محال ، لأن جنده لا يرضون على الالتفاف حوله إلا على أمل الغنيمة في بغداد ، فأقام على الحصار ، ووجد داود كذلك أن البقاء على هذه الحال لا يطاق ، وكان منذ حين مريضاً يستعز به الداء فلا يملك من الأمر شيئاً فصمم آخر الأمر على التسليم ، فتوضاً وصلى الصبح ومضى يهده الاعباء إلى القلعة وطرق أبوابها وطلب أن يسلم نفسه ، فلم تفتح له الأبواب فمضى إلى دار قريبة فدخلها ، ولبث حتى جاءه الجند في اليوم التالي يلقون القبض عليه ، وأخذوه إلى مجلس رضا حيث تبادل الرجلان التحايا.

وشربا القهوة سويا ، ومضى المنادون يعلنون الأمان في شوارع البلدة التي لم تبق نكبات الدهر منها إلا حطاما .

عزل داود

وارسل داود بعد ذلك إلى أوروبا ، فدخل القسطنطينية ، وهو لا يدري لنفسه مصيرا ، ثم نفى بعد ذلك إلى بروسة مع أسرته حيث بقي نحو عام ، وأرادت المقادير أن تكتب في حياة الرجل صفحة جديدة ، فاستبقاه رجال الدولة على أمل الاستفادة منه في الأزمات العصيبة التي أحاطت بالدولة إذ ذاك ، وتعافى الرجل من مرضه المثبت وأقبل على العمل من جديد فأقيم واليا للبروسية ، ثم عين رئيساً لمجلس الدولة في الإستانة ، ثم نقل حوالي سنة ١٨٣٩ إلى ولاية أنقرة ثم إلى بروسة ، ثم كان ختام حياته جديرا بمكانته وماضيه ، إذ رضى عنه السلطان عبد المجيد وقدره ، فأقامه حارس الحرمين الشريفين بالمدينة المنورة وهناك قضى الرجل السنوات الثلاثة الباقية من عمره الطويل إلى جانب الحرم الشريف يستعرض هذه الحياة الطويلة الحافلة بالاحداث والمجد والويلات ، حتى وافاه أجله سنة ١٨٥١

نهاية الممالك
في العراق

وكان موت داود إيذا بنهاية عماليك العراق ؛ كانت قيادتهم قد صارت إلى إحد اتباع داود وهو صالح بك ، فلم يكفد المقام يستقر بعلي رضا في العراق حتى دعا الممالك إلى داره التي نزل فيها ، وهناك حصرهم حصراً عنيفاً وأطلق عليهم جنوده الألبان ، فاشتدوا عليهم حتى افقوهم عن آخرهم - حتى صالح بك نفسه ألقى من على حصانه وديس بسنابك الخيل - ووزعت في الناس أوامر السلطان بالقضاء على الممالك في كل مكان ، فتبعهم الناس حتى لم يعد لهم أثر ، وبهذا تم القضاء على هذه الفئة التي كان وجودها آخر ما بقي من دلائل العصور الوسطى في العراق ،

مذممة الممالك

ورأت بغداد مارأته القاهرة والاستانة قبل ذلك بسنوات

بهذا جرت الأمور في العراق على نحو يخالف ماجرت عليه في غيره من بلاد الاسلام في ذلك الحين ، فقد رأينا كل أجزاء الدولة العثمانية في مطلع القرن التاسع عشر خاضعة لسلطان الدولة ، ووجدناها في منتصفه خارجة على ذلك السلطان وقد بدأت شعوبها تتخذ سبيلها نحو الاستقلال وأنبأت قومياتها بالنشوء والميلاد ، هكذا رأينا مصر والشام والبلقان وغيرها ، فاما العراق فقد كان مستقلا عن سلطان الدولة في مطلع القرن التاسع عشر فاذا به داخلا في سلطانها سنة ١٨٣٩ ، وإذا بسلطان الأتراك يزداد فيه ظهوراً كلما تقدمت به الأيام في القرن التاسع عشر ، فحوالي سنة ١٨٠٠ كانت بغداد والبصرة

سلطان الأتراك يشتد في العراق

وكر كوك وحلب في يد حكام لا يعرفون للدولة طاعة ولا سلطاناً ، وكانت ولايات الحدود كهمدان وبابان وشهر زور والموصل تحت سلطان رؤساء عشائر أكثر استقلالاً وبعداً عن سلطان الدولة ، وأما في سنة ١٨٥٠ ، فاننا نجد ايلات العراق الأربعة مجموعة إلى لواء الباشا التركي المعين من قبل القسطنطينية ، يحكمها بسلطان ظاهر ونية صادقة لا خضاعاً للدولة تماماً ، وكلما تقدمت السنوات كلما ازداد العراق خضوعاً وطاعة ، وظهرت عليه دلائل سيطرة الدولة العثمانية ، بحيث لا نخطئ إذا قلنا ان العراق كان أكثر أجزاء الدولة العثمانية خضوعاً للسلطان وطاعة للدولة العثمانية إلى قبيل الحرب الكبرى .

العراق يستعيد من عودته إلى حظيرة الدولة

بيد أن ذلك كان خيراً للعراق لاضيراء عليه ، لعدة أسباب : أولها أن «الشعب العراقي» لم يكن قد نشأ أوقوى في ذلك الحين ، بل كانت البلاد مطمع كل مغامر وهدف كل طامع ، وأملا يتراوح بين الفرس

١ - ضعف لروح
المغوية في البلاد
اذ ذلك

والعرب والبرك ، وغنيمة تنظر اليها روسيا وانجلترا بجشع لا يخفى ،
وقد رأينا كيف كان ضعف سلطان الأتراك على هذه البلاد مضيراً لها
في السنوات الماضية ، وجاعلاً إياها ميداناً تحترب فيه هذه الدولات
وتتنازع على السلطان فيه ، من غير أن يكون في ذلك خير العراق أو
فائدة ، بل عاد ذلك عليه بالضرر البالغ والخراب المتواتر والشقاء الذى
لا ينتمى . ولو قد بقى العراق على حاله من شبه الاستقلال والخروج
عن طاعة الدولة للقى من صنوف الأذى شيئاً كثيراً ، لأن النزاع بين
الدول سيشتد خلال القرن التاسع عشر شدة لا تعرف هوادة ، فكان

٢ - دخول الأتراك
في طاعة الدولة بحمية
من مطامع الدول

نزاعها على العراق سيتضاعف ، ومن ثم يزداد به الأذى والضرر ، أما
دخوله في كيان الدولة من جديد فقد آمنه ونفى عنه الأخطار ، وثانى
هذه الأسباب أن الدولة العثمانية بدأت تصبح من حوالى منتصف
القرن التاسع عشر عضواً في المجموعة الأوروبية ، أى دولة محترمة
لا تجرؤ دولة أخرى على الاعتداء على شئ من زمامها ، فكان دخول
العراق في كيان الدولة من جديد ضماناً له من أى مطمع من دول
أوروبا ، فاستفاد العراق من مركز تركيا بعد مؤتمر باريس وغدا
استقلاله ، فضمونا لا تجرؤ دولة أوروبية على الاعتداء عليه في هذه
الفترة التى لم تسلم دولة ضعيفة خلالها من الاعتداء والأذى . وثالث
هذه الأمور أن العراق كان إذ ذاك ضعيفاً فقيراً لا قبل له بتكاليف
نفسه ، وقد كان محتاجاً في ذلك الحين إلى المال الكثير والنفقة البالغة
لشئون الرى والمواصلات والأمن والتعمير والتجارة والدفاع وما
إلى ذلك ، فكيف كان العراق يحصل على المال اللازم لذلك كله لولم
يكس تابعاً لدولة قوية بعض الشئ ، غنية بعض الغنى ، تقوم عنه ببعض
ما يعجز عنه من التكاليف والنفقات ، وتلك حسنة من حسنات
الامبراطوريات الكبرى وفضيلة من فضائل الانضمام إليها ، فان

٣ - فقر العراق
وضعفه اذ ذاك

مزايا الانضمام
للإمبراطوريات
الكبرى

الدويلات الضعيفة الصغيرة تفيد الفائدة كلها من الانضمام إلى الإمبراطوريات ذات القوة والحول، وتضعف ويضطرب حالها إذا انفردت بنفسها وأريدت على أن تقوم بنفقات نفسها، وهذا أمر نلاحظه إذا قارنا حال الأمم التي كانت داخلة في زمام الإمبراطورية المساوية أيام الإمبراطورية وبعدها، فلاحظ أن « الإمبراطورية الرومانية المقدسة » كانت أقدر على القيام بالمشاريع الكبرى في المواصلات والدفاع والحكومة والتجارة من هذه الدول الصغيرة، وأن التسامح كانت أحسن حالا وأرغد عيشا في ظل الإمبراطورية منها في هذه الحال التي هي عليها اليوم، وكذلك المجر وتشيكوسلوفاكيا ويوغوسلافيا وعامة الدويلات التي تفرعت عن الإمبراطورية المساوية القديمة، فدخل العراق في حظيرة الدولة فتمتع له الاعتمادات المالية الكبرى، ومكنه من الاستفادة من ميزانية تربو على ميزانيته أضعافا مضاعفة، وجعله في حماية جيوش كبرى وأتاح له الاستفادة من خبرة رجال ذوى كفاية وقدرة لم تكن متوفرة في العراق في ذلك الحين، ورابع هذه الأسباب أن البلاد كانت في ذلك الحين في أشد الحاجة إلى الاستقرار والهدوء حتى تستريح من عناء الأزمات الماضية وويلاتها، ولو قد تركت لشأنها لظلت قبائلها تضطرب في نواحيها وتحترب فيما بينهما فتزداد ضعفاً وتزداد البلاد سوء، فأما هذا الحكم القوي فقد أمسك القبائل عن الكيد والحرب وأثبتها في أرضها فالتفتت إلى الزراعة، وكان في التفاتها هذا بعثا جديدا للعراق، لأن العراق قطر زراعى يحيا بالزراعة كمصر سواء بسواء وخامس هذه الأسباب أيضاً أن هذا الحكم القوي قد عمل — كما سنرى — على قتل النزعات الانفصالية التي كانت قائمة في نفوس القبائل والعشائر، إذ أن كلا من هذه القبائل كان قد طال بها الاستقلال في ناحيتها ومضت

عـ البلاد في حاجة إلى
الهدوء والاستقرار

هـ القضاء على نزعات
القبائل والعشائر في
الانفصال

لا تحفل إلا بالانفصال بناحيتهما ، ومعنى هذا تفرق وحدة البلاد في السنوات التي كان ضروريا لها أن تتحد فيها ، فكان الحكم العثماني ضربة قاضية على النزعات الاستقلالية ، إذ أنه أخضع نواحيه كلها اليد واحدة ، بدأت وحدة العراق في الظهور وأحس رؤساء العشائر — للمرة الأولى — وبهذا أهم أعضاء في بدن واحد بدأت تنشأ في قلوب هؤلاء الزعماء مشاعر الحب للوطن الواحد الجديد ، وأعان على ذلك أن الأتراك لم يتركوا العراق مقسما إلى أربع إيالات كما كان بل ، أخذوا ينحون نحو توحيده وجمعه كله إلى لواء واحد

إلى تلك الأسباب ترجع أهمية السنوات التي انقضت بين زوال المماليك وعودة العراق لحكم الأتراك ، فهي سنوات الحضنة للشعب العراقي على ما فيها من مساوي وعيوب ، لأن رعاية الآب خير للصي من تركه للحوادث ترعاه وهو بعد حدث لا يميز ولا يشعر بنفسه : أيّا كانت حالة الآب ومهما بلغ الصي من الحصافة والتوقد والذكاء ويندنا تأكدا من أهميتها أن المطامع الأوروبية — الانجليزية على وجه الخصوص — كانت قد اتضحت وأخذت شكلا خطيرا أجدا في هذه السنوات ، ففي ذلك الحين تم لبعوث الانجليز كشف النهرين ودراسة مائتيهما ، ورسم المصورات لهما ولبلاذ العراق عامة ، وأعقب ذلك تسيير سفن منتظمة بخارية في النهرين واستعمالها في النقل من الخليج الفارسي الى البحر الأحمر ، فلم يفتل عمال الأتراك لذلك ولولم ينشطوا للقضاء عليه بمنافسته تارة وبالاشتداد على الشركات الانجليزية تارة أخرى ، أصبحت هذه الخطوط الملاحية قيذا يقيد العراق ويخنقه كما أصبحت قناة السويس في مصر بعد ذلك ، كذلك كانت التجارة الانجليزية قد بدأت تنظم وتوسع في البلاد اتساعا استتبع اهتماما سياسيا من جانب الانجليز ، فلم يكن العراق تابعا للأتراك في ذلك الحين

توحيد العراق اداريا

نشاط الانجليز
في البلاد

السفن التجارية
في النهرين

نشاط التجارة
الانجليزية في العراق

لا يتلعه الانجليز على هيئة كما ابتلعوا الهندو بلوخيستان عن هذا الطريق. لآعن غيره ، وكانت تلك السنوات كذلك سنوات النزاع الحاسم بين الروس والانجليز على فارس ، وكان هذا هو المصير الذي ينتظر العراق لو لم يكن في رعاية خايفة آل عثمان ، وهكذا : كلما انقضى عام انضج للأوروبيين جانب من جوانب الخير الذي يفوزون به لو كان العراق تابعاً لهم ، فيزداد بذلك تعلقهم به وسعيهم للاستثمار بأرضه ، وسنرى ذلك واضحاً في زيادة الاهتمام بمشاريع سكة الحديدو بعوث الكشاف. العلبي التي أخذت في هذه السنوات تنوافد إلى العراق للتنقيب عن أثار الحضارة القديمة فيه ، كل تلك أسباب أخرجت العراق من عزلته وجعلت تضعه شيئاً فشيئاً في مجرى التيارات الخطرة التي كانت تعصف بالسياسة الدولية في هذه السنوات ، وما كان قديراً على المنازعة ولا المساجلة وهو بعد يخطو نحو حياة جديدة، فكان في انتسابه إلى الدولة العثمانية إذ ذاك رعاية له وحفظاً على نحو من الانحاء

البعوث العلمية
في العراق

العراق يخرج من
عزله

كذلك كانت العلائق بين فارس والعراق تسوء رويداً رويداً في هذه السنوات، لأن أسباب النزاع والبغضاء القديمة بين الأتراك والفرس لازالت قائمة ، ومن ثم لازال خطر غزو فارس للعراق قائماً ، ذلك أن القبائل المتبديية كانت لا تفتأ تنتقل بين ارض فارس والعراق. تسبب بهذا مشا كل لانهاية لها ، وتوجد أسباباً للنزاع كل يوم ، وكانت الحقوق الى يدعيها الفرس في الأما كن المقدسة في جنوب العراق موضع النزاع بين الفرس والأتراك وسبباً دائماً في التجرش والعداء، وكذلك كان تجار فارس يلقون من الأذى شيئاً كثيراً من باشوات العراق ، فكان هذا يشير الشاه ويحفزه إلى التفكير في الانتقام من الترك بضرهم في العراق ، وزاد ذلك العداء حدة ما كان الولاية العثمانيون يفعلونه من إيواء الخارجين على طاعة الشاه في بغداد، وكان

سوء العلائق
بين فارس والدولة العلية

الحيان إلى ذلك لا يكفان عن النزاع على بعض بلدان الحدود التي يسكنها ترك و فرس أو فرس وعرب ، كبلة المحمرة التي هاجمها على رضا سنة ١٨٣٧ ، فطلب الشاة تعويضا عما نتج عن ذلك من الخسائر ، ولا زال الموقف بين الجانبين دقيقا ينذر بالشر حتى اتفقا في معاهدة أرضروم الثانية سنة ١٨٤٧ على أن تبقى المحمرة في زمام فارس ، وأعقب ذلك تأليف لجنة من الفرس والترک والانجليز والروس لتقرير الحدود بين البلدين ، فلم تنته إلى حل صريح للمسألة بسبب مطامع الجانبين واصرارهما على الخلاف ، وأعقب ذلك نشاط الانجليز والروس في رسم خرائط للمناطق بين العراق وفارس مما انتهى بأقرار الحالة وتحديد الحدود بعض الشيء في اتفاق عقد سنة ١٨٦٩ استقرت به الأمور في موضعها إلى حين .

وكانت المصالح الانجليزية في العراق قد تطورت تطورا استتبع تطور مركز الانجليز العراق من الانجليز سياسة جديدة فيها من الخطر على مستقبل البلاد السياسي الشيء الكثير ، فبينما كان القنصل التجاري الانجليزي في العراق لا يطلب في القرن الثامن عشر غير مراعاة الامتيازات وكف الاعتراف عن الرسل والتجار ، أصبح المقيم الانجليزي في القرن التاسع عشر راعياً لشركات ملاحية كبرى ذوات رؤس أموال ضخمة ، وحارساً لخطوط تلغرافية بذل الانجليز الأموال في إقامتها ، وأصبحت الدول الكبرى تعول على قيامها وسلامتها في شئون امبراطورياتها في الشرق مما يلي العراق ، وكان كذلك قد أصبح مشرفا على هيآت علمية فيها فيها طائفة من العلماء تتبع المجالس العلمية في أوروبا ودهم بيقظة واهتمام عظيمين ، وكان مسئولا إلى ذلك عن عدد عديد من المؤسسات الخيرية كالمدارس والمستشفيات (١) ، وبلغت أحرأ أصبحت

له في العراق مصالح معينة يرعاها ويحرسها ، ولم تكن دولته كذلك أقل منه حرصا على ذلك ، وكلما انقضى يوم زادت هذه المصالح الانجليزية في العراق خطورة ، وجعلت الانجليز يتشبثون بأرضه ويسكرون في أسلوب يؤدي بهم إلى الاستيلاء عليه ، ومن هنا تغيرت السياسة الانجليزية نحو العراق تطورا خطيرا بالملاحظة اتجهت همه ولاية الأتراك وموظفيهم إلى تقوية الحكومة المركزية والقضاء على كل سلطة منافسة أو معادية لها ، فانصرفت عنايتهم كلها إلى القضاء على رؤساء العشائر ومن اليهم من ذوى السلطان النافذ القديم في بعض مدائن الحدود ، ومن هنا لم يجد الباشوات متسعا من الوقت لادخال الأنظمة والاصلاحات الأوروبية في البلاد، وربما كان أقوى أسباب ذلك أنهم لم يكونوا يفهمون هذه الاصلاحات أو يقدرونها قدرها ، ومن ثم لم نجدهم يشرعون في تعليم أهل البلاد تعليما حديثاً ، ولم يشرعوا في إنشاء مصانع جديدة ، ولم يفكروا في إدخال الأساليب الصحية الحديثة كما فعل محمد علي في مصر مثلاً ، ومن ثم سارت حركة الاصلاح في العراق سيرا بطيئاً جداً في المدة التي انقضت بين ولاية علي رضا وقدم مدحت باشا: الذي بدأ العمل المستج الاصلاحى في سنة ١٨٦٨ ، بل لم يبدأ الولاية في تنفيذ إصلاحات محمود الثانى وعبد المجيد إلا في عهد نجيب باشا أى بعد سنوات طويلة من القضاء على دولة المماليك . ولم يبد في نواحي العراق من معالم التجديد إلا وجود طبقة منتظمة من الأفندية الموظفين يتولون شؤون الادارة ويرتدون الملابس الأوروبية ، وربما كانوا أكثر فهما من غيرهم للحضارة الحديثة وأكثر تقديرا لها . وذلك مأخذ عظيم يؤخذ على الترك في ذلك الحين ، فلم يكن من الانصاف في حق بلد كالعراق أن يهمل الاصلاح فيه — هذا الإهمال المعيب في تلك الفترة التي كانت

تقوية الحكومة
المركزية

تد. حركة الاصلاح

الدول تعدو فيهم. نحو التحضر بالحضارة الغربية عدوا .

والسبب في ذلك راجع إلى قصور ولاية الأتراك عن فهم الحضارة
الأوروبية وفي جهلهم لواجباتهم حيال البلد الذي وكلت اليهم أموره،
فعلى رضا نفسه لم يكن على شيء من القدرة في الحكم أو الاخلاص في
في عمله، فظلت البلاد على اضطرابها في عهده حتى ولى أمورها نتجيب
باشا سنة ١٨٤٢، فكان أقدر منه وأوسع فهما، وصرف همه إلى مقاومة
النفوذ الأجنبي في البلاد، ثم أعقبه بعد قليل محمد رشيد باشا الملقب
بجزليسي فكان شديراً من سابقه، وكان حكمه أعود على العراق
بالخير، وصرف همه إلى مقاومة مفسد الموظفين فأخدمهم بالشدوة وعنى
عناية شديدة بإنشاء قنوات الري في العراق، وأعقبه باشوات آخرون
لا يكاد التاريخ يذكر لهم شيئاً ذا أثر (١)

أما الذي استنفد جهد الولاة واستغرق اهتمامهم فقد كان توحيد
البلاد والقضاء على كل منافس لسلطة الخليفة العليا، وذلك أجل ما قدم
الأتراك للعراق من الخدمات، فقد اشتد الباشوات في القضاء على النزعة
الاستقلالية التي كان يقوّمها في الموصل آل الجليلي، وتمكن محمد باشا الملقب
بانجه بيرقدار من القضاء على سلطانهم في حدود سنة ١٨٣٥، فماد الموصل
جزء من العراق لا ينفصل عنه تارة إلى ديار بكر وتارة أخرى إلى فارس،
وكان شمالي العراق مقسماً إلى اقطاعيات تنفرد فيها بالحكم بيوت قديمة
جعلت منه دويلات منفصلة عن العراق، فذشط الباشوات في القضاء
على هذه البيوت واحداً فواحداً، حتى قضوا عليها في ماردين وشروان
وبرادست وسرشي وأربل وما إليها . كذلك كان جنوب العراق

القضاء على آل الجليلي
في الموصل

(١) هم مصطفى نوري باشا (١٨٥٩) وأحمد توفيق باشا (١٨٦٠) ونامق باشا (١٨٦١) وتقي
الدين باشا، ولم يحس أحد من هؤلاء حاجة البلاد، فظل اصلاح العراق مرهوناً بوال قادر حتى
صارت الامور سنة ١٨٦٨ الى مدهت باشا أبي العراق الحديث

طعمة لبعض ذوى السلطة من رجال العشائر ، فلم يزل على رضا ومن تلاه يواترون الحملات والجهود حتى قضوا على كل آمال مشايخ النجف وكر بلاء وغيرهما فى الاستقلال ، وعاد جنوب العراق إلى الطاعة والاتحاد .

علاج مشكلة القبائل فإذا أصبح العراق وحدة سياسية معينة الحدود والتخوم ، فقد نشطت الولاية فى علاج مسألة القبائل التى كانت لا تستقر فى ناحية واحدة ، ولا تمكن أهل البلاد من مباشرة الزراعة وما إليها من وسائل الرزق المنتظم الذى يمهّد للنهوض ، فكانت هذه القبائل تمنع الحكومة من إقرار الأمن وتعوق المواصلات وتأبى الخضوع لأوامر الحكومة المركزية ، فلم يكن من الميسور القيام بأى إصلاح أو إحداث أى تقدم مادامت هذه القبائل على حالها من الاستقلال والعصيان والاستعلاء ، وكان خليقاً بالولاية أن ينهضوا لردها إلى الطاعة ، بيد أنهم أخطأوا فى السبيل التى سلكوها لعلاج هذه الحال ، فقد لجأوا للقوة وحدها فأثاروا الحفاظ وهأوا القلوب ضغناً. وكان أولى بهم أن يتعدوا عن كل أذى أو عنف ، فهؤلاء الرؤساء قوم لهم مكانهم ولهم « حقوقهم » التى كسبوها بمرور الزمن ، وكانوا خير أهل البلاد وذوى الكلمة المسموعة فى النواحي والأقاليم ، ولم يكن إقرارهم يأتى عن سبيل السيف بل عن تمهيد طريق الزراعة لهم ، كان على الحاكم أن يتوجه إليهم بالنصح فيقول لهم « كفوا عن العيش على هذا النسق ، وعيشوا على الأسلوب الأحسن الذى سنمكن لكم منه » ولم يكن الحل الصحيح للمشكلة القبلية الدائمة هدم القبائل عن طريق الضربات الدامية بل تمهيد حياة جديدة لرجالها يقبلونها ويفضلونها ، وكان حل المعضلة التى صادفت نامقاً ونيجيباً هو أن يقولوا لرؤساء العشائر « أقرؤا قبائلكم فى الأرض ، وعاونوا رجالكم على أن يروا أرضهم بالقنوات ، آمنوهم على ما بأيديهم ، ولا تهرضوا عليهم إلا الضرائب الخفيفة العادلة ولا

خطأ ولاية الترك
فى سياستهم مع العشائر

تسمحوا لأحد أن يعدو على أرضهم ، وكافؤوا المحس مكافأة طيبة
وخذوا المسىء أخذاً ينفعه» (١)، فأما الشدة والعنف ، وموالاته الحملات
والبعوث فلم تكن له من نتيجة إلا تفريق القلوب وإقامة الثارات بين
القبائل وبعضها ، وبينها وبين الحكومة المركزية ، وقد حدث ذلك
بالفعل نتيجة لحروب نجيب باشا وشدة وسعياته بين القبائل وبعضها ،
وإنما هدأت الأحوال بعض الهدوء حين اهتم جليلي باشا بالقنوات
للزراعة ، فانصرفت القبائل إلى الزرع ووجدت أنه أعود عليها بالخير
من مناجزة الحكومة ، فسارت إلى الطاعة دون حرب أو سعاية ؛ في
هذه الناحية فشل الحكم العثماني فشلاً أضر بالبلاد وعاقها عن المضي
في مدارج التقدم والحضارة .

هكذا مضى العمال يخبطون خبط عشواء في سياسة البلاد ،
فأفسدوا باليسار ما أصلحوه باليمين ، وربما أحسن أحدهم فأفسد
خليفته عمله . ومضت البلاد في بطن السلافة في طريق الرخاء
والاستقرار الذي هو الخطر الأول للتقدم ، إذ لا يتاح للناس أن ينظروا
إلى الحضارة والسمو إلى شأوها إلا بعد أن يقرؤا في منازلهم وتهدا
أحوالهم ويسكنوا إلى أرزاقهم .

مئة كسى في
العراق

في ذلك الحين كانت الدول والشركات الآروبية وحكومة الهند
وشركتها تواتر الجهد في الوغل في العراق وتمهيد بواحيه لطريق
الهند ، فبيما كان أهل البلاد يضربون بمجاديفهم الثقيلة ليتنقلوا بين
ضفتي دجلة والفرات كان كسني وأصحابه يمشون عباب النهرين
بسفينتيهم البخاريتين « دجلة والفرات » ويمسحون شطآنهما
ويسبرون مياههما ويقدرون صلاحيتهما للملاحة ، لا تمنعهم عاصفة
هوجاء تنرق إحدى سفنهم وتقتل نفرا منهم ، ولا يعوقهم ركود

(1) Longrigg; Op. Cit, P, 289

الماء في مستنقعات الملوحة ، حتى انتهى بهم الأمر إلى بعض الاطمئنان إلى إمكان الملاحة التجارية في النهرين ، وبعد ذلك بسنوات قليلة — حوالي سنة ١٨٣٩ — انتهى بلوس لينش من بحوثه وأنشأ شركته الملاحية ، واستقدم سفناً تقوم بالنقل النهري المنتظم في دجلة والفرات ، وأخذ يمد الطريق لجعل النهرين جزءاً من طريق دائم بين الهند وإنجلترا ، وبدأ في مفاوضات تجار الانجليز في الهند وإنجلترا لإنشاء ذلك الطريق معتمداً على نتائج الابحاث العظيمة التي قام بها استعمار يون مهابرون من أهثال فيلسكس Felix وجونز Jones ، سلبى Selby وكولنجوود Collingwood وبويشر Bewcher ومن اليهم . حتى تمكن من إنشاء شركة بلغ من نجاحها أن استلقت أعمالها التفات رشيد باشا جزليكي ، فاهتم بمعارضتها بالشده حينما وبأنشاء شركة ملاحية أخرى برؤوس أموال عراقية تارة أخرى ، وقد وفق جزليكي توفيقاً طيباً فيما أراد ، واشترى سفينتين من بلجيكا هما « البصرة » و « بغداد » ومضى يعمل بهما في النقل للحكومة والتجار بنجاح أفاق الانجليز ، فمضوا يستعدون عليه السلطات في الاستانة ، ولم يمنعه ذلك من المضي في طريقه بنجاح شجع خليفته نامق علي شراء ثلاث سفن لمنافسة السفن الانجليزية بها ، واستمرت سفن العراقيين « الموصل » و « الفرات » و « الرصافة » تنقل صاعداً هابطاً في النهرين زماناً طويلاً .

بلوس لينش يشي
شركة ملاحية
في العراق

الوالي التركي يعمل
على ابعاد الشركة
الانجليزية

شركة ملاحية من
الانراك واهل
البلاد

وفي ذلك الحين أيضاً كان المهندسون الأوروبيون يطيلون النظر إلى العراق وأرضه لتصميم إنشاء سكة برية بين الخليج الفارسي والبحر الأبيض ، هذا التأمل الذي كانت ثمرته سكة حديد بغداد بعد ذلك بسنوات . وكان تواتر الاضطراب واضطراب الأزمات قد صرف الناس تماماً عن التفكير في التجارة أو طرقها فإندمدت السبل

مشاريع السكك
الحديدية

بين المدن وبعضها ، وخلت المدن نفسها من الشوارع الصالحة لمسير العربات ، فكانت حركة التجارة في شبه ركود تبعاً لذلك ، وكانت الصلة بين أقسام العراق وبعضها : بين شماله وجنوباً شبه منعدمة ، فكان ذلك من أسباب تفرق البلاد وعدم شعور أهلها بروح الوحدة ، فكان من خير العراق أن نظر إليه الأوروبيون كطريق صالح للهند لأن ذلك بعثهم على العمل لشق الطرق في البلاد من الشمال إلى الجنوب — من البصرة إلى حلب — وإلى التتبع في الوسائل التي يمكنهم بها الانتقال من حلب للشام أو لبلاد الدولة العثمانية ، أى للتتبع في الوسائل التي تقطع وحدة العراق وتصله بالعالم الخارجى صلة منتظمة ، وكان أول من فكر في ذلك رجل فرنسى هو الكونت دى برتريس Comte de Perthéris الذى قطع الطريق من دمشق إلى بغداد ، ثم وضع مشروعا لطريق منتظم للعربات بين البلدين ، وقد لقي مشروعه التقدير من التجار في الشام والعراق ومن رؤساء القبائل الذين مر بهم ، لأن الطريق الجديد كان يصلهم بالعالم ويعود عليهم بالربح الوفير ولكونه أثار مخاوف نامق باشا الذى قدر في نفسه وجود علاقة بين بواخر شركة لينش — التي تقطع المهرين من البصرة إلى بغداد وحلب — وهذا المشروع الذى يكمل الطريق إلى البحر الأبيض ، فخاف تخبة هذا التدخل والترسيم ، وأشفق كثيراً من اتصال الأوروبيين برجال القبائل ونشوء العلاقات بين الفريقين ، فعمل على إحباط المشروع حتى تمكن من ذلك حوالى سنة ١٨٦٥ . وكان أناس آخرون يفكرون في إنشاء الخطوط الحديدية في العراق ، فوضع أحد التجار الأيرلنديين مشروع سكة حديدية عظمت من كاليه إلى بكين مارة بالعراق ، وهو مشروع خيالى لم ينته إلى شيء ، ولكونه فتح طريق التتبع في إنشاء السكك الحديدية بالعراق لا يصلح الشرق بالغرب ، وإنما أغرى

س. المواصلات
في العراق

مشروع
دى برتريس

مشروع حط حديدى
من كاليه الى بكين
مارا بالعراق

الأوروبيين بالبدء بالتفكير في إنشاء الحلقة التي تمر بالعراق سهولة أرضه وإمكان مد الخطوط الحديدية فيها ، وخلق معظم الطريق — من البصرة (أو القرنة) إلى بغداد — من المرتفعات أو الأرض الصلبة التي تعسر مد الخطوط الحديدية ، ولهذا تتابع المهندسون إلى العراق يبحثون الوسائل التي تؤدي إلى تحقيق ذلك الأمر ، ففي سنة ١٨٤٣ وضع Alexander Campbell مشروع سكة حديدية بجذاء الفرات ، وشجعت شركة الهند على وضع الخرائط اللازمة لذلك ، ثم تبعه John Right سنة ١٨٤٩ فاقم ترسيم المشروع ، ولكنه لم يوفق إلى البدء في العمل ، وكذلك الدكتور J. B. Thomson الذي توفي في الأستانة حوالي سنة ١٨٥١ ، وبعد ذلك بقليل دعا W. P. Andrew إلى تكوين شركة للحصول على رأس المال اللازم ، ودعا كبار المستكشفين في أرض العراق للعمل معه على تنفيذ ذلك المشروع ، فاجتمع اليه لينش وكسني وما كنيل ووضع الجميع خطة معقولة ممكنة التنفيذ لطريق يصل خليج فارس بالبحر الأبيض ، وقد أثار المشروع حماس بلهرستون وتأييد سترا تفورد كاننج ولكنه — أي اندرو — لم يجد المال اللازم ، فلم يتم منه إلا حوالى الثمانين ميلا بين سلوقية ونهر الفرات ، واكتفى المشتركون بالاعتماد على البواخر للنقل بين أعلى الفرات والخليج ، واستمرت الجهود متصلة في هذه الناحية حتى انشئت قناة السويس فلم يجد الانجليز داعيا إلى موالاة الجهود في العراق مادامت القناة الجديدة قد فتحت لهم طريقاً مائياً سهلاً للهند ، ومن هنا أرجى التفكير في مشاريع سكة الحديد والمواصلات في العراق .

كامل يضم مشروع
خط حديدى بهذا
الاهات

اندرو يعمل
لتأليف شركة لهذا
العرض

انشاء قناة السويس
بصرف نظر الانجليز
عن التفكير في
المواصلات بالعراق

بيد أن ذلك لم يمنع التفكير في إنشاء خط تلغرافى يقطع العراق من الشمال إلى الجنوب ، وقد فضل الانجليز تسيير الخط عن ذلك

حط للتراف

الطريق — لاعن طريق مصر — لأنهم قدروا أن الدولة العثمانية لا بد
 مشتركة معهم في نفقات إقامته لما يعود عليها من المنافع إذا تم واتصلت
 البصرة بالاستانة بخط تلغرافي ، لأن ذلك يعينها على الحكم ويوجد
 لها طريقاً سريعاً للاتصال بولاياتها ، ولكن الأتراك تخوفوا من مشاريع
 الانجليز في أول الأمر ، ولم يمدوا يداً لمعاونتها ، لأن مشروع الانجليز
 كان يرمى إلى مد أسلاك بحرية Cables تحت الماء من الهند إلى البصرة
 وفي مباءة الفرات إلى بغداد ثم على سطح الأرض إلى الآستانة : لاحظ
 الأتراك أن ذلك الخط يراد به الاتصال بالهند فتخوفوا ما قد ينتج
 عنه بعد ذلك . ولم يدخر الانجليز وسعاً في مواصلة المسعى حتى تم
 الاتفاق بينهم وبين الأتراك حوالي سنة ١٨٦١ على أن يقوم
 المهندسون الانجليز بإنشاء الخط لحساب الأتراك وحدهم ، وبهذا
 أنشئ الخط التلغرافي من الآستانة إلى بغداد حوالي ذلك الوقت .

الأتراك يتحوفون
 مرامي الانجليز

اشاء خط تلغرافي
 من الآستانة الى
 بغداد

واستمرت جهود الانجليز في ذلك السبيل حتى أضافوا الى الخط فقره
 جديدة وصلته إلى خانقين جنوبي بغداد سنة ١٨٦٣ ، ومن ثم اتصل
 تلغراف العراق بخط فارس التلغرافي وتم إيصاله بخط الخليج
 الفارسي والهند ، وهكذا لم ينقض هذا القرن حتى كانت شبكة
 تلغرافية قد وصلت نواحي العراق كلها وربطت البلاد الرئيسية جميعها

شباك الانجليز
 للعراق

وهل كانت شبكة التلغراف إلا إيذاناً بشبكة أخرى يدبر الصائد
 الأوروبي ، القاهها على العراق لصيده جملة ، وهل يقنع الأوروبيون
 من هذا البلد الجميل بتلك الحصاة القليلة ، أتتسى أوروبا خصب العراق
 ومعادنه وتجازته وما يعود عليها من الربح إذا هي أتت الاستيلاء
 عليه ؟ .. لقد وضع الانجليز خرائط دقيقة لأرضه واتقنوا ترسيمها ،
 وأقام منهم قنصل عظيم الشأن في بغداد ونائبون عنه في مدائن العراق
 الكبرى ، وامتدت خطوطهم التلغرافية في كل ناحية فيه ، وأقبل بحاثهم

إلى بلاده يبحثونها ويدققون في تأمل أحوالها ، وخف إلى بلاده المنقبون والباحثون يزبحون الستار عن حضارته الزاهية وازدهاره القديم ، فلم يبق لديهم شك في أن هذه البلاد كنز عظيم ينبغى المبادرة إلى الاستيلاء عليه ، وزادهم استمساكا به قربته من الهند وضرورته لمواصلاتها ، لقد بان ذلك كاه الانجليز واضحا جليا ، وعلينا نحن أن نعرف ماذا كان يدبر للعراق في لندن إذ ذاك ، وعلينا كذلك أن نلبس الغاية التي كانت البلاد تمضى إليها في هذه السنوات .

محز الانراك عن
حماية البلاد

وكان الأتراك يعرفون ذلك ويطوون أنفسهم على الخشية منه ، ولكن ما حيلة العاجز ؟ أنهم يبذلون الجهد في الاحتفاظ بكيانهم ولا يكادون يخرجون من حرب حتى يدخلوا في أخرى ، فأين لهم الفراغ لدراسة مشاريع العراق والعمل على استنقاذه من الشبك التي كانت تحاك حوله ، أين لهم القدرة على إحباط هذا السكيد والنجاة برعيته من المسبغة الدائرة ؟ فلتطو تركيا نفسها على الخوف ، ولتسكتف بأرجاء الواقعة ما أمكن الأرجاء ، حتى يرزقها الله بمدحت باشا الذي ترسله المقادير الى العراق حوالى سنة ١٨٦٨ ليضع الأمور وضعا جديدا ، وليبدأ للبلاد عهدا جديدا من الحضارة ، ويمهد لهضة العراق الحديث .

تم الجزء الأول والحمد لله

مراجع عامة (١)

١ — مراجع عربية وتركيبية وفارسية

- ابن إياس
بدائع الزهور في وقائع الدهور (بولاق ١٣١١ هـ)
ابن خلدون :
- العبر وديوان المبتدا والخبر (بولاق ١٢٨٤ هـ)
ابن عساكر :
- تاريخ دمشق
ابن واصل (٧٢٥ هـ)
مفرج الكروب في أخبار بني أيوب (مخطوط بدار الكتب بالقاهرة)
أحمد بن إبراهيم الصائفي
تاريخ حماه (حماه ١٣٣٢ هـ)
أحمد فارس الشدياق
الحوادث التاريخية والوقائع الدولية
أسكندر بك إيكاريوس
المناقب الإبراهيمية والمسأثر الخديوية (حمص ١٩١٠)
أسكندر بيج تركمان
فارس تاريخ عالم أراي عباسي (طبع حجر في طهران سنة ١٣١٤ هـ)
أمين بن حسن الحلواني المديني — المتوفى سنة ١٨٤٤ م
مطالع السعود
طُبع في بمباي سنة ١٣١٣ م (طبع حجر) وهو مختصر للتاريخ الذي وضعه الشيخ
عثمان بن سند البصري، الذي يبدأ أحداثه سنة ١١٨٨ هـ (١٧٨٤ م) وهي سنة ميلاد داوود
-
- (١) لم تقتصر هنا على إيراد المراجع التي اعتمدنا عليها في كتابة هذا الكتاب ، وإنما حرصنا على
على أن نضع أمام القارئ ثبوتا وافيا من المراجع التي تناول الكلام على الشرق الاسلامي وعلاقته بالغرب في
الفترة التي تولينا دراستها .

باشا، وينتهي سنة ١١٤٢ هـ (١٨٢٦ م). وقد روى الحلواني في مطالع السعود الحوادث إلى سنة ١٨٣١ ميلادية، واعتمد على دوحة الوزراء في اجزاء كثيرة من كتابه انستاس الكرملي (الاب) :

خلاصة تأريخ العراق : طبع البصرة سنة ١٩١٩ م
موجز مختصر جدا لتاريخ العراق من القديم إلى الحديث مع اشارات معترضة عن أحوال البلاد . وقد اعتمد اعتمادا شديدا على « غاية المرام » الذي سيرد ذكره أيوب صبري :

تأريخ وهايان (استامبول ١٢٩٦)

باز رستم :

تاريخ الأمير بشير الشهابي (مخطوط بمكتبة الجامعة الأمريكية في بيروت تحت رقم ٣٨٤٧٨)

الجبرتي :

عجائب الآثار في التراجم والأخبار (القاهرة سنة ١٣٢٢ هـ .)

جورجي زيدان

تاريخ المدن الاسلامي (القاهرة ١٩٢٥)

جورجي زيدان :

تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر (مجلدان . القاهرة ١٩٠٢)

حافظ وهبه

جزيرة العرب في القرن العشرين (القاهرة ١٩٣٥)

حروب الايرانيين :

مخطوط كتب في بغداد حوالى سنة ١٨٨٠ م . ويتناول تاريخ العراق من سنة ١٧٢١ م الى سنة ١٧٤٦ م وقد اعتمد على دوحة الوزراء كثيرا

حسن توفيق افندى

حوادث ولاية الموصل سنة ١٣٢٥ هـ

بالتركية ، ويجد القارىء فيه تفاصيل وافية لحصار بغداد على يد نادرشاه (سنة

١٧٤٣ م) وولاية انجه يرقدار (١٨٣٥ - ١٨٤٣) وفيه جدول شامل لولاية الموصل من سنة ١٠٠٠ هـ الى حياة المؤلف

حسين لبيب

تاريخ الاتراك العثمانيين : (٣ اجزاء القاهرة ٣٣٥١)

حنّا ابو راشد :

تاريخ جبل الدروز (القاهرة ١٩٢٥)

حوادث ولاية بغداد سنة ١٣٢٢ هـ (١٩٠٤ م)

بالتركية وفيه ثبت واف . كام بغداد ابتداء من سنة ١٦٣٩ م . وسنوات حكمهم

خيرت افندى :

رياض السكتبا وحياض الادبا (بولاق ١٢٤١ هـ ، ١٨٢٥ م)

داوود بركات :

ذكرى البطل الفاتح ابراهيم باشا (القاهرة ١٩٣٢)

درى افندى

. دورى افندى سفار تنامه سى :

مخطوط بالتركية . وقد ترجمة M. Petits de la Croix وطبعه في باريس

سنة ١٧٣٩ م .

رسول حاوى افندى

دوحة الوزراء :

مطبوع ومخطوط وكلاهما نادر ، الفه صاحبه بالتركية للوالى داوود باشا بين

سنتى ١٨٢٧ - ١٨٢٨ - وطبع في بغداد سنة ١٢٤٦ هـ (١٨٣٠ م) بعناية مرزا

محمد بكير التفليسى ، وهو تكملة لكتاب نظامى زاده الآنف الذكر ، ويتناول تاريخ

العراق من سنة ١٨٨٨ م الى سنة ١٨٢١ م

رشيد بن على الحمبلى :

مشير الوجد في معرفة انساب ملوك نجد (في نسب آل سعود ، وبه فذللكة عن

تاريخهم حتى عام ١٢٩١ هـ . مخطوط في حيازة المؤلف

سليمان بك بن حاجي طالب
بغداد كوله من حكومتك تشكيلة انقراضه دائر رسالة
أى تاريخ نشوء حكومة المماليك في بغداد وسقوطهم
كتاب صغير يتناول الحوادث في العراق بين سنتي ١٧٤٩ - ١٨٣١ وقد ألفه
سليمان بك بن حاجي طالب كيه ، واختفى تحت اسم مستعار - وتوجد منه ثلاث
أواربع نسخ مخطوطة في بغداد ، ونسخة في القاهرة وأخرى في الآستانه

سليمان بك بن حاجي طالب كيه

مرآة الزورا :

يتناول تاريخ العراق من منتصف القرن الثامن عشر تقريبا الى منتصف ولاية
على رضا باشا ، توجد منه نسخة خطية ، يرجح انها مسودة ، اما النسخة المنقحة فيظن
انها ضاعت اثناء نفى المؤلف .

سليمان صايغ :

تأريخ الموصل : طبع القاهرة سنة ١٩٢٤

ليس فيه من جديد ، وهو كثير الشبه « بحوادث ولاية العراق » الألف الذكر ،
والكتابان يعتمدان كل الاعتماد على مخطوط عربي عنوانه « منهل الاولياء » لمحمد
بن افندي الحمري . ويتناول تاريخ الموصل

سليمان بك عز الدين :

ابراهيم باشا في سوريا بيروت ١٩٢٩

سيد ابراهيم فصيح

عنوان المجد في احوال بغداد وبصره ونجد

ملاحظات وصفية وجغرافية وتاريخية ونسبكية عن بغداد والبصرة وأهلها : ثم

تأليفه سنة ١٢٥٦ هـ (١٨٣٦ م)

شأنيزاده

الاجزاء الأربعة الأولى

تأريخ

شفيق غربال :

الجنرال يعقوب والفارس لاسكاريس وه شروع استقلال مصر في سنة ١٨٠١
(القاهرة ١٩٣٢)

الامير صالح بن يحيى بن الحسين — من علماء القرن التاسع الهجرى
تاريخ بيروت وأخبار الامراء المحققين من بنى المغرب (بيروت ١٩٠٢)
الشيخ طنوس الشدياق :

أخبار الأعيان في جبل لبنان (بيروت ١٨٥٩)
الهريق طه الهاشمى

مفصل جغرافية العراق (بغداد ١٩٣٠)

عبد الرحمن الرافعى بك

تاريخ الحركة القومية ، وتطور نظام الحكم في مصر ثلاثة مجلدات . القاهرة
١٩٢٩ — ١٩٣٠

عبد الرحمن بن عبدالله السويدي : حديقة الوزراء (١٧٢٢ - ١٨٠٥ م)
تاريخ مفصل للواليين احمد باشا ، وحسن باشا ولا توجد الآن الا نسخته المختصرة
التي قام بها سايمان أفندي الداخل عن نسخة أصلية بمكتبة حكمت الله بن عصمت الله
أفندي في استامبول

عبد الواحد بن الشيخ عبد الله باشعيان

زبدة التواريخ :

في ستة عشر مجلدا . مخطوط . يتناول تاريخ الخلافة في بغداد وتاريخ البصرة و
ويلم باطراف طويلة من تاريخ الدولة العثمانية وأخبار الحجاز ، وقد أورد المؤلف
فيه فقرات طويلة من مؤلفات أخرى كطالع السعود ، وانفرد بأخبار كثيرة
وتحقيقات فريدة

عثمان بن عبد الله

عنوان المجد في تاريخ نجد :

راجعته وصححه عبد العزيز المانع النجدي وسليمان الدخيل ، وطبعاه في بغداد

[مطبعة شهبندر . بغداد ١٣٢٧ هـ (١٩٠٩ م)]

سیدی علی رئیس :

مرآة الممالك ، ترجمه للانجليزية A. Vamböy بعنوان

Travels and adventures of the Turkish admiral

Sıdı Ali Reis

London, Luzac, 1899

ونشره في لندن سنة ١٨٩٩ . وقد نشرته مكتبة « اقدام » بالتركية (الاستاذنه ١٣١٣)

علي ظريف الأعظمي البغدادي

تاريخ الدول الفارسية في العراق (بغداد ١٣٦٤ هـ)

رحلة العياشي فاس سنة ١٣٠٦ هـ : مجلدان

العيني : (٨٥٥ هـ)

عقد الجمان في تاريخ اهل الزمان مخطوط بدار السكتب بالقاهرة

فتح الله بن علوان الكعبي

زاد المسافرين ولهنة المقيم والحاضر : (١٦٤٥ — ١٦٢٦٥)

تاريخ قصير لحسن باشا والي البصرة بين سنتي ١٦٤٥ — ١٦٦٥ . طبع في

بغداد سنة ١٩٢٤ وقد استعمله : Mignon في كتابه

History of Modern Bassora

كشط الرداء وغسل الران في زيارة العراق — (مخطوط في

Cambridge Univ. Libraray

مرضي افندي نظمي زاده (١١٠٠ هـ ، ١٦٨٨ م

كلشن خلفاء

بالتركية ، تناول تاريخ الدولة الاسلامية من تأسيس . بغداد الى سنة ١١٣٠ هـ

(١٧١٧ م ، طبع في استامبول سنة ١٧٣٠ ، والنسخ المطبوعة نادرة الآن . يوجد ،

منه اربع نسخ مخطوطة في مكتبة المتحف البريطاني

الحبي — تقي الدين بن داوود :

خلاصة الاثر في أعيان القرن الحادي عشر : (٤ أجزاء القاهرة ١٢٨٤ هـ)

محمد ابن بسام الشميني

الدور الفاخر في اخبار العرب الاواخر :

يتضمن وصفا وبيانا عن قبائل العرب العراقية واحوالها الى حوالى سنة ١٨١٨ م .

محمد البتوني :

الرحلة الحجازية (القاهرة ١٣٢٩ هـ ، ص ٨٧ وما بعدها)

محمد رفعت :

تاريخ مصر السياسى فى الازمنة الحديثة (القاهرة ١٩٣٤)

محمد رفعت : محمد على والخلافه : مجلة المقتطف مجلد ٩٣ ص ٢٥٩ الى ٣٦٣

محمد راغب بن محمود بن هاشم بن الدباخ الحلبي

أعلام النبلاء بتاريخ حلب لشهباء : ٧ اجزاء . حلب ١٩١٣-١٩١٦

محمد بن سليمان الرحى :

بهجة الاخوان فى ذكر الوزير سليمان

يتضمن تاريخ سليمان باشا والى البصرة

محمد فريد بك

البهجة التوفيقية فى تاريخ مؤسس العائلة الخديوية (القاهرة ١٣٠٨ هـ)

محمد فريد وجدى :

المدنية والاسلام (الطبعة الثانية القاهرة ١٩٠٤)

محمد كرد على :

الحكومة المصرية فى الشام (المطبعة السلفية . القاهرة ١٣٤٣ هـ .

محمد كرد على :

خطط الشام (ستة مجلدات . دمشق ١٩٢٥-١٩٢٨)

المرادى :

سلك الدرر فى أعيان القرن الثانى عشر

الانبا مار اسطفان الدويهي

تاريخ الطائفة المارونية (بيروت ١٨٩٠)

الآب مرتين اليسوعى

تاريخ لبنان ، تحرير رشيد الخورى الشرتونى (بيروت ١٨٨٩)

— ٤٠٠ —

ميخائيل الدمشقي :

تاريخ حوادث الشام ولبنان من ١١٩٧ — ١٢٥٧ هـ (بيروت ١٩١٢)
ميخائيل مشاقة :

الجواب على اقتراح الاحباب

(مخطوط في مكتبة الجامعة الأمريكية ببيروت رقم ٤٨٥٣٢
نعوم مخبغب

تاريخ الأمير حيدر الشهابي (القاهرة ١٩٠٠)

نوفل نوفل

كشف الشام عن الحكم والاحكام في إقليم مصر وبر الشام .
مخطوط في مكتبة الجامعة الأمريكية في بيروت تحت رقم ٦٠٧٧
ياسين العمري بن خير الله العمري الموصل (١٧٣٤ م)
غاية المرام :

مخطوط يضم معلومات طبية عن جغرافية البلاد وقبائلها ورجالها وفيه تاريخ
لبغداد الى سنة ١٨٠٥ م ، وحوادث السنوات الخمسة الاخيرة منه مرتبه فيه ترتيبا
وافيا له قيمة كبيرة
غرائب الأثر :

مخطوط يورد نفس الحوادث الواردة في « غاية المرام » بأسلوب آخر ويستمر
في رواية الاخبار حتى سنة ٨١١ م .

ب - مراجع افرنجية

اولا : مراجع تمهد لدراسة تاريخ الشرق الادنى ، وتصف ظروفه الجغرافية واحواله الاجتماعية وعناصر سكانه وأديانهم ، وتشرح الظواهر الهامة في تاريخه : ونسرد بايجاز تاريخ اضمحلال الدول الاسلامية وتبين مواطن الضعف فيها ، وتتناول الكلام على الدول التي كانت قائمة في الشرق الأدنى في اوائل العصر الحديث كالعثمانية والصفوية والمغولية والماليك - غير ذلك ، والدول الشرقية غير الاسلامية التي كان لها تأثير في تاريخه كالدولة البيزنطية ، وبعضها يتناول وصف محاولات الاورپ بين الاولى في الشرق : كقصة الانجليز في الهند ، وحرهم مع الفرنسيين ، وتاريخ البرتغاليين في الشرق . وتتناول كذلك وصف الرحلات الهامة - ذات القيمة العلمية التاريخية - التي قام بها بعض مغامري الاورپيين في البلاد الشرقية في اوائل العصر الحديث :

Anon,

Progress and Present Position of Russia in the East
(London 1836)

Anold, Porf. Sir Thomas W :

The Caliphate

Baron ed Tott,

Memoires sur les Turcs et les Taitares (Paris 1794)

Barrault, Emile

Occident et Orient, Etudes Politiques, Morales,
Religieuses, pendant 1533-1834, (Paris, 1835)

Beazly, Charles Raymond

Dawn of Modern Geography

(3 vols. 1897 — 1906)

Birch W. DE G.

Commentaries of Alfonso Dalboquerque

(Hakluyt Society, London 1875, 4 Vols,)

B. F. O. P. H. ,

The Rise of Islam and the Pan Islamic Movement
The Foreign Policy of Austria-Hungary

British Parliamentary Papers

The Correspondance Relative to the Affairs of the
Levant (London 1833 - 1841)

British Foreign Office Peace Handbooks

France in the Levant

Brocchi, G. B. :

(Giornale delle Osservazioni Fatte ne Viagge in
Egitto, nella Siria e nella Nubia
(5 vols. Bassano, 1841 - 1843)

Bruce, J.

Annals of the Honourable East India Company
(3 vols. London, 1810)

Cacilia, Leonardo Di S. :

Viaggi in Palestina, Persia, Mesopotamia
(Rome, 1753 - 1757)

Cahun, Leon :

Introduction à l'Histoire de l'Asie: Turcs et Mongols,
des Origines à 1405 (Paris, 1896)

The Cambridge Modern History :

Vol X : Chapters VI , XVII ;

Vol. XI : Chapters IX , XI , XXII

Vol. XII : Chapter XIV

Capper, T. :

Observations on the Passage to India (London, 1785)

Courtney of Penwith, Lord (editor) :

Nationalism and War in the Near East (by a
Diplomatist)

Czaplica :

The Turks of Central Asia

Damas, M. La :

The Portuguese and Turks in the Indian Ocean in
the Sixteenth Century (Journal of the Royal Asiatic
Society : January, 1921)

Danvers, F.E.

Portuguese in India (London, 2 vols. 1894)

Darcy, Jean :

Cent Années de Rivalité Coloniale (Paris 1904)

Davis, William Stearns :

A short History of the Near East [New York, 1931]

Diehl :

Byzance, Grandeur et Decadence

Histoire de l'Empire Byzantin

Un Ancien Diplamat,

Le Régime des Capitulations (Paris 1898)

Dupré, Adrien .

Voyage en Perse Fait dans les Années 1807-9, en
Traversant l'Anatolie et le Mesopotamie (Paris, 1819)

Epstein, Mordecai :

Early History of the Levant Company (London 1908)

Fontanier, Victor :

Voyages en Orient, Enterpris par Ordre du Gouv-
ernement Français de l'année 1821 à l'année 1829
(2 vols Paris 1829)

Grant, A. J. and Tempeley, Harold :

Europe in the Nineteenth Century (1789 — 1914)
(London, 1929)

— 404 —

Guinet :

La Turquie d'Asie

Heyd,

Histoire de la Commerce Française dans le Levant

Hogarth, David, George,

Nearer East (1902)

Howarth, Sir Henry Hoyle ,

History of the Mongols. (3 vols. 1876—1888)

Hoskins, Holford Lancaster :

British Routes to India (New York, 1923)

Houry, C. B. :

De l'Intervention Européenne en Orient et de son
Influence sur la Civilisation des Musulmans et sur la
Condition Sociale des Chrétiens d'Asie. (Paris, 1840)

Huntington :

The Pulse of Asia

Lavisse et Rambaud :

Histoire Générale :

Vol. X, chapters VI, XXVI

Vol. XI, chapters XI, XV

Vol. XII, chapters XII, XIII, XIV, XV

Fancher, Leon :

La Question d'Orient d'après les Documents Anglais,
[Revue des Deux Mondes, 1841, IV, 261—289, 410—454,
517—561]

Muerbe, Raoul :

L'Orient de 1718 à 1845: Histoire, Politique,
Religion, Mœurs. (2 vols, Paris, 1846)

Mills, S. B. :

The Portuguese in Eastern Arabia and in the Persian
Gulf (Administration Report for 1884—1885)

Masson, Paul :

Histoire du Commerce Français dans le Levant au
Dixhuitième Siècle.

Malleson, Colonel .

Les Français et les Anglais dans l'Inde

Michaud, Joseph François et J. Poujoulat :

Correspondance d'Orient. [7 vols. Paris, 1833-1835.]

Miller :

The Latins in the Levant

Miller :

Essays on the Latin Orient.

Muir, Sir William :

The Caliphate (London, 1891)

Mouradja D' Ohsson :

Des Peuples du Caucase. (1828)

Olivier, G. A. :

Voyage dans l'Empire Ottoman, l'Egypte et le Perse
(Paris IX)

Parsons, A. :

Travels in Asia and Africa (London 1808)

Peisker :

The Asiatic Back-Ground
(Cambridge Med. Hist vol I)

Peisker.

The Expansion of the Slavs.

Pingaud, Leonce :

Choiseul Gouffier, la France en Orient sous
Louis XVI

Pococke R.

A Description of the East (London 1743)

Pradt, Dom De :

Du Système Permanent de l'Europe à l'égard de
la Russie et des Affaires d'Orient (Paris 1827)

Rabbath, le Pere Antoine :

Documents Inédits pour Servir à l'Histoire du
Christianisme en Orient,
(2 vols. Beirut 1910)

Rabbath, Tournebize :

L'Histoire du Christianisme en Orient

Rawlinson, Sir. H. :

England and Russia in the East (2nd éd. 1875)

Ronciere, Charles de La :

Histoire de la Marine Française

Steen de Jehay

De la Situation Légale des Sujets non Musulmans
Sykes, Sir. M. :

Through Five Turkish Provinces (London, 1900)
Temperley, Harold :

England and the Near East - the Crimea
(London, 1936)

Thevenot, M. D. :

Relation d'un Voyage Fait au Levant (Paris 1665)

Valentia, George, Viscount :

Voyages and Travels to India, Ceylon, the Red Sea
Abyssinia, and Egypt in the Years 1802, 1803, 1804
and 1806 (London 1809 — 3 vols.)

Volney :

Voyage en Syrie et en Egypte.

Whiteway, R. E. :

Rise of the Portuguese Power in India
(London, 1890)

Gusav Weil

Geschichte der Chalifen (1846 — 1862)

Yule, Sir Henry :

The Book of Marco Polo (2 vols, 1903)

ثانياً -- تاريخ المسألة الشرقية

Ancel ,

Manuel Historique de la Question d'Orient.

D'Argyll, Duc ,

The Eastern Question -- 1856 — 1876,
(London, 1881)

Bertrand, P. :

Tallyrand, l'Autriche et la Question d'Orient en 1805
(Revue Historique, 1889)

British Foreign Office Peace Handbooksj :

The Eastern Question

Chiol, Sir Valentine

Middle Eastern Question (1903)

Documents Diplomatiques Rulatifs à la Question
d'Orient (Paris, 1842)

Driault, Edouard :

La Politique Orientale de Napoléon, Sebastiani et
Gaidane (Paris, 1904)

Driault, E. :

La Question d'Orient depuis ses Origines Jusqu' à
la Paix de Sévres-1920 (3d. Ed., Paris 1921)

Guichen, Vicomte de :

La Crise d'Orient de 1839 à 1841 et l'Europe
(Paris, 1921)

Hasenclever, Adolph .

Die Orientalische Frage in den Jahren 1838-1841.
(Leipzig, 1941)

Holland .

The European Concert in the Eastern Question

Mariott, J. A. R. :

The Eastern Question: An Historical Study in
the European Diplomacy (Oxford, 1917)

Poignant, G.

Questions Diplomatiques et Coloniales, XXVI

Rodkey, F. S. :

The Turco—Egyptian Question in the Relations of
England, France and Russia, 1832—1841

(Urbana, Ill., 1924)

Ross :

Opinions of the European Press on the Eastern
Question

Sorel, A. :

La question d' Orient au XVIII siècle

(Paris, 1902)

Vandal, A. .

Napoléon et Alexandre 1er

(3 vols., Paris 1891—1896)

Zimmerman, Alfred:

Kolonialpolitik

(Leipzig 1905)

ثالثا — الدولة العثمانية — الى صالح باريس سنة ١٨٥٨

Allen, W. E.

The Turks in Europe

Bélin,

Du Régime des Fiefs Militaires

(Journal Asiatique ; 6eme Série XV)

Bélin

Fetouas Relatifs à la Condition des Zimmis .

British Admiralty Publications :

Handbook Of Turkey in Europe.

British Foreign Office Peace Handbooks : Anatolia

— — — — — : Turkey

Brown .

Foreigners in Turkey.

Coquelle, P. :

La Mission de Sebastiani à Constantinople en 1801

(Rev. d'Hist. Diplomatique. 1903)

Creasy, Sir. E. .

History of the Attoman Turks.

Czartoryski, A. Prince :

Memoirs (2 vols. Paris, 1827)

Denis, Juchereau de St :

Histoire de l'Empire Ottoman (4 vols. Paris, 1844)

Eliot, Sir Charles, E. :

Turkey in Europe.

Dominian, L. :

The Frontiers of Language and Nationality in Europe.

Eversley, Lord :

The Turkish Empire, its Growth and Decay.

Freemen, E. A.

The Ottoman Power in Europe (London 1977)

Gibb ,

History of Ottoman Poetry

Gibbons,

The Foundation of the Ottoman Empire.

Gorianow, S.

Le Bosphore et les Dardanelles (Paris 1910)

Gourdon,

Les Négociations du Congrès de Paris.

Hammer

Histoire de la Porte Ottoman.

Hertslet, Lewis :

Complete Collection of the Treaties and Conventions
and Reciprocal Regulations between Great Britain and
Foreign Powers as far as they Relate to Commerce and
Navigation (24. Vol London)

Jonquière A. de la :

Histoire de l'Empire Ottoman
(Rev. ed., 2 vols. Paris 1914)

Jarga :

Geschichte des Osmanischen Reiches (Gotha. 1908)

Heinrich Kuntze :

Die Dardanellenfrage. Ein Völker-Rechtliche Studie
(Rostock. 1909)

Lamartine :

Histoire de la Turquie

Lavallée Th. :

Histoire de l'Empire Ottoman

Libyer,

The Government of the Ottoman Empire.

Luke:

Cyprus under the Turks.

Miller, William

The Ottoman Empire and its Successors,
1801—1922 (Cambridge, 1923)

Mac Forlane, Charles.

Constantinople in 1827 (London, 1829)

Michaud, Louis Gabriel :

Mahmoud II, Biographie.

Biographie Universelle, vol. 72, 310—352

Mischeff, P. H:

La Mer Noire et les Détroits de Constantinople

Moltke, Helmuth Von :

Briefe über Zustände und Begebenheiten in der
Turkei au dem Jahren 1835 bis 1839
(Berlin, 1841)

Mouraxveiff :

Les Russes sur le Bosphore en 1833
(Moscou, 1869)

Nesselrode, Comte Charles de :

Lettres et Papiers du Chancelier Comte de
Nesselrode, 1760—1856 (11 vols, Paris, 1904)
المجلدان السابع والثامن

Nicomède, J:

Une lettre écrite a S. E. M. Le Marquis de
Villeneuve (vou Hammer, XIV. 514 ff. and XIII. 14.)
يتناول وصف الحروب التي وقعت بين فارس وتركيا في صيف سنة ١٧٣٣

Nouradoungian, Gabriel :

Recueil d'Actes Internationaux de l'Empire Ottoman
(2 vols, Paris, 1900)

D' Ohsson,

Tobteau General de l'Empire Ottoman
(18ch Century)

Otter, M. :

Voyage en Turquie et en Perse.

(Paris, 1748)

رحلة من مندالي إلى بغداد إلى البصرة بين سنتي ١٧٤١ . ١٧٤٣

ثم من الموصل إلى ديار بكر وهو كتاب هام جدا

Pinon, René :

L'Europe et l'Empire Ottoman. (Paris, 1809)

Poole, Lane S :

The Story of Turkey.

Poole, Lane S. :

Stattford Canning, Viscount de Redclyffe

(2 vols. London 1888)

Puryear, Vernon John :

England, Russia and the Straits Question (1844 -
1856.) (Berkeley, 1931)

Rousset, Camille :

La guerre de Crimée

Rycaut,

The Present State of the Ottoman Empire

(17th Century)

Sax, L. Von :

Geschichte des Mochtverfalls der Tuerkei.

Schevill, Ferdinand :

The History of the Balkan Peninsula from the
Earliest Times to the Present Day (New York, 1922)

Testa, Le Baron, de :

Recueil des Traités de la Porte Ottomane, avec les
Puissances Étrangères depuis le Premier Traité Conclu en

- 1536.. jusqu' à nos Jours (6 vols. Paris 1864)
- Thornton T,
The Present State of Turkey (2 vols. London, 1820)
- Toynbee.
The Western Question in Greece and Turkey
(London, 1923)
- St. Denys, Le Baron Juchereau :
Histoire de l'Empire Ottoman depuis 1792 Jusqu'en
1844 (4 vols, Paris, 1844)
- Urquhart, David :
Turkey and its Resources: Its Municipal Organization
and Free Trade.. etc. (London, 1833)
— Le Sultan et le Pacha d'Egypte (Paris, 1839)
— La Crise de France devant les Quatres Puissances
(Paris, 1840)
— The Lebanon : a History and Diary, (2 vols. London,
1860)
- Vandal, Albert
Une Ambassade Française en Orient, la Mission du
Marquis de Villeneuve
- Zinkeisen, John Willhelm :
Geschichte des Osmanischen Reichs in Europa .
(7 Vols. Gotha, 1840—1863)
- رابعاً : مصر (من قبيل الحملة الفرنسية الى سنة ١٨٤١)
- D'aubigné,
Vie de Kléber (Paris. 1880)
- Bullwin George, :
Political recollections relative to Egypt. Containing
observations on its Government under the Mamelukes, its
Geographical Position, its Intrincic and extrincic Resources,

its Relative Importance to England and to France, and
its Dangers to England in the possession of France
(London 1801)

Becker, Martha F :

Désaix (Paris. 1852)

Berterand :

Campagnes d'Egypte et de Syrie

Berthier. A. :

La Relation des Campagnes du General Bonaparte
en Syrie et en Egypte (Paris. an VIII)

Berton. Le Comte de :

Essai Sur l'Etat Politique des Provinces de l'Empire
Ottoman Administrées par Mehemed Ali.
(Paris. 1839)

Besumée. Hassan :

Egypt under Mohammed Aly Pasha.
(London. 1838)

Bonapartès Letters :

The French Expédition into Syria. Comprising
General Bonapartes Letters. (2 n. d. éd. London, 1799)

Bowring. John :

Report on Egypt and Candia,...etc (London, 1840)

Breton :

L'Egypte et la Syrie (6 vols. Paris, 1841)

Bridier. L. :

Une Famille française, les de Lesseps
(Paris, 1906)

Bruce, James :

Travels to Discover the Source of the Nile in the
Years 1768—1773. (5 vols., Edinburgh 1790)

Cadalvene, Ed. de, et Beauverv, de :

L'Egypte et la Turquie de 1829 à 1836
(2 vols. Paris, 1836)

Cameron, D. A. :

Egypt in the Nineteenth Century (London 1898)

Capper, James :

Abservations on the Passage to India through
Egypt and across the Great Desert (London 1784)

Cargill, William .

Mohemed Aly, Lord Palmerston: Russia and France
(London 1840)

Carré, Jean — Marie :

Voyageurs et Ecrivains en Egypte de la fin de la
Domination Turque à l'Inauguration du Canal de Suez,
(2 vols. Caire, 1932)

Cattaui, Joseph — Edmond :

Histoire des Rapports de l'Egypte avec la Sublime
Porte. (du XVIIIe Siècle à 1841), Paris, 1919

Cattaui, René,

Le Règne de Mohamed Ali d'après les Archives
Russes en Egypte, Tome Premier, Rapports Consulaires
de 1819 à 1833, (Société Royale de Géographie d'Egypte)
(Caire 1931)

Chanut,

Campagnes de Bonaparte en Egypte (3 vols. Paris, 1811

Chuquet, A.

Quatre Généraux de la Revolution : Kleber, Hoche
Desaix, Mancau.

(4 Series. Paris 1911)

Clot-Bey, A. B. :

Aperçu Général Sur l'Egypte (2 vols. Paris 1840)

Delprech, Comeiras :

Considerations sur la possibilité, l'intérêt et les
Moyens qu'aurait la France de rouvrir l'ancienne route du
commerce de l'Inde (Paris, an VI)

Denon, D V.

Voyages, (2 vols. Paris, 1802)

Denv, Jean:

Sommaire des Archives Turques du Caire
(Société Royale de Géographie d'Egypte) (Caire, 1930)

Description de l'Egypte, ou Recueil des Observations
et des Recherches qui ont été faites en Egypte pendant
l'Expédition de l'armée française, publié par les ordres
de Napoléon le Grand (10 vols, Paris, 1809—1822)

Dodwell, Henry :

The founder of Modern Egypt. A Study of Mohammad
Ali (Cambridge, 1931)

Driault, Edouard,

La Formation de l'Empire de Mohamed Aly de
l'Arabie au Soudan (1814—1823) Correspondance des
consuls de France en Egypte (Caire, 1923)

Driault, Edouard ;

Mohammed Aly et Napoléon
(1807 1814) (Caire, 1925)

Driault, Edouard :

Précis de l'Histoire d'Egypte (Mohamed Ali et
Ibrahim) (Caire, 1931)

Douin, George :

- Angleterre et l'Egypte. 2 vols
(Société Royale de Géographie d'Egypte)
(Caire, 1928 — 1930)
- La Mission du Baron de Boislecomte, l'Egypte et
la Syrie en 1833 (Caire, 1927)
- Mohamed Ali et l'Expédition d'Alger
(Société Royale de Géographie d'Egypte (Caire, 1930)
- Une Mission Militaire Française auprès de Mohamed
Aly etc.
(Société Royale de Géographie d'Egypte)
(Cairo 1923)

Durrien :

Lettres sur la campagne d'Egypte
(Carnets Historiques, 1899)

Lieut-Col. Fitzclarence :

Journal of a route accross India through Egypt to
England in 1817—1818 (London 1819)

Fontanier, Victor :

Voyage dans l'Inde et le Golfe Persique, par l'Egypte
et la Mer-Rouge (2 parts in 3 vols, Paris 1844-1846)

C. De Freycinet :

La Question d'Egypte

Froment, D. :

Du Commerce des Europeens avec les Indes par la
Mer Rouge. (Paris, an VII)

(٢٧)

Gallaway, John Alexander:

Observations on the proposed improvements in
the Overland Route via Egypt, with remarks on the
Ship Canal, the Boulac Canal, and the Suez-Railboard
(London, 1844)

Ghorbal, Shafik

The Beginnings of the Egyptian Question and the
Rise of Mehemet Aly (London 1928)

Gore, Montague :

Some Remarks on the Foreign Relations of England
at the Present Crisis. (London, 1838)

Gottheil :

Zimmis and Moslems in Egypt

Gouin, Edouard :

L'Egypte au XIX Siècle : Histoire militaire, et
politique, anecdotique et pittoresque de Mèhémet- Ali,
Ibrahim Pasha, Soliman Pasha, (Colonel, Séve,)
(Paris, 1847)

Guichen, Vicomte de :

La Crise d'Orient de 1839 à 1841 et l'Europe
(Paris, 1621)

Hamont, P. N. :

L'Egypte sous Mehemet- Ali, Population, Gouvernement,
Institutions Publiques, Industrie, Agriculture.
(2 vols, Paris, 1843)

Hilaire, E. G. St.:

Lettres Ecrites d'Egypte (Paris 1901)

De la Jonquiére,

L'Expédition d'Egypte (5 vols. Paris, 1900)

Kleber,

Rapport fait au Gouvernement français des évènements

- depuis, el-Arish (Caire, 1800)
- Martin,
Histoire. de l'Expédition d'Egypte (Paris, 1821)
- Lieut. Mascall, :
Plan of the harbour and road of Suez from a
survey of Mascall 1777 with some additions by lieutenant
Harvey (London 1772)
- Mengin, Fèlix :
Histoire de l'Egypte sous le gouvernement de
Mohammed-Aly (2 vols Paris 1823)
- Neurthe, Boulay de la :
La Diuèctio et l'Expédition d'Egypte (Paris 1885)
- J. F. Miot :
Mémoires pour servir à l'histoire des expéditions en
Egypte et en Syrie (Paris, 1804)
- Mouriez, P.
Histoire de Mehemet Ali (3 vols ; Paris, 1858)
- Nahoum, Haim Effendi :
Recueil de Firmans Impériale Ottomans adressés aux
Valis et aux Khédives d'Egypte 1006 — 1322 H.
(1597 — 1904) (Caire, 1934)
- Napoléon I,
Campagne d'Egypte .
أمليت في سنت هيلانة، وهي تسكون المجلدات ٢٩ ، ٣٠ من مراسلات نابليون
المعروفة باسم Correspondence
- Norry, Ch. :
Relation de l'Expédition d'Egypte
(Paris, an VII)
- Paton,
History of the Egyptian Revolution
(2 vols. London, 1863)

Politis, Athanase, :

Le Conflit Turco-Egyptien 1838-1841 et les dernières années du règne de Mohamed Aly, d'après les documents diplomatiques Grecs (Caire 1931)

Olberg, E. Von :

Geschichte des Krieges zwischen Mehemed Ali und der Ottomanischen Porte in Syrien und Kleinasien den Jahren 1831—1833. Berlin 1837

Palmerston, Lord :

Letter of.. adressed to Sir John Cam Hobhouse on the Turko-Egyptian affair

مخطوط بمكتبة المتحف البريطاني تحت رقم 36471; f. 211.

Payre, R. :

L' Expédition d'Egypte (Paris, 1890)

Philips, Walter Alison ;

Mehemet Ali; Cambridge Modern History. vol X
P. P. 545 — 572

Planat, Jules :

Histoire de la Règénération de l'Egypte (Paris, 1830)

Prokesch – Osten, Count Anton :

— Erinnerungen aus Aegypten und Klein—Asien; (3 vols
Wien, 1829 — 1891)

— Mehmet Ali Vize – König von Aegypten, aus meinem Tagebuche, 1826—1841 (Wien, 1909)

Rebaud وآخرون

L'Histoire scientifique et militaire de l'Expédition d'Egypte (12 vols. Paris, 1830—1836)

Reynier. J. L. E.:

L'Egypte après Heliopolis (1802 — 1826)

ترجمت الى الانجليزية ونشرت في لندن سنة ١٨٠٢

Roy, J. J. E. :

Les Français en Egypte, ou Souvenirs des
Campagnes d'Egypte et de la Syrie, par un officier de
l'expédition (Tours, 1855)

W. Robinson,

Suez Harbour, surveyed by Captain W. Robinson
(London 1782)

Rod Key, Frederick Stanley ;

The Turco- Egyptian question in the relations of
England, France and Russia, 1832 — 1841 (Urbana' 1924)

Rousseau,

Kleber et Menou en Egypte (Paris 1900)

Roux, Francois Charles :

— L'Angleterre, l'Isthme de Suez et l'Egypte au XVIIe
Siècle (Paris, 1922)

— Les Origines de l'Expédition d'Egypte et les Echelles
de Syrie et de Palestine au dixhuitième siècle
(Paris, 1910)

Rustum, Asad Jibrail :

The Struggle of Mohàmmed Ali Pasha with Sultan
Mahmoud II and some of its Geographical aspects.

(Beirut, 1926)

Sabry, Mohammed :

L'Empire Egyptien sous Mohamed Ali et la Question
d'Orient, 1811 — 1849, Egypte, Arabie, Soudan, Morée,
Crète, Syrie, Palsetine. (Paris, 1930)

Sammarco, Angelo :

— Il Regno di Mohammed Ali nei Documenti Diplomatici Italiani inediti :

— vol. VIII —

Genesi e Primo Svolgimento della Crisi Egiziana
Orientale (Rome , 1931)

— vol IX

La Presa di San Giovanni d'Acri (Rome , 1932)

Savary .

Lettres sur l'Egypte (Paris , 1786)

Talamas , George Bey :

Recueil de la Correspondance de Mohamed Ali,
Khedive d'Egypte (du 1^{er}. Avril 1807 au 12 Juillet, 1848)
(Le Caire, 1931)

Vandal :

Louis XIV et l'Egypte (Paris, Picard, 1830)

Vansleb :

The Present State of Egypt (17th. Century)

Volney :

Oeuvres (Paris 1838)

Waghorn, Thomas :

Egypt as it is in 1837 (London, 1837)

Sir. Robert. T. Wilson :

History of the British Expédition to Egypt
(London, 1803)

David Urquhart :

Le Sultan et le Pasha d'Egypte (London 1859)

Vaulabelle, Achille de :

Histoire Moderne de l'Egypte

(2 vols. Paris, 1836)

W. H. Yates :

The Modern History and Condition of Egypt

(2 vols. London, 1843)

خامساً : بلاد العرب

British Admiralty Publications :

Handbook of Arabia

Brydges H. J. :

A Brief History of the Wahaby

(London, 1834)

Y. J. Burchhardt :

Notes on the Bedowins and Wahabys

(London, 1831)

Corancez :

Histoire des Wahhabis depuis leur origine jusqu'à
la fin de 1809 (Paris, 1810')

C. M. Doughty :

Travels in Arabia Deserta (Cambridge, 1881)

Hogarth, David George :

The Penetration of Arabia : a record of the devel-
opment of Western knowledge concerning the Arabian
peninsula (N. Y. 1904)

Capt. F. M. Hunter :

An account of the British settelement of Aden in
Arabia (London 1877)

Snouck Hurgrony :

Mekka

(vol. 1. La Hague 1888)

C. Neibuhr :

Voyage en Arabie et en d'autres pays circonvoisins
(Amsterdam, 1776)

J. B. Rousseau,

Note sur les Wahhabis

Sadlier,

The Diary of a Journey across Arabia during the
Year 1816 (Bonbay 1899)

سادسا: الشام الى حوالى منتصف القرن التاسع عشر

Ainsworth, W. F. :

Ibrahim Pasha in Syria (Colborn's New Monthly
Magazine) (vol .77, 348 f.f.)

D'Avieux,

Memoires, (9 vols. Paris, 1735)

Barker, F. :

Memoir on Syria (London, 1845)

Barker, E. B. B. :

Syria and Egypt under the last five Sultans of
Turkey (2 vols, London, 1876)

Berton, J. de, :

Les Chrètiens d'Orient et les Reformes du Sultan.
(Correspondant, 25 mai, 25 auot, 1856)

Bertrand, General Henri G., Comte :

Campagnes d'Egypte et de Syria (2 vols. Paris, 1847)

Besson, Le Père Joseph :

La Syrie et la Terre Sainte au XVIIe siècle.
(Poitiers, Oudin, 1862)

Bore, Eugène :

Question des Lieux Saints. (Paris, 1850)

Bowring, John :

Report on the Commercial Statistics of Syria
(London, 1840)

— The Syrian Question. (London, 1840)

Buckingham, F. S. :

Travels in Palestine (London, 1821)

Burckhardt, John Lewis

Travels in Syria and the Holy Land (London, 1832)

Cahuet, Albéric :

La Question d'Orient dans l'Histoire Contemporaine
(Paris' 1905)

Cadalvene, E. de et Barrault, E. :

Deux années de l'histoire d'Orient (1839 - 40)
faisant suite à l'histoire de la guerre de Mehemed Ali
en Syrie et en Asie Mineure. (Paris 1840)

Castaing, Aphonse :

La Syria, les Druses et les Maronites (Paris, 1860)

Churchill :

The Druzes and the Maronites under the Turkish
rule from 1840 — 1866

Cressaté Comte S. M. de :

La Syrie Française (Paris 1918)

Cuinet,

Syrie, Liban et Palestine

Djuvara, T. G. :

Cents projets de partage de la Turquie (Paris, 1915)

Douin, George :

La Première Guerre de Syrie

(2 vols. Caire, 1931)

Draperon, Lud. :

Le Grand dessein secret de Louis XIV Contre-
l'Empire Ottoman en 1688

(Revue de Gèographie, t. I et II, 1877)

R. Dussaud :

Histoire et Religion des Nosairis

(Paris, 1900)

Jouplain, M. :

La Question du Liban

(Paris, 1908)

H. Lammens :

La Syrie. Précis Historique

(2 vols. Beirout, 1921)

Laurent, Achille :

Relation Historique des affaires de Syrie depuis
1830 jusqu'en 1842. Statistique du Mont-Liban et
procédure dirigée en 1840 contre les Juifs de Damas.

(2 vols. Paris, 1846)

E. Lockroy :

Ahmed le Boucher, la Syrie et l'Egypte au dix-
huitième siècle.

(Paris 1888)

Mariti, (Abbé Giovanni) :

Histoire de l'état present de Jerusalem. Publiée
par le R. P. Laorty-Hadji

(Paris, 1853)

P. Masson :

Eléments d'une Bibliographie Française de la Syrie
[dans le Congrès Français de la Syrie]

(Paris, 1919)

Paul Masson :

Histoire du Commerce Français dans le Levant au
Dixseptième Siècle (Paris, 1896)

Murad, (Mgr. Nicolas) :

Notice historique sur l'origine de la Nation Maronite
et sur ses rapports avec la France, sur la Nation Druse
et sur les diverses populations du Mont- Liban.
(Paris, 1844)

Napier, Admiral Sir Charles :

The War in Syria (2 vols., London, 1842)

Paton. A. A. :

The Modern Syrians (London, 1844)

Perrier, Ferdinand :

La Syrie sous le Gouvernement de Méhémet.
Ali jusqu'en 1840. (Paril 1842)

Perron, Anquetil du :

Legislation Orientale (Amsterdam, 1778)

Poujoulat, J. J. :

La France et la Russie à Constantinople.

La Question des Lieux Saints. (Paris, 1853)

Relazioni dei Consoli Veneti Nella Siria

(ed. Berchet, Venise, 1866)

Ristelhueber :

Les Traditions Françaises au Liban

Rustom, A. J. :

— Les Campagnes d'Ibrahim Pasha en Syrie et en
Asie Mineure. (2 fasc. Caire, 1927—1938)

— Le Liban à l'époque des Emirs Chihab

(3 vols., Beirut, 1933)

— Materials for a Corpus of Arabic Documents
Relating to the History of Syria under Mehemet Ali
(vols I—V Beirut, 1930—1934)

— The Royal archives of Egypt and the Origins of
the Egyptian Expédition to Syria (Beirut, 1936)

Saint-Pierre, Puget de :

Histoire des Druses—peuple du Liban—avec des notes
(Paris. 1762)

Segur — Dujseryan :

La Syrie et les Bedouins sous l'administration
Turque (Revue des Deux Mondes, 15 mars, 15 avril, 1855)

Verney et Dambmann

Les puissances étrangères dans le Levant en Syrie
et en Palestine (Paris, 1900)

Volney,

Voyage en Syrie et en Egypte en 1783—1785
(Paris 1787)

سادسا العراق (الى سنة ١٨٦٨)

W. F. Ainsworth,

Personal Narrative of the Euphrates Expedition
(2 vols London 1888)

W. F. Ainsworth,

Researches in Assyria, Babylonia and Chaldaea,
(London, 1838)

Andrew, W. P.

Memoir on the Euphrates Valley route to India
(London 1837)

Anon ,

Account of the Siege of Mosul by Nadir Shah
ترجمة لمخطوط بالتركية بالمتحف البريطاني

Anon :

Travels of Sir Anthony, sir Robert and Sir Thomas
Shereely

من حلب الى بغداد الى كاسيفين عن طريق الفرات - لندن ١٨٢٥

Blunt, Lady Anne :

Bedouin Tribes of the Euphrates (London 1879)

B. F. O. P. H.

Armenia and Kurdistan

Auliya Chelebi,:

Travels of (Stambul, 1314 H)

رحلة في فارس وكرديستان وبغداد والبصرة

F. R. Chesney,

The Expedition for the survey of The rivers Euphrates
and Tigris (London, 1850)

F. R. Chesney

Narrative of the Euphrates Expedition
(London 1868)

F. R. Chesney

Reports on the Navigaion of the Euphrates,
Submitted to the Government by(London,1833)

M. Chiha,

La Province de Baghdad (Caire, 1900)
مذكرات ايطالي أقام في بغداد خلال القرن التاسع عشر . وهي ذات قيمة
تاريخية

Coke, Richard :

Bagdad : the City of Peace (London, 1927)

V. Fontanier :

Voyage dans l'Inde et dans la Golfe Persique
(Paris 1844)

Fraser, J. B. :

Memorandum on the present condition of the
Pashalic of Baghddad (London, 1834)

J. B. Fraser :

Travels in Kurdistan and Mesopotamia
(London , 1840)

Dr. A. Grant :

The Nestorians (London. 1841)

Rev. A. N. Groves :

Journal of a Residence in Baghddad
(London, 1832)

Huart, Clement :

Histoire de Baghddad dans les Temps Modernes
(Paris. éd. Laroux, 1901)
تاريخ على موقوف فيه للعراق الى سنة ١٨٣١ م .

Haji Khalifa :

Jihan Nama (Const. A. H. 1245)
سائح تركي زار العراق في ولاية خسرو باشا

H. G. Keppel,

Travels in Babylonia, Assyria. Media and Scythia in
1826 (London. 1827)

Layard, A. H. :

Nineveh and Balyon

Longrigg, Hemsley Stephen :

Four Centuries of Modern Iraq.

Oxford, 1925)

H. F. B. Lynch:

Armenia : Travels and Studies (2 vols London 1903)

R. Mignon :

Travels in Chaldaea (London 1829)

فيه تعليق على [زاد المسافر] في الصفحات ٢٦٩ — ٢٨٦

R. P. Philippe :

Voyage d'Orient (Lyon, 1652)

رحلة راهب كرملّي فرنسي من حلب إلى بغداد إلى البصرة إلى فارس حوالي

سنة ١٦٣٢ م.

M. H. Pognon,

Chronique syriaque relative au siège de Mossul
par les Persans

ترجمة لمخطوط سرياني عن هذا الموضوع . عثر عليه في كنيسة تل قوش على

مقربة من الموصل . ويظن أن المخطوط كتب سنة ١٦٤٦

Lane Poole :

Life of General F. R. Chesney

Sir. R. K. Parker:

Travels in Georgia, Persia, Armenia, ancient
Babylonia (London, 1822)

J. L. Rousseau :

Description du Pachalik de Baghdad (Paris, 1809)

J. B. Rousseau :

Voyage de Bagdad à Alep. (Paris 1899)

Sestini,

Voyage de Constantinople à Bassora en 1781
(Paris, l'an VI)

W. F. Sinclair and D. Ferguson :

The Travels of Pedro Teixeira

سائح برتغالي : من خليج فارس إلى البصرة إلى كربلاء والنجف إلى عانة

Rev. Horatio Southgate :

Narrative of a tour through Armenia, Kurdistan,
Persia and Mesopotamia (2 vols. New York)

J. B. Tavernier :

The Six Voyages of Tavernier through Turkey into
Asia

ساح تافرنيه في الشرق الاوسط بين سنوات ١٦٣٨ ، ١٦٤٤ ، ١٦٦٣

Antonio Teneyro :

Itinerario de . . . (Lisbon, 1829)

M. O. Thevenot :

Suite d'un Voyage de . . . (Amsterdam, 1727)
رحلة الى البصرة والحسا والقطيف

J. R. Wellsted :

Travels to the City of the Caliphs, Along the
Shores of the Persian Gulf and the Mediterranean.
(2 vols. London 1840)

سابعاً : فارس وأفغانستان وتركستان (الى حوالي منتصف القرن التاسع عشر)

Browne, Edward Granville :

Abridged translation of the History of Tabaristan
(London, 1905)

Brydges, Sir. H. G. :

The Dynasty of the Kajars (London. 1834)

Sir Alexander Burnes :

Cabool, being a personal narrative of a journey to
and residence in that city in the years 1836.1837.1838
(London 1845)

Sir Alexander Burnes,

Travels in Bokhara . . and narrative of a voyage on
the Indus from the sea to Lahore in the years 1831-1832
1833 (London 1834)

F. Charmoy,

Cheref Namah

أحسن طبعة أوروبية موجودة لكتاب « سفر نامه » عن تاريخ الأكراد
سنة مجلدات (باريس ١٨٦٠ - ١٨٧٥)

Conolly, Lieut. Arthur :

Journey to the North of India, Through Russia,
Persia and Aphaganistan
(2 ed. Rev. 2 vols. London 1838)

Gurzon, Hon George N. :

Persia and the Persian question

H. M. Durand

Nadir Shah (London, 1908)

Eastwick, E. B. :

The Gulistan of Sadi (London, 1852)

Franklin, W. :

Observations^{en} made on a tour from Bengal to Persia
in 1786 . 7 (London, 1790)

Freyer, Dr. :

—A new account of East India and Persia, 1672
— 1881 (London 1688)

Gardane, Le Gle. Alfred de :

Mission du Général Gardane en Perse, sous le
(٢٨)

Premier Empire. Documents historiques. . (Paris 1865)

Hanway, Jonas :

Historical account of British Trade over the Caspian
(4 vols. London, 1753)

Heude, W. :

A voyage up the Persian Gulf (London, 1816)

Ives, Dr. E.:

A Journey from Persia to England (London 1773)

Jackson, A. V. William :

Persia, Past and Present (New York, 1906)

Jones, William :

History of the life of Nadir Shah, King of Persia
(London, 1773)

Koye, Sir John William :

History of the war in Afghanistan (2 vols. 1851)

Krusinski,

History of the Revolution of Persia

ترجمة عن الروسية الأب Cerceau ونشره في لندن سنة ١٧٢٨ م. ويتناول
تاريخ فارس في الفترة التي احتلها الافغان خلالها

Lord Curzon of Kedleston, :

Persia and the Persian question
(2 vols, 1892)

Layard, A. H.

Early adventures in Persia, Susiana and Balylonia
(London 1887)

Malcolm, Sir John :

History of Persia (1829)

Markham, Sir Clements B. :

General sketch of the History of Persia (1874)

Rawlinson H. C. :

England and Russia in the East.

C. J. Rich :

Narrative of a residence in Koordistan

Stirling, E. :

On the political state of the countries between
Persia and India (London 1835)

Sykes, Lieut Colonel. P. M. :

— A History of Persia (2 vols. London, 1915)

— Ten Thousand miles in Persia (London 1902)

Watson, Robert Grant :

History of Persia (1866)

William Ainger Wigram & Edgar. T. A. Wigram :

Cradle of Mankind (London, 1914)

Wood, Lieut John :

A Personal narrative of a journey to the source
of the river Oxus . . in the years 1836 — 1837

(London 1841)

ثامنا المغرب : طرابلس وتونس والجزائر ومراكش (الى حوالى

سنة ١٨٣٥)

Gal. Du Barail :

Mes Souvenirs (3 vols. 1894—1896)

G. Bapst :

Le Maréchal Canrobert, souvenirs d'un siècle
(4 vols. 1898—1901)

R. Basset :

Documents musulmans sur le siège d'Alger par
Charles Quint. (1541)

(Dans: Bulletin de la Société de Géographie d'Alger
et de l'Afrique du Nord, (1890. P. P. 172—214)

Card, Rouard De :

Bibliographie des ouvrages relatifs à la Berbérie
au XVII et XVIII siècles, (1911 et Suppl. 1917)

Carrot, H.

Histoire général de l'Algérie (Alger, 1910)

Charles. P. de Castellane, :

Souvenirs de la vie militaire en Afrique (1852)

Delphin,

Histoire des Pashas d'Alger de 1515 — 1745

ds. Journal Asiatique, 1922, I, p. p.
162 — 233

G. Douin,

Mohamed Aly et l'Expédition d'Alger (1829 — 1830)
(Le Caire, 1930)

G. Esquer,

Les Commencements d'un Empire, la prise d'Alger
(1830) (2^e éd. 1923)

H. De. Grammont,

Histoire d'Alger sous la domination Turque 1516-1830
(Paris 1887)

Grammont,

Relations entre la France et la Regence d'Alger au
XVII^e Siècle (4 vols. Alger 1879 — 1885)

P. Grandchamp :

Documents Relatifs aux Corsaires Tunisiens

(2 Octobre 1777 — 4 Mai 1824)

(Tunis, 1925)

S. Gsell, G. Marçais, G. Yver

Histoire de l'Algérie (II^e éd. 1927)

Lacharrière, Ladriet De :

Un Essai de pénétration pacifique en Algérie

de. Rev Hist. Dipl. 1909. P. P. 240 — 270

H. Lorin

L'Afrique du Nord, Tunisie — Maroc

(Paris, 1908)

Martimprey, Gal,

Souvenirs d'un officier d'état-major. Histoire de
l'établissement de la domination française dans la
province d'Oran, 1830 à 1846

Monchicourt,

Episodes de la carrière tunisienne de Dragut,
avec un preambule sur :

l'Insécurité en Méditerranée durant l'été de 1550

(Tunis, 1918)

Ch. Monchicourt,

Documents historiques sur la Tunisie

(Paris 1929)

Nettement,

Histoire de la Conquête d'Alger (1856)

Playfair,

The scourge of Christendom; annals of British
relations with Algiers prior to the French conquest

(London, 1884)

Y. Pignon,

L'Esclavage en Tunisie de 1590 à 1620.

ds. Revue Tunisienne, 1930. P. P. 18-37

E. de la Primaudaie,

Documents inédits sur l'histoire de l'occupation
espagnole en Afrique (Alger, 1875-1877)

L. Rinn,

Le Royaume d'Alger sous le dernier Dey

(Alger, 1900)

C. Rousset.

— La Conquête d'alger, (Avec atlas 1879)

— l'Algérie de 1830 à 1840 (2 vols. 1887)

— La Conquête de l'Algérie (1841 — 1847)

(2 vols. 1889)

A. Rousseau,

Annales tunisiennes ou aperçu historique sur la
Regence de Tunis (Paris, 1864)

Sander — Rang et Denis

Fondation de la Regence d'Alger, histoire des
Barbarousses: chronique arabe du XVI^e siècle
(1837. 2 vols)

Th. Shaw,

Travels and observations relating to several parts of
Barbary and the Levant (Oxford, 1738)

Laugier De Tassy,

Histoire du Royaume d'Alger, avec l'état présent de
son gouvernement (Amsterdam, 1725)

Auxzoux, A. :

La Mission de Sebastiani a Tripoli (Revue des
Etudes Napolioniennes 1919)

تاسعاً : ألبانيا

British Foreign Office Peace Handbooks : Albania

C. A. Chekrezi,

Albania, Past and Present

E. Legrand

Bibliographie Albanaise

من القرن الخامس عشر الى سنة ١٩٠٠

W. Peacock

Albania, the foundling State of Europe

عاشراً : البلقان (والثورة اليونانية بصفة خاصة)

G. F. Abot, (editor) :

Greece in Evolution¹: (Studies prepared under
the auspices of the French League for the defence of
Hellenism.)

G. Finlay :

History of Greece. (7 vols. ed Tozer)

Gaston Isambert :

L'indépendance Grecque et l'Europe

W. Miller :

The Balkans

W. A. Phillips :

The War of Greek Independence (1821-1833)

Pouqueville :

Histoire de la régénération de la Grèce— 4 vols.

L. Sargeant :

Greece in the Nineteenth Century

كشاف

الانابة : ٣٠	ابن تيمية : ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٠
الأتراك (والعثمانيون وآل عثمان) :	ابن خلدون : ١٦ ، ١٧ ، ١٩
١٥٦١ ، ١٩٧ ، ١٩٩ ، ٢٣٦ ، ٢٨٩ ، ٢٩٩	ابن سينا : ١٩
٣١ ، ٣٢ ، ٣٤ ، ٣٦ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤	ابن شمة : ١٣٦ ، ١٣٧
٤٦ ، ٤٨ ، ٥١ ، ٥٧ ، ٦٠ ، ٦٢	ابن عربي (محي الدين) : ١٨٩
٦٢ ، ٦٤ ، ٦٧ ، ٧٠ ، ٧٢	ابن منجب الصيرفي : ١٩
٨٦ ، ٨٩ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩	ابراهيم باشا (ابن محمد علي) :
١٠٣ ، ١٠٧ ، ١١٥ ، ١٣١	١٩٥ ، ١٩٨ ، ٢١٠ ، ٢٠٨ ، ٢٢٢
١٣٣ ، ١٥٠ ، ١٥٢ ، ١٥٤	٢٢٤ ، ٢٢٦ ، ٢٧٠ ، ٢٧٦ ، ٢٧٥
١٦٣ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٩٥	٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩
٢٠٤ ، ٢٤١ ، ٢٤٥ ، ٢٦٥	ابراهيم بك : ٥٧ ، ٦٨ ، ١١١ ، ١١٩
٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٨١ ، ٢٨٨	١٦٨
٢٩٥ ، ٣٢٠ ، ٣٢٢ ، ٣٣١	الابراهيمية (قناة) : ١٦٠
٣٤٦ ، ٣٤٧ ، ٣٥٢ ، ٣٦٦	ابردن (اللورد) : ٢٨٤
٣٧٣ ، ٣٧٩ ، ٣٨٣ ، ٣٨٥	ابسلتي - اسكندر : ٢٠٥ ، ٢٠٩
٣٩١ ، ٣٩٦	ابسلتي - دمترى : ٢٠٩
الآثار الباقية (كتاب) : ١٩	ابو حنيفة النعمان : ٢٢ ، ٢٧ ، ٣٦٠
اجرا : ١٠	ابو الذهب : ٦٨ ، ٢٦٨ ، ٣٢٧
الأجواد : ٣٣٤	ابو زناك : ٣١٤
احمد باشا (والي العراق) : ٣٥٠	أبو سعيد ابن أبي الخير الشاعر : ١٩
٣٦٠	أبو عبد الله محمد بن الحسن الحفصى
احمد باشا (والي مصر) : ١١٨ ، ١١٩	٢٩٥
١٢٤	أبو العلاء : ١٤
احمد توفيق باشا : ٣٨٥	أبو قير : ٦٠ ، ٧٩ ، ٨٢ ، ٨٤ ، ٨٦
احمد كبريلى : ٤٧	أبو ليلي : ٣٥٠ ، ٣٥١ ، ٣٥٢ ، ٣٥٣
	ايروس : ٩٣ ، ٣٥٢

الاصلاح في تركيا : ٢٤٥ ، ٢٤١
 الاصلاح الديني : ١٨٨
 الاطلسي (المحيط) : ٣٠٥ ، ٥٠
 اطنه : ٢٢٨ ، ٢٦٩ ، ٣٥٠
 اغا المحلة : ٣٠٨
 الاغريق : ٣٤
 الاغوات : ٢٩٩ ، ٢٩٨
 افارقه : ٢٩٧
 افراسياب : ٣٣٨ ، ٣٤٠ ، ٣٤٢
 ٣٤٩ ، ٣٤٣
 افريقية : ١٥ ، ٣٤ ، ٤٣ ، ١٩٦
 ٢٩٠ ، ٢٩٦ ، ٣٠٧ ، ٣١٧ ، ٣٤٤
 افشا : ٢٨
 افغانستان : ١٠ ، ٣٢ ، ٣٠ ، ٥١ ، ٥٠
 ٣٤٨ ، ٣٤٧ ، ٣٤٦
 آق قيون لو : ١٩
 الاقطاع العثماني : ٣٣٢
 اكسموث : ٣١٠
 اكس لاشابل : ٣٠٩
 اكراد : ٣٣٤ ، ٣٢٩ ، ٣٥٢ ، ٣٤٦
 ٣٣٧ ، ٣٢٣
 البانيا (والالبانيون) : ٧٤٠ ، ١٠٩
 ١٢٥ ، ١٢٤ ، ١٢٦ ، ١١٦
 ١٢٨ ، ١٢٧ ، ١١٨ ، ١٣٤
 ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٧٥ ، ١٩٨
 ٢٠٠ ، ٢٣٦ ، ٣٧٧
 البوكر : ٣٠ ، ٤٣ ، ٣٣٠
 الالتزام (في الشام) : ٢٦٥
 الدرد : ٣٣٩

٦١٠٢ ، ٨٥٦ ، ٨٤٦ ، ٨٤٦ ، ٧٤
 ١٦٢ ، ١٦٠ ، ١٤٥ ، ١٢٧
 ٣٦٠ ، ٢١٢ ، ١٧٦
 اسكي : ٣٦٠
 الاسلام : ١٣ ، ١٢ ، ٩٦ ، ٨٦ ، ٧٥ ، ٥٠
 ٣٨ ، ٢٩ ، ٢٧ ، ٢٢ ، ١٥
 ٦٧ ، ٥٢ ، ٤٥ ، ٤٢ ، ٤١
 ١٩١ ، ١٠٧ ، ٩٤ ، ٧٥
 ٢٤٤ ، ٢٤٢ ، ٢١٦ ، ١٩٣
 ٢٩٧ ، ٢٩٠ ، ٢٧٩ ، ٢٦٤
 ٣٧٢ ، ٣٢٥
 اسماعيل (الخدوي) : ٢٠١ ، ٩١ ، ٩٠
 اسماعيل أغا : ١١٨
 اسماعيل جوده : ١٣٦
 اسماعيل الصفوي : ٣٠ ، ٢٨ ، ٢٠ ، ١٩
 ٣٢٦ ، ٣٢٣ ، ٣١
 اسماعيل القرمطي : ١٩
 آسيا : ٣ ، ٥ ، ٤٠ ، ١٠ ، ٢٩ ، ٣٩
 ٤٩ ، ١٥٦
 آسيا الصفري : ١٥ ، ١٨ ، ٢٩ ، ٣١ ، ٨٤
 ٢٨٨ ، ٢٢٧ ، ٢١٥ ، ١٣٣
 آسيا الوسطى : ٣٠ ، ٣٢ ، ٣١ ، ٤٩
 اسوان : ٢٧ ، ٢٣
 اسوج : ٣٠٥
 اسوس : ٣٢٤
 اسيوط : ١٠١
 اشرف خان الافغاني : ٣٤٦
 اشور : ٤ ، ٣٢٤ ، ٣٤٣
 اصفهان : ٢١ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٥١
 ٣٤٢ ، ٣٢٩

١٧٢، ١٧١، ١٧٠، ١٦٩

١٩٥، ١٨٠، ١٧٦، ١٧٤

٢٠٩، ٢٠٧، ٢٠٦، ١٩٧

٢١٨، ٢١٢، ٢١١، ٢١٠

٢٢٦، ٢٢١، ٢٢١، ٢١٩

٢٢٨، ٢٢٧، ٢٢٥، ٢١٤

٢٢٩، ٢٣٥، ٢٣٤، ٢٣١

٢٦٨، ٢٦١، ٢٤٤، ٢٤٠

٢٧٨، ٢٧٧، ٢٧٦، ٢٣٣

٢٨٥، ٢٨٤، ٢٨٣، ٢٨١

٢٩٣، ٢٨٩، ٢٨٨، ٢٨٦

٣٠٥، ٣٠٤، ٣٠٢، ٣٠١

٣٤٠، ٣٣٩، ٣٣٠، ٣٠٩

٣٥٥، ٣٥٤، ٣٤٨، ٣٤١

٣٦٨، ٣٦٦، ٣٦٥، ٣٦٢

٣٨١، ٣٧٩، ٣٧٠، ٣٦٩

٣٩١، ٣٨٨، ٣٨٤، ٣٨٢

٣٨٥

الاندلس : ١٩، ١٦، ١٥، ٢٦٤

٢٩٧، ٢٩٣، ٢٩١، ٢٨٩

الانقليد : ٣١٨

انقرة : ٧٧

الانكشارية : ٣٣، ٣٤، ٣٣، ٦٣

١٠٩، ١١٩، ١١٦، ١١٧

٢٥٠، ٢١٦، ١٧٨، ١٧٧

٢٩٨، ٢٩٦، ٢٦٥، ٢٤٧

٣٥٨، ٣٣٦، ٣٣٢، ٣٢٩

٣٧٢، ٣٧٠، ٣٦٤

الاشي (القنصل) : ٣٦٦

الافى : ١٢٠، ١٢٠، ١٢٢، ١٢٢

١٤١، ١٤٠، ١٣٢، ١٢٨

اليوت : ٣٨٦

الكسندر بول (السير) : ١٢٠، ١١٤

المانيا (والالمانيون) : ٢٣٦، ٩١

٣٠٥، ٣٦٥، ٣٠٥، ٢٨٣

الميدا : ٤٣

امبابه : ٥٩، ٥٤

الامبراطورية الرومانية المقدسة : ٣٨٠

الامبراطورية العثمانية : (انظر تركيا)

امبراطورية عربية : ٢٣٥

الامتيازات : ٤٦، ٣٠٣، ٢٤٢

أم درمان : ٦٣

الأمراء المقدمون : ٣٠

أمريكا : ٣٦، ٤٣، ٥٤، ٢٨٣

٣٦٥، ٣٠٥، ٣٠٢

الأمير (الشيخ) : ١٠٠

أميان (صالح) : ٨٧

الاباضول : ١٨، ١٦٥، ٢٥٢

اتنوني شيرلي : ٣١

انجلترا (والانجليز والدولة البريطانية) :

١٨، ٣٦، ٣٨، ٤١، ٥١

٥٣، ٥٤، ٦٣، ٧٠، ٧١

٧٧، ٧٩، ٨٠، ٨٢، ٨٣

٨٧، ٨٨، ٩١، ١١٠، ١١٣

١٢٠، ١٢١، ١٢٢، ١٢٦

١٣٣، ١٤٧، ١٤٨، ١٥٤

١٥٥، ١٥٦، ١٥٧، ١٥٨

٣١٢، ٢٢٥، ٢٢٤
باريس: ٢٨٩، ٢٣٣، ٢٢٩، ٧٠، ٦٩،
٣٧٩، ٣٢١، ٣١٦، ٣١٣، ٣٠١
بافيا ٤٥
باي: ٢٩٧
بايزيد: ٢٠، ٢٨٤، ٢٤٤، ٣٠، ٢٩٥، ٤٤٥
بت: ٨٧، ٧٠
بترودى لافال: ٢١
براج: ٢١
برتريس (الكونت دى): ٣٨٩
بحتر: ٢٩، ٣٠
البحر الأبيض المتوسط: ٣، ٤، ١٦،
٨٢، ٧٤، ٧١، ٤٤، ٤٢، ٤١
١٢٠، ١١٠، ٨٨، ٨٥، ٨٣
٢٠٦، ١٩٧، ١٩٦، ١٥٦
٢٢٥، ٢١٨، ٢١٧، ٢٠٧
٢٧٧، ٢٧٦، ٢٢٩، ٢٢٦
٣٠١، ٢٩٥، ٢٩٢، ٢٨٩
٣٥٤، ٣٠٥، ٣٠٣، ٣٠٢
٣٩٠، ٣٨٩، ٣٨٨، ٣٦٨
البحر الأحمر: ٧٩، ٤٤، ٤٣، ٢٧، ٢٣
١٦٥، ١٥٧، ١٢٠، ٨١
٣٣٠، ٢٤٤، ١٩٧، ١٩٦
البحر الأسود: ١٠، ٤٩، ٤٨
٢٩٥، ٢٨٨، ٢٨٦، ٢١٧، ١٧٩
بحر قزوين: ٣٩
البحر الهندي: ٣٢٣
البحيرة (مديرية): ٨٠، ١١٠، ١٤١

انكونا: ٢٢٧
انكرمان: ٢٨٨
الانورى الشاعر: ١٩
الاهرام: ٧٩
أوبرت دوبوايه: ٧٦
أورانخ زيب: ٥٢٢
اوسترلنز: ١٧٦
اولياريوس: ٣١
أوليفيه: ٣٥٧
ايران: (أنظر فارس)
إيطاليا: ٢٩٢، ٢٢٧، ٢٢٦، ٧٥، ٣١،
٣٥٤، ٣١٤، ٣٠٣، ٣٠١
الأيوبيون: ٣٢٦، ٣٠، ٢٣
أيون: ٦٠
الايونيان (جزائر): ٧٤

ب

بابان (ولاية): ٣٥٢، ٣٤٩، ٣٣٤
٣٦٢، ٣٦٢
بابر: ٣٢٦، ٣٠
الباب العالى: ١٢٠، ١١٤، ٨٨
٣٥١، ٣٢٤، ٢٨٩، ٢٦٩، ١٢٦
بابل: ٣٢٤
البابوية: ٢٨
بارسيلى: ٢٧، ٢٥، ٢٣
باركر (الأستاذ ارنست): ٣٨
باركر (قنصل المجلترا): ١٦٥، ١٦٢

برومير : ٨٤
 بروى (الاميرال) : ٨٥
 بروين : ٨٢
 برسيم : ١٧٥
 بساروفتر : ٢٤١
 البستيون : ٣٠٦ ، ٣٠٢
 بسكره : ٣٠٠
 بسوان اوغلو : ٢٠٣
 بسمرك : ٢٠٥
 بشير جنبلاط : ٢٧٣ ، ٢٧٠
 بشير الثانى : ٢٧٠ ، ٢٦٩
 بشير شهاب : ٢٧٤ ، ٢٧٣ ، ٢٧٢
 البصره : ٣٣٠ ، ٣٢٧ ، ٣٢٤ ، ١٩٧
 ٢٤٠ ، ٢٣٨ ، ٢٣٥ ، ٣٣٢
 ٣٤٨ ، ٣٤٣ ، ٣٤٢ ، ٢٤١
 ٣٦٥ ، ٣٦٠ ، ٣٥٤ ، ٢٤٩
 ٢٨٩ ، ٣٨٨ ، ٢٧٨ ، ٢٦٦
 ٣٩١
 بطرس الاكبر : ١٧٩ ، ٤٩
 بغداد : ٢٧ ، ٢٦ ، ٢٥ ، ٢٤ ، ١٩٢٠
 ٢٢٣ ، ١٩٧ ، ٩٣ ، ٥١ ، ٣٣
 ، ٣٤٢ ، ٢٣٧ ، ٣٣٦ ، ٣٣٥
 ، ٣٥٢ ، ٣٥١ ، ٣٥٠ ، ٣٤٣
 ، ٣٦٢ ، ٣٥٩ ، ٣٥٧ ، ٣٥٣
 ٣٧٢ ، ٣٦٧ ، ٣٦٦ ، ٢٦٥ ، ٢٦٢
 ، ٣٧٦ ، ٢٧٠ ، ٢٧٤ ، ٢٦٣
 ٢٩١ ، ٢٩٠ ، ٣٨٩ ، ٣٨٨ ، ٢٧٨

بخارى : ٣٩ ، ٣٢ ، ٣١ ، ٣٠
 بدر (موقعة) : ١٩٣ ، ١٣٠
 بدر الجالى : ٩٤
 بدر ونافارو : ٢٩٥
 برادست : ٣٨٥
 برام (برمن) : ٣٠٥
 البربر : ٢٩٥ ، ٢٩٩ ، ١٥
 ببروسا الاول : ٢٩٥
 ببروسا الثانى : ٢٩٦
 بربون : ٣٦
 البرتغال : ٤٤ ، ٤٣ ، ٤٢ ، ٤١ ، ٣٤
 ٢٩٠ ، ٢٢٥ ، ٥٤ ، ٥١ ، ٤٦
 ٣٠٥ ، ٢٩٧ ، ٢٩٢ ، ٢٩١
 ٣٣٤ ، ٣٣١ ، ٣٣٠ ، ٣٢٩
 ٣٤٢ ، ٣٤١ ، ٣٣٩ ، ٣٣٥
 برتيبير : ٣١٩
 برتوليه : ٨٠
 البرديسى : ١١٩ ، ١١٢ ، ١١١ ، ٥٧
 ١٣٢ ، ١٣١ ، ١٢٣ ، ١٢٢ ، ١٢٠
 برست : ٨٥
 بريديوس Presidios : ٢٩٠
 برقوق : ٢٢
 البروتستنتيه : ٢٨٣ ، ٣٨ ، ٣٦
 البروث : (نهر) ٢٨٦
 بروسه : ٣٧٧
 بروسيا : ٢٣٦ ، ٢٣٥ ، ٢١٩
 بروفانس : ٣١٦
 بروكش اوستن : ٢١٠

بنات : ٤٩
بندر عباس : ٥١ ، ٣٣٩ ، ٣٤٠
بندشیری : ٣٤١ ، ٥٣ ، ٥٤
البندقية : ٢٧ ، ٢٨ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٤٤ ، ٤٤
٣٦٥ ، ٣٣٥ ، ٣٣٠ ، ٤٩ ، ٤٨ ، ٤٦
بنسنی : ١٦٩ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٤
٢٧٧ ، ٢٧٦ ، ٢٦٩
البنغاله : ٥٤
بنك الدولة العثمانية : ٢٥٥
بنو اسرائيل : ٤
بواتيه : ١٣٠
بوالکمت (البارون) : ٢٢٤
بورمون : ٣١٦ ، ٣١٧ ، ٣١٨
بوسفور : ٣٢٩
البوسنة : ٣٧٧
بوشار : ٩٣
بوغوص بك : ١٦٣ ، ١٧١
بولنده : ٤٦ و ٤٨
بولنياك : ٣١٢ ، ٣١٧ ، ٣١٨
بولو (آل) : ٣٩
بونابرت (وانظر نابليون)
بونه : ٣١٨
بوهيمية : ٣٦٥
بويشر : ٣٨٨
البويهيون : ٢٠
بيانكي : ٢٧٣
بيبرس : ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥
بيت المقدس : ٣١ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٢٢٨

بكر : ٢٣٦
بكر الصوباشي : ٣٣ ، ٣٤٩
البكري : (يعقوب كوهين) : ١٤ ، ٥٣
٣٢١ ، ٣١٥
بكين : ٣٩ ، ٣٨٩
بلاسي : ٤٥ ، ٥٤
بلا كلافا : ٢٨٨
بلباس : ٣٤٥
بلجيكا : ٢١٧ ، ١٨٨
بلخ : ٥١
البلطيق : ٤٩
بلغاريا : ٨٥
بلغراد : ٤٩ ، ٤٥ ، ٤٨ ، ٧١
البلقان : ١٥ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٦٠ ، ١٨٧
١٨٧ ، ٢٠٩ ، ٢٠٦ ، ٢٠٣ ، ١٨٧
٢١٩ ، ٢٤١ ، ٢٤٤ ، ٢٥٤
٣١٨ ، ٢٨٥
بلوس ليش : ٣٦٨ ، ٣٨٨
بلرستون : ٦٣ ، ٨٩ ، ١٤٧ ، ١٥٦
١٧٢ ، ٢٤٤ ، ٢٥٥ ، ٢٢٩
٢٣٠ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤
٢٣٦ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٧٦
٣٦٩ ، ٣٩٠
بليار (جزائر) : ٣٠١
البليدة : ٣١٧ ، ٣١٨
بليك : ٣٠٥
بمباي : ٥٤ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ٣٧٢

١٧٧ ، ١٧٦ ، ١٧٤ ، ١٧٣
 ١٨٦ ، ١٨٥ ، ١٨١ ، ١٧٩
 ٢٠٦ ، ٢٠٥ ، ١٩٩ ، ١٩٢ ، ١٩٠
 ٢١٥ ، ٢١٥ ، ٢١٤ ، ٢٠٧
 ٢١٩ ، ٢١٨ ، ٢١٧ ، ٢١٦
 ٢٤٢ ، ٢٤١ ، ٢٤٣ ، ٢٢٩
 ٢٤٩ ، ٢٤٨ ، ٢٤٥ ، ٢٤٣
 ٢٧٦ ، ٢٦١ ، ٢٦٠ ، ٢٥٧ ، ٢٠٥
 ٢٨١ ، ٢٦٧ ، ٢٦٢ ، ١٧٨
 ٢٩٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٤ ، ٢٨٣
 ٢٨٩ ، ٢٨٦ ، ٣٠٦ ، ٢٩٦
 ٣٧٩ ، ١٣٧ ، ٣٤٣ ، ٣٤١ ، ٣٣٥
 ٣٩٢ ، ٣٩١ ، ٣٨٩ ، ٣٨٢

تفليس : ١٤٨ ، ٣٤٩ ، ٣٦٢

تقي الدين باشا : ٣٨٥

تلزت : ١٧٥

تمسك : ٤٩

ترمويل : ٢٠٩

التنظيمات الخيرية : ٢٥٩

تنوخ : ٢٧٢ ، ٢٩٩

تود لين : ٢٨٧

توماس موروسيني : ٤٨

تومسن : ٣٩

تولوز (اسرة) : ٤٣

تونس : ٤٧ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٧ ، ٢٩٧

٢٩٥ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٠١

٣٠٢ ، ٣٠٦ ، ٣١٠ ، ٣١٠

تيطرى : ٢٩٦

٢٨٣ و ٢٨١

البيرقدار مصطفى : ١٧٧

بيروت : ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٠ ، ٢١٥ ، ٢٢٠

البيروني : ١٩

بيرى بك : ٤٤ ، ٣٣٠

بين نطة : ٢٠ ، ٢٠ ، ٢٠

بيزه : ٣١

ت

تافر نبيه : ٣٣٥ و ٣٤٢

تاليران : ٣٤ ، ٧٧ ، ٨٧ ، ١١٢ ، ١٢٥

١٢٧ ، ١٧٥ ، ٣١٤ ، ٣١٥

تامسفار : ٤٩ ،

تايلاور : ٣٧٢

تبريز : ٣٩ ، ٣٣٩ ،

التنار : ٣٠ ، ٣٣٦ ، ٣٦٥

تشارتوريسكى : ١٧٤

تغلب : ٢٩

تشيكوسلوفا كيا : ٣٨٠

تراقيا : ٤٩

تركستان : ١٠ ، ٤٩ ، ١٧٩

التركان : ٢٢ ، ٣٠

تركيا (والدولة العثمانية) : ٤٤ ، ٢٥ ، ٢٨

٣٠ ، ٤٦ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠

٥١ ، ٥٥ ، ٦٤ ، ٦٤ ، ٧٠

٧١ ، ٧٢ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧

٧٩ ، ٩١ ، ٩٢ ، ١٠٥

١٥٦ ، ١٥٩ ، ١٦٧ ، ١٧٠

الحروب بالصليبية: ٢١٤٢٠، ١٨٤١٧
 ٤٤٢، ٣٩٤، ٣٨٤، ٣٧٠، ٢٨
 ٤١٨٠، ٩١٤٦٧، ٤٥٤، ٤٣
 ٢٤٤٤، ٣٠٤، ١٩١٤، ١٨١
 ٣٢٥، ٣٢٦، ٢٩٠، ٢٨٩، ٢٧٢
 حرب الشام: ١٦١، ٢٣٧، ٢٣٢
 ٢٧٤
 حرب القرم: ٢٥٨، ٢٥٧، ٢٤٣
 ٢٨٨، ٢٨٠، ٦٥، ٢٨١
 الحرب الكبرى: ٢٩، ٦٤، ٢٤٢
 ٢٧٨، ٢٥٨
 حرب المورة: ٢٧٠
 حرب الوراثة النمساوية: ٤٨، ٧٢
 الحرم الشريف: ١٦٨، ٢٣٧
 التحرير (تجارته): ٢٤٢
 الحسا: ٣٥٩
 الحسين (رضي الله عنه): ٣٦٠
 حسين باشا: ٣١٠، ٣١١، ٣١٥
 ٣١٤، ٣٣١، ٣١٧
 حسن باشا: ٢٤٤، ٢٤٥، ٢٤٩
 ٢٥٥
 الحضارة الاسلامية: ٤، ٨٠٦، ٢٤١
 الحضارة الاوروبية: ٦١، ٦٢، ٦٤
 ١٧٨، ١٨٦، ٢٢١، ٢٤٢
 ٢٤٣، ٢٤٦، ٢٥٦، ٣٨٥
 الحضارة الشمية بالهليلية: ٧، ٦
 الحضارة الرومانية: ٨
 حضارة العباسيين: ٨

(٢٩)

جورجيا: ١٨٠، ١٧٩، ٣٤٩، ٣٤٦
 جوفري: ٢٣٥
 جوليستان (كذاب): ١٩
 جومار: ١٦٥
 جونز (الساخ): ٣٨٨
 جون مونت كور فينو: ٣٩
 جوهر (الصقلي): ٩٤
 جيجل: ٢٩٦، ٣٠٦
 جيزو: ٢٢٧، ٢٣٧
 الجيزة: ٨٠، ١١٩
 جيباب: ٢٢٥
 جيمز (الساخ): ٣٣٩
 ح
 حادث المروحة: ٣١٦
 حافظ وهبة: ١٨٩
 حبيب: ٢٦٢
 الحبشة: ٤١
 حجاج الحضري: ١٣٦، ١٣٧
 الحجاز: ١٥٧، ١٤٤، ١٦٨
 ١٧٢، ١٩٤، ١٩٥
 حجر رشيد: ١٨، ٩٣
 الحديدية: ١٩٦
 حروب الاسترداد: ٢٦٤، ٢٨٩
 الحروب الاهلية (في روما): ١١٣
 حرب الثلاثين سنة: ٣٦
 حروب الصعبد: ٧٩

خسرو : ١١٧ ، ١١٦ ، ١٢٤ ، ١٣١

٢٠٩ ، ٢١٧ ، ٢٥٥ ، ٢٧١

الخط الشريف : ١٧٧ ، ٢٥٧

الخطيب البغدادي : ٣٣٧

الخلفاء (مسجد) : ٢٦٠

الخليج الفارسي : ٤٤ ، ٥١ ، ١٥٧ ،

١٩٧ ، ٢٣٢ ، ٣٣١ ، ٣٣٨

٣٤٠ ، ٣٤٤ ، ٣٤٨ ، ٣٤٨

٣٩١ ، ٢٨٨

خوارزم - ١٨

خورشيد باشا : ١٠٥ ، ١٢٤ ، ١٣٣

١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٧ ، ٢٠٣

٢٠٩

خير الدين : ٢٩٦ ، ٣٠٣

« د »

الدار البيضاء : ١٠

داغستان : ٢٤٦

دالي عباس : ٣٦٠

الدانوب : ٢١٤ ، ٢٨١

داود : ٣٥٤ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٥٦

٣٦٢ ، ٣٦٧ ، ٣٦٨ ، ٣٧٠

٣٧٢ ، ٣٧٤ ، ٣٧٧ ، ٣٧٨

٣٧٥ ، ٣٧٦

الدائ : ٢٠٠

دائرة العمران : ٣ ، ١٦

دائرة المعارف الاسلامية : ١٨٩

الدجلة : ٥١ ، ٣٢٣ ، ٣٤٣ ، ٣٦٨

٣٦٩ « ٣٧٥ ، ٣٨٧ ، ٣٨٨

الحضارة المصرية القديمة : ٤

الحضارة اليونانية : ٦ ، ١٨ ، ١٨٠

حكومة الادارة (في فرنسا) : ٧٣ ،

٧٤ ، ٧٦ ، ٧٧

حكومة الجمهورية الفرنسية : ٧٤

حلب : ٢١٥ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٩

٣٣٢ ، ٣٣٧ ، ٣٤٢ ، ٣٦٥

٣٦٨ ، ٣٧٤ ، ٣٨٩

حلقا : ٢٠٣

الحلة : ٣٦٠

الحمانيون : ١٩

الحملة الايطالية : ٧٧

الحملة الفرنسية : ٦٠ ، ٧٦ ، ٥٧٨ ، ٨٠

٨١ ، ٩٢ ، ١٠٧ ، ١٠١ ، ١١١

٢٥٠ ، ٢٦٨ ، ٣٦٨

الحمد : ١٢٢

حموده باشا : ٢٩٩

حوران : ٣٥٤ ، ٣٧٢

حويزه : ٣٤٥

« خ »

الخازندار : ٣٠٨

خاتقين : ٣٩١

خانات فارس : ٤٠ ، ٥١

خانة باشا : ٣٤٩

خراسان : ٣٤٧

الخرطوم : ٢٠٣

الخزابل : ٣٥٨

الدرعية : ١٩٨٠ ، ١٩٣٠ ، ١٩٨٠
 دوباويه (سفير فرنسا في تركيا) ٧٧
 دوبريه : ٢١٩
 الدروز : ٣٥٤ ، ٢٨٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٢ ، ٢٤٥
 دروقي : ٣١٢ ، ١٩٩ ، ١٥٤
 درويش باشا : ٢٥٩
 درويه درلون : ٣١٩
 دره بك : ٢٤٧
 دريو : ٢٢٧ ، ٢١٤ ، ٨١ ، ٨٠ ، ٧٢
 الدفتر داد : ٣٦٣ ، ٣٦٢ ، ٣٣٦ ، ٣٣١ ، ٢٠١
 الدكن : ٥٢
 الدلاه : ١٠٩
 دلسبس : ١٢٥ ، ١١٣ ، ١١٢ ، ١١١
 — ر —

راجلان : ٢٨٧
 رأس الخيمة : ١٩٧
 رأس الرجاء الصالح : ٧٨ ، ٧٦ ، ٤٢
 راشد (امير البصرة) : ٣٣٧
 الرافي (الأستاذ عبد الرحمن) : ١٢٠
 ١٢٨
 رايمند لل : ٢٩
 الرجل المريض : ٦٤
 رشيد : ١٤٢
 رشيد محمد : ١٥٣ ، ١٥٢ ، ١٢٣
 ٢٥٧ ، ٢٥٦ ، ٢٥٥ ، ٢٥٤
 ٢٦٢ ، ٢٦١ ، ٢٦٠ ، ٢٥٨
 ٢٦٣

الدرعية : ١٩٨٠ ، ١٩٣٠ ، ١٩٨٠
 دوباويه (سفير فرنسا في تركيا) ٧٧
 دوبريه : ٢١٩
 الدروز : ٣٥٤ ، ٢٨٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٢ ، ٢٤٥
 دروقي : ٣١٢ ، ١٩٩ ، ١٥٤
 درويش باشا : ٢٥٩
 درويه درلون : ٣١٩
 دره بك : ٢٤٧
 دريو : ٢٢٧ ، ٢١٤ ، ٨١ ، ٨٠ ، ٧٢
 الدفتر داد : ٣٦٣ ، ٣٦٢ ، ٣٣٦ ، ٣٣١ ، ٢٠١
 الدكن : ٥٢
 الدلاه : ١٠٩
 دلسبس : ١٢٥ ، ١١٣ ، ١١٢ ، ١١١
 ١٢٧ ، ١٢٦
 دلماشيا : ٨٧ ، ٤٨
 دلهي : ٥٤ ، ٥١ ، ٤٥ ، ٤٤ ، ٤٤
 دمشق : ٢٦٥ ، ٢١٥ ، ٩٧ ، ٨٣ ، ١٨
 ، ٢٧١ ، ٢٦٩ ، ٢٦٦ ، ٢٥٩
 ٢٨٩ ، ٢٨٠
 دمنهور : ١٤١
 دمور : ٦٠
 دمياط : ١٤٣ ، ١١٩
 دنقلة : ٨٠
 دويقي ثوار : ٨٢
 دودويل : ٢٠٩ ، ١٧٢ ، ١٦٩
 الدولة الاسلامية : ٥١ ، ٢٧ ، ٢٠
 ١٧٢ ، ١٠٢ ، ٧٣ ، ٥٥

٣٦٢، ٣٥٢، ٣٤٦، ٣٤٤	الرشيدي (هارون): ٣٧٥، ٣٤١، ٣٨٤، ٣٨٨
٣٨٢، ٣٧٩، ٣٦٥	الرصافة: ٣٨٨
الروم الارثوذكس: ٢٨٢	رضا باشا: ٣٥٧، ٢٥٧، ٢٥٦، ٢٥٣، ٢٥٢
روما: ١١٣	رفعت باشا: ٢٥٦
الروملي: ٢٢٠	الرق: ٢٥٨
ريتر: ٣٠٤	الرهبان الفرنسيسكان: ٣٩
ريدان: ٢٨٨	الرهبان السكرمليون: ٢٦٥
الريس (في المغرب): ٣١٢، ٢٩٧	روبرت كلايف: ٥٤
الرئيس افندي: ٢٥١	الرومان (والدولة الرومانية) : ٢٠ ،
الرين: ٢٣٦	٣٤ ، ٢١
ز	الدولة الرومانية المقدسة: ١٤
الزاب: ٣٠٠	رودس: ٤٥
الزبير: ٣١٧	الروسيا: ٧٢، ٧٠، ٥١، ٤٩، ٤٨
زنته: ٤٨	٦٧، ٧٩، ٨٨، ١٤٨، ١٥٦
الزبانية (الدولة) : ٢٩٦	١٦٩، ١٧٠، ١٧١، ١٧٣
الزبني باشا: ٣٣٨	١٧٤، ١٧٥، ١٨٠، ١٩٢
زينب البكرية: ١٠٦	٢٠٥، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢٠٩
س	٢١١، ٢١٣، ٢١٤، ٢١٧
السادات: ٩٧، ١٠٠	٢١٩، ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٢٤
سادليه: ١٩٨	٢٢٦، ٢٢٩، ٢٣٣، ٢٣٤
سافاري دوق رافيجو: ٣١٩	٢٢٥، ٢٢٩، ٢٤١، ٢٤٢
سانت هبلير: ٨٠	٢٤٤، ٢٤٦، ٢٥١، ٢٥٥
سان جوتارد: ٢٩، ٥٤	٢٥٧، ٢٦١، ٢٦٨، ٢٧٤، ٢٧٦
	٢٨١، ٢٨٣، ٢٨٤، ٢٨٤
	٢٨٥، ٢٨٦، ٢٨٨، ٢٨٩

سليمان بك : ٣٣٥	سنت جون : ٢٢٨
سليمان باشا : ١٥٩ ، ٢٥٢	سان مارتان : ٢٥٣
سليمان القانوني : ٤٨١ ، ٤٩٠ ، ٦١٠ ، ٧٤	سانسون نابلون : ٣٠٢ ، ٣٠٣
٣٢٧ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٠٩	سباستبول : ٢٨٦ ، ٢٨٨
سليمان الحلبي : ٨٦	سبته : ٣٣٥
سليمان باشا والي العراق : ٣٥١ ، ٣٥٨ ، ٣٥٧ ، ٣٥٦ ، ٣٥٥	سبستيانى : ١٧٥ ، ١٧٦ ، ٢٣٤
٣٦٥ ، ٣٦٤ ، ٣٦١ ، ٣٦٠ ، ٢٥٩	سبو : ٣٠٩
السليمانية : ٣٦٠	ستيوارت : ١٢٠ ، ١٢١
سليمان الجليلي : ٨	سراجين : ٣٦٠
السلاجقة : ٨ ، ١٠ ، ١٥ ، ٢٥	ستراتفورد ردكلف : ٢٢٥ ، ٢٢١ ، ٢٢٥
١١٦ ، ١١٥	٢٣١ ، ٢٨٥ ، ٣٩٠
السلوقيون : ١٢٥	سيدنى سمث : ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦
سلوقية : ٢٩٠	سردينيا : ٣٠٥
سمرقند : ١٠ ، ٣٣ ، ٥٣	سرشى : ٣٨٥
سمبسون : ٣٨٧	سمستينى : ٣٦٧
السمرة : ٣٦٥	سكة حديد الحجاز : ٣٨٨
سنجار : ٣٣٧	سعيد (بنو) : ٣٨٤
السند : ٥١	سلاميس : ١٣٠
السنوسية : ١٩٤	سلانيك : ١٤١
السنة : ١٩ ، ٢١٨ ، ٢٤٥ ، ٢٥٨	سلي : ٣٨٨
السوبات : ٢٠٢	سلستريا : ٢١٤
سوييسكى : ٤٨	سليم الفاتح : ٤٤
سورات : ١٩٧	سليم الثالث : ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ٢٩٦ ، ٢٨٨ ، ٢٦٦ ، ٢٦٢ ، ٢٥٠ ، ٢٤٩
سورل : ٧٢	سليم افندى : ٢٠٢

٢٥٩، ٢٥٠، ٢٣٧، ٢٣٥، ٢٢٧

٢٦٨، ٢٦٧، ٢٦٦، ٢٦٥

٣٢٥، ٢٩٠، ٢٧٠، ٢٦٩

٣٦٨، ٣٥٤، ٣٢٥، ٣٢٠

٣٨٩، ٣٧٨

شاموليون : ٩٢

شيشي : ٢٥١

شبراخيت : ٥٩، ٧٩

آل شليب : ١٢٤

الشركس : ٢٠

الشرق الأدنى : ١٠، ١١، ٧، ٦، ٥

٣٢٢

الشرق الاسلامي : ١٠، ٢٦، ٤٦، ٤١

٩١، ٧٠، ٦٤، ٦٢، ٥٥

٢٣١، ٢٣٠، ١٨٠، ٩٢

شركة الهند : ٣٤١، ٣٣٩، ٣٤٨

٣٥٤، ٣٦٦، ٣٦٩

شارلسكان : ٣٨، ٤٥

شروان : ٣٨٥

الشرقاوى (الشيخ) : ١٤٣

شريف الحجاز : ١٦٩، ١٩٥

ششتار : ٣٤٠

شط العرب : ٣٣٠

شعب (قبيلة) : ٣٣٤

شعوبيه : ٣٨، ٥٠

السودان : ١٦١، ١٥٧، ٩٦، ١٦٥

١٩٨، ١٩٦، ١٩٥، ١٧٢

٢٠٢، ٢٠١، ٢٠٠، ١٩٩

٢٠٣

سولت : ٢٢٥، ٢٢٢، ٢١١، ١٩٦

٢٢٧

السويد ٤٩، ٧١

السويس : ١٧٢، ٨١، ٧٦، ٤٤

٢٩٠، ٢٨١، ٢٦٨، ١٩٦

سيبريا : ٤٩

سيدى فرج : ٢١٧

سيريل لوكاريس : ٢١٥

سيلزيا : ٢٠٥

سيير : ٢١٨

ش

شارمان : ٢٦٠

شارل العاشر : ٢١١، ٢١٨

الشام : ١١، ١٠، ١٦، ١٥، ٢٢، ٢٣

٤٣، ٣٣، ٢٨، ٢٥، ٢٤، ٢٣

٨٤، ٨٢، ٧٥، ٧٣، ٧١، ٦٣

١٢٣، ١١١، ١٠٢، ٩١، ٨٦

١٥٨، ١٥٧، ١٥٦، ١٥٤، ١٥٣

١٧٢، ١٧١، ١٦٩، ١٦٥

٢١٨، ٢١٧، ٢١٥، ٢٠٤

٢٢٨، ٢٢٣، ٢٢٢، ٢٢١

الصفويون : ٢٣ ، ٥٠ ، ٥١ ، ١٩٥
 ٢٢٧ ، ٣٤٤ ، ٣٤٦ ، ٣٤٧
 صلاح الدين : ١١٢ ، ٢٢٥ ، ٢٣٦
 صقلية : ٨٣
 صنعاء : ١٩٦
 الصالبيون : ٣٠ ، ٣٩ ، ٧٣ ، ٢٠٨
 ٢٣١
 صيدا : ٢٦٨
 الصين : ٤٠

ض

ضاهر العمر : ٢٦٧ ، ٢٦٨

ط

طاهر باشا : ١٠٩ ، ١١٧ ، ١١٨
 ١٢٤ ، ٣١٢
 الطان (جريدة) : ٢٣٥
 طبرقة : ٣٠٣
 طرابزون : ٢٦٤
 طرابلس : ١٧٦
 طنطا : ١٤٤
 طوسون : ١٩٣
 طولون : ٤٥ ، ٣١٧
 طيبه : ٩٣

ع

عباس (الشاه) : ٥٠ ، ٥١
 عباس مرزا : ٣٦٢
 العباسيون : ٥٠

شفيق غربال : ٦٨ ، ١١٠ ، ١١٤
 ١٣٣ ، ١٢٧ ، ١٧٤
 شموليون : ٨١
 شمر (بنو) : ٣٣٤ ، ٣٤٥ ، ٣٧٦
 شندر ناجور : ٥٤
 شندی : ٢٠١
 شهاب (آ) : ٢٧٢ ، ٣٧٢
 شهر زور : ٣٥٢ ، ٣٧٨
 الشهنامة : ١٤
 شيعة : ١٩ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٢٨
 ٣٤٥ ، ٣٥٩
 شیراز : ٣٤٠ ، ٣٤١
 شيخ الاسلام : ٢٢٦

ص

صادق اغا : ١٢١
 صادق افندي : ٣٨٢ ، ٣٨٤
 صاري عسكر : ١٠٦
 صالح بك : ٢٧٧
 الصالحية : ٨٠ ، ١٨٨
 الصاوي (الشيخ) : ٢١٠
 صبري (الدكتور محمد) : ١٦٨
 صحرار : ٣٤١
 الصدر الاعظم : ٤٧
 الصرب : ٤٥ ، ٢٠٧
 الصعيد : ٨٠ ، ٨٦ ، ١١٠ ، ١٤١
 صفد : ١٦٧

٢٧، ٣٣، ٤١، ٤٣، ٦٤،
 ١٥٧، ١٨٧، ١٩٢، ١٩٣،
 ١٩٦، ١٩٧، ١٩٥، ٢٠٠،
 ٢١٢، ٢١٥، ٢١٧، ٢٩٥،
 ٢٩٦، ٣٢٣، ٣٢٥، ٣٢٦،
 ٣٢٧، ٣٢٨، ٣٢٤، ٣٣٠،
 ٣٣٨، ٣٥٤، ٣٥٨، ٣٦٦،
 ٣٦٧، ٣٦٨، ٣٧٩، ٣٨٣،
 عربستان: ٣٣٤
 العراق: ١٠، ١٥، ٢٢، ٢٣، ٣٣،
 ٥٠، ٢٢٧، ٢٨٩، ٣٢٢،
 ٣٩٠
 عروج بن يعقوب: ٢٩٥، ٢٩٦،
 العريش: ٨٣، ٨٤
 عجیل: ٣٧٦
 عسكر: ٥٨
 علی بن ابي طالب: ١٨٩
 علی (الأغا): ٢٩٩
 علی. فندی: ٢٤٩
 علی خوجه: ٣١٠
 علی الجزائرلی: ١٢٤
 علی شلبي: ٣٣٠
 علی باشا: ٣٤٠، ٣٤١، ٣٤٢، ٣٧٨
 علی بك: ٢٦٨
 علی الكبير: ٦٨
 علی رضا: ٣٧٤، ٣٧٦، ٣٧٧، ٣٨٣

العصر العباسي الثاني: ١٤
 الخلافة العباسية: ٢٧
 عبد الحميد (السلطان): ٢٥٨
 عبد العزيز: ٢٥٦، ٢٦٣
 عبد القادر: ٣١٧، ٣١٩
 عبد الله الجزار: ١٩٣، ٢٦٨، ٢٦٩
 ٢٧٠، ٢٧١، ٢٧٣،
 ٢٧٤
 عبد الله باشا الطويل: ٣٥٣
 عبد الله كبريلي: ٣٤٨
 عبد العلي الرحمة: ٣٤١
 عبد المجيد (السلطان): ٢٥٢، ٢٥٦
 ٢٦٢، ٢٦٣
 ٣٨٤
 عبد الواد (بنو): ٢٩١
 عبد الوهاب (محمد بن): ١٩٤
 عبدی باشا: ٣٥٣
 عبد الله مينو: ٥٨
 عثمان كتحدا: ٩٧
 عثمان طبل: ٣٤٨
 عثمان باشا البسني: ٢٠٣
 عديلة هانم: ٣٥٠، ٣٥١، ٣٥٢
 عدن: ١٥٧
 عراقی: ٦٢
 العرب: ٣، ٨، ١١، ١٥، ٢٥،

فلاديفستك : ٤٩
فلورنس نيتيجيل : ٢٨٨
فوربس وشركاه : ١٩٥
فلسكس منجان : ١٤٠
فلسكس (المكتشف بالعراق) : ٢٨٨
فنكشتين : ١٨٠
الفور : ٢٠٣
فواريل : ٣١٩
فورييه : ٨٠
فوتانييه (فكتور) : ٣٦٩
الفونج : ٢٠٣
فولني . ٧٤ : ٧٥
فريد لند : ١٨٠
فيينا : ٢٩ ، ٤٣ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨
٤٩ ، ٣٦٥
فيليب : ٢٣٥ ، ٢٣٧
فيلنيف : ٧١ ، ٧٦ ، ٧٢ ، ٨٢
فيليبو : ٨٤
القيومي (الشيخ) : ١٠٠
« ق »
قاسم افندي : ٣٧٤ ، ٣٧٦
القاهرة : ٢٠ . ٧٠ ، ٧١ ، ٨٠ ، ٨١
٨٦ ، ٩٣ ، ٩٥ ، ١٠٨ ،
١١١ ، ١١٧ ، ١١٩ ، ١٢٢ ،
١٣٣ ، ١٣٦ ، ١٦٨ ، ١٧٦ ،
١٩٣ ، ٢١١ ، ٢٣٣ ، ٢٧١ ،
٣٧٨

٤٧ ، ٤٩ ، ٥٣ ، ٥٦ ، ٥٧
٥٨ ، ٥٩ ، ٦٤ ، ٦٧ ، ٧٠ ، ٧١
٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٦ ، ٧٧
٧٩ ، ٨٠ ، ٨٢ ، ٨٣
٨٦ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠
٩١ ، ٩٦ ، ٩٨ ، ١٠٠ ، ١٠٢
١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٦ ، ١٠٧
١١٠ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٤
١٢١ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٣٠
١٣٢ ، ١٣٨ ، ١٤٧ ، ١٤٨
١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٥٩
١٦٩ ، ١٧٣ ، ١٨١ ، ١٧٤
١٠٨ ، ١٩٢ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧
٢١٩ ، ٢٢٦ ، ٢٢٨ ، ٢٢٤
٢٣٠ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٦
٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٤ ، ٢٥٧
٢٦٥ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٨٠
٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٢٨٨ ، ٢٩١
٢٩٢ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣
٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٠٨ ، ٣٠٩
٣١٠ ، ٣١١ ، ٣١٢ ، ٣١٣
٣١٤ ، ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣١٨
٣١٩
فروتيراس : ٢٩١
فروود : ٢٩٣
فلسطين : ٧١ ، ١٥٥ ، ٢٢١ ، ٢٢٥
٢٢٧

قيصر روسيا : ١١٣ ، ٣٣٩
 القيروان : ٩٣
 ك
 كابود سترياس : ٢٠٧
 الكايتيون : ٣٠
 كابان : ٣١٠
 الكاثوليك : ٣٦ ، ٣٨ ، ٢٨١ ، ٢٨٢
 كارلوروستي : ٥٩
 كارلوفتس : ٤٩ ، ٢٤١
 الكاريبيه (الجزائر) : ٤٠
 كاريكال : ٥٤
 كازر : ٢٨٨
 كالييسكوت : ٤٣
 كامبل (اسكندر) : ٣٩٠
 كامبل (باترك) : ١٦٩ ، ١٧٨ ، ٢٢٥
 كامبل (ولیم) : ١٧٢
 كاليه : ٣٧٩
 كانروبرت : ٢٨٧
 كبرال : ٤٣
 كبريلي (أسرة) : ٢٤٢
 الكتاب المقدس : ١٨٩
 كثرين الثانية : ٢١٤
 كترفون (طيشفون) : ٣٢٤
 كنتشك كينارجي : ٥٤ ، ٢٨٢ ، ٢٤١
 ٣٥٢

قاضي القضاء : ٣٣١
 قادن : ٣٣٨
 القانون الفرنسي : ٩٠
 قبان : ٣٣٤
 القبانيه : ٣٦٠
 قبطان باشا : ٣٤٦
 القبيقول : ٢٦٥
 قره جورج : ٢٠٧
 قره جولان : ٣٣٥
 قره مصطفى : ٣٣٥
 قزوين (بحر) : ١٠ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ١٧٩
 القسطنطينية (انظر الاستانة)
 القشيم : ٣٤٠
 القصبة (قصر) : ٣٠٨
 قطن : ٣٤
 القطيف : ٣٣٠
 قلعة القاهرة : ١٣٥ ، ١٤٩ ، ١٦٠
 القناطر الخيرية : ١٦٠
 قنال السويس : ٩١
 قندهار : ٥١
 القرم : ٣٩
 القرغيز : ١٠ ، ٤٩
 القوقاز : ٥١ ، ٥٢ ، ٢١٤ ، ٢٨٨
 قونية : ١٤٥ ، ١٧١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٦
 القورنة : ٣٤٠

كمتشكا : ٤٩
 الكنجج (نر) : ٥٢
 كنجليك (الكسندر) : ٦٠
 كنجوود : ٣٨٨
 كندی : ٣٢٦
 الكنيسة اللاتينية في بكين : ٣٩
 الكنيسة : ٣٠٤
 الكمية : ٣٥٠ ، ٣٦٣
 كوت : ٣٦٠
 كوتاهيه : ٢٢٣ ، ٣٥٣
 كوريس : ٢٠٦
 كوستي : ١٦٤
 كوشليه : ١٥٨
 الكوابرا : ٣٧٤
 كولومب : ٤٠
 كوله من : ٣٥٠
 كونتية : ٨٠ ، ٨١ ، ٩٢
 الكويت : ٣٦٦
 كويسنجق : ٣٣٤ ، ٣٣٨

ل

لا برتنيير : ٣١٦
 لاتين (ولائنية) : ٤٦ ، ٧١ ، ٢٧٢
 لافوتتين : ٣٣
 لام (بنو) : ٣٣٤ ، ٣٤٥
 لامرتين : ٢٣٥ ، ٢٣٦
 لاهور : ٥١
 لاوند : ١٦٤

كتشى بك : ٢٤٦ ، ٢٤٢
 كدرنجتن : ٢١٣
 كراسنوفدسك : ٤٩
 كربلاء : ٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٣٤٧ ، ٣٥٩
 ٣٨٦ ، ٣٦٠
 السكرج : ٣٥١ ، ٣٥٠ . وانظر ممالك
 العراق .
 كردستان : ٣٢٣ ، ٣٢٨
 كركوك : ٣٣٥ ، ٣٣٧ ، ٣٧٨
 كرمان : ٥١
 كرمشاه : ٣٤٦ ، ٣٦١
 كريت : ٤٨ ، ٨٢ ، ١٦٥
 كسوف : ٤٥
 كسنى (الكاتبين) : ١٥٨ ، ٣٦٩ ، ٣٨٧
 ٣٩٠
 كشران : ٢٠٨
 الكشف الامريكى : ٣٨
 الكشف الاسيوى : ٣٩
 الكعبة : ١٦٩
 كليبر : ٣٠٦
 كلديا : ٣٢٤
 كلفن : ٢٠٥
 كلكتا : ٥٤
 كلوديوس جيمس رتش : ٣٦٧
 كلوزل : ٣١٨ ، ٣١٩
 كليبر : ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٩٢ ، ١٠٧
 الكاليون : ٢٤٣ ، ٢٥٤
 كيو فورميو : ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٧
 كمالوك : ٣٩

مافروكروداتس : ٢٠٩
 مترنيخ : ٢٦٢ ، ٢٦١ ، ٢١٠ ، ٧٠
 متلين (جزيرة) : ٢٥٣ ، ٢٥٨ ، ٢٩٥
 المتنبى : ١٩ ، ١٤
 المجر : ٢٩ ، ٣٢ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٨ ،
 ٣٠٨ ، ٢٤١ ، ٤٩
 مجرد (نهر) : ٣٠١
 مجلس أعيان السلاط : ٣٣٢
 مجلس الشورى : ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩
 مجلس نواب في تركيا : ٢٥٤
 مجلس النواب البريطاني : ٦٣
 المجمع الفرنسي : ٧٥ ، ٤٣
 المجموعة الأوروبية : ٣٧٩
 محمد أمين : ٣٣٨
 محمد باشا الأبيض : ٣٣٥
 محمد باشا : ٣٨٥
 محمد تقي : ٣٢٧
 محمد رشيد باشا : ٣٨٥
 محمد بن سعود : ١٩٠
 محمد بن شاذ : ١٨٩
 محمد بن عبد الوهاب : ١٨٩ ، ١٩٠
 محمد رفعت : ٧٨ ، ٩٣
 محمد الرابع : ٤٧
 محمد علي : ٢٩ ، ٥٧ ، ٦٣ ، ٧٠ ، ٨٩
 ١١٣ ، ١٠٩ ، ١٠٧ ، ٩٨ ، ٩١
 ١١٩ ، ١١٨ ، ١١٧ ، ١١٦
 ١٢٦ ، ١٢٤ ، ١٢٢ ، ١٢٠

لبنان : ٢٦٧ ، ٢٢١ ، ٢١٨ ، ٩٢
 ٢٧٢ ، ٢٧١ ، ٢٧٠ ، ٢٦٩
 ٣٦٩ ، ٣٥٤ ، ٢٨٢
 لندن : ١٢١ ، ١٢٠ ، ٨١ ، ٧٠ ،
 ٢٥٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٣ ، ٢١٨
 ٣٩٢
 لويس التاسع : ٢٩١ ، ٧٤
 لويس الرابع عشر : ٤٧ ، ٣٠٤ ، ٢٧٢
 لوى فيليب : ٢٢٤
 لورستان : ٢٣٤ ، ٣٤٦
 لوييانا : ٧٦
 ليبيا : ٢٩ ، ٤١ ، ٤٣
 لير : ٩٢
 ليننتز : ٧٤ ، ٤٧
 ليفانت : ٢١٦
 ليفورنيا : ٣١٤
 لينان : ١٥٩
 ليون : ٣٠٣

م

مارتن لوثر : ١٨٩
 مارتنيك : ٣١٦
 ماردين : ٣٦٠ ، ٣٨٥
 مارمون : ٣١٣
 ماكنيل : ٣٩٠
 مالطة : ٢٩ ، ١٢١
 مالك (شيو) : ٣٣٤

محمود خان : ٣٤٦	١٣١٠١٣٠٠١٢٩٠١٢٧
نخا : ١٧٩	٦١٣٧٠١٣٦٠١٣٥٠١٣٣
مدحت باشا : ٣٨٥٠٣٨٤٠٣٤٢	٦١٤٢٠١٤١٠١٤٠٠١٣٩
٣٩٢	٦١٤٦٠١٤٥٠١٤٤٠١٤٣
مدراس : ٥٤	٦١٥٠٠١٤٩٠١٤٨٠١٤٧
مدرسة المعلمين بباريس : ٧٦٠٧٥	٦١٥٦٠١٥٥٠١٥٤٠١٥٣
المدينة : ٣٧٧٠١٩٣٠١٧٥٠١٦٨	٦١٦١٠١٦٠٠١٥٩٠١٥٧
مراد (البابى) : ٢٩٩	٦١٦٦٠١٦٥٠١٦٤٠١٦٣
مراد الثانى : ٦٨٠٥٩٠٥٧٠٣٢	٦١٧١٠١٧٠٠١٦٩٠١٦٧
مراد بك : ٣٣٠٠١٠٠٠٨٦	٦١٧٩٠١٧٧٠١٧٣٠١٧٢
مراد الرابع : ٣٣٣٠٥١	٦١٩٣٠١٩٢٠١٨٧٠١٨١
مرتضى باشا : ٣٣٥	٦١٩٨٠١٩٧٠١٩٦٠١٩٥
المرتبة : ٣٥٣	٦٢٤٢٠٢٣٨٠٢٠٠٠١٩٩
مرسلينا : ٣٠٦٠٣٠٣٠٣٠٢	٦٢٥٢٠٢٥١٠٢٥٠٠٢٤٦
مرلبره : ٣٠٥	٦٢٧٠٠٢٦٩٠٢٦٣٠٢٥٥
المسألة السورية : ٢٢١	٦٣١١٠٣١٠٠٢٧٩٠٢٧١
المسألة الشرقية : ٦٢٠٤٩٠٤٧	٣٨٤٠٣٦٩٠٣٦٨٠٣١٤
٢١٩	محمد على رضا باشا : ٣٧٤
المسألة المصرية : ١١٠٠٨٧٠٧٠	محمد فريد أبو حديد : ١٣١
٢١٧٠١٧٤٠١٢١	المحمرة : ٣٨٣
مست : ١٢٦٠١١٣٠١١٢٠١١١	محمود الثانى : ٢١٦٠٢١٥٠٢٠٩
١٩٨	٢٥٨٠٢٥٢٠٢٥١٠٢٥٠
مستغانم : ٣١٩	٣٨٤٠٢٧٢٠٢٧١٠٢٦٩
المستنصر : ٣٧٤	محمود شاكر : ١٤
مسقط : ٣٤١٠٣٣٦٠١٩٧٠٣٤	محمود الغورى : ١٥
مسولنجى : ٢١٠	المحمودية (قناة) : ١٦٠
المسيحية : ٢٧٩٠٢٥١٠١٣٠٠٨	الحيط الهندى : ١٧٩
٢٨٠	

١٥٢ ، ١٦٣ ، ١٧٥ ، ٢٥٠

٢٦٦

ممالك العراق : ٣٢١ ، ٣٤٩ ، ٣٥٠

٣٥٢ ، ٣٥٣ ، ٣٥٤ ، ٣٥٥

٣٥٦ ، ٣٥٧ ، ٣٧٠ ، ٣٧١

٣٨١ ، ٣٨٤

المنتقى : ٢٣٤ ، ٢٤٥ ، ٣٥٢ ، ٣٥٨

منج (أسرة) : ٤٠

منجان : ١٢٢

مندالى : ٣٦٠

منشيكوف : ٢٨٥ ، ٢٨٦

المنصورة : ٧٤

المهدى : ١٠٠

المهدية : ١٩٤

الموارنة : ٢١٨ ، ٢٢١ ، ٢٥٤ ، ٢٦٥

٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٨٢

المورة : ٤٥ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٨٢

١٦٢

مونج : ٨٠ ، ٩٢

الموحدون : ١٩

ن

نابليون : ٣٧ ، ٦٠ ، ٧٠ ، ٧٢

٧٣ ، ٧٥ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٨٣

٨٥ ، ٩٢ ، ١٠٠ ، ١٠٢

١٣٠ ، ١٤٢ ، ١٤٨ ، ١٧٥

١٧٦ ، ٢٦٨ ، ٣١٤ ، ٣١٧

نابيير : ٢٣٧

نادر شاه : ٣٤٨

مشير العرض الهمايوني : ٢٦٥

مصر : فى معظم صحائف الكتاب

تقريباً

مصطفى باشا : ٣٥٣

مصطفى الثانى : ١٣٩

مصطفى نورى باشا : ٣٨٥

معن : ٢٧٢

معهد القاهرة : ٩٢

المغول : ١٠ ، ٢٤ ، ٢٧ ، ٣٩ ، ٥٢

٣٢٦

المغرب : ١٦ ، ٢٩٠ ، ٣٢٣

المقتطف : ١٤

مقدونيا : ٧٤

مكة : ٢٦ ، ١٦٨ ، ١٧٥ ، ١٩٣

٢١٥ ، ٢٨٨ ، ٣٦٦ ، ٣٥٩

ملا كوف : ٢٨٨

الملايو : ٧١

مليورن : ٢٣٣ ، ٢٣٦ ، ٢٣٨

ملك المتاريس (لوى فيليب) : ٢٣٦

ملدافيا : ٢٦٨ ، ٢٥٤

الممالك : ٣٠ ، ٣٤ ، ٣٧ ، ٤٤

٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٧

٧٩ ، ٨٦ ، ٨٩ ، ٩٦ ، ٩٥

٩٨ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٥

١٠٩ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١١٣

١١٤ ، ١١٥ ، ١١٨ ، ١١٩

١٢٠ ، ١٢٢ ، ١٢٧ ، ١٢٨

١٣٣ ، ١٤٠ ، ١٤٩ ، ١٥٠

هنكاو : ٣٩
هولنده (والهولنديون) : ٢٢٥ ، ٤١
٢٤٩ ، ٣٤٢ ، ٣٠٥ ، ٣٠٤
اهيلينيون (الحركة الهيلينية) : ٦ ،
٢٠٨

- و -

واترلو : ٣١٧ ، ٢٣٥
وستفاليا (معاهدة) : ٣٦
وليم كاميل : ١٧٣
الوهايون : ١٤٩ ، ١٦١ ، ١٦٨ ،
١٧٥ ، ١٩٢ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ،
٣٥٤ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٠٨ ،
٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦١
وهران : ٣١٨ ، ٣٠٩
ويلسن (الكابتن) : ١١٣

ى

اليابان : ١٦٦ ، ١٨٥ ، ١٨٧ ، ٣٦٢
ياسى : ٢٤١
يشك : ٢٣٩
يعقوب (الجنرال) : ٦٨
اليهود : ٦ ، ٦٠ ، ٢٧٥ ، ٣٠٠
يوجين (الامير) : ٤٨
اليونان : ٥٠ ، ٦٢ ، ٧٧ ، ١٣٠ ،
٢٠٤ ، ٢٠٦ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ،
٢١٠ ، ٢١٢ ، ٢١٤ ، ٢٤٩ ،
٢٥٠ ، ٢٧٢

نافارين : ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢٢٧
نامق باشا : ٣٨٨
نيقولا (قيصر روسيا) : ٢١٢ ،
٢٢٤ ، ٢٢٩

النجف : ٣٨٦
النسطوريون : ٧٩
نشلرو : ٢٣٤
النسا والنساويون : ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٩ ،
٧٠ ، ١٧٥ ، ٢٠٦ ، ٢١٩ ،

٣٨٠ ، ٢٣٦

تويوزل : ٤٩
النيل : ٨٢ ، ٧

هـ

هابسبرج (آل) : ٣٦ ، ٤٥
هارفورد جونز : ٣٥١
هايدو (المؤرخ) : ٣٠١
هيريت (المسيو) : ٢٤٩
هرمز : ٤٤ ، ٣٣٠ ، ٣٤١
الهند : ١٥ ، ٤١ ، ٤٣ ، ٤٥ ، ٥٠ ،
٥٢ ، ٥٣ ، ٥٥ ، ٦٠ ، ٨٦ ،
٧٨ ، ٩٠ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ،
١٥٨ ، ١٦٣ ، ١٧٢ ، ٢٠٣ ،
٢١٨ ، ٢٣٩ ، ٣٠٢ ، ٣٢٩ ،
٣٣٠ ، ٣٦٩ ، ٣٧٠ ،
٣٧٣ ، ٣٨٢ ، ٣٧٧ ، ٣٩٠ ،
٣٩٢ ، ٣٩١
هنكار اسكلى : ٢٣٢ ، ٢٧٤

ص	س	خطا	صواب
٤	١٩	أصلية	أصلية
٧	١٠	الفا تحون	ليسوا هم الغزاة الفاتحين
١٤	٣	بعى	نما
١٥	٢١	الغورى	الغزوى
٣٦		السطر الاخير : المسامح	الملح
٤١	١٤	امم الاسلام	امم الاسلام الشرقية
٤٣	٥	يصلون	يصلوا
٤٧	١٩	بدأ	بدأ
٤٨	١٩	الواحدة بعد الاخرى	الواحد بعد الاخر
٥٠		الهامش فارس الصفوين	فارس . الصفويون
٥٤	١٢	مراكزا	مراكز
٥٥	٢	توشك تسقط تركيا	توشك تركيا
٦٢	٨	عن عرابي	من عرابي
٦٧	٨	لا تكاد تقاس بها	لا يكاد يقاس بها
٦٩	٣	ضرورة	ضرورة
٧٧	١٧	لائقاز	لائقاز
٧٧	٢١	توافقوا	توافقوا
٧٨	٢٢	يحتاجون	يحتاجوا
٨٣	٨	استقلال	استقلال
٨٤	١	أمير لايا	اميرالا
٨٤	١٧	١٧٨٩	١٧٩٩
٨٧	١٠	تم اخراج	وتم اخراج
٩٢	٢٣	insuti	institut
٩٨	٨	فيأخذون	فيأخذوا
٩٩	٢٣	انها	انما
١٠٠	٩	شكواه الشعب	شكواه
١٢٠	٨	تقضى	تقضى
١٢٠	١٤	contrairio	contraire
١٢٠	٢١	co dite	conduite
١٤٠	١٥	اذا	اذ
١٤٢	٣	استخدمهم الى	استخدمهم على
١٤٣	٨	حقيقية	حقيقا
١٤٦	١٧	محمد عليا	محمد عليا

— ٤٦٦ —

صواب	ص	س	خطأ
تميد	١٥٣	١٩	شيدا
اندروا	١٥٦	١٤	اندرو
هذه الشكاوى	١٥٦	١٥	هذا الشكاوى
محمدا عليا	١٥٦	١٦	محمد عليا
والقناطر	١٦٠	٢٢	والقناطر
ونى	١٦٠	٢٣	بى
عبيد	١٦٣	٢٢	وعبيدا
officiel	١٧١	هامش	Afficiel
بعد	١٨٠	٢٠	تعد
بأن سبيلها	١٨٦	١	سبيلها بأ
انفصالية	١٩١	٧	انفصالية
ثورات	٢٠٣	١٩	ثورات
خير الدولة	٢٠٦	١٤	غير الدولة
١٨٣٠	٢١٢	٢٣	١٨٢٠
الصالح	٢١٨	٦	للصالح
الامد	٢٣٤	١٦	الامل
بلبرستون	٢٣٥	١٠	بلبرستون
عقاله	٢٣٦	٣	مقاله
يتخرج	٢٤٩	١٣	فيخرج
سليما	٢٤٩	١٥	سليمان
الازمات	٢٥٠	٢٣	الازمان
الراى	٢٥٦	١٧	الرى
إبالات	٢٦٥	١٧	أليات
يؤدوا	٢٧١	٢٢	يؤددوا
المقربين	٢٨٥	١٧	المقربين
مشينة	٢٨٧	١٨	مشيته
المساواة	٢٨٩	٧	المساوة
سقوط الاندلس	٢٩١	هامش	سقوط الاسلام
جنحوا	٢٩٢	٢٠	جنحو
وتنتائجها	٣٢٢	١١	ولها ونتائجها
مهاجرو الاندلس	٣٩٣	هامش	مهاجرو المغرب
وقد كاتب	٣٢١	١	وقد كانت

—٤٦٧—

صواب	خطأ	ص	س
في ظل الاسلام	ظل الاسلام	٩	٣٢٥
أوحى	أوجهها	١٩	٢٢٩
راجل	راكب	٢٠	٣٥٩
لهذا وأهم	ولهذا أنهم	٥	٣٨١



لجنة المراجعين للنشر والاعمال

